الأعمال الكاملة

صلاح عبد الصبور

●● نشرت الدراسات والمقالات التالية فى الكتب الآتية :

المقـــال	اسم الكتاب
ـ الوقوع فى الحب	رحلة على الورق
ـ طفل اسمه الحب	رحلة على الورق
ـ الطريق الى الحب	رحلة على الورق
ـ الحب منذ ١٠٠٠ عام	رحلة على الورق
ـ لا تقولى لصديقتك انه يحبنى حبا افلاطونيا	رحلة على الورق
ـ هذا الرجل ليس قديسا	أصوات العصر
ـ يسقط الحزن	رحلة على الورق
ـ الايمان الجديد	أصوات العصر
ـ مجاذيب باريس ومجاذيب القاهرة	أصوات العصر

المقـــال	اسم الكتاب
ـ النقطة السوداء	رحلة على الورق
ـ المسافر الى الله	رحلة على الورق
ـ حتى نقهر الموت	حتى نقهر الموت
ـ نحو جامعة عصرية	رحلة على الورق
ـ كيف أصبح الشاعر اكسلانسا	نبض الفكر
ـ يسألونك عن بقرة الهنود	نبض الفكر
ـ حوار لم يدر	نبض الفكر
ـ الحبال الأغريقية	نبض الفكر
ـ رفقا بالفن	رحلة على الورق

• الحُبّ

الانسان
والحب
والجسد

ليس هناك « حب الروح » و « حب الجسد » ·· هناك « الحب » فقط !

حين تصبح انسانا ·· تستطيع أن تمارس الحب !!

الانسان آلة كبيرة ، مكونة من أجزاء هامة ، وأجزاء أقل أهمية · فالأجزاء الهامة كالرأس والقلب اذا فسدت فليس لها قطع غيار ولا يمكن أن تسير الآلة بدونها · ولكن هنا أجزاء صغيرة أقل أهمية مثل الأصابع والزوائد اذا فسدت فمن الممكن أن تسير الآلة بدونها ·· مع عطل جزئى صغير فى وظائفها ··

والدم بعد ذلك هو زيت الآلة الذى اذا فرغ أو احترق توقفت الآلة ··

وميزة هذه الآلة ـ التى هى الانسان ـ أنها تؤدى وظائفها تلقائيا ، وأنها تستفيد من تجارب الآلات السابقة ، أى البشر السابقين واستفادتها من تجارب الآلات المنقرضة هى التى تكون العقل ·· فالعقل خلاصة خبرات الجنس البشرى · وحين لمس أحد أجدادنا الأقدمين النار فوجدها حارقة لم يلمسها بعد ذلك ، ونقل هذه الخبرة الى ابنه فحفيده حتى وصلت الينا ، ومعرفة أن النار حارقة خبرة

بسيطة أولية ، وهناك خبرات مركّبة أجرى بعضها فى المعـــامل وتكاثفت فيها الحواس مع الخبرات السابقة ٠ فأدى هذا التكاثف الى نتائج باهرة ٠٠

ومن حسن الحظ أن الانسان قد حفر الخبرات السابقة على الحجر ودونها على الورق وشكلها من مزج عناصر الطبيعة ٠٠ ومن هذه الخبرات يتكون عقلى وعقلك وجميع العقول ٠ أما الانسان الأول فقد كان بلا عقل ، لأنه كان بلا خبرة ٠

والآلة الكبيرة التى هى الانسان آلة ألقيت فى عالم مهجور ملىء بالمخاوف والقوى الغامضة والظاهرة ٠ وكان عليها أن تحمى نفسها من الفساد المفاجىء ومن الخوف ومن الانقراض فتحركت تبحث عن الطعـــام والظل والكهف الذى يمنع الوحوش والهوام والصواعق ، وكانت حركتها أول الأمر حركة هوجاء ، فلما اقترنت الحركة بالخبرة أصبحت حركة عاقلة ٠٠

مشـــروع انســـان

فالانسان اذن قد استفاد من رحلته الطويلة فى العالم قوتين جديدتين ، هما قوة الخبرة التى نسميها العقل ، وقوة الحركة التى نسميها الغرائز أو النزعات ، وكلاهما ينبعان من الجسم ويصبان فيه ٠٠

والجسم البشرى بلا خبرة أو حركة هو فى الواقع « مشروع انسان » ٠٠ فاذا اكتسب الخبرة والحركة أصبح انسانا ، وحين يصبح انسانا يستطيع أن يمارس الحب لأنه من صميم انسانيته ٠٠

أول ما تهدف اليه حركة الانسان هى حفظ النوع البشـــرى ٠ ولما كانت الآلة البشرية آلة متوالدة فقد عرف الانسان بالبداهة سبيله الى حفظ النوع ٠٠

والحب ، رغم كل ما أحيط به من هالات وأساطير ٠٠ حركة جسدية تهدف الى حفظ النوع ، وليس هذا حطا من قدره أو اهدارا لقيمته ، بل هو تكريم له لأن حفظ النوع هو أسمى الحركات الانسانية، وكان يجب لكى تتم عملية التوالد أن ينقسم البشر الى نوعين اناث وذكور ، وهذان النوعان يمارسان معا تدعيم الحياة والمحافظة عليها، وليس لنوع منهما امتياز على الآخر بل هما شريكان ، النصف بالنصف ، فى العبء والمسئولية ٠

الاختيار شـــرط الحب ٠٠

ولما كان البشر كثيرين ، يملأون وجه الأرض ٠٠ كان لابد ان يزدوج كل اثنين لكى يمارسا هذه المهمة ٠ وكان لابد أيضا أن يختار كل منهما الآخر ٠٠

والاختيار شرط الحب ٠٠

فالحب اذن هو أن يختار جسمان بشريان كلا منهما الآخر بمحض حريتهما لكى يمارسا الحركة الانسانية ٠ ولكى يصبح كل منهما انسانا بدلا من أن يكون « مشروع انسان » ٠

أرأيت كم هو عظيم ونبيل الغاية هذا الحب ؟!

ان تاريخ الحب هو تاريخ تنظيم عملية الاختيار والازدواج ، وبعد كثير من التخبط الشريف فى سبيل تنظيم عملية الاختيار أوشك الانسان أن يهتدى الى النظام الملائم ٠ وفى ظل هذا النظام الملائم توطد مركز الانسان فى الأرض ٠

ومظهر النظام الملائم هو الزواج ٠٠ ولكنى أقصد الزواج الصحيح الذى يولد وينمو فى ظل الاختيار وتحت شمسه ٠٠

وسوف يكون الجيل القادم أسعد منا لأنه سيختار فى حرية أكثر وفى أصالة ووضوح ٠٠

ليس الحب اذن وهما ولا تصوفا ، وليس لهوا أو مرحا ، وليس سهر الليالى والبكاء • ولكنه نشاط الجسد الانسانى فى سبيل أن يقيم الحياة ويدعمها ويزيد من ثرائها ••

ولا شىء أدعى للفخر من أن تحس انك حين تحب انما تحب لنفسك وللناس وللعالم ••

ولا شىء أجمل من أن تنظر فى عينى حبيبتك فترى الدنيا •• ورغبة الناس جميعا فى الخير والسعادة ••

اننا نعيش ونتنفس ونكتب ونعمـــل ونقاتل ونموت لكى نحفظ النوع •• لكى نحب ••

حب الجســـد وحب الروح ••

من العبث اذن أن نتحدث عن الجسد والروح •• وعن الحب الجسدى والحب الروحى •• وأيهما المشروع وأيهما غير المشروع لأننا فى خلال رحلتنا • قد ألقينا بكلمة الروح والحب الروحى من النافذة فهى خرافة كبرى ككثير من الخرافات يسلمها جيل الى جيل وهى محنطة مكفنة فى خرافات أخرى صغيرة • وليس لدينا بعد ذلك الا كلمة واحدة هى الحب •• دون وصف أو تحديد ••

والحب المشروع هو مايهدف الى تدعيم الحياة •• والحب غير المشروع هو ما يهدم الحياة • ولما كانت الأسرة هى ضـــمان استمرار الحياة فان الحب الذى يبنى أسرة حب مشروع ، والحب الذى يهدم أسرة حب غير مشروع ••

لصـــوص الحب ..

فالرجل والمرأة اللذان يتقاربان لكى يعرف كل منهما الآخر ، ثم ليختارا بعد ذلك أن يزدوجا لكى يحفظا النوع يمارســان حبا مشروعا .. أما الرجل الذى يتسلل الى أسرة لكى يهدم الحياة أو المرأة التى تنتزع رجلا من أسرة فهما لصان ، ولصان من أخطر أنواع اللصوص . وهما يسرقان منك ومنى ومن الناس جميعا لأنهما يسرقان من الحياة ..

وهناك لصوص أشد خطرا من هؤلاء ، وهم أولئك الذين يفصلون الحب عن الحياة ، وينزلون من قدره ويجعلونه عبثا ولهوا ولعبا . ومثل هؤلاء كمثل الذى يغسل ثيابه القذرة فى بئر الماء الذى تشرب منه مدينته ..

ان هؤلاء الناس يجعلون الحياة ملوثة وســخيفة الى حد لا يطاق ..

الذين يمارسون لحظة استمرار الحياة ..

وكثيرا ما تتساءل الفتاة : أنا أحبه ! فهل أعطية جسدى ؟!

وهذا السؤال لا معنى له لأن الحب ليس فيه عطاء . فلا الفتاة تعطى جسدها للرجل ، ولا الرجل يتقبل جسدا من الفتاة ، والحقيقة أنهما هما الاثنان يمارسان لحظة استمرار الحياة ، كل منهما بما يستطيع ..

ولكن السؤال الخطير هو « هل يجوز أن يمارس الشباب هذه اللحظة قبل الزواج ؟ »

وكثير من الناس – فى هذا الجيل القلق – يقولون نعم . وأكثر منهم الذين يمارسونها دون كلام ..

وهذا الجيل ثائر .. ثائر على التقاليد ، وعلى وعورة طريق الحياة وعلى التعقيدات الاجتماعية .. وأغلبه يعانى من الفقر وقلة التجربة وضعف الحيلة ..

هذا الجيل جيل الشهداء ٠٠

ان شبابه ممزق بين الواقع الذى يعيشه وبين الحلم الذى يراوده وبين الصورة التى ترسمها له ثقافته ٠

ان كلا منهم يقول « أريد أن أكون طيبا وخيرا ٠٠ ولكن ، أريد أن أنفع الحياة ولكن الحياة لا تريدنى » ٠٠

ليس فيهم شرير واحد ، ولكنهم جميعا عاجزون ٠ فمن منا لا يطمح أن تكون له أسرة وبيت وزوجة وأولاد ؟ ٠٠ من منا لا يحن الى الاستقرار والهدوء ٠٠ ثم الانتاج ، ولكن كل شيء معقد ملتو كذيل الثعبان ٠ له تقاليد وأعباء ٠٠ فالخطوبة عبء ، وعقد العقد عبء ، وبناء الأسرة عبء ، وتأمين الأسرة من الانهيار عبء ٠٠

اذن فلا زواج ، ويقود هذا الى رفض الاعـــتراف بالزواج وأهميته عند بعض الشباب ، ولكن رفض التقاليد ليس معناه رفض المجتمع ، وطقوس الزواج ليست غاية فى ذاتها ، ولكنها مجرد اعلان للناس أن فلانا وفلانة قد اختار كل منهما الآخر لكى يمارسا استمرار الحياة ٠ والمجتمع يعرف حينئذ أن انسانين قد اختارا أن يؤديا خدمة من أشرف الأبواب ٠٠

وهناك نظم اجتماعية هى أكبر ما حققه الانسان من مكاسب طيلة حياته ، ومنها الزواج ٠٠ لا يعنينى أن تتم على يد المأذون أو القسيس أو الكاهن البوذى أو مسجل العقود ، ولكن الذى يعنينى أنه النظام الوحيد الذى يشكل الأسرة ويمكن الانسان من استثمار انسانيته ٠ وأنت تستطيع أن تسخط على المأذون والمهر وغـــلاء حاجيات الحياة ، ولكن لا تسخط على الزواج ٠

عابثـــون ٠٠ أو ثوار ٠٠

ان الذين يمارسون « لحظة استمرار الحياة ، دون زواج اما عابثون واما ثوار ٠ أما العابثون فهم عادة لا يحترمون أى قيمة اجتماعية حتى ولو ثبت لهم صلاحيتها ٠ وهم يكرهون المجتمع فى

قرارة نفوسهم ولا يحسون أنهم يدمرونه لأن العبث يولد الكســـل والكسل يولد الغباء ٠

أما الثوار الذين يبالغون فى الشعور بذواتهم ٠٠ ويغفلون عن الاحساس بالمجتمع ، ويناصبونه العداء مدفوعين بالنوايا الطيبة والرغبة الصادقة فى تغييره فانهم يســـتحقون الشفقة ، ذلك لأن ثورتهم على المجتمع ثورة غير عـــاقلة ٠ وهم يقولون فى قرارة نفوسهم : ان كلا منا يحب الآخر فما شأن المجتمع بنا ؟ ٠٠

ولكن هؤلاء قد فاتهم أن الحب ليس غاية فى ذاته ٠ ولكنه وسيلة لحفظ النوع وتدعيم المجتمع ٠ ما أحوجنا الى تصحيح نظرتنا للحب ٠٠ ينبوع الحياة السعيدة ، ودليل نضج الانسان ورغبته الصادقة فى أن يرد للحياة بعض الدين الذى أسلفته له ٠٠

صباح الخير ١٩٥٧/١/٢٤

أول حب
لعبد الحليم

كان ذلك منذ تسع سنوات ·· وفى الزقازيق ، وكان عبد الحليم الصغير الوسيم مدرسا للموسيقى فى احدى مدارس البنات وكانت الأبلوات يعاكسنه كثيرا ·· ولكن عبد الحليم كان منصرفا عنهن ، وعن الجميع الى شرقاوية صغيرة ذات شعر احمر ··

أما كيف عرفت ذلك ، وعبد الحليم من يومه كتوم لا يبوح لأحد بسر ، فهذه هى القصة ··

كنا نلتقى كل يوم ·· أمر على عبد الحليم فى منزله ونخرج ·· وكنت ألاحظ أن عبد الحليم ينتظر حتى تخرج فتاة جميلة تشبه انجريد برجمان من البيت المجاور لبيته ، ثم ننطلق سويا فى الطريق ·· من شارع الحمام الى شارع البوستة ·· الى المنتزه ، ثم نقف بعض الوقت ، ويتذرع عبد الحليم بعذر ما لكى يقنعنى بالوقوف والانتظار حتى تخرج الغادة ·· فنذرع نفس الطريق ايابا الى شارع الحمام ، وبيننا وبين الغادة ذات الشعر الأحمر خطوات قليلة ··

وفى يوم ما كشفت سر عبد الحليم ··

كنا نمشى هو وأنا وبعض الأصدقاء على شاطىء مويس ، وقلت أنا شعرا ، وغنى عبد الحليم ، وكان فى غنائه شجن ، وفى صوته انفعال ، وكان يغنى حياتى أنت لعبد الوهاب ، ولما تفرق

الصحب جلسنا فى مقهى فى جنب شجرة على ضفة بحر مويس الوديع ، وأخذ عبد الحليم يحكى ·· ويحكى ··

أما الحكاية فقصة حب مثل قصـــص حبنا جميعا ·· بنت الجيران ·· والنظرات الساهمة ، والغناء ودبيب الحب الأول فى القلب ··

أما كيف انتهت فأنا لا اعلم الا بعض الحقـــائق ·· جـاء عبد الحليم الى القاهرة ليصنع مستقبله العظيم ، وتزوجت الحسناء ذات الشعر الأحمر وكتبت أنا هذه القصة ··

ومعذرة لصديقى عبد الحليم ··

صباح الخير ١٩٥٧/٥/٩

الفتاة الأولى فى حياة عبد الحليم ..
تكتب الى صباح الخير ..

منذ اسبوعين كنت أراجع مقالا لعبد الحليم حافظ يعلن فيه براءته من الحب ..

وكتبت تعليقا على هذا الكلام وقلت ان الحب الأول لعبدالحليم كان منذ سنوات طوال ، وفى مدينة الزقازيق . وان الوجه الذى تعلق به عبد الحليم كان لشقراء صغيرة حمراء الشعر ، ولم أكن أعلم اذا كان عبد الحليم قد نسى هذه القصة فى زحام مجده أم مازال يتذكرها ..

ولكن صاحبة القصة نفسها كانت تذكرها وتعيش على فتات ذكرياتها .. فقد كتبت الى بعد أن قرأت قصتها منشورة فى « صباح الخير » فى لهجة بسيطة عميقة تقول :

صباح الخير ..

أنا قارئة مواظبة لـ « صباح الخير » ، وأنا أيضا الحب الأول لعبد الحليم حافظ الذى كتبت عنه ، ولكن الحب ليس مثل قراءة الصحف .. الصحف اذا أرادها الانسان وجدها .. يكفى أن يمد اليها يده .. ولكن الحب ليس ملك أيدينا ، وهكذا لم يدم لى حب عبد الحليم . فى الماضى كان يغنى لى ويقول حياتى أنت ، وكنت سعيدة وكان عبد الحليم لى ..

وقد مضت سنوات بعيدة ، ولكنى لا أسمع الآن صوته الا فى الراديو ، ولا أعلم لمن يغنى .. ومنذ أربع سنوات قابلته وسلمت

عليه مهنئة ، ولكنه سلم من غير كلام بمنتهى السرعة والاختصار كأننى عابرة سبيل التقى بها صدفة ٠٠ أهكذا يفعل المال والشهرة بالرجال ؟!

ولكنى لست غاضبة أو حزينة ، بل انى دائما أدعو الله أن يمتعه بالصحة ٠٠ والمال والشهرة أيضا ليكون سعيدا ٠٠ وكل ما أطلبه أن لا ينسى حبه الأول وأن يغنى أغنية وحيدة للشقراء ذات الشعر الأحمر ، ولو للذكرى ٠

وأخذت أفكر فى هذا الخطاب ، وتساءلت ٠٠ هل صاحبته على حق فيما تطالب به عبد الحليم ؟ وهل تغير عبد الحليم حقا ٠٠ غيرته الشهرة والمال ٠٠

ان أى انسان لابد أن يتغير اذا تغيرت ظروفه وقلب الانسان هو أقل الأشياء ثباتا ، ولو عرفنا قصة حياة أى شاب عادى ٠٠ لا عبد الحليم حافظ لوجدنا أن له فى كل سن مر بها حبا عميقا ٠٠ حبا فى الصبا ، وحبا فى المراهقة ٠٠ وحبا فى الشباب ٠٠ و ٠٠ و ٠

ولكنها تطالبه بالذكرى ، والمرأة الناضجة لا تطالب بالذكرى قط ٠٠ لا تطالب بالوفاء البارد أو حتى الصداقة الهادئة ٠٠ المرأة الناضجة تطالب بكل شىء أو تتخلى عن كل شىء ٠٠

ولكن هل تغير شىء فى عبد الحليم ؟ ٠٠

أعود أنا بالذاكرة الى سنين طويلة مضت ٠٠

كان هناك فى القاهرة شابان فنانان ، أحدهما فتى نحيل ، جميل الصوت هو عبد الحليم حافظ ٠٠ والثانى شاب طويل القامة تكسو وجهه سـمرة محببة وتطل منه عينان براقتان ، هو كمال الطويل ، وكان هذا الشاب يدندن فى كل وقت ، ويصنع ألحانا لكل

شيء ·· الكلام العـــادى ولنداءات الباعة ولخطى النـــاس فى الطرقات ··

وكان الشابان يطرقان أبواب الحياة العامة، وكان لدى كل منهما أفـــكار · كان عبد الحليم يختلف عن غيره ممن يغنون أو يحاولون الغناء فى اتساع أفق فهمه وفى ذكائه وفى متانة خلقه وكان كمال يختلف عن الملحنين فى اهتمامه بالقضايا العامة ·· قضايا الوطن والحرية وفى محبته للناس واحساسه انه واحد منهم وان ألحانه يجب أن تكون صوتهم وحديث نفوسهم ·

وطرق كمال وعبد الحليم أبواب الاذاعة ·· نجحا ، وأصبح لعبد الحليم حق الغناء ولكمال الطويل حق التلحين ·· على الهواء ·

وكتبت لهما أغنية عاطفية . من الغريب أنها كتبت ولحنت وسجلت فى يوم واحد ·· وكان اسم الأغنية « لقاء » ··

وأحب جميع الناس عبد الحليم من خلال ألحان كمال الطويل ، وعرف الجميع ان بامكان هذين الشابين أن يقدما للفن شيئا جديدا ·

فهل قدما هذا الشيء الجديد ؟ ·· هذا الشيء الجديد الذى كنا نتوقعه من ذكاء عبد الحليم ومن عمق احساس كمال بمشاكل الناس ··

أنا أعرف أن عبد الحليم قد أصبح معبود الفتيات ··

وأنا أعرف أن كمال الطويل قد أوشك أن يصبح أشهر ملحن فى مصر ، واننا غنينا وراءه ألحـــانه الباكية والفرحة والمتفائلة والحزينة ··

ولكن هل قدما الى الفن هذا الشيء الجديد الذى كنا نتوقعه ؟

هل نقل الينا كمال احساس الناس بمشاكل الحياة ، وهل غنى لنا عبد الحليم تلك الأغانى التى تلمس جراح المرضى والفقراء الذين كان عبد الحليم يوما ما واحدا منهم ··

في هذه الناحية فقط أخشى أن يكون عبد الحليم قد تغير ، وكذلك كمال ..

وحين يقدم عبد الحليم هذا الشيء الجديد الذى نتوقعه منه ، وحين يغنى عبد الحليم للمرضى والفقراء فسيصبح عبد الحليم حبيب هؤلاء جميعا .. وسيمنح هؤلاء جميعا قلبه وأنفاسه وعواطفه .

عندئذ نغتفر لعبد الحليم أن ينسى شقراءه ذات الشعر الأحمر وأن ينسى كل شقراء أو سمراء .. لأنه تذكر الناس جميعا ولم يذهبوا عن باله أبدا ..

صباح الخير ١٩٥٧/٥/٢٣

الوقـوع فى الحـب

من المألوف أن يقال : وقع فى ورطة ووقع فى اشكال ووقع فى شر أعماله ٠٠ ووقع فى الحب ٠

وكأن الانسان يظل ثابت الخطى راجح العقل بعيدا عن الأخطار والمهالك حتى يحب فينقلب حاله ويقع ، ولا يستطيع أن يقوم من وقعته الا اذا شفى من الحب ٠٠

والذين يقولون ان الحب وقعة لهم عذرهم فى هذا القول ، لأن معظم العشاق يبدو عليهم أنهم « واقعين » ، ويرتسم على وجوههم الذهول والحيرة والارتباك ٠٠

وقد ارتبط الحب ، منذ الزمن القديم ، بما هو أكثر من الوقوع ، لأنه كان طريقاطويلا مرصوفا بالوحدة والخيال وهو يفضى الى ثلاث مراحل لابد منها ، هذه المراحل الثلاث هى الحزن ثم المرض ثم الموت ٠٠

وقد قدمت كل أمة شهداءها الأبرار على مذبح الحب ، فقدم الايطاليون روميو وقدم الفرنسيون أبيلارد وقدم الألمان فرتر وقدم العرب شهيدهم قيس بن الملوح ٠٠

وعشاق الزمن القديم يلتقون عادة فى ظلال الحزن ، وما يكاد العاشق ينظر الى محبوبته حتى يرى فى عينيها ذلك الشىء الغامض

الذين يربط بين الناس ، الحزن الخالد المهيب ، وهذا الحزن هو ما يميز الانسان العظيم عن الانسان العادى لأن النفس الكبيرة تحوى من الآلام أكثر مما تحوى النفس الصغيرة ٠٠

أرواح العشاق جريحة دائما ، لأنها ترى ما يملؤه العالم من مآس ، ومايسوده من قيم غير عادلة فتفزع الى نفسها وتطوى أحزانها بين صدرها ، ولا يبقى منها الا الوميض فى العينين ٠٠

ولا يدرك هذا الوميض الا حزين آخر ، يرى خلف هذا الوجه الساكن ظلالا من الحيرة والألم واليأس ٠٠

ومن هذا التفاهم الغامض يولد الحب ٠٠

ويتنكر المجتمع لهذا الحب ، ويحاول القضاء عليه ، فأسرة روميو مثلا على عداء تقليدى مع أسرة جولييت ، وقيس بن الملوح قد قال غزلا فى ليلى العامرية فثار أبوها وأقسم ألا يزوجها له ، وفرتر قد تزوجت حبيبته شارلوت من صديقه ألبير ٠ وبالاختصار استحكمت المأساة واستعصى حلها ، وقضى الزمان بين المحبين بالفراق ٠٠

ماذا كان يريد هؤلاء المحبون ؟ ٠٠

يخبرنا عن ذلك عاشق فى احدى مسرحيات فيكتور هيجو يقول لمحبوبته :

أحبك حبا صادقا ، وا أسفاه ، انى أحلم بك حلم الأعمى بالضوء ٠٠ سيدتى ! ٠٠ أصغى الى : عندى أحلام لا عداد لها ، أحبك من قريب ومن بعيد وفى جوف الظلام ولا أجرؤ حتى على لمس طرف أصبعك ٠٠

ان عشاق الزمن القديم لا يريدون أن يجتمعوا ليسعدوا بحبهم فى هذا العالم ، وهم لذلك يحتفظون بهذا الكنز من الحب حتى يجتمعوا — فى يوم من الأيام — أمام الله ٠٠

وأقرب الطرق الى الله وأضمنها ·· هو الموت وهكذا كان يموت عشاق الزمن القديم ، طعن روميو نفسه بخنجر طعنة رومانية نجلاء، وانتحر فرتر بطبنجة استعارها من غريمه ·· زوج حبيبته ، ومات قيس بنوع من السكتة القلبية ··

ونعم هؤلاء جميعا فى السماء بما فاتهم فى الأرض · وتركوا للعشاق بعد ذلك فى جميع الأزمان تقاليد للحب يسيرون عليها ، وكأنهم قالوا للناس جميعا : اذا أحببتم فكونوا مثلنا ·· مثل روميو المنتحر وقيس الباكى وفرتر المجنسون ·· اذا أحببتم فموتوا من الحب ··

* * *

ولكن هذه القصص كلها ــ رغم جمالها ــ ليست هى الحب فهى على فرض صدقها قد تكون حالات فردية شاذة ··

وهناك آلاف وملايين القصص التى لم تحك ، ومن هذه القصص مثلا قصة فلاح شاب فى أيطاليا رأى فلاحة جارة تبدو عليها علامات الصحة والنشاط وتلوح الشمس فى وجهها الوسيم · وابتسم لها وابتسمت له ·· ثم قضيا بضعة أمسيات جميلة على شاطىء نهر التيبر ، وبعد شهور تزوجها فى عيد أحد القديسين · وفى تلك السنة أعطت الأرض ضعف محصولها ··

ومن تلك القصص التى لم تحك ·· قصة لأحد زارعى الكروم فى مقاطعة بريتانى بفرنسا ·· وأحد بائعى السجق فى بافاريا ، وعامل فى مصنع بشيرا الخيمة ، وزارع بن فى البرازيل ··

كل هذه القصص يجب أن تحكى وأن تكتب لنعرف منها كيف يحب الناس البسطاء ، وكيف يرسمون لنا تقاليد الحب ، وكأنهم يقولون للشباب : أحبوا ·· تسعدوا ··

هناك اذن نوعان من التقاليد فى الحب · أولهما ذلك الحب الحزين المنكسر الذى يطمح الى أن يتحقق فى السموات ، وثانيهما الحب الايجابى المنطلق الذى يبنى سعادته على الأرض ··

أولهما حالم خيالى رومانتيكى ··

وثانيهما متيقظ فعال واقعى ··

ولاشك أن النوع الثانى من الحب ، ذلك الذى يتمثل فى الناس البسطاء قد ابتدأ يزاحم حب الروايات ، ولاشك أن عاشق العصر الحديث قد ولد لكى يرسى تقاليد انسانية شريفة جديدة للحب ··

ولد فى مصر على يد الموظف الصغير الذى يحب لكى يتزوج، ويتزوج لكى يستقر ··

ونراه أيضـــا فى العامل الذى يتنزه مع محبوبته على ظهر الفسبا ، وفى العاشقين الجالسين على الكورنيش بالجلابية والملاية اللف ، وهما عادة لا يعدان النجوم ولا يشهدان القمر الذى يتغير كل ليلة على حبهما ، بل يعدان حساب المستقبل ··

ولكن نوعا ثالثا من الحب قد ابتدأ يتسلل الى الشباب ، وأنا أسمى هذا النوع « الحب الأمريكانى » ··

وقد اتضحت صورة هذا الحب الأمريكانى فى خطاب تلقيته من صديق ··

قال الخطاب : « حين عرفتها أحببتها ، وقلت فى نفسى هذه هى الفتاة التى كنت أنتظرها ، فقد كانت كما تصورتها فى أحلامى طويلا، ولكنى حين ازددت معرفة بها فزعت فزعا شديدا فلقد كانت نفسها أسوأ مافيها ، انها لا تريد أن ترتبط بأى شىء ، تريد أن تمارس المتعة دون حدود· ولا يعنيها فى هذه المتعة أن تكون من حقها أم لا ··

وهى تستسلم لكل أغراء ، حتى ولو صادفها ذلك الاغراء فى الأوتوبيس أو على مقعد من مقاعد السينما المظلمة ، ثم لا تتورع أن تضرب المواعيد وتلقى بكلام الحب ، وقلبها عن كل ذلك مشغول ··

وهى أيضا كذوبة ، تكذب كما تتنفس ، سمعت منها سلسلة من الأكاذيب عن أبيها وعن أمها وعن الناس جميعا ..

تسألها ماذا تريد ؟ .. فتقول لك أنها تريد أن تعيش ، انها تحس بالزمن المقلوب فلا تحاول أن تصـــلحه ، بل تقلب طبيعتها ونفسها وروحها لتنسجم مع الزمن » ..

وتأثرت بخطاب صديقى ، وفى المساء الذى تلقيته فيه ذهبت الى احدى دور السينما لأشاهد فيلما أمريكيا ، وكانت قصة الفيلم عن شاب مغامر ولد فى حى فقير ، وعانى اليتم والمذلة ، ولكنه كان طموحا فأراد أن يصل الى مستوى الأغنياء واشتغل غاسل صحون فى ناد ليلى يؤمه علية القوم ، وقرر أن يكون طريقه الى الغنى أن يغوى ابنة أحد المليونيرات ، فأخذ يرتب الخطط حتى تعرف اليها على انه من الوارثين الكبار وأخذ يتودد اليها حتى أحبته ، تماما كما نقرأ فى صفحات الجرائم فى الصحف ..

وأمثال هذا الشاب يوجدون فى كل مجتمع ولكن نهايتهم العادية هى السجون والا لما امتلأت بحوادثهم أعمدة الصحف ، ولكن الفيلم الأمريكى ـ خلافا للقاعدة التى تقول أن الجريمة لا تفيد ـ هذا الفيلم يغدق على الشاب كل ما أراد .. والمرأة التى يحبها اذ ينالها كعشيقة لا كزوجة ..

هناك اذن طريقة ثالثة للحب يشرحها لنا هذا الفيلم ، وهى اللامبالاة والغش والكذب ، وهذه الفضائل الجديدة هى أســـاس الطريقة الأمريكانية فى الحب ..

ولقد ظهرت بعض آثار الطـــريقة الأمريكانية فى مجتمعنا ، فالعاشق الذى يتظاهر بالغنى . والعاشق الذى يتظاهر بالأصـــل الرفيع ، والعاشق الذى يتظاهر بالشجاعة أو الحداقة كل هؤلاء متأثرون بالطريقة الأمريكانية ..

وأدهى من هؤلاء عشاق التاكتيك ، الذين يتوهمون أن الحب معركة كالحرب ، لها استراتيجيتها ومواقعها وأسلحتها ونظامها .

فهو فى بعض الأحيان يتغزل كمايتغزل رودلف فالنتينو ، وفى أحيان أخرى يبدو عديم الاهتمام مثل مارلون براندو ، أو أبله خفيف الحركة مثل جيمس دين ، ولابأس أن يضرب فى أحيان أخرى مثل جلين فورد فى رواية جيلدا ، ولكن لكل شىء وقته ، للغزل وعدم الاهتمام والبلاهة والقسوة أوقات تصلح فيها ·· والا اختل التاكتيك ··

عشاق الطريقة الأمريكانية اذن عشاق مزيفون ، لا يقدم أحد منهم نفسه على حقيقتها الى محبوبته ·· وربما كان هو لا يعرف نفسه ··

***

وأخيرا فان هناك طرقا كثيرة لكى تقع فى الحب ، فتحزن أو تمرض أو تموت أو تزيف نفسك أو تخدع الناس ··

ولكن هناك طريقة واحدة لكى تعيش بالحب وتسعد وتفرح وتحقق كل امكانياتك ··

وهذه الطريقة هى أن تحب ·· ببساطة ··

صباح الخير ١٩٥٧/٦/١٦

رحلة على الورق

المرأة .. وحريــة الرجل

لا أدرى لماذا تتجه الأذهان كلما أطلقت كلمة « الحرية » الى الجنس ، وبخاصة فى مجتمع البنات ..

لقد أصبح معنى الحرية فى أذهان بناتنا مرادفا لاباحة التجربة الجنسية أو على الأقل مقدماتها من التعارف والمغازلة والمواعيد .. الخ .. ، ولم يبق من الكلمة المجيدة الضخمة الا هذا الظل الهزيل ، ولم تدرك بناتنا من معانيها الواسعة الا هذا المعنى السطحى الخطر ، الذى قد ينقلب فى آخر الأمر الى شىء هو شر من العبودية .

نسى هذا الجيل من البنات أن الدعوة الى الحرية دعوة جليلة، وأن هناك ألوانا أخرى من الحرية جديرة بأن يطلبها الانســان العصرى ويمارسها فى حياته .

فهناك مثلا حرية العقيدة والفكر وحرية العمل وحرية اختيار طريق الحياة وغيرها . ولكن كل هذه الحريات حريات صعبة شاقة، فحرية العقيدة مثلا تتطلب أن يكون لديك ما تعتقده ، ولن تكون حرا فى فكرك الا اذا قارنت بين الأفكار واخترت أحدها ، ولن تكون أيضا حرا فى طريقك الا اذا تشعبت أمامك الطرق ووقفت فى وسطها تدبر أمرك لتختار لك طريقا .

ولقد انصرفت بناتنا عن هذه الحريات الشاقة الصعبة الى الجانب السهل اللذيذ من الحرية .. وهو حرية الجنس ..

والآن ، لقد وقفنا أمام المنزلق ، فاما أن نتراجع ونعود الى مجتمع الحريم ، ونضع البنات فى قماقم مختومة ، واما أن نصحح مفهومنا لكلمة الحرية ٠٠

الحرية أولا ادراك ، أى انها لابد أن تمارس بوعى وتبصر والا اصبحت فوضى ، ولذلك يسترد المجتمع حرية المجانين وناقصى العقل والذين يسيئون استعمال الحرية ٠ الحرية مثل النار لا يجب أن توضع فى يد الطفل الصغير والا أحرق بها أقرب الناس اليه ٠٠

والحرية ثانيا حق وواجب ، فكما يعطيك المجتمع الحق فى أن تكون حرا فهو يفرض عليك واجبا هو أن لا تؤذيه بحريتك ، وأن تكون هذه الحرية عاملا بناء فى هذا المجتمع ٠ والمجتمع المتقدم هو الذى تتضاءل فيه فكرة الحق لتنمو فكرة الواجب ، وهو الذى لا يصيح فيه الانسان دائما : هذا حقى ، بل يعمل وصوت فى ضميره يهمس : هذا واجبى ٠

والحرية ثالثا جوهر فرد ، أى أنها لا تنقسم كما كان يقول الفلاسفة الأقدمون ٠ فلن يكون الانسان حر الضمير وهو مستعبد اليدين ، ولن يمارس حريته الاجتماعية وحريته الشخصية مسلوبة ٠ ولكن هذا الجوهر الفرد له وجوه كثيرة منها وجه اسمه حرية العقيدة ووجه اسمه حرية العمل ووجوه أخرى كثيرة لعل من أهمها هذا الوجه الذى تضخم فى أذهان بناتنا وتشوه معناه وهو حرية الحب ٠

وخطأ تفتيت الحرية وسوء فهمها هو أن تصبح حرية الحب ٠٠ حرية الجنس ٠٠

والفرق بين حرية الحب وحرية الجنس أن حرية الجنس تتم بدون ادراك ، فهى وقتية عشوائية كخطى الذى يمشى فى الظلام ، وليس فيها اختيار ولا تبصر ، فكما يميل الحديد الى المغناطيس تبعا لقانون أزلى وبسيط تميل المرأة الى الرجل بنفس السرعة وانعدام الارادة والجمادية ، وكأننا لم نكسب طيلة هذه القرون الطويلة من

المعاناة الانسانية ما يجعلنا احرارا فى نزعاتنا ·· نختار ونقدر ثم نتصرف ··

وحرية الجنس أيضا تعرف الحق دون أن تعرف الواجب وكثير من البنات يصرخن من جمود الآباء وتزمتهم ، ويطالبن المجتمع أن يعطيهن الحق فى التجربة الجنسية دون أن يعطوا المجتمع شيئا الا أصوات الاحتجاج · وهن مازلن يعشن فى « الحريم » رغم أن الحريم التقليدى قد انقضى عصره . ومازال العمل بالنسبة اليهن وسيلة لاصطياد الرجل ، فهو ميدان للحصول على الحق لا للقيام بالواجب ·

وحرية الجنس أيضا حرية منعزلة عن غيرها من الحريات ·· لأن الانسان الذى يحب بحرية ستتفتح عيناه على مختلف الوجوه الأخرى ·· وسوف يفكر ويعتقد ويعمل ·· وذلك لأن الحب الحقيقى هو علة وجود المجتمع وتطوره · والجنس حين يرتقى ويدخله عنصر الاختيار ، ثم يدعمه التفكير الاجتماعى يصبح حبا ، وقد يكون الفرق خافيا بينهما ، ولكنك اذا نظرت الى فتى وفتاة يحب كل منهما الآخر بعد أن اختبره ثم وجده انسانا ملائما لكى يشرع معه فى بناء حياة جديدة ، ثم قارنت بينهما وبين اثنين آخرين يمارسان حرية الجنس فى لحظة دون قصد سابق أو اختيار أو تفاهم ، لأدركت من هذه المقارنة الفرق بين حرية الجنس وحرية الحب ··

ان حرية الجنس تمارس فى الخفاء ، ومن يمارسونها يرتكبون الحرية ولكنهم لا يتمتعون بها ، وذلك لأنهم قد أساءوا فهم الحرية ، فظنوا أنها فوضى وهى ادراك ، وأنها حقوق دون واجب ، وأخيرا أن من الممكن أن تنقسم الحرية فتلغى حرية الفكر والعمل والضمير، ونتمتع بعد ذلك بحرية الجنس ··

* * *

لقد بدأنا بداية خاطئة فى معركة التحرر ، وكان الخطأ خطأ الرواد الأوائل للمعركة ·· لقد ألقى قاسم أمين بحجر فى بحر حين

كتب كتابه عن تحرير المرأة ، وقف فى عصـــر استبداد اجتماعى وتخلف اقتصادى وتبعية سياسية لينادى لا بالاستقلال ولا بالتنظيم الاقتصـــادى او العـــلاج الاجتماعى ٠٠ بل نادى بأن تخلع المرأة الحجاب ٠٠

لقد فتت قاسم أمين الحرية وجعلها أجزاء مستقلة ، وهذا ضد طبيعتها ، ونادى بشىء اسمه « حرية السفور » ٠٠

ومن ذلك اليوم ومعركة المرأة تدور حول السفور والحجاب تارة ، والثوب الطويل والثوب القصير تارة أخرى ، حتى أن نائبا من نواب الأمة ينادى بعد موت قاسم أمين بخمسين سنة أن الطريق الى علاج الأخلاق هو ان تلبس النساء أثوابا محتشمة ٠٠

ان علاج الانحلال والتفاهة وســـوء تربية الأولاد والخيانة الزوجية والاغتصاب والتفكك الاجتماعى فى نظر النائب هو أن تلبس النساء ملابس القرون الوسطى ٠٠

وهذا ليس بعجيب ، فقد قال قاسم أمين من خمسين سنة أن العلاج هو خلع الحجاب وكشف النســـاء عن وجوههن ، وتابعته الأحزاب والهيئات النسائية ، وكثير من أشباه المصلحين ٠

وهذان الرأيان على تناقضـــهما وتضادهما يعبران عن نقص الاحساس بمعنى الحرية ٠٠

وقد زاد الطين بلة أننا اســـتوردنا معنى آخر للحرية من الروايات المترجمة ٠٠ الروايات التى نقلها لنا بعض الكتاب فى أواسط هذا القرن ، فأصبحت المرأة الحرة هى الزوجة العاشـــقة والفتاة اللعوب والمومس والأم التى تهجر بيتها ٠٠

كل هؤلاء النساء أحرار ، ولم يبق مستعبدا الا الفتيات الطيبات والنساء المخلصات والأمهات اللائى يعشن لاسرهن ٠٠

وكانت نتيجة هذا كله اننا نقف الآن لنتفرج على الجرائم التى ترتكب باسم الحرية ..

وعلينا الآن أن نبدأ بداية جديدة نحو حرية حقيقية للبنات . وأول ماعلينا أن نفعله هو آن نوضح معنى الحرية ونلقى عليه من الأضواء ما يجعله متوهجا امام العيون ..

* * *

ليس هناك فرق بين حرية الرجل وحرية المرأة ..

وليس معنى حرية الرجل أن يكون حرا فى عمله وفى معتقداته وفكره ، ومعنى حرية المرأة ان تكون حرة فى ممارسة الجنس أو الحب ..

وليست معركة الحرية معركة أثواب ومظاهر وطريقة فى المشى وحق فى اعطاء المواعيد ولكنها معركة حياة حرة بكل جوانب الحرية التى هى ادراك ووعى ، وحق وواجب ، والتى لا تتجزأ ولا تنقسم .

صباح الخير ١٩٥٧/١٠/٣

الحب .. عند لجنــة الأغانى .. !

كان أرسطو الفيلسوف يقول : لا أبالى اذا أنا وضعت أغانى أمة أن يضع غيرى قوانينها ..

والذين يضعون الأغانى عندنا ـ مع الأسف ، لم يسمعوا عن ارسطو ولم يقرأوا اسمه مكتوبا على الورق .. لقد أصبحت كتابة الأغانى فى مصر تسلية العجزة والفاشلين والأميين فى كثير من الأحيان ، ورغم أن فى الاذاعة مصفاة كبيرة اسمها لجنة النصوص لكى تحتجز الأغانى الرديئة الا أن كثيرا من الطوب والحجر يفلت من ثقوب المصفاة ويخرق بعد ذلك آذان الناس ..

وسبب ذلك أن هذه اللجنة لا تفهم من الفن الا معناه الضيق .. فهى تهتم مثلا بأن تكون الأغنية موزونة وزنا صحيحا ، وخالية من العيوب الشكلية ، ومن الكلمات المنافية للآداب .. ولكنها لا تعرف كيف تكون رقيبا على فن الأغنية وأفكارها ..

هذا الميزان الذى تزن به اللجنة ميزان غير حســـاس على الاطلاق ، اذ أنه قد يكتشف نقص درهم فى الوزن ولايستطيع أن يكتشف نقص قنطار فى فكرة الأغنية ..

ولا تتسع ذمة لجنة النصوص مطلقا لكلمات مثل القبلة أو الخمر أو الكأس ولكنها تبتلع عبارات مثل : ياجرحنى ويامسهرنى الليل وقسوة حبايبى مغلبانى ..

الحب عند اللجنة ســــــلبية وذل ورذالة من الحبيب على المحبوب ..

وتفهم اللجنة الأغانى الوطنيه فهما سيئا كذلك .. فكل أغنية وطنية عندها عبارة عن نشيد ، كلماته مرصوفة وملساء مثل رصيف الشارع ، ولحنه مكرر كشهقات السعال الديكى ..

ولما كان مؤلفو الأغانى عندنا معظمهم لا يقرأون ولا يسمعون ولا يشاهدون ، ولما كانوا - معظمهم - تجارا يعرضون السلعة التى تناسب الشارى فانهم يتبعون مواصفات اللجنة بكل دقة .. ويضربون بأرسطو وأشباهه عرض الحائط .

صباح الخير ١٩٥٧/١٠/١٠

طفل اســمه الحب

كانت السيدة البدينة المكتنزة تجلس فى العربة الأنيقة ، والرجل الأملس الوجه يقف أمام البائع الذى يلف له الشطائر فى الورق والخيط ..

وكان الفقراء يمشون على الرصيف ، بعضهم بلا جوارب ، وبعضهم بلا معاطف ..

وكنا فى منتصف الليل ، ثلاثة نجلس على مائدة فى المحل الواسع ، نمد بصرنا تارة الى السيدة البدينة والرجل الأملس الوجه ، وتارة أخرى الى الفقراء على الرصيف ..

وكنا نحن الثلاثة حرفتنا الكتابة ، ونحن بهذه المناسبة نكتب – ثلاثتنا – فى أى موضوع ، نحب السياسة ونناقشها فى اصرار وكذلك نحب الأدب ، وأسماء الأدباء عندنا كأســماء الأنبياء عند المتصوفين ، ونحن نكتب كذلك فى الحب ..

الحب هو ..

كانت هذه كلمة أحدنا ، لعله قرأها من قبل أو فكر فيها قبل أن يدخل الينا المحل منذ ساعات ، ولعله أيضا قالها عفوا حين أحس أننا فى حاجة الى كلمة نلتقى عندها أو تعبير نلخص فيه كل ما فاض على سطح المنافسة من كلام عن الحب ..

وحين أحس بأننا لم نستطع أن نعرف كل ما وراء كلمته قال مؤكدا :

« لقد كان كيوبيد هو الاله الوحيد الطفل ، كان زيوس رجلا عجوزا مسنا ، وكانت فينوس امرأة جميلة ·· أما كيوبيد فقد كان طفلا صغيرا أزرق العينين ذهبى الشعر ، كان يحمل فى يده سهما ، وكان يلقى سهمه دون أن ينظر بعينيه أين يقع هذا السهم ··

فهو اذن طفل صغير ، يجرح دون أن يتبصر ·· وسكت وأكمل أحدنا قائلا :

ـ وبما أن الأساطير القديمة هى التى تستطيع أن تلخص لنا العواطف الانسانية ، وبما أنها نشأت ـ كما يقول العلماء ـ كمحاولة لاسباغ صفة العقل على الظواهر الخارقة تارة ولتلخيص المظاهر المتكررة فى جوهر خالد تارة أخرى ، فلابد أن أسطورة كيوبيد قد تفتق عنها الذهن اليونانى لما وجده اليونان بعد مشاهدة كثير من الحالات ، من أن الحب طفل جارح عابث ··

ولست أدرى من منا الذى التفت الى السيدة البدينة والرجل الأملس الوجه ، وتساءل : « أيمكن أن يكون الذى جمع بين هذين النموذجين الانسانيين طفلا ذا شعر ذهبى وعينين من الفيروز ··

كان هذا التساؤل موجها الى صاحب التعبير الذى تحفز المرد قائلا :

ـ الحب فى بعض الأحيان يصبح شابا وفى بعض الأحيان الأخرى يصبح شيخا هرما ··

ان الذى ربط هذين الانسانين بلاشك شيخ هرم ، وهو قد قيدهما معا بحبل غليظ مفتول ، ثم وجه الى قلب كل منهما حربة بدلا من

السهم : ولاشك أنهما « فلفصا » كثيرا قبل أن يعترفا بأنهما قد أصبحا صريعين ..

والفرق بين الحب الطفل والحب الهرم هو الفرق بين متعة العبث وجمود التعقل ، فكيوبيد عندما يلقي سهامه لا يختار لنفسه .. ينتبه انسانان .. واذا كان كل منهما يقول للآخر : يا أنا .. لم يسأله ماذا سنصنع فى أيامنا القادمة .. هل ستستطيع أن تحتملنى عندما أصبح سخيفا وأن تعاشرنى عندما يشيب شعرى وأن تعنى بى عندما أمرض وأن تأخذ بيدى عندما أشيخ وأهرم ولم يسأله أيضا : أمنزلنا سيكون من غرفتين أو ثلاث وهل تحب الأولاد وماهو طعامك المفضل، وأخيرا .. لم يسأله هل تحبنى كما أحبك ؟ ان كل ماحدث أن كلا منهما كان غريبا عن لآخر ، وفى لحظة ما رآه فى عينيه ، ثم عرف أنه أقرب اليه من قلبه ، وقال له ياحبيبى ، وجاوبه الآخر ، ومن هذا كله ولدت الثقة بأنه لن يتخلى عنه ، ولن يهجره ولن يؤذيه .. وهذه الثقة ثقة من القلب .. كالايمان بالدين وبالمذهب وبالوطن وبالخير وهى ليست ثقة نابعة من الالحاح ، ومن جمع الفكرة الى الفكرة وربط الخاطر بالخاطر ، وهى أيضا لا تعرف الخوف ولا المواربة ولا التردد كأن كلا منهما يقول للآخر : « لقد أعطيتنى قلبك وهذا يكفينى » !

أما الحب الهرم فلابد أن تسبقه مقدمات واستفسارات وأسئلة وأجوبة ، ان خطاه متعثرة بالتردد ، متقاربة بالشيخوخة ، ضعيفة بالفتور ، وهو لا ينقل قدما الا اذا قدر لها موضعها ، ويشترط دائما ويسأل كثيرا ، والحب الذى صوره القدماء طفلا طائشا أشقر الشعر يصبح سقيما كورق الشجر المتساقط ، مزعجا كالسعال ثقيلا كالخيبة ..

وابتسمت وأنا أقول لصاحبى : « لقد ظلمت هذين الانسانين دون أن يستحقا ، ان لذة الكلام قد جرفتك حتى عدوت بها على الناس ..

وأجاب صديقى فى حماس :

« انهما يستحقان ·· ألا تراهما يدفئان حبهما بالعربة الفارهة. وبتل الشطائر الذى لفه الرجل لهما ، وربما كانا يحتفظان فى بيتهما بزجاجة خمر ·· وكتاب جنسى ومصباح أحمر ··

انهما يريدان أن يردا للحب طفولته دون جدوى ··

وسـكت صـاحبى وفى الناحية الأخرى كان الفقراء مازالوا يمشون على الرصيف ·· بعضهم بلا جوارب وبعضهم بلا معاطف ، وكدت أفكر فى حب الفقراء ، وأسعدنى أن أستعير كلام صديقى وأن أمضى به الى الامام خطوة ·· ان حب الفقراء طفل صغير عابث ، ولكنه يبتدىء فى النمو بعد أن يقول كل منهم للآخر : يا أنا ، ويكتسب هذا الطفل تجربته من معاناة الحياة وقوته من الصراع معها ، حتى تصبح يداه الرقيقتان خشنتين لأنهما اصطدمتا بطين الأرض وجناحه الزغيب ينمو فيه الريش لأنه دأب على الطيران ··

ان حب الفقراء يأخذ بيد الطفل الصغير ، ويدرج به فى الحياة لينمو ، ويكبر ، فاذا أصبح هرما كانت له تجربة الشباب والكهولة، وفى قلبه من الطفولة ذكرياتها ومن الصبا دفئه ومن الشباب وميضه ومن الكهولة نضجها ··

ان حب الفقراء هو كفاحهم ، وهو دافىء دائما لأنه حى ، ولذلك فانهم يسيرون أحيانا بلا جوارب وأحيانا بلا معاطف ··

***

كانت النسمات الأولى لبرد الشتاء قد ابتدأت تهب ، وعلى عرض الطريق كان كل انسان يهرب بحبه الى بيته ·· جموع تخرج من السينمات والمسارح والملاهى وبيوت الآخرين وكانت جلستنا قد طالت حتى أصبح كل منا قريبا الى الآخر بحيث يجب أن يفارقه

ليعود الى نفسه ، وخرجنا الى الشارع الطويل ·· وتوادعنا عند مفترق طرق ··

ربما كان كل منا بعد ذلك قد انطلق فى طريقه يدق أرض الشارع ، ويستمتع برعشة البرد ، وقد مد صدره أمامه وكأنه يقول :

لو ألقى هذا الطفل الذهبى الشعر ··

صباح الخير ١٩٥٧/١١/٢١

رحلة على الورق

الطريــق الى الحــب

ماذا تحس عندما تعرى جسدك أمام الآخرين ؟

لا أقصد بأن تعرى جسدك أن تخلع عنك ثيابك وحذاءك وغطاء رأسك وأن تقف عاريا ، ولكنى أقصد أن تخلع عنك المجتمع · الوقار الذى وضعه على رأسك ، والخوف الذى لف فيه جسدك ، والقيود الحريرية التى وضعها فى قدميك ··

فى لحظة من اللحظات تجد أن بك رغبة لا تقاوم فى أن تتعرى من كل هذه الأشياء ، وأن تقف ـ أنت الحقيقى ـ أمام الناس ··

وتنمو هذه الرغبة وتصبح حاجة حقيقية لا غنى لك عنها عندما تجد جسدا آخر ·· يستجيب لجسدك ، وتوافق حركته حركتك ·· وتنسجم ايماءته مع أيماءتك ··

تنمو هذه الرغبة وتصبح حاجة حقيقية عندما تحب ··

* * *

للفيلسوف الفرنسى سارتر كلمة مأثورة هى :

« ان الآخرين هم ·· الجحيم » ، وهو فى كثير من كتاباته يعلن فزع الانسان من عيون الآخرين ··

وعيون الآخرين مفزعة حقا ، تصور أنك تقف فى وسط جماعة من الناس ، وأنهم جميعا يصوبون عيونهم نحوك ، وأن هناك عننا

تقيس طولك ، وعينا أخرى تلتف حول أكتافك لتعرف عرضك وعينا ثالثة تعرف لونك ، وعينا رابعة ذات نظرة خرساء لا تعرف ماذا تعنى ..

ستصبح كل عين من هذه العيون قيدا لك ، يلتف حول أكتافك ويديك ورجليك .. ورقبتك ، لقد خرج الموقف من يدك حين أصبحت تحت رحمة عيون الآخرين .. وهنا يتسرب اليك شعور غريب . لعله الخجل من مواجهة هذه العيون الغريبة ، ولعله الخوف من أن ينكشف الشيء الذى تخفيه .. الجريمة التى ارتكبتها ثم اعتقدت أنك قد واريتها فى التراب ، الرغبة الطائشة التى طافت فى نور عقلك ساعة ثم اختفت فى سرداب اللاوعى .. الماضى المشين أو الحاضر الطامع أو المستقبل النهم .. ربما تخشى على كل هذا أن يظهر ، وربما أيضا تنبهت الى نفسك فجأة ، فرأيت عضلات تفكيرك واهية أو نبض قلبك خافتا أو بحيرة روحك ضحلة ، وأدركت فجأة أنك انسان .. عريان ..

ان سارتر رجل مخيف لأنه بهذا المنطق سيسجننا فى وحدتنا ، وسيجعلنا نخشى من مواجهة الآخرين لأن فى داخل كل منا شيئا يخشى أن يتعرى .. أن تجرحه عيون الآخرين ..

ولكن لابد لنا رغم ذلك من مواجهة الآخرين ومن العيش معهم ، ولابد لنا من أن نخلق انسجاما بين ذواتنا وقوانين البشر .. لابد أن نخرج الى الآخرين ، وفى سبيل ذلك لابد أن نتعرى أمامهم ، ولابد على الأقل أن يكشف كل منا شيئا من جسده لكى تلتقى به أجساد الآخرين ..

ولكنك ستخاف من مواجهة كل هؤلاء الناس عاريا ، ستكشف لبعضهم رأسك وستكشف للآخرين صدرك ، وستواجه بعضهم بكفيك العاريتين ..

ولكن انسانا واحدا هو الذى ستقف أمامه عاريا .. كما أنت .

هذا الانسان هو الانسان الذى تحبه ، وهو الذى سيصبح بالنسبة لك هو الجنة اذا كان الآخرون هم الجحيم ..

ان الطريق الى محبة الآخرين يبدأ بالانسان الذى تحبه ..

سيظل الآخرون بالنسبة لك جحيما حتى تحب .. وحين تحب ستجد انك استطعت الوقوف أمام انسان آخر دون خجل أو خوف ، ستجد أنك قد استطعت أن تتعرى دون أن تهتز خلجة من خلجات روحك .. وأن جسمك قد وجد جسما يوافقه .. ستجد أن عيون الآخرين ليست متربصة بك تقيس طولك وعرض أكتافك وتتشمم أنوفها رائحتك .. ستجدك أنك قد وقعت فى مجال « الآخر » دون أن تهتز أو تنزعج أو تنزلق قدماك ..

وسيكون الآخر الذى أحببته هو طريقك الى غيره من الآخرين .

انك لم تقف أمام الآخر الذى تحبه فى صراع لأن عينيه مسالمتان ولأن كفيه رحيمتان ولأنك تريد منه أن يعاونك ، وتريد أيضا أن تعاونه .. انك تريد أن تستر عريه وهو يريد أن يستر عريك ..

ولكن اليس « الآخر » الذى أحببته واحدا من « الآخرين جميعهم .. والطريق الى ذلك هو أن تحبهم ..

والطريق الى محبة الناس جميعا يبدأ بأن تحب انسانا واحدا ..

ولكن مازال هناك نوعان من الحب ..

حب الآخر وحده ، وحب الآخرين جميعا ، الحب الأول لابد فيه من العرى الكامل .. لقد مات فيه الخجل والخوف من اللحظات الأولى ، لأن خجله قد اندمج فى خجلك ، ولأن خوفه قد اندمج فى خوفك ، ولأن عينه لم تعد بعد احدى عيون الآخرين ..

وهذا الحب يسعى الى الاندماج كما يندمج اللحنان فى تركيبة نغمية واحدة ‥ يسعى ولا يمل السعى ‥

وقديما أدرك شاعرنا العربى ابن الرومى بعض هذا المعنى حين قال :

أعانقها والنفس منى مشوقة
اليها ، وهل بعد العناق تدان
وألثم فاها كى تموت حرارتى ‥
فيشتد ما ألقى من الهيمان ‥
كأن فؤادى ليس يشفى غليله
سوى أن يرى الروحين تمتزجان

هذا الحب اذن لا يبلغ كماله الا بالوحدة ، بأن يفارق كل من الجسدين نفسه ليمتزج بالآخر ، لذلك فكل حبيبين يقتربان دائما ، ويظلان يقتربان ، حتى يصبحا فى ساعة من الساعات جسدا واحدا ، ولذلك قال بودلير :

« ان المضاجعة معناها أن يدخل شخص فى آخر » ‥

واذاكان هذا الحب لا يتم الا بالوحدة ‥ فالحب الثانى ‥ حب الآخرين ، لا يبلغ كماله الا من خلال التفرق ‥

انك ستكشف للآخرين بعض نفسك ، ولكنك ستحتفظ بمنطقة كبيرة منها لك وللآخرين ‥

ربما كشفت للآخرين أجمل ما فى نفسك ، ان عيونهم مازالت عيونا غريبة ، ليست عيون أعداء ، ولكنها عيون ضيوف أعزاء ، ومن دأبك أنت أن لا تكشف للضيف الا أجمل ما عندك ‥

ولكنك ستظل فى عالمك ·· لا تتنازل عن قانونك الداخلى الا بمقدار ، وستمد للآخرين ما يحتاجون اليه من جسدك ، اذا أرادوا يدك مددتها فى عزم ، واذا أرادوا كتفك أسندته الى أكتافهم ··

ولكن ستظل يدك هى يدك ، كتفك ملكا لك ولن تسعى الى أن تفارقك لتندمج فى الآخرين ··

ان حب الآخرين لا يطلب الوحـــدة ، ولكنه يبلغ كماله فى التفرق ··

ولكنك ستحس رغم ذلك أنك قد انتصرت على العرى ، وأنك قد اجتزت المنطقة الخطرة من شباك العيون ، وأن كل شىء قد أصبح فى ناظريك جميلا وصحوا ومزهوا ··

وذلك لأنك ·· قد أحببت « الآخـــر » وعن طـــريقه أحببت « الآخرين » ··

صباح الخير ١٩٥٨/١/٩

رحلة على الورق

حـــب بالعافيــة

كانت تصرخ فى التليفون ، ويشتد صراخها ، ثم تسكت كأنها حائرة ، ثم تبكى وتعود الى الصراخ ٠

انها سيدة متزوجة ، قاهرية مثقفة ، لا تعرف الشر ، ولم تفعل فىحياتها مايمكن أن يؤاخذها عليه المجتمع ٠٠

ومع ذلك فهى ترتعد فى التليفون لأنها تجلس فى بيت أبيها فى انتظار البوليس ، وسيحملها البوليس عنوة الى السجن ٠٠

والسجن الذى سيحملها اليه البوليس هو بيت الطاعة ، وكانت تطلب منى أن أجد لها مخرجا ٠٠ أى مخرج ، كانت تهتف بى ٠ دبرنى ، فأنت تعرف أننى لم أؤذ أحدا ، وتعـــرف كم أذانى هذا الرجل !

وكنت فعلا أعرف كل شىء ٠٠ ولكنى لم أستطع أن أجد لها مخرجا لأن القانون قد سد فى وجهها كل المنافذ ، الا منفذا واحدا تدخله مضطرة ، وتسير فيه مذعنة مطاطئة الرأس لتدخل من بابه المنخفض الضيق ، الى بيت الطاعة ٠٠

لقد حكم القانون أنها ناشز ٠٠ وحكم المرأة الناشز أن تدخل تحت طاعة زوجها بقوة القانون ٠٠

مامعنى كلمة ناشز ؟

كلمة ناشز معناها أنها عاصية هاربة ·· والعصيان والهرب قد يكون جريمة فى ساحة المعركة وقد يكون جريمة فى أداء الخدمة الوطنية ولكنى أعجب كيف يكون العصيان جريمة بين صديق وصديق بحيث يتدخل فيها القانون برجاله وقضائه لكى يعيد الود بين قلبى الصديقين ·

أليس الزواج صداقة ؟

وأتساءل كيف يستطيع القانون أن يعيد العاطفة الى القلوب اذا طار عنها طائر الحب ، وأن يزرع الآلفة فى ساحة البيت بعد أن نزعها صقيع القسوة ؟

أليس الزواج حبا ؟

واتساءل أيضا هل يستطيع القانون أن يطيب الجراح ، ويلم الشمل ، ويضم قلبا الى قلب بيده القاسية وحلته الصفراء التى تتدلى على كتفها حمالة البندقية ؟

الدين ·· والطـــاعة

وهم يقولون ان بيت الطاعة ركن من أركان التشريع فى الأحوال الشخصية ··

وهذا محل مناقشة ··

لقد حدثنى أحد رجال الدين أن أصل حكم الطاعة هو أن ولى الأمر كان ينظر فى قضايا الخلاف بين الزوجين ، ثم يحاول أن ينصح لهما بأن يحضهما على نسيان مافات ·· وعلى محاولة استئناف حياتهما ·· وولى الأمر يحاول أن يلح على المرأة أن تعود الى بيتها فربما كان ما دفعها الى هجرانه وهم طارىء اذا تبدد ظله من عقلها فقد تعود الى بيتها ··

وقال لى رجل الدين أن حكم الطاعة لم يكن على هذه الصورة فى صدر الاسلام ··

ولكني سأفترض أن حجة المتزمتين من رجال الدين فى شرعية بيت الطاعة حجة ثابتة ، وسأحاول مناقشتها ٠٠

عندما نقول ان المرأة شريكة الرجل فى حياته ، فاننا نعنى بذلك المرأة الجديدة التى تفهم دورها فى الحيـــاة ، المرأة التى دخلت المدرسة فاستنار عقلها ٠ وخالطت المجتمع والناس فتهذبت روحها ، ولا نعنى بذلك « سيدة الحريم » ٠٠

لقد كان من السهل أن تتسلل النزوة الى عقلية سيدة الحريم ، فتؤثر على تفكيرها وتدفعها الى هجران بيتها ٠ وكان من السهل أن يؤثر الأب أو الأم على شخصية سيدة الحريم ، فيوعزان اليها أن تهجر الزوج والمنزل ٠٠

ولكن الحياة الاجتماعية قد تغيرت على الأقل فى بعض قطاعات المجتمع ، وأصبح من العسير أن تتأثر سيدة جديدة بنزوة طارئة ، أو بايعاز من أب أو أم ٠

ان المرأة الحديثة لا تهجر زوجها الا اذا كان لديها من الأسباب مايقنعها بهجره ، وما يجعل الحياة بينهما مستحيلة ٠

والدين ليس مجموعة نصوص وأحكام ٠ ولكنه روح ٠

وليست غاية الدين تعقيد الحياة ، بل تبسيطها ٠٠

وفى مجال الاجتهاد لأولئك الذين يحاولون أن يســـتخرجوا الأحكام التى تناسب العصر من نصوص الدين ، لهؤلاء أن يعيدوا قراءة النصوص علهم يجدون مخرجا من هذه المحنة ٠٠ محنة بيت الطاعة ٠٠

أيهمـــــا أقـــدم ؟ ٠٠

ولنتساءل بعد ذلك أيهما أقدم ، الدين أم الزواج ٠٠

ولا أعنى بالزواج تلك الطقوس التقليدية التى يؤديها الشيخ ذو العمامة أو القسيس ذو الطيلسان ٠

ولكنى أعنى الصورة الاجتماعية لاثنين ·· رجل وامرأة يختار كل منهما الآخر فى حرية ليكون شريك حياته ··

ان الزواج أقدم من الدين ·· ان الزواج أصل والدين فرع ·· ذلك لأن الزواج هو روح المجتمع والدين مظهر من مظاهره ·

الزواج هو الأسرة والأولاد : هو النوم والأكل والعمل والسكن ·· أما الدين فهوشعائر وأدعية ليقابل الانسان ربه يوم القيامة ·

ولذلك يجب أن نخضع الدين للزواج ، لا أن نخضع الزواج للدين ·

وتسألنى السيدة فى التليفون :

كيف سأنام معه ؟ كيف سنجلس على المائدة ؟ كيف سنستقبل أصدقاءنا وأقاربنا ·· كيف سنعيش لحظة بلحظة وساعة بساعة فى ظل القانون ؟

ولا أستطيع جوابا ·

الــــزواج المــــدنى ··

لقد أصبح قانون الأحوال الشخصية مؤلما وعســـيرا ومليئا بالثقوب ·

قانون يبيح تعدد الزوجات ، ويشرع بيت الطاعة ، ويعطى الرجل الحق المطلق فى تسريح امرأة قد يكون عايشها عشرين عاما وأنجب منها قبيلة من الأولاد والبنات ··

قانون تنبع روحه من اعتبار الرجل محور الكون وسيده ، واعتبار المرأة خادما طيعا تشتريه بمهر ، وتطرده حين تشاء ، وتبلغ البوليس عنه اذا هرب دون استئذان ·

والآن ما المخرج ؟ ··

سنظل ننادى باصــــلاح قانون الأحوال الشخصية ، ورتق الخروق الواسعة فيه · سنظل ننادى أن يدرك المشرع أن المرأة ليست جسما طريا دون روح · يقال لها نامى ·· فتنام ، وقومى ·· فتقوم، واحبى ·· فتقع فى الحب ·

وليبحث رجال الدين فى أسانيدهم وانى لواثق أنهم سيجدون فى نصوصه ما يعاونهم على اصلاح القانون ، فاذا لم يجدوا ، ولم يحاولوا أن يجدوا ، فليسمحوا لنا بأن نطالب أن يكون الزواج ·· مدنيا ··

وليبحث المأذون له عن عمل آخر ··

صباح الخير ١٩٥٨/٥/٢٢

دون جوان من كل مكان ..

نزوع الرجل الى المرأة ، ونزوع المرأة الى الرجل · قديم فى النفس قدم الانسان ..

وكلمة الحب من أول الكلمات التى عرفها البشر وهى كذلك من أكثر الكلمات دورانا على الألسنة ، فى الأدب والفن ، وفى كل حديثنا وأفكارنا ..

والحب ، أو بالأحرى ، الرجال حين يحبون أنواع ثلاثة ·

أولهما الحب العذرى كما يقول العرب ، أو الأفلاطونى كما يقول الأوروبيون · وتعبير العذرى نسبة الى قبيلة من العرب اسمها « بنى عذرة » كان شبابها وفتياتها يحبون فى اخلاص دون أن يفكروا فى لقاء الجسد بالجسد · ولذلك نسب اليهم هذا النوع من الحب ، أما أفلاطون الذى علق الأوروبيون هذا الحب على مشجبه ، فهو الفيلسوف اليونانى الذى كان يقول « اننا ــ نحن البشر ــ مجرد صورة أو خيال لعالم آخر ، هو العالم المثالى » ..

ومادمنا نحن صورة لهذا العالم الغريب البعيد الخالد ، فان حبنا كذلك حب وهمى وخيالى ، لا يتحقق الا فى عالم الأرواح ..

والمحب الثانى هو الرجل العاشق ، هو الوسط بين الأفلاطونى أو العذرى ، وبين المحب الثالث الذى سأتحدث عنه فيما بعد ، وهو

ذلك الرجل الذى يبدأ حبه اعجابا عارضا ، ثم يتحول الى اشتهاء يصبح رغبة فى الامتلاك ، وتتحول هذه الرغبة بعد ذلك فى المجتمعات الحديثة المنظمة الى زواج وأسرة وحياة اجتماعية منظمة ..

ان المحب الأول يرفض الجسد ، ويكره الاتصال بينه وبين محبوبته ، والمحب الثانى يمزج بين الجسد والروح ، حين يبدأ حبه بنزوع نفسى الى من يحب سرعان ما يتحول الى نزوع جسدى .. أما المحب الثالث فهو يرفض الروح ، انه لا يؤمن الا بالجسد ، والحديث عن النفس أو الروح فى نظره حديث ساذج لا يفكر فيه الا العجائز ، والمخرفون ..

وهذا المحب الثالث هو « الدون جوان » عند الأوروبيين ، والعرب لا يعرفون لهذا النوع من المحبين اسما ..

وكلمة « دون جوان » رغم انها تستعمل كصفة حين تقول «رجل دون جوان » مثلا الا انها كانت فى يوم من الأيام اسما لانسان معين ، مثل روميو وفالنتينو وكازانوفا وغيرهم من أئمة الغرام ..

دون جوان الاسبانى

هل عاش رجل حقيقى اسمه دون جوان ؟ وكيف كانت حياته ؟

عرف الناس أول « دون جوان » فى رواية أسبانية مثلت فى أوائل القرن السابع عشر .

وكان مؤلفها راهبا شاعرا .. كما يحدثنا بذلك الدكتور لطفى عبد البديع فى كتابه عن دون جوان فى الأدب الأوروبى .

والمشهد الأول فى الروايةهو هذا الفارس الطويل القامة ، الأسمر الوجه مع وسامة وجرأة ، وقد تدلى سيفه من وسطه ، وهو يقفز من شباك الحديقة الى احدى غرف قصر أسبانى ضخم ، حيث تجلس الدوقة « ايزابيلا » وهى تنتظر خطيبها الدوق اكتافيو ..

ولم يفت دون جوان حين قام بهذه المغامرة الليلية أن يضع على كتفه عباءة الدوق الخطيب وشارته الملكية ، لكى يستطيع أن يخدع الحراس الذين بثهم أبوها ملك نابلى حول قصر ابنته العذراء ٠

ولكن الضحية أخذت تصيح ، وأقبل أبوها الملك على صياحها وبيده مصباح ، فأخذه الذهول والغضب ، وأمر باعتقال الفارس الفاتك وقتله ٠ ولكن الذى وكل اليه قتل الفارس المغامر كان هو عمه ، فلما عرف أن المجرم هو ابن أخيه ألقاه على ظهر سفينة متجهة الى أسبانيا ٠٠

ورســـت به السفينة على الشاطىء الاسبانى هو وخادمه ، فالتقطته مغشيا عليه صيادة عذراء كانت تقف على الشاطىء ، وكان أحرص ما تحرص عليه هو شرفها الذى تصونه بين أعواد كوخها كالزجاج الهش ٠ ومالبث دون جوان أن خدعها بالقول المعسول ، ثم فر هاربا الى قشبيلية ٠٠

وخدع دون جوان بعد ذلك أحدى الدوقات الاسبانيات بعد أن قتل أباها ، ثم اعتدى على عفاف قروية فى يوم زفافها ، ولقى بعد ذلك مصرعه فى صورة رهيبة ٠٠

ونمت فكرة دون جوان بعد هذه المسرحية الغريبة ٠ وتناولها كتاب وشعراء مختلفون ، منهم الفرنسى كموليير والانجليزى كبايرون وبرنارد شو ٠٠ وغيرهم ٠٠ وغيرهم ٠٠

هل القصة أصل تاريخى ؟ هل يكون دون جوان مثل يوليوس قيصر وكليوباترة وهنرى الرابع وغيرهم من الشخصيات التاريخية التى أضـــاف اليها الفن والأدب أكثر مما حظيت به من حقـائق التاريخ ؟ ٠٠

لا يظن النقاد والمتتبعون للأسطورة والقصـــة فى مراحلها المختلفة ذلك ، وان كان هذا لا يمنع أن فى كل عصر كثيرا من « الدون

جوانات » فى جميع أنحاء العالم ، وأن بعضهم أكثر ولعا بالمغامرات من « الدون جوان » الأصلى ٠٠

ففى أسبانيا نفسها ، موطن القصة ، عاش كثير من الفرسان الذين كانوا يتتبعون النساء الفاتنات حتى يوقعوهن فى حبائلهم . فاذا سقطت الفريسة امتص رحيقها ، ثم انصرف عنها ملولا وقد نسى كل ما كان بينه وبينها من لحظات سعادة وصفاء ٠٠

ومن هؤلاء من كانت علاقته بالملكة الفـــاتنة ايزابيلا حديث الصالونات والقصور وكان اســـمه قريبا من اسم « دون جوان » فارس الحب الجسور والملذات الصاخبة ٠٠

عاشـــق عـــالمى

ولكن ٠٠ لماذا أسبانيا ؟

ان هذا النوع من العشاق موجود فى كل مكان ، ان فيه شيئا من طبيعة المغامر الملول الذى يستهويه كل شىء جديد ، انه يريد أن يجرب كل لذة وأن يشم كل عطر ويذوق كل طعم غريب ، انه يحب بلا حنين ، والحنين والألفة هما اللذان يربطان الانسان بالناس والزمان والأشياء ٠٠

ان دون جوان لا يعرف من عمره الا الساعة التى يعيشها ٠٠ ما قبلها ميت ومابعدها وهم مجهول ٠٠

وهو فارس اللحم والدم ٠٠ ان العقـــل لا يعنيه ، والنفس لا تستهويه ولا يروق له حديثها ، واللذة هى مأدبته التى يدعو اليها لحمه وعظامه كلما سنحت الفرصة ٠٠

وفى الشرق ، لم تزدهر أسطورة مثل أسطورة دون جوان ، فان العرب لم يكونوا يحترمون هذا النوع من العشاق أو يأنسون اليه ٠٠

وربما كان العرب أميل الى النوع الأول ·· الى العاشـق العذرى البرىء الذى يعيش على وهم الحب ،وتعلق الروح بالروح ·

فيلســـوف الغـــرام ··

كان مجنون ليلى عاشقا عذريا ، وكذلك كان قيس لبنى ، وعروة الذى أحب عفراء ، وجميل الذى أحب بثينة ، وغيرهم من عشـاق العرب الخالدين ··

وهناك كاتب عربى عظيم ألف كتابا لطيفا عن الحب ، كان هذا الكاتب وزيرا وابن وزير ، وفقيها فى الدين وابن فقيه كذلك ، ومولعا بدراسة النحو والتفسير والفلسفة ·· وكذلك الحب ··

هذا الكاتب الظريف العالم العاشق اســـمه محمد بن حزم الأندلسى · واسم الكتاب « طوق الحمامة فى الألفة والآلاف » أى « فى الحب والمحبين » ··

وقد صور الكاتب العالم الوزير العاشق فى كتابه ، وهو الكتاب الغرامى الوحيد فى أدبنا العربى ، أشكال الحب وأخلاق المحبين وما يكون بينهم من بين وهجر ولقاء ووصل ، واشارات بالعيون والأيدى وحديثهم بالحكم والأمثال والاشعار حين يحضر العزول الواشى أو الرقيب النمام ·

ولكن العاشـــق يلوم هذا « الدون جوان » الكاذب فى ثنايا كتابه حين يتطرق لذكر عيوب العشاق ·

ان العاشق المحترف الكذاب يحب من أول نظرة ، وليس هذا من شأن العاشق الحقيقى ، فان الحب من أول نظرة ليس حبا فى نظر الامام ابن حزم ، ولكنه شهوة مغلفة بغلاف الحب فاذا انطفأت الشهوة ماتت ، والامام العاشق يقول « وانى لأطيل العجب فى كل من يدعى انه يحب من نظرة واحدة ، ولا أكاد أصدقه ، ولا أجعل حبه الا ضربا من الشهوة ، وما لصق بأحشائى حب قط الا مع الزمن

الطويل ، وبعد ملازمة المحبوب لي دهرا ، واشتراكي معه في كل جد وهزل » ٠٠

والعاشق المحترف يزهد من الحب بعد أن يقضي من محبوبه حاجته التي طلبها ، ولكن العاشق الحقيقي عند الامام الشيخ هو ذلك الذي يتمكن منه الحب كلما ازداد من محبوبته اقترابا ٠٠

« ومن الناس من يقول : ان دوام الوصال يقتل الحب ٠ وهذا قول خاطيء ٠ انما ذلك يكون لأهل الملل ، بل كلما زاد الانسان وصلا زاد اتصالا ٠٠

دعني أخبرك أني ماارويت قط من ماء الوصول الا وازددت ظمأ ٠

ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات ٠٠

ان الصورة الكاملة للسعادة في الحب يرسمها « التي لا يجد الانسان وراءها مرمى ، فما وجدتنا الا مستزيدا » ٠٠

السـعادة في الحب ٠٠

هذا الامام العاشق حين يقول :

« وما في الدنيا حالة تعادل حالة محبين ٠٠

اذا عدما الرقباء وأمنا الوشاة وسلما من البين ، ورغبا عن الجهر ، وبعدا عن الملل ، وفقدا العزال وتوافقا في الأخلاق ، وتعادلا في المحبة ، واتاح الله لهما رزقا مدرارا ، وعيشا هانئا ، وزمانا هادئا ، وكان اجتماعهما على ما يرضي الرب في حال ، وطالت صحبتهما واتصلت الى وقت حلول الموت الذي لا مرد له ولابد منه ، هذا عمل لم يحصل عليه أحد ، وحاجة لم تقض لكل طالب » ٠

دون جـــوان عـــربى

وكان للامام العاشق صديق عزيز ٠٠ اسمه عامر بن أبى عامر كان دون جوان زمانه ٠٠

اسمع ابن حزم يصفه فيقول .

« كان من أهل الأدب والذكاء والنبل والخلق مع الشـــرف العظيم ، والمنصب الضخم والجسم العريض ٠٠

أما حسن وجهه وجمال صورته فشىء تقف الحدود عنده وتكل الافهام عن وصف أقله ٠

ولقد كانت الشوارع تخلو من المارة ويتعمدوا الحضور على باب داره فى الشارع الآخذ على النهر الصغير على باب دارنا ٠ لا لشىء الا للنظر اليه ، ولقد مات من محبته نساء كن علقن أوهاما به ، فخانهن مما أملنه منه » ٠٠

ثم يقول عنه :

« وهو ممن لبس لباس الحب وهو ملول ، كان يرى الجارية فلا يصبر عليها ، ويحيق به الغم والهم ما يكاد يقتله حتى يملكها ، ولو كان دون ذلك شوك القتاد ، فاذا أصبحت ملكه صارت المحبة كراهية ، وصار الأنس بها شرودا والقلق اليها قلقا منها ٠٠

وأما أصدقاؤه فانه تبدل بهم فى عمره على قصره مرارا ، وكان لا يثبت على صديق واحد ٠

وأظنك الآن تدرك لهجة ابن حزم القاســـية فى حديثه عن صاحبه الدون جوان العربى عامر بن أبى عامر ٠٠

لمـــــاذا ؟ ٠٠

وجدنا أن حظ العرب قليل من أسطورة الدون جوان بينما انتشرت قصته وأسلوب حياته فى أوروبا ٠

ولعل فى أوروبا كثيرا من نزعة المغايرة والتجديد ، والوثوب من مجال الى مجال ومن تجربة الى تجربة ، بينما اصطبغ الطبع العربى بالثبات والاستقرار ..

ولعل أوروبا كانت تقدم الجسد على الروح بينما قدم الشرق الروح على الجسد ..

صباح الخير ١٩٥٩/٢/٥

باب النجار مخلع !

فى عالم الدراسات النفسية المتصلة بالجنس رجلان عظيمان ، لا يذكر احدهما الا ذكر معه الآخر ، وهما سيجموند فرويد وهافيلوك أليس ·

ولثانيهما ، الدكتور هافيلوك أليس ، مؤلفات علمية كثيرة فى الجنس ، منها موسوعته ·· الحياة والجنس ، وسيكولوجيا الجنس ، والدافع الجنسى ، وغيرها ··

وقد صدرت فى لندن فى الأيام الأخيرة سيرة جامعة للدكتور هافيلوك أليس ، تعتمد على خطاباته الى زوجته ، وخطابات متبادلة بينه وبين زميله وغريمه سيجموند فرويد ، ومعلومات صغيرة أخرى عن حياته ، ضمها المؤلف الى بعضهـا ليكتب سـيرة حياة هذا الفيلسوف العظيم ·

وأغرب ما فى هذه الدراسة هو ان أستاذ الجنس الأول ·· كان عاجزا من الناحية الجنسية ··

لقد ولد « أليس » لأم جميلة ، وأب كان بحارا يجوب المحيطات ، ولا يعود الى الأم المنتظرة الا اذا أدركه السأم ، أو ضاقت به زرقة السـماء والبحر ، وعاش الصبى فى حضـن أمه بين أربعة من الشقيقات · فتحولت عواطف أمه كلها نحوه ·· وشب الصبى رقيقا وديع التقاطيع ، كأنه فتاة خجول ·

وكان غرامه الأول بفتاة تدعى أوليت شراينر ، وقد رفضت الفتاة حبه بعد اللقاء الأول بينهما لأنها لم تقتنع برجولته · ثم أحب فتاة أخرى تدعى أديث ليس ، وقبل أن يتقدم للزواج منها كتب اليها خطابا يقول فيه :

« اني لست عاشقا حقيقيا ، ولا أستطيع أن أكون كذلك ·· وسوف تجدينى مخيبا لآمالك كزوج حقيقى أو عشيق » ·

والخطاب كله مؤثر ، وبعده قبلت أديث الزواج منه ، ومؤلف الترجمة يقول ان اديث كانت مريضة بالبرود الجنسى ، ولذلك فقد طالت حياتهما (الزوجية) · وقد كتبت أديث نفسها رواية طويلة اسمها « أعشاب البحر » ، وتدور حول عامل منجم أصيب فى حادث، فأصبح عاجزا ··

ورغم هذه الحياة الجنسية الخائبة ، فان « اليس » هو رائد دراسات الجنس العظيم ، وكتاباته أدق صورة للاحساس الجنسي والدوافع الجنسية وتحليلاته أوضح وأكثر صـــراحة من تحليلات فرويد · وهو بلا شك صاحب الفضل الأكبر فى تدعيم هذا العلم . ونقله من ميدان الظن والتخمين الى ميدان الحقائق العلمية ·

أليس هذا غريبا ؟!

صباح الخير ١٩٥٩/٦/١١

لم يكن حبا عذريا !

أنا مضطر أن أعلن أسفى للعشاق العذريين ، أو الأفلاطونيين بتعبير هذا العصر ، وقد خيل لى أن زعيمهم وامام مدرستهم فى الحب لم يكن ، هو نفسه ، يؤمن بهذا المذهب ..

فقد قرأت ديوان مجنون ليلى الذى أصدره حديثا الأستاذ عبد الستار فراج . ووجدت بعد قراءته أن حب قيس وليلى كان مثل حب الناس جميعا .. تختلط فيه الطهارة بالرغبة ، والشهوة بالتعفف ، والروح بالجسد ، وكانت لهما معا ليالى .. وليالى ..

فقيس يقول فى أحد الأبيات أنه قد ضم ليلى الى صدره ، حتى ظن ان ناره قد انطفأت ، فلم تطف النيران ، بل زاد وقودها :

ضممتك حتى قلت نارى قد انطفت

فلم تطف نيرانى، وزاد وقودها

ويقول فى بيت آخر ، مخاطبا زوجها :

فان كان فيكم بعل ليلى .. فاننى

وذى العرش قد قبلت ليلى ثمانيا

وهناك قصة ذكرها المؤرخون فيما حدثونا به عن قيس وليلى :

خرج أبو ليلى وزوجها فى سفر الى مكة ، فأرسلت ليلى الى المجنون ٠٠ فأقام عندها ليلة ، وأخرجته فى الفجر ، وقالت له : زرنى كل ليلة ، مادام قومى مسافرين ، فكان يزورها حتى رجعوا من سفرهم ٠٠ وقال فيها فى آخر ليلة حين ودعته :

تمتــع بليلى ، انمــا أنت هــامة

من الهــام يدنو كل يوم حمــامها

والبيت زاخر بالرغبة فى الحياة ٠٠ وفى ليلى ٠٠ وفى التمتع بحبها قبل أن يزوره الموت ٠٠

لقد ظلموه اذن حين جعلوه نموذجا للمحب الخائب ، الذى يتعلق بوهم ، ويجن فى سبيل شبح امرأة ٠٠ لأنه كان فى الحقيقة عاشقا يجرى فى عروقه دم ورغبة وحياة ٠٠

وظلمونا أيضا ، لأنهم أوهمونا أن مثل هذا العاشق يمكن أن يوجد ٠٠ حتى فى بلاد الصحراء المحرقة التى يتدفق كل شىء فيها لهيبا ٠٠ حتى العواطف ٠٠

صباح الخير ١٩٥٩/٦/١٨

الحب منذ ١٠٠٠ عام

كتاب عن الحب ، عندما يكتبه أديب أو شـاعر ، بل حتى فيلسوف ، أمر لا يثير كثيرا من الدهشة ··

ولكن عندما يؤلف هذاالكتاب شيخ من شيوخ الدين ، وامام من أئمته ، فذلك ·· مثار دهشة كبيرة · فاذا كان هذا الشيخ قد عاش فى زمن متزمت ، يعتبر الناس فيه الحب لهوا وعبثا ·· ويعتبرون الحديث عنه عيبا ينقص من قيمة الرجل ·· فتلك اذن مخاطرة ··

قد تحمل هذه المخاطرة ، منذ حوالى عشرة قرون ، رجل من الأندلس ، كان أبوه وزيرا ، تولى هو الوزارة مرة ، وكان الى جانب ذلك عالما من علماء الفقه والدين ، وله عشرات الكتب فى كل فروع العلم ، لم يخلد منها الا هذا الكتاب ·· وهو ليس كتابا فى الفقه ولا فى العلم ، ولكنه كتاب فى الحب ··

كان محمد بن حزم ، مؤلف هذا الكتاب ·· رجلا ثريا ، تربى فى بيت أبيه الوزير ، ولكن هذا الثراء لم يصـرفه عن القراءة والاطلاع ·· قال له مرة أحد خصومه ، وهما يتحاوران :

ـ لقد بذلت فى طلب العلم أكثر مما بذلت ، فقد كنت أنت تطلب العلم فى ضوء مصباح من الذهب ، وكنت أنا أسهر الليل فى ضوء شمعة ··

وأجابه ابن حزم :

ــ هذه حجة عليك ، لا لك ، لأنك طلبت العلم لتشتهر بين الناس، ويرتفع قدرك ، ويكثر مالك ، أما أنا فقد كان مالى كثيرا ، وقدرى عاليا ، وما طلبت العلم الا للذة العلم ··

ووصل ابن حزم من لذة العلم الى ما أراد · فكتب أربعمائة كتاب ، عدد صفحاتها ثمانون ألف ورقة ، أشهرها وأخلدها كتاب لا تزيد صفحاته عن مائتى صفحة ، وقد سماه صاحبه « طوق الحمامة فى الألفة والآلاف » ··

فلنقرأ معا هذا الكتاب لنعرف كيف كان آباؤنا يحبون ، وكيف كانوا يفكرون فى الحب منذ ألف عام ··

لقد سأل الشيخ نفسه أولا ·· ما الحب ؟

وأجاب :

ــ ان هناك أنواعا من الحب ، فهناك الأم التى تحب ولدها مثلا أو الرجل الذى يحب أخاه ·· وتلك محبة القرابة ··

وهناك المحبة التى تكون بين زميلين فى عمل واحد أو بين انسانين مشتركين فى أهدافهما وميولهما ، وتلك هى الصداقة ··
وهناك الذى يحب الجنس الآخر ، ولكن حتى يبلغ لذته ، ثم يموت الحب بعد ذلك ·· وهذه هى الشهوة ··

وكل هذه الأنواع أنواع زائلة من المحبة ··

وأخيرا ·· هناك محبة « العشق » الصحيح ، الذى يتمكن فى النفس ·· ويتغلغل فيها ، ولا يشفى الانسان منه الا بالموت ··

العشق كلمة « مشبوهة » فى أيامنا هذه ، فقد أوشك معناها أن يصبح مرادفا للشهوة واللذة العاجلة ، ولكنها فى أيام ابن حزم كانت ماتزال كلمة شريفة محتفظة بطهارتها ، فقد كانوا يقولون مثلا ان ·· قيس كان يعشق ليلى ، رغم أنه لم يكن بين قيس وليلى من مظاهر الحب الا ·· التنهدات والآهات ··

ولكل شىء فى هذه الدنيا علة ، والشيخ يسأل نفسه ·· ما علة الحب ؟

ولكى يجيب على هذا السؤال يلجأ الى نظرية فلسفية ظريفة :

أنت وأنا ، كل انسان فى هذه الدنيا مكون من جزءين ، الجزء الأول هو ما تأكل وتشرب وتتحرك به ، وتلمسه وتتحسسه وتراه اذا وقفت أمام المرآة ·· هو جسمك ··

والجزء الثانى لا تلمسه ولا تتحسسه ·· ولا تراه اذ وقفت أمام المرآة ، ولكنه مع ذلك هو سر حياتك ·· هو روحك أو نفسك ··

والانسان يحب بنفسه لا بجسمه ··

والفرق بين الحب والشهوة ، أن الحب ينبع من النفس ، وأن الشهوة تنطلق من الجسد ··

ونفسك ليست كيانا مستقلا عن بقية الأنفس ، كذلك نفسى ، ونفس كل الناس ··

ان كل نفوسنا جزء من نفس كبرى واحدة ، موجودة فى مكان ما من العالم ·· وهى لا تفنى أبدا ، وحين يولد انسان ينفصل جزء من هذه النفس ، ويدخل فى جسم المولود ، فتدب فيه الحياة ··

ولكن هذه النفس التى فى أجسادنا تحس بالغربة دائما ، تحس كأنها تائهة وسط هذه الأعضاء التى يتكون منها جسد الانسان ، وسط هذه الأذرع والسيقان والأضلاع والأمعاء ، فتبحث عن نفس أخرى مشابهة لها ، لكى تمتزج بها ، وتفنى فيها ··

فاذا وجدت النفس التى تشابهها ·· وقعت أنت فى الحب !

ولو كان الحب يتوقف على الجسد ، لما رأينا شابا يحب فتاة دميمة الشكل ، عوراء مثلا أو عرجاء ، فانه فى الواقع يحب نفسها ، أو اذا شئت الدقة ، فان نفسه هى التى تحب نفسها ··

ولو رأيت امرأة تفضل رجلا على آخر ، وتتبعه الى أقاصى الأرض ، رغم أن الثانى أجمل وأكثر شبابا من الأول .. فلا تتعجب ولا تدركك الحيرة ، فان نفســـها قد امتزجت بنفس هذا الرجل ، وروحها هى التى تطير وراء روحه .. هذه بالطبع نظرية بالية لو فكرت فيها على ضوء الدراسات الحديثة فى علم النفس ، والاجتماع، وتشريح الأعضاء ، ولكنها مع ذلك نظرية خفيفة الظل ..

ولازلنا نتساءل حتى اليوم :

ـ هل يقع الحب من أول نظرة ،أم الحب ينتج عن كثرة الرؤية والألفة والاختلاط ؟

والشعراء يقولون عادة ان الحب يقع من النظرة الأولى . وقد تغنوا كثيرا بهذا النوع من الحب .

ولكن ابن حزم لا يرى هذا الرأى ، فالحب من النظرة الأولى ليس حبا .. انه شهوة ، انه دليل على قلة الصبر ، وسرعة الملل ، وهو ينطفىء حالما ارتوى ، لأن أسرع الأشياء نموا أسرعها فناء . وأبطأها ولادة أطولها عمرا ..

أما شعار ابن حزم فهو « مادخل عسيرا لم يخرج يسيرا » ..

وكثير من أصدقائه يفضون اليه بعواطفهم ، ويقولون له انهم أحبوا من أول نظرة ، ولكنه لا يصدقهم ، ويقول لهم ان هذا الذى توهموه حبـــا ، ليس فى واقع الأمر ، الا رغبة عارمة متأججة ، سرعان ما يطويها الملل أو النسيان ..

وتثبت الأيام دائما صحة رأيه ..

ويحكى لنا ابن حزم قصة أحد أصدقائه ، واسمه عامر بن أبى عامر .

كان عامر بن أبى عامر ، أجمل شباب مدينة قرطبة ، حتى لقد بلغ من جماله أن كانت النساء تقف على الجسر ، لتشاهده وهو يغادر منزله على النهر أو يعود اليه ..

وكم امرأة شغفت بحب عامر حتى كاد الحب يقتلها لولا أن تداركتها رحمة الله !

وكان عامر هو الآخر مفتونا بالنساء فكان لا يسمع بامرأة جميلة حتى يسعى الى امتلاكها · فاذا كانت حرة أخذ ينصب لها مكائده حتى يظفر بها ، واذا كانت جارية سعى حتى يشتريها من سيدها ، مهما بذل فى سبيلها من المال ··

وكم من مرة أتى عامر الى صديقه محمد بن حزم يشكو اليه الحب ، وكأن فى كل مرة يقول انه سيموت لو لم يظفر بمحبوبته ، وأنه قد أحبها منذ رآها أول مرة · وماتكاد تمر أيام حتى يعرف ابن حزم أن عامر قد ظفر بمحبوبته ، ثم يسأله عنها فاذا هذا الحب قد أصبح كرها ، وذلك الشغف قد صار مللا ··

ثم يضرب الشيخ مثلا للحب الصحيح بحالته هو :

لقد عرف الحب مرة واحدة ، ولم يتمكن هذا الحب من قلبه الا بعد طول المشاهدة ، وكثرة الألفة ، وبعد أن اشتركا فى الجد واللعب ، ثم ماتت محبوبته منذ زمن طويل ، فلم ينسها بعد ذلك أبدا ، وأصبح « قتيل الهموم فى عداد الأحياء ، ودفين الأسى بين أهل الدنيا » ·

كان أجدادنا اذا لم يستطع أحدهم الاتصال بمن يحب ، بعث اليها مرسالا ··

وكانوا يسمون هذا المرسال ·· السفير ··

ولاختيار السفراء شروط ··

كانوا لا يبعثون شخصا عاديا قط ، لأنه يلفت النظر ، فاما أن يكون السفير شخصا خاملا لا يأبه أحد لخروجه أو لدخوله مثل الطفل الصغير أوالخادم الحقير ··

واما أن يكون شخصا كبيرا جليلا لا يشك فيه أحد ، وما أكثر هذا فى النساء ولاسيما ذوات العكازات والمسابح والأثواب الضافية السوداء ··

وهناك أيضا الدلالة والماشطة والنائحة (الندابة) والمقرئة .

وكانت لقرطبة فضائحها عن بنات القصور اللائى كشف الحـ أستارهن ..

وكان السبب فى ذلك عادة .. هم السفراء ..

ولنترك ابن حزم يتكلم فى لغته هو ، ليحدثنا عن البلاء الذ يحدث بفضل السفيرات العجوزات ..

« وكم انكشفت فى قرطبة حجب مصـونة وأسـتار كثيفة ومقاصير محروسة بفضـل هؤلاء النسـاء ، وكم من فتاة منيعـ أصبحت سهلة ، وعسيرة أصبحت يسـيرة وبعيدة أصبحت قريبـ بفضل أولئك السفيرات أسـبل الله علينا وعلى جميع المسـلمين ستره » ..

– هل يضعف الحب بعد نوال الوصال ؟

هل الحب يتغذى بالحرمان ، وينمو بالمعطش الى الوصل ، فاذ أطعمته من اللذة واللقاء .. مات ؟

كثير من الناس يعتنقون هذا الرأى ، ولكن ابن حزم يجده رأيا مقلوبا على رأسه . فالطبيعى أن يحب المحبوب أن يلتقى بمحبوبته . وأن يتمتعا معا بأوقاتهما السعيدة ، وهو يجعل من نفسه مثالا للمرة الثانية . فيقول انه كلما شرب من ماء الحب ازداد ظمأ ، وقد وصل أحيانا الى غاية الغايات فى الوصال ، الغاية التى ليس بعدها زيادة، وتكرر ذلك مرات ومرات ، فما أحس بسأم ، بل كان فى كل مرة يلتقى فيها بحبيبه كأنه يلتقى به لأول مرة ..

ان الحب صداقة طويلة لا يفنيها الا الموت ..

ويقص علينا ابن حزم قصة :

جلس أحد الولاة مع أصحابه يتسـامرون بالليل ، فسألهم :

– من أسعد الناس ؟

ـ أنت ..

ـ وأين ما أعانيه من قيادة الجيوش وتنفيذ أوامر الخليفة ؟

ـ اذن .. فهو الخليفة ..

ـ وأين ما يعانيه من الثوار الذين يخرجون عن طاعته ؟

ـ فمن اذن أيها الوالى ؟

فأجابهم قائلا :

ـ أسـعد الناس .. زوجان فى كوخ رزقهما قليل ولكنه لاينقطع ، يحب بعضهما بعضا ، قد رضيت به زوجته ، ورضى بها ولا يعرف الوالى ولا الوالى يعرفه ..

هذا هو الحب الصحيح فى نظر ابن حزم وهو الحب الذى لايزداد مع الأيام الا رسوخا وقوة ، أما أولئك الذين يقولون أن الوصال يميت الحب ، فهم لا يقصدون الحب بكلمتهم بل الشهوة ..

ولكن الحب ليس سعادة كله ..

فهناك الهجر ، وهناك الفراق ..

والهجر نوعان .. هجر العتاب وهجر الملل ..

هجر العتاب لذيذ ، لأن الرضا يأتى بعده ، وهل هناك منظر أجمل من منظر حبيبين يتعاتبان ، حين يبتدىء المحب فى الاعتذار ، فتارة يدلى ببراءته ، وتارة يطلب العفو ، ويقر بالذنب ، والمحبوب ينظر الى الأرض ، وهو يتكلف عدم الأهتمام ، فاذا صمم على الصفح والمسامحة ابتسم ..

أما هجر الملل ، فابن حزم لا يريد أن يتحدث عنه ، فالمعشاق لا يملون أبدا ..

ان الملل يصيب الشهوة .. ولكنه لا يصيب الحب ..

أما الفراق فهو أوجع من الهجر ، وكلاهما كما يقول ابن حزم :

بلية سوداء وموت أحمر ..

وبعد ..

فهذا الكتاب كتاب فريد فى ثقافتنا العـــربية ، فبينما نجد الشعراء العرب .. الا القليل منهم .. حين يتحدثون عن المرأة والحب ، يهتمون بالجسد ، وتتضح ألفاظهم بالشهوة ، ويحكمون الوصف والتشبيه للصدر والعجز ، نجد هذا الرجل الورع، محمد ابن حزم ، يتحدث عن الحب فى تصوف ، وفى ألفاظ مليئة بالاجلال للمرأة ، والاحترام للعاطفة ، وكأن وراء كل كلمة من كلماته قلبا آدميا نديا بالغرام .

روزاليوسف ١٩٥٩/٩/٧

رحلة على الورق

كل الكتاب يكتبون عن الجنس

في القصة الشهيرة ، عشـــيق الليدى « تشاترلى » للكاتب الانجليزى د • ه • لورانس ، تعود البطلة من الكوخ الصغير حيث التقت بعشيقها الحارس أول لقاء ، الى قصر زوجها اللورد العاجز المقعد ، الذى حطمت الحرب نفسيته وجسده ، وهى تقفز الطريق قفزا بعد أن كانت تحس ، منذ ساعات بأن حياتها عبء على كتفيها •

يقول د • هـ • لورانس ، وهو يصف تلك العودة فى أسلوب شعرى غنى بالصور :

« وبينما كانت تسرع فى طريقها الى البيت ، لاح لها العالم كأنه حلم ، وبدت لها أشجار الحديقة شامخة كأنها قلوع سفينة عائدة من رحلة ، بل لقد تخيلت أنها هى نفسها سفينة ألقت مراسيها عند المد ، فدخلت الميناء هادئة مطمئنة ، وأحست أن المنحدر المتجه نحو البيت كان يفيض بالحياة ، وان بعده يقبع الموت » •

وقصة د • هـ • لورانس « عشيق الليدى تشاترلى » كانت أول صيحة فى هذا القرن ، تقول : ان الجنس له أدب !

وقد قالت ذلك بأوضح العبارات ، فهى قصة زوجة من الطبقة العليا الانجليزية ، متزوجة من لورد شاب ، كانت تحبه ويحبها ثم مالبثت الحرب أن أقعدته الى كرسيه ، وجعلت الفاجعة قلبه مملوءا

بالمرارة والكراهية ، تلتقى السيدة النبيلة فى أحد الأيام بحارس حديقتها ، الرجل الفارع الطول ، الغليظ الطبع ، الذى يتحدث بلهجة الفلاحين ، والذى كان فى الشرق فلما عاد الى وطنه لم يجد الا هذا العمل المنزوى الصغير ، وتحب السيدة هذا الحارس ثم ما تلبث أن تستسلم له ··

ولا تطيق السيدة هذا النفاق الاجتماعى الذى تعيش فى ظله ، فتهجر زوجها الى عشيقها ، ويفران الى لندن ، ليتقاسما السعادة والفقر . رغم نصح أبيها وشقيقتها ، اللذين حاولا أن يدفعاها الى أن تقنع بأن تنال سعادتها اختلاسا ، وتظل زوجة وعشيقة فى نفس الوقت ·

ولقد أثارت هذه القصة من الضجة فور صدورها مادفع مؤلفها الى الهجرة من انجلترا ، البلد المتحفظة الكابية على حد قوله ، وان ظل حريصا على طرق نفس الموضوع فى قصصه المختلفة بعد ذلك ، لأن وراء هذا الالحاح الدائم على هذه الفكرة كانت هناك « نظرية » فى الحياة والسلوك تعيش فى ذهنه ووجدانه ·

والهيكل العظمى لهذه النظرية هو أن الجنس ليس مظهرا لنشاط الانسان بل هو أصل هذا النشاط إنه يقول : ان العالم قد شاخ وهرم حين عاش فى الفكر ولابد له لكى يعود الى شبابه أن يعيش فى الحياة · والصورة المثالية للانسان هى انسان القبائل البدائية ·· فى حوض الامازون فى أمريكا الجنوبية ، وفى غابات أفريقيا وأحراش استراليا واذا أرادت أوروبا أن تسترد شبابها ، وأن تنجو من ذلك الافلاس النفسى الذى تعانيه ، أن تعود الى هذه الصورة المشمسة المشرقة للحياة ·· وكانت أوروبا المقعدة الكسيحة، بل ثقافتها العقلية ، وحضارتها المحصورة بجوار المدفأة ، بين دفتى الكتب هى جسد اللورد المقعد الكسيح الذى يجلس على كرسيه المتنقل ، ويناقش الفلسفة والدين بمرارة وذكاء خبيث ··

وكانت السيدة هى روح أوروبا التى تبحث عن أكسير لتسترد به شبابها ·· فلم تجد هذا الأكسير الذى يعنى بالنسبة لها ، الحرية واسترداد بهجة الحياة ، ألا بالاقتران الجسدى العائد من الشرق ·

كانت تلك هى الفكرة التى دأب لورانس على الاشارة اليها ، ولم يلتفت كثير من القراء المتعجبين والنقاد المتعجلين أيضا الى تلك الفكرة ، بل لقد أخذوا القصة بظواهرها ، وسرعان ما ارتدوا مسوح الوعاظ ، وأخذوا يصيحون ويهللون ·· هذا جنس ·· هذا هذا اسفاف ··

وتلاشت الضجة تدريجيا ، ومات لورانس فى منفاه الذى اختاره لنفسه ، وبعد سنوات أصدر جيمس جويس الكاتب الانجليزى الكبير قصته « يوليسيس »·

وقصة يوليسيس ، قصة نادرة فى تاريخ الأدب فهى تستغرق ألف صفحة من القطع الكبير المزدحم بالكلمات ·· ان الكلمات دافئة كما ترى ، ولكنها من مذكرات امرأة عاشقة ·· مذكرات تحرص المرأة على بقائها طى الكتمان ، فهى تعترف فيها بكل ما أحسته ·

هناك فى أدبنا الى جوار تلك النماذج ، نماذج أخرى - لأمين يوسف غراب ويوسف ادريس وعبد الحميد جودة السحار ··

حكاية الجنس ·

اذا كان الأمر عندنا وعندهم واحدا فى الشرق والغرب ، فماهى حكاية الجنس اذا ؟

لعل أوضح الحقائق بالجنس هذا البيت الشعرى الموجز للشاعر العظيم ت · س · اليوت ··

« المولد ، والاتصال الجنسى والموت هى كل الحقائق »

الجنس اذن واقعى فى حياتنا ·· الميلاد والموت ، وهو بهذا المعنى أكثر شمولية من مظاهر كثيرة أخرى ، انه أحد الأطوار الثلاثة التى تربطنا بالأرض ·

ان الرواية ليست الا قطعة من الحياة ، والرواية تخلو من الجنس ، كمثلث ينكسر أحد أضلاعه ··

لكن هناك فرقا بين الجنس حين يتحدث عنه الروائى ، والجنس حين يتحدث عنه الانسان العادى ..

وهذا الفرق يرجع الى طبيعة الرواية ، وطبيعة الحياة العادية.

ان الحياة العادية تنحدر كنهر متدفق بالماء والطمى والزبد والموج والأعشاب ..

وفى هذه الصفحات الألف ، يحكى جويس قصة ٢٤ ساعة فقط من حيـــاة زوج وزوجتـــه فى احدى ضواحى دبلن عاصـــمة أيرلنده ، وقد لجأ الـــكاتب فيهـــا الى طـــريقة معـــروفة بالمونولوج الداخـــلى ، وهى أن يترك الـــكاتب أبطـــاله يفكرون دون تنظيم ، والانسان عقله لا يخلو من التفكير ، وان ظل صامتا ، وهو حين يفكر يثبت ذهنه فى الدقيقة الواحدة من الماضى الى الحاضر الى المستقبل دون ترتيب ، فهو يذكر مباذله وشهواته ولحظات ضعفه ويسترجع تفاصيلها دون ان يحمر وجهه ، وهو يعيش فى أمنياته وأحلامه مهما كانت متطرفة أو شريرة أو داعرة .

ولذلك فقد امتلات قصة جويس بالمشاهد الجنسية المثيرة ، لأنه كان حريصا على أن يوفى فى طريقته فى الكتابة حقها .

وحين صدرت « يوليسيس » أثارت نفس الضجة التى أثارتها « عشيق الليدى تشترلى » وصاح نفس الطراز من النقاد المتعجلين ينادون بأسفافها وسقوطها ، بل لقد تعدى السخط صفوف النقاد الى الأدباء أنفسهم ، وقال برنارد شو ساخرا انه ألقى بنسخته من الرواية الى النار دون أن يختلج له جفن ..

وتكررت نفس المأســـاة وهجر جيمس جويس لندن الكابية المتحفظة الى باريس حيث لا يعرفه أحد ، ولا يرجمه الناس بنظرات كالحجارة ، ثم مالبثت الضجة أن أغفت مرة ثانية ، ومات جيمس جويس ولكن روايته أضيفت الى التراث الأدبى العالمى لتتخذ مكانها الى جانب « عشيق الليدى تشترلى » .

وفى العام الماضى ، تكررت نفس الضجة فى أمريكا • وذلك اثر صدور قصة « لوليتا » للكاتب الروسى المولد الأمريكى الموطن ، فلاديمير نابوكوف ، وهى تتجدد مرة ثانية الآن ، حول مسرحية تنيسى وليامز الأخيرة ، التى تحولها استديوهات هوليود الى فيلم سينمائى •

والمتفرج العربى يعرف الكثير من مؤلفات تنيسى وليامز التى حولت الى أفلام سينمائية ، ومنها « وشم الوردة » •• « وعربة اللذة » و « الزوجة العذراء » أو « قطة على سطح صفيح ساخن » وغيرها •

والضجة هذه المرة كالعادة تنتقل من أمريكا لتطوف العالم كله . وليسأل النقاد والقراء أنفســـهم •• أين مكان الجنس فى الأدب ••

عنــــدنا ••

ولتلك الضجة ، عندنا أيضا ، تاريخ •

والاتهام يحلق فوق رءوس كثير من كتابنا ، وبالأخص احسان عبد القدوس الذى لا يجد النقاد عادة مثالا يستشهدون به على رأيهم الا قصصه •

وبعض النقاد يتعجلون كالعادة فى هذه النظرة •

فان معظم روائيينا العرب ، لا تخلو رواياتهم من عنصـــر الجنس •

ان نجيب محفوظ مثلا ، يتوقف كثيرا عندمفاتن المرأة الجسدية، كما يبسط فى كثير من الأحيان ، بعض المشاهد الجنسية فى رواياته .

واليك الدليل :

يقول نجيب محفوظ فى روايته الخالدة قصر الشوق ، وهى الجزء الأول من ثلاثيته :

وأخيرا ، بدت زنوبة وقد انحسر طرف ملاءتها عند أعلى الرأس عن منديل قرمزى ذى أهداب منمنمة ، لمعت تحته عينـــان سوداوان ضاحكتان تنفث نظرتهما لعبا وشـــيطنه ، واقتربت من العربة ومدت يدها بالعود ، فتناولته امرأة ، ثم رفعت قدما الى أعلى العربة ، فاشرأب ياسين بعنقه ، وهو يزدرد ريقه ، فلمح ثنية الجورب معقودة فوق الركبة على أديم بدا منه صفاء عذب خلال أهداب فستان برتقالى ·· « آه لو نغوص على الأريكة فى الأرض مترا ·· رباه ·· ان وجهها أسمر ، ولكن لحمها المكنون أبيض ·· أو شديد الميل للبياض · فكيف يكون الورك ·· وكيف تكون البطن ·· البطن ياهود » ، وثبتت زنوبة راحتيها على سطح العربة وتحاملت عليها حتى حطت ركبتها على حافة العربة ثم مضت تتحرك رويدا على أربع ·· « يالطيف ·· يالطيف ·· آه لو كنت على باب البيت ·· أو حتى فى دكان محمد الطرابيشى ·· انظر الى ابن الكلب كيف يحملق فى الطابية بعينه ·· ما أجدر أن يسمى نفسه منذ اليوم محمد الفاتح · ·يالطيف ·· يامنقذ » ، وأخذ ظهرها يستقيم حتى نهضت واقفة على سطح العربة ، فتحت الملاءة ، وقبضت على طرفيها ، وجعلت تهزها بيدها هزات متتابعات كأنها طائر يخفق بجناحيه ، ثم لفتها حول جسمها لفة محكمة ، ثم جلست عند مؤخرة العربة ، فتكور ردفها تحت الضغط ذات اليمين وذات الشمال ·· الخ ··

هل كان نجيب محفوظ يستطيع أن يقدم لك شخصية « ياسين » أحد أبطال قصته ، وهو الشهوانى المندفع ، بغير هذا الأسلوب ·

وتوفيق الحكيم فى الرباط المقدس ينقل لك هذا المشهد :

« وطوقنى والتصقت شفاهنا ، وتنفسنا والعين فى العين ، فخيل الى أننى أشرب أنفاسه شربا ، وأنها تهبط الى ســـويداء قلبى ، فأدركت عندئذ أن جســـدى كان جوعان حبا ·· وان هذا الرجل يستطيع أن يصنع فى مايشاء ·· وهنا شعرت بأصابعه اللبقة تفك أزرار ثوبى وتجردنى منه بغير لهفة ·· ولا عجلة · ·ثم جعل يعجب بى وأنا هكذا ، ثم أخذ يداعبنى بيده وفمه ·· انها عين القبلة التى

عرفتها فيما مضى ·· ولكنها من قبل كانت تطبع على جسد هامد ، يتمنى فى قراراته الخلاص ويود لو يدفع عنه تلك المداعبات الثقيلة التى يتكلف احتمالها تكلفا · لقد خيل الى أنى أريد بدورى ان أغطى جسمه بقبلاتى ·· الخ ··

والفنان يقف على حافة هذا النهر ، ثم يختار ، أنه يشاهد كل شىء ، ويتتبع كل التفاصيل ، ويلاحظ كل التطورات ثم يمد يده ليجمع منها ما يستطيع أن يستفيد منه فى بناء شخصياته وتصوير أحداث روايته ··

وملايين الناس فى الدنيا يأكلون ثلاث وجبـــات فى اليوم ، ويترددون على مقر عملهم كل صباح ، ويعودون الى زوجاتهم أو عشيقاتهم فى المساء ·

ولكن الفنان تلفت نظره وجبة طعام معينة ، وروحه معينة الى العمل ، وليلة معينة فى حياة زوج أو عاشق ·

وذلك لأنه رأى فيها امتيازا خاصا ·· مادة خام تصلح لعمله الروائى ·· وقد يجد أن من الأوفق لعمله الروائى أن يتوقف عند هذه المادة الخام طويلا ، ويعيد تشكيلها وابرازها وتكوينها ، وذلك لأنها فى رأيه جزء من الحياة له معنى أعمق من المعانى الأخرى ، بل هى شاهد على الحياة ونموذج من نماذجها ، يكفى أن تنظر اليه لكى تستغنى عن جميع الشواهد تنظر اليه لكى تستغنى عن جميع الشواهد والنماذج الأخرى ·

ان الفنان لا يصف الجنس لأنه جنس ، بل لأنه جزء من الحياة ، وهو أسير هذه الحياة ، ولو خرج من أسارها ، لأصبح فنانا كاذبا ·

وهو لا يفعل ذلك كى يثيرك ، بل لكى ينورك ، ويزيدك معرفة بالحياة ··

وبهذا المعنى ، ليست هناك رواية جنسية ، بل هناك رواية تشمل جذور الحياة الثلاثة ·· الميلاد والجنس والموت وهناك رواية تقتصر على جذرين فقط من جذور الحياة ··

الجنس والحب ··

لماذا برزت هذه المشكلة فى زماننا ؟ ولكن ··

ان الأدب الذى يتمشى الجنس فى عروقه قديم جدا ، أقدم من لورانس ·· وجيمس جويس واحسان عبد القدوس ، فلماذا تثور هذه الضجة فى القرن العشرين ؟!

ان بوكاتشيو الكاتب الايطالى مثلا ، يكتب فى القرون الوسطى كتابه : « الديكاميرون » على طراز ألف ليلة وليلة ويملأه بسير الزوجات الخائنات والفرسان العشاق المغامرين ، بل ان أقدم الكتب والاشعار الاغريقية والعبرية مليئة بالأبيات والعبارات التى تعكس رغبة الرجل فى المرأة ، ورغبة المرأة فى الرجل ·

ولكن الزمان اختلف ·

فقديما كان كثير من الكتاب يفصلون بين الحب والجنس ، كان الحب شيئا مقدسا طاهرا نظيفا ، والجنس عارا وعيبا ·

وكان القراء ينظرون الى هذا الأدب الذى يشيع فيه الجنس ، كأنه نوع من الهذر الذى يجب ألا تخلو منه الحياة ، والا أصبحت مملة تدعو الى السأم ، ولكنه لا يزيد عن أن يكون هذرا ·

ولكن الجنس فى هذا العصر قد امتزج بالحب ، حتى أوشكا أن يصبحا معنى واحدا وأدركنا أن الجنس بدون حب دعارة ، وأن الحب بدون جنس خيبة وهباء ··

وأصبح الأزواج يفكرون فى الحب ·· والعشاق يتصورون طريق الحب منتهيا بالزواج ، وأخذنا نفكر فى ادخال التربية الجنسية

الى المدارس ، وعاش فى الكون علماء كل مهمتهم هى بحث «الجنس»، مثل فرويد وهافيلوك أليس وفان دفلد ٠

لقد دخل الجنس الى الحياة ، بعد أن استرد كرامته ، ورفع راسه بين أخويه ٠٠ الميلاد ٠٠ والموت ٠٠

وحين دخل الجنس الى عالم الرواية – مرة ثانية – فى هذا القرن العشرين لم يصبح هذرا ، بل أصبح عنصرا ينبع من الفن والتفكير ويخاطب القراء جميعا ؛ سواء فى ســـاعات لهوهم أو جدهم ٠٠

ولذلك أثار خوف النقاد المتزمتين ٠٠ لأنه استرد أعماقه فى الحياة ٠٠

وعلى الذى يخافون الجنس أن يكونوا منطقيين مع أنفسهم ، فيخافوا من الحياة أو يتراجعوا ٠٠ خلف الحياة ٠٠

روزاليوسف ١٩٦٠/٢/٢٢

لا تقولى لصديقتك انه يحبنى حبا أفلاطونيا

كثيرا ما يكون أشيع الوجوه التى نعرفها عن انسان عظيم هو وجهه الزائف • وأفلاطون الفيلسوف الملقب بأفلاطون (الالهى) اوضح مثال لهذا الخطأ • والحب عند أفلاطون أو الحب الأفلاطونى هو أول الوجوه الشائعة والزائفة معا •

تقول الفتاة لصديقتها أحيانا : وهى تحدثها عن أسرار قلبها أن حبيبها يحبها حبا (أفلاطونيا) ثم يكتسى وجهها بنفحة من الزهو والكبرياء ، وكأنها تؤكد بهذه الكلمة أن أجرأ ما يخطر ببال صديقها أن يلمس أطراف أصابعها فى تبتل وبراءة • ولكن فتاتنا الذكية لو عرفت المعنى الحقيقى للحب الأفلاطونى لترددت كثيرا فى استعمال هذه الكلمة ، هى جديرة بأن يحمر وجهها خجلا لو حدثها بحديث الحب الأفلاطونى أحد أساتذة الفلسفة الموثوق بحديثهم •

يقول الدكتور فؤاد زكريا فى كتابه الجديد « دراسة لجمهورية أفلاطون » : « فالعلاقة بين الرجل والمرأة عنده (أفلاطون) أشبه ما تكون بعلاقة الحيوانات التى يريد مربى الماشية تحسين نسلها ، أو يجمع بينها تبعا لهذه الغاية وحدها ، وهو (أفلاطون) يصل فى ازدرائه للمشاعر الطبيعية للمرأة وفى امتهانه لكرامتها الى حد القول أن المحارب الشجاع ينبغى أن يكافأ على بسالته بمزيد من النساء أو من حقوق التناسل ، وعلى المرأة أن تقبل عن طيب خاطر ذلك الوضع الذى تكون فيه مجرد وسيلة لمكافأة الشجعان من المحاربين •

(ليس هذا هو المهم . بل مايلى من سطور) « وفى مقابل ذلك تحفل محاورة الجمهورية وغيرها من المحاورات بالنصوص التى تدل على أن الحب الحقيقى فى نظره هو الحب بين الرجال ، أو ما يسمى فى المصطلح الحديث بالجنسية المثلية • ومن المعترف به أن الجنسية المثلية كانت شائعة فى المجتمع اليونانى القديم لأسباب قد يكون منها أن الشاب لم تكن لديه فرصة لتكوين علاقات شخصية وثيقة الا مع رفاقه فى الحرب أو فى الدراسة أو الأسواق أو الأماكن العامة . وهم دائما من الرجال ••

اننا اذن نستعمل هذه الكلمة (الحب الأفلاطونى) كمن يلبس حذاءه فى رأسه • مع أن أفلاطون ليس اسما هين القدر فى تاريخ الفكر الانسانى ، فلو عددنا عشرة أو خمسة أو حتى ثلاثة من كبار الفلاسفة على مدى العصور لكان أفلاطون أحدهم • لعل هذا يدفعنا الى التساؤل عن السبب فى هذه الدرجة الفاضحة من سوء استعمال اسمه بغض النظر عما اذا كان هذا الاستعمال الخاطىء للتحسين أو للتقبيح ••

يبدو أن هناك سببين ، أولهما أننا — والانسانية كلها — قد تعودنا أن نعتمد على الكتب التى تتحدث عن الفلاسفة لا عن الكتب التى يكتبها الفلاسفة أنفسهم ، وقد يكون أحد الشراح قد استعمل هذه الكلمة هذا الاستعمال ، فانتقلت من فم الى فم حتى وصلت الى فم فتاتنا الذكية البريئة ••

أما السبب الثانى فهو شهرة أفلاطون كفيلسوف مثالى ، مما يجعل كل شىء ينتسب اليه يصبح مثاليا • وبهذا المعنى نستطيع أن نقول الطعام الأفلاطونى أحسن طعام ، والسيارة الأفلاطونية بمعنى أحسن سيارة • ولكن العيب فى هذا أن أفلاطون ليس فيلسوفا مثاليا بمعنى أنه أحسن فيلسوف ، بل بمعنى أنه يقول ان المثال سابق على الواقع • فشجرة الصفصاف على الطريق القروى لا توجد أولا ، بل وجد قبلها مثال للشجرة فى ذهن الكون ، ثم صيغت هذه الشجرة عليه •• الفكرة وجدت أولا ثم وجد الواقع • وليس ما نراه من

أشياء وأشخاص وأحداث الا ظلالا باهتة لمثال كائن فى الذهن ٠٠ وهنا تختلف الفلسفة المثالية ، بل هنا تنقسم الفلسفة الى مثالية ومادية ، ويكوّن أفلاطون هو الآب الحقيقى للفلسفة المثالية ٠

ها نحن نرى أننا نقع فى سلسلة أخطاء حين نقترب ولو دون قصد من حقل الفلسفة فنخلط بين أسماء ومذاهب وأشكال من التفكير مع أن الفلسفة ليست كلها مكانا محظورا على غير الفلاسفة أو حقلا مليئا بالألغام لا يحسن اجتيازه دون تضحية الا الخبراء ٠ فكثير من الفلاسفة مقروؤون سهلو الهضم ، وكثير من كتب الفلسفة تشعر بقراءتها بلذة ، وكأنك تشاهد برنامجا تليفزيونيا ظريفا ، ولعل من الغريب أن أفلاطون فى بعض محاوراته من هؤلاء الفلاسفة ٠

ولكن كيف نقرؤه ؟ لقد كان يكتب بالاغريقية التى لا يعرفها الآن حتى اليونانيين أنفسهم ، وهنا نعرف أن فى كلّ لغة حبة ترجمة أو ترجمات لجميع الأعمال الفلسفية الكبرى فى العالم ٠ ولعل المجد الحقيقى للمرحوم لطفى السيد أنه ترجم أحد أعمال أرسطو الكبرى، فاستحق على ذلك أساسا شرف الانتساب الى عالم الفكر ، ومنذ ما يقرب من ثلاثين عاما ترجم أحد محبى الفلســـفة فى بلادنا ، ولا نعرف عنه الآن شيئا الا اســـمه وهو (حنا خباز) جمهورية أفلاطون الى العربية ، ووزعت الترجمة هدية مع مجلة المقتطف (هل نحن نتقدم فى حقل الثقافة أو نتأخر !) ومن هذه الترجمة عرف جيلان من القراءة الكثير عن أفلاطون ٠

وفى هذه الأيام تطالعنا ترجمة جـــديدة لجمهورية أفلاطون للدكتور فؤاد زكريا ٠ والمترجم الأول حنا خباز يحدثنا أنه اعتمد على ثلاث ترجمات انجليزية وأغلب ظنى أن المترجم الجديد اعتمد أيضا على هذه الترجمات ، وان كان لم يشر الى ذلك ، بل أشار الى أن أحد أساتذة اليونانية وهو الدكتور محمد سليم سالم قد راجعها على النص اليونانى ٠

ولست فى مكان مراجعة هذه الترجمة ، ومقارنتها بالترجمة الأولى وبالأصل اليونانى ٠ فما ذلك فى وسعى ولا قدرتى ، ولكنى

أكتفى بأن أشير الى أن الترجمة الأولى ربما كانت أيسر تبويبا من ترجمة الدكتور فؤاد زكريا · وللترجمة الأولى مقدمة قصيرة عن أفلاطون ، أما الترجمة الجديدة فقد شرع الدكتور زكريا فى كتابة مقدمتها ، فأبت أن تكون الا كتابا كاملا ، صدر مستقلا عن الترجمة بعنوان « دراسة لجمهورية أفلاطون » فى مائة وسبعين صفحة ·· وأشهد أن هذا الكتاب أو هذه المقدمة الطويلة هى من أنضج وأزكى وأرقع ما كتب عن أفلاطون · وهكذا صدر كتابان أحدهما مترجم وهو نص محاورة الجمهورية نفسه ، والآخر مؤلف وهو « دراسة لجمهورية أفلاطون » فى هذا الأسبوع ، ولو كنا أمة يقظة فى شئون ثقافتها لكان هذا هو حدث الأسبوع بل العام الثقافى الذى صدر فيه الكتاب ·

والدكتور فؤاد زكريا من جيل دارسى الفلاسفة الوسط ، بل هو من ألمعهم ، بعد جيل عبد الرحمن بدوى وزكى نجيب محمود · ورغم اهتمامه بالفلسفة العلمية الا أن هذه المقدمة تشــــهد بقدرته الهائلة على تناول أصول الفلسفة التقليدية · وكتابه يبدأ بمقدمة كاشــــفة عن اللحظة التأريخية لمحاورة الجمهورية ، وهنا يطالعنا الدكتور فؤاد زكريا برأيه فى أن أفلاطون لم يكن مجرد فيلسوف يقبع فى برج عاجى ، بل كان انسانا يتمثل عصره ويشارك فى صياغته · وأن يديه قد تلوثتا أكثر من مرة بمكائد السياسة ومؤامراتها ، وأنه كان منتميا الى أحد الحزبين المتصارعين فى أثينا القديمة ، بحيث عبر عن النظرية السياسية لهذا الحزب فى كتابه الجمهورية ·

ثم ينتقل بعد قليل الى الأفكار السياسية لأفلاطون ، ثم الى المذهب الأخلاقى عنده ، ثم يستعرض منهجه فى التربية ، وآراءه فى الميتافزيقا أو ماوراء الطبيعة ، ثم نظرياته فى الفن ، ونخرج من هذا الكتاب ، وقد أصــــبح أفلاطون هذا الهيكل المترامى الأطراف المتعدد الأروقة ، الذى تمتد أعمدته الى السماء ، وتتناثر على مدى البصر ، بناء مندمجا « ملموما » ·

ولكن هذا البناء حين يندمج ويلتئم يدفع بسؤال خطير : أين ندرج أفلاطون فى اتجاهات الفلسفة والفكر ·· فهو شأن العقول

الكبرى يزعج كل قاعدة ومقياس ، انه مثلا يقول أن التفاوت فى الكسب ، والرغبة فى المال هما سبب الحروب والنكبات ، وهو بهذا ينشىء احدى قواعد علم الاجتماع الحديث ، ويقترب من الاقتصاديين الماركسيين ، وهو يقترح لذلك أن يكون المال والنساء (بوصفهما من أدوات الترف) شيوعا بين طبقتى الحكام والجنود حتى لا يفتنوا بالمال والترف ··

فهل هو شيوعى ؟

وهو يقسم المجتمع قسمة حازمة الى ثلاث فئات ، ويقيم بين الفئات الثلاث حاجزا رهيبا ، ويعترف بنظام الرقيق ·

فهل هو أوليجاركى يؤمن بحكم الأقلية المثرية ؟

وهو يدعو الى التربية العسكرية ، والى استبعاد الفنون الا ما حاز ثقة الدولة وساهم فى بعث الروح الحربية والتنظيمية ·

فهل هو فاشستى ؟

وهو يؤمن باصلاح النسل ، وباختيار الأزواج للزوجات لرفع مستوى الانتاج البشرى ··

فهل هو مؤمن بالجينية أو علم اصلاح النسل ؟

وهو ·· وهو ··

كل الأشياء تجدها عند أفلاطون · ولكننا هنا نحاكم أفلاطون بمقاييس الحيـــاة من بعده فلنقـــل انه مفكر نزيه يريد أن يبنى عالما فاضلا ، فيقيمه على فكرة « العدالة » ، ثم تقوده هذه الفكرة الى أفكار أخرى يتبناها وأفكار أخرى يطرحها ، ولكنه على كل حال يوقظ الفكر وينعشه ·

لقد وقف أمرسون المفكر الأمريكى « الساذج » ذات مرة حائرا أمام جمهورية أفلاطون ، فقال :

« أحرقوا كل الكتب ، ففى هذا الكتاب غنى عنها » .

ولو كان أمرسون يقظا وفيلسوفا حقا لقال « اقرءوا كل الكتب. فهذا الكتاب لا يغنى عنها ، ولكنه يلقى الضوء على مئات منها » .

المصور ١٩٦٨/٢/٥

رحلة على الورق

بوليس الآداب والفقراء !!

كان برنارد شو يقول :

« أن الزواج هو الموضوع الذى دار حوله الكلام الفارغ أكثر من أى موضوع آخر فى العالم ، ومع ذلك فمازال غامضا ··

ولكن هناك موضوعا آخر ، دار حوله الكلام أكثر من الزواج ·· وبعضه فارغ ، وبعضه ملآن بالحكمة والمنطق ، ومع ذلك فمازال الناس يختلفون فيه حتى الآن ، ولا يكاد رأى من الآراء ينطبق على الآخر ··

وهذا الموضوع ·· هو الحب ··

وموضوع الحب موضوع واسع اتساع الحياة ·· انك تستطيع أن ترى الحب فى التحام خلايا الأميبا وفى شهوة الحيوان العنيفة وفى شبق الهمجى الغليظ ، وفى عيون الشباب الحالمة الذائبة ·· وفى قصائد مجنون ليلى ، وفى احتفال زوجين عجوزين يرتعشان سعادة ، وقد تجمع حولهما أبناؤهما وأحفادهما بعد نصف قرن من الحب ·

وللحب أب هو الجنس ، ولكن الحب دائما يحاول أن يرتفع عن أصله ، أن يصبح الابن المهذب الأنيق للأب الهمجى الغليظ ·

ولذلك فان هذا الحب ، الذى ألهم الأدباء قصائدهم وأشعارهم، من الممكن أن يتحول فى لحظة الى شىء آخر بعيد عن « الأدب » ·

ومهمة بوليس الآداب أن يراقب الحب حتى لا يتحول الى قلة أدب ٠

ولذلك فان عيونه تنظر الينا فى كل مكان ، وتراقب حبنا ، فاذا بدرت بادرة التحول ، مد رجل الآداب يده على كتفك ٠٠ وقال لك : أحمل خطيئتك واتبعنى ٠

وأنا لم ألتق ببوليس الآداب حتى الآن ، وأقسم على ذلك ٠٠ بحبى ، ولكنى كنت أفكر فيه كثيرا ٠

كان من عادتنا نسمر كل ليلة فى مقهى الفيشاوى وكان لكل منا قصة حب يعيشها ٠

كنا جميعا كتابا وفنانين ناشئين ، والأصدقاء عندما يمتد بهم الليل ، لا تخطر على نفوسهم الا ذكريات الحب ، فكان كل منا يعيش مع رفاقه فى قصص حبهم كلها ٠٠ ليلة بعد ليلة ٠٠

وكنا جميعا نحس أن الأقدار تقف فى وجه حبنا ٠٠ الآدباء المتزمتون والأمهات المحافظات ، والمجتمع الذى لا يفصل بين الحب وقلة الأدب ٠٠ وعين بوليس الآداب ٠٠

وكان تفكيرنا لا يدور حول تنمية عواطفنا ، وتخطيط مستقبل حبنا ، بقدر ما يدور حول خلق الفرصة للالتقاء بالفتاة التى نحبها ، وابداء شعورنا نحوها ، فى ظلام السينما ، أو فى شوارع القاهرة البعيدة الهادئة ، دون أن يرانا أحد ٠

وضاق بنا الحال ، وقال أحدنا ٠٠ اننا جيل جديد ، يحمل على كتفيه مسئولية تطوير تقاليد المجتمع ، والسير به الى الامام ، وان علينا أن نؤدى الضريبة التى فرضها علينا الخديوى ٠٠

ان هدى شعراوى حين خلعت الحجاب رجمها الناس بالكلمات الحادة ،وسهير القلماوى دخلت الجامعة وسط صيحات المتحجرين والرجعيين ، وهما سيدتان ، ونحن رجال ٠

وعلينا أن نعيد للحب احترامه ، بأن نكشف حبنا أمام الناس جميعا ٠

علينا أن نطالب بحرية الحب ..

واتفقنا أن نلتقى فى أصيل أحد الأيام ، وفى ذراع كل منا الفتاة التى يحبها ، وأن نتجه الى ميدان التحرير لنقف تحت النصب التذكارى ، ويقبل كل منا فتاته ، وقد نضرب ، وقد توضع فى أيدينا القيود ، وقال أحدنا .. وبعد ذلك نموت ، ولكننا شـهداء حرية الحب !

وفى اليوم المحدد لم يحضر منا أحد لأن كلا منا ضن بفتاته عن هذا الموقف الغريب ، وماتت الفكرة ، وتفرقنا بعد ذلك .. كل فى طريق ..

وأنا أظن أن أكثر ما أخافنى فى ذلك اليوم ، وجعلنى لا أمضى فى الخطة الى نهايتها ، هو بوليس الآداب .

لقد كنت أخشى أن لا يفرق البوليس بين حبى ، الذى أريد « الاستشهاد » فى سبيله ، وبين قلة الأدب !

لقد كان الحب عندنا غاليا ، وكنا نخشى أن لا يميز الناس بينه وبين الحب الرخيص .

ولاشك أن الجيل الجديد ، الذى خرجنا من صفوفه ، بعد أن همد القلب ، وبقيت نشوة الحياة ، له قصص حبه الغالى ولكنه لا يعرف أين يذهب بفتاته ويجرب الحيرة التى جربناها ..

جيل من طلبة الجامعة وطالباتها والعمـال والعـاملات ، والموظفين .. جيل من صغار الناس ، كبار القلوب .

وبعضهم يفكر فى الطرق الملتوية ، فى الهجرة الى الظلام .

وبعضهم لا يجد الفرصـة لكى يعرف فتاته معرفة وثيقة ، ويدرس أهواءه ونفسـه ،وميوله وأمانيه ، ويتعجل الثمرة قبل الأوان ، ويرتبطان برباط الزواج المتسرع .

ان الحياة قد سـدت أمامهم فهم لا يعـرفون حفـلات الرقص ، ولا اللقاءات العائلية ، ولا الرحلات المشتركة . بل هم يكتفون من ممارسة الحب بالنظر العاجل والكلمة المترددة السريعة .

ان حياتهم أضيق من عواطفهم ..

هناك آخرون .. حياتهم أوسع من عواطفهم ..

هناك آخرون .. عندهم السيارة والجارسونيرة ، والمال الذى يستطيعون به أن يهربوا بخطيئتهم . لا بحبهم ، الى ظلام الصحراء ، ولا يخشون أن تراهم عين ، وأن توضع على أكتافهم يد لتقول :

احمل خطيئتك واتبعنى !

وهناك مشهد تستطيع أن تراه فى أطراف القاهرة .

خيمة فى طريق يمتد كالثعبان ، تحيطه ظلمة الصحراء وظلمة الليل .

فى وسط الخيمة يجلس رجال ونساء وفى وسط البيست يرقص رجال ونساء والموسيقى مجنونة ، والخمر سائلة ، وفرقة «أبو الغيط» المخنثة تدق موسيقى الزار ، وتتطوع متفرجة لتتطوح على النغم ، ويتلقاها الرجل فى صدره .. فيشه !

وتترك الخيمة لتعود الى القاهرة ، وفى الطريق يجب أن يفتح السائق عينيه الى آخر الحملان ، لأن العربات «الراكنة» فى الطريق، المطفأة الأنوار أكثر من مقاهى ميدان السيدة زينب .

وكل أصحاب العربات ـ بلاشك ـ من هواة ممارسة الخطيئة فى الهواء الطلق لأنهم جميعا ـ بلاشك أيضا ـ عندهم جرسونيرات. وشقق خاصة ، يستطيعون أن يذهبوا اليها .

وكل هذا يدور فى القاهرة ..

ومع ذلك فان الشاب الصغير ، الشاحب الوجه، الزائغ العينين، والفتاة الرقيقة التى ينخلع قلبها كلما التقت بفتاها ،لا يستطيع أحدهما أن يقبل الآخر .

انهما لا يملكان سيارة ، وليس لدى أحدهما شقة خاصة ، ومصروفهما قليل لايستطيع أن ينقلهما الى قلب الصحراء . ان بوليس الآداب .. للصغار والفقراء فقط » ..

واحـــد .. من كل عشرة

ذات صباح ، وفى مدينة كولومبيا بولاية تنيسي بالولايات المتحدة قصد جيمس ستيفنسون وهو زنجى فى التاسعة عشرة من عمره ، ترافقه أمه الى أحد المحلات ليسترجعا جهاز راديو كانا قد عهدا باصلاحه الى صاحب هذا المحل ·

ودفعت الأم فاتورة الاصلاح ، وقيمتها ١٣ دولارا ، فلما جربت الراديو وجدته لا يزال كعهدها به ، فصاحت متعجبة : « ١٣ دولارا ·· والراديو لايزال أخرس ؟ » ·

واغتاظ وليم فلمنج الأبيض صاحب المحل ، وأمرهما بمغادرة المكان · ودفع أحد العمال البيض جيمس الفتى فى كتفه ·· ورفس فلمنج السيدة العجوز فخرت على وجهها ··

عندئذ اغتاظ الفتى الأسود ولكم فلمنج لكمة قوية على وجهه فسقط على واجهة المحل ، وانكسر الزجاج ، وتجمهر الناس ، ثم حضر البوليس ، وأخذ يضرب الفتى وأمه · ثم قادهما الى المحكمة فحكم عليهما القاضى بخمسين دولارا غرامة ·

ولم يرض البيض عن هذا الحكم ، فتجمهروا خارج المحكمة يريدون الانتقام من الزنجيين على طريقتهم ، واتصل القاضى بالمأمور ·· وحضر البوليس المسلح ، وأخرج الزنجيين وذهب بهما الى حى الزنوج ·

واحتشد البيض فى المساء فى خمارة ، وأداروا الزجاجات ، ثم قرروا الهجوم على الحى الزنجى ليلا للانتقــام من الزنوج ، ووصلت الاشاعات الى الزنوج ، فأخذوا يقفلون الأبواب ، ويخبئون الأطفال فى الغرف العالية ، وجمع المحاربون القدماء منهم بعض الأسلحة للدفاع عن أنفسهم . وما أن حل الظلام حتى كان الحى صامتا مطفأ المصابيح ممسكا بأنفاسه فى انتظار الهجوم الأبيض .

وفى منتصـــف الليل اندفعت اللوريات المزدحمة بالرجـــال المسلحين من البيض تجوس خلال حى الزنوج ، وهى تطلق النار على الأبواب والنوافذ وأطلق الزنوج النار دفاعا عن أنفسهم . وسقط قتلى وجرحى كثيرون .

واتصل محافظ المدينة بحاكم الولاية .. وسرعان ما ســـير الحاكم على وجه الســـرعة ٥٠٠ رجل من الجيش المحلى يقودهم جنرال ممن اشــتركوا فى الحرب الأخـــيرة . ونزل هؤلاء الجنود وقاموا بحركة التفاف حول الحى الأسود ، صرخ بعدها الجنرال قائلا : « لقد طوقنا هؤلاء العبيد السود » .

وفى الساعة الخامسة صـــباحا ، فتحت الجبهة الحربية ، وانطلقت النيران من فوهات المدافع والبنادق .

قالت صحيفة ناشنيل بانر عن هذا الهجوم : « وبينما كان رجال الجيش المحلى يتقدمون نحو الحى الأسود ، هذا الصباح ، امطروا عددا من المؤسسات التجارية بنيران مدافعهم وبنادقهم ، منزلين أكبر الأذى بالنوافذ والأبواب وما تحـــويه من صـــنوف البضاعة » .

وقالت صحيفة كولومبيا ديلى هيرالد :

« لقد تذكر المحاربون القدماء حين رؤيتهم هذا المشهد كيف كانت القوات الأمريكية تدخل مدينة من المدن الأوروبية فى أثناء الحرب العالمية الأخيرة » .

ولم تكن خسائر الحادث كبيرة بحيد
فقد صـــدرت الصحف الكبرى فى العاد
الزنجية التى أثارها المشاغبون وتحكى كي

●

هذا مجرد حادث من الحوادث

٠٠والواقع أنه رغم القضاء على الرق ، وعدم اباحه امتلاك الانسان لأخيه الانسان الا أن التمييز العنصرى مازال قائما فى مكانين فقط من العالم هما الولايات المتحدة الأمريكية وجنوب أفريقيا ٠

ووجود التمييز العنصرى فى الولايات المتحدة أمر بالغ التناقض فى أمة أنشأها بعض المهاجرين الأوروبيين الذين هربوا من الاضطهاد فنجوا بعقيدتهم وحرياتهم ، وسجلوا قصة كفاح متصل الحلقات فى سبيل حياة جديدة ٠

ولعل من السخرية أن أول ما يطالع الانســان من الولايات المتحدة هو تمثال الحرية وقد نقشت على قاعدته الأبيات التالية :

أعطونى جماهيركم المتعبة الفقيرة ٠٠

التواقة الى أن تتنفس فى حرية ٠٠

ابعثوا الى بنفاية شاطئكم المزدحم ٠٠

أولئك الذين لا مأوى لهم ولا وطن ٠٠

فها أنذا أرفع مشعلى قرب الباب الذهبى ٠٠

فعلى الرغم من الحرية التى تبشر بها هذه الكلمات المشرقة فان ١٥ مليون أمريكى مازال محكوما عليهم أن يعتبروا مواطنين من الدرجة الثانية ، يعيشون عيشة منحطة ، ويعاملون معاملة تمتهن كرامة الانسان ٠٠

ويخطىء من يظن أن هذه المعاملة السيئة هى مظهر فردى ، أو مجرد نزوة يبديها بعض ضيقى الأفق من البيض ، بل هى جزء من النظام الاجتماعى الأمريكى حتى لقد نص عليها فى دساتير بعض الولايات ! ..

ففى الفصل الثامن من دستور ولاية المسيسبى نجد هذا النص :

« يراعى فى المدارس أن يفصل بين أطفال البيض وأطفال الزنوج ، فتكون لكل فريق مدارسه الخاصة » ..

والنصوص التى تلى هذا النص تعميم له فى السجون والمستشفيات .. أما فى القانون الجنائى للولاية فنجد هذا النص :

« كل من يطبع أو ينشر أو يوزع منشورات تحض الجمهور على اقرار المساواة الاجتماعية والتزاوج بين البيض والسود أو يقدم حججا على المساواة أو اقتراحات فى هذا السبيل يعتبر عمله خطأ يعاقب عليه القانون بالحبس ستة أشهر أو بغرامة قدرها خمسون دولارا أو بهما معا » ..

فالتفرقة العنصرية اذن نظام معترف به قانونا فى عشرين ولاية أمريكية ..

وفى بعض الولايات الجنوبية يؤلف الزنوج نحو ستين فى المائة من عدد المواطنين . ولكن التعسف القانونى يمنعهم من ممارسة حياتهم السياسية . .اذ أنهم يمنعون من الاقتراع ، اما بفرض ضريبة تسمى « ضريبة الاقتراع ، وهى ضريبة يعجز الزنجى العادى عن أدائها أو بمنعهم من الوصول الى صناديق الانتخاب » ..

ويعيش الزنوج الأمريكيون فى مستوى اجتماعى بالغ الانخفاض . فبيوتهم قذرة . والأحياء مزدحمة بالسكان بصورة مؤلمة ..

والواقع أن الحرب العالمية الأخيرة قد هزت المجتمع الأمريكي واضطرت الظروف الدولة الى أن تغض الطرف عن كثير من تقاليدها .. فجند الزنوج فى الجيش عهد اليهم بأعمال مساوية للبيض .. وبدا أن حلم المساواة قريب التحقيق حتى اذا وقعت الهدنة أدال دعاة التفرقة برءوسهم .. وفى سنة ١٩٤٦ أعلن الجيش أنه لن يقبل الزنوج بين صفوفه . وبعد عدة أشهر خير جميع الزنوج العاملين فى الجيش بين تسريحهم وبين تحويلهم الى الخدمة المدنية كخدم وطباخين .

وقد أنبت العنصر الزنجى ، رغم الأحوال السيئة التى يعيش فيها كثيرا من العباقرة فى شتى فروع النشاط البشرى . فبطولة الملاكمة عادة وقف على الزنوج ، وقد تناوبها كثيرون منهم جو والكوت وبيلى كون وشوجار راى ربنسون وجولويس ..

وفى الموسيقى والغناء نجد ناتنج كول ، وبول ربصون .. والأخير قد اضـــطهد فى أمريكا بحجة أن له ميولا ضد النظام السياسى للدولة ، والحق أنه أراد أن يحافظ على كرامته الانسانية، وأن يرفع من قدر مواطنيه ، وآثر روبصون ذلك الصوت الذهبى الرخيم الذى يحمل أحزان أمته جميعا أن يهجر الولايات المتحدة الى أرض يعامل فيها كانسان كريم ..

وفى الشعر نجد « جوزيف سيمون كوتر » الذى يقول مخاطبا رفاقه الزنوج :

ولنذهب معا الى الرب

وعندما نقف بين يديه

سأقول له :

يارب اننى لا أكره أحدا

ويكرهنى الناس !!

ولا أضرب أحدا بالسياط

ويضربوني بالسياط !!

ولا أغتصب أرض احد

ويغتصبون أرضي !!

ولا أهزأ بالناس

والناس يهزءون بي !!

وأنت يا أخي ، ماذا ستقول للرب ؟ ••

ولعل أشهر الأدباء الزنوج اليوم هو ريتشارد رايت •• ورايت قصاص مجيد كتب كثيرا من القصص والروايات التي عبر فيها عن مشكلة جنسه ••

ومن أروع قصصه قصة « صبي أسود » التي قدمتها دوروثي فيشر بقولها : « انها قصة الطفولة والشباب لأحد الزنوج في أمريكا كتبها عن طفولته وشبابه في ولايات الجنوب في أمريكا حيث تنص القوانين ، ويقضي العرف باضطهاد الزنوج ، وحيث يعتبر قتلهم من الأعمال التي يزهو بها الرجل الأبيض » ••

وقد كان « رايت » في شبابه حاد الوعي بمشكلة الزنوج ، متطلعا الى ذلك الفجر الجديد الذي سيوحد جميع الأيدي العاملة في سبيل بناء عالم أفضل •• فتراه يقول في احدى قصائده :

انني أسود ••

وقد رأيت قبضات سوداء ••

ترتفع ثائرة ••

قـــوية ••

الى جانب قبضات أخرى لعمال بيض ••

وسيأتي يوم ••

يوم تجتمع فيه الملايين والملايين

من هذه القبضات ..

ثائرة من اجل فجر جديد ..

هذا كلّ ما أعيش من أجله ..

وتتمثل مأســـاة الزنوج فى كتابات كثير . "‏--" الأحرار ..

ففى قصة « فيرآن ورجال » لج مضطهد هو « كروكسى » .. وهو عجوز يعمل سائسا فى مزرعة يملكها أحد أصحاب الأراضى فى كاليفورنيا . ويستغل فيها حفنة من العمال الأجراء ..

ويســـكن كروكسى هذا فى بيته النظيف وحيدا منفردا يقرأ بعض الكتب القديمة . وذات مساء يدخل اليه فى غرفته شاب أبيض هو « لانى » .. وهذا الشاب مختلط العقل قد سحقه المجتمع الجائر، ويدور هذا الحوار بين الأبله والزنجى :

الزنجى : هيا اخرج من هنا ! .. أمثالى لا يقبلونهم فى غرفتكم .

لانى : لماذا لا يسمحون لك بدخول غرفتنا ؟

الزنجى : لأنى أسود ، يلعبون هناك الورق .. وأنا لا أستطيع أن ألعب لأنى أسود .. يقولون انى أبعث رائحة كريهة .. انكم أنتم الذين تبعثون رائحة كريهة ..

ويظل الرجلان يتحدثان .. لانى يحكى عن أحلامه البلهاء ، وكيف سيوفر من أجره الضئيل ويشترى مزرعة صغيرة .. يربى فيها الأرانب ويداعبها .. والزنجى يحكى عن أبيه . وعن الكراهية

التى يحملها له البيض ·· انهما فى موقف متشابه ، رجلان منسحقان ·· ضحيتان لنظام اجتماعى خاسر ··

وعبر المحيط ، يهتز قلب سارتر فى فرنسا لهذه المأساة ··· فيكتب مسرحيته « المومس الفاضلة » وتبدأ المســـرحية وقد تمت الفاجعة ، ان البيض يريدون أن يزجوا وقت فراغهم بقتل زنجى دون جريرة ·· فقد كانت امرأة بيضاء تشتغل بالدعارة تركب احدى عربات قطار · وكان معها زنجيان يجلسان فى أدب وحسن خلق ، وفجأة صعد أربعة من البيض ، وشدها اثنان منهما اليهما وهما يقولان « ان المكان يعبق برائحة الزنوج » ·· ثم أراد الأربعة ان يقذفوا بالزنجيين من الباب فدافعا عن نفسيهما ·· وفى النهاية تلقى أحد البيض ضربة على عينه فأخرج مسدسه وأطلق الرصاص ·· وقفز الزنجى الآخر من القطار وأخذ يجرى حتى وصل الى منزل المومس · فخبأته فى الحمام ، وأتى للمومس زبون أبيض ، وقضى معها ليلة ، وفى الصباح أخذ يقنعها بأن تشهد فى المحكمة بأن الزنجى اعتدى عليها ، ولذلك رأى الأبيض من واجبه أن ينتقم لها ·· فقتله · وترفض المومس أن تشهد شهادة كاذبة ، ويحاول الشاب اغراءها بالمال والشهوة ·· فترفض ، ويقول لها أخيرا :

ـ انك ستشهدين لصالح زنجى ضد أبيض لو قلت الحق ··

ـ ذلك لأن الأبيض مجرم ··

ـ وما جريمته ؟ ··

ـ القتل ··

ـ ولكنه قتل زنجيا فقط ! ··

ويفشل الشاب فى اقناعها ، ويدخل أبوه السناتور كلارك عضو الكونجرس ، ويتحدث الى الفتاة حديثا عاطفيا ، فيقول لها انها لو شهدت فى صالح الأبيض فسوف تقدرها الأمة الأمريكية جميعها ، وسوف تفرح أمه العجوز ذات الشعر الأبيض لأنها أنقذت ولدها ··

« لنحتفظ للأمة الأمريكية بأفضل الرجلين ·· ما جدوى هذا الزنجى الذى تحمينه ؟ ·· لقد ولد صدفة · ولا يعلم الا الله أين ولد ، أما الآخر ، القاتل ·· فهو أمريكى مائة فى المائة ·· ينحدر من أسرة من أعرق أسر أمريكا ، وقد درس فى هارفارد كما أنه صاحب مهنة ، ويستخدم ألفى عامل فى مصنعه ، يصبحون ألفى عاطل اذا مات ·· فواجبه هو أن يعيش كما أن واجبك هو أن تحافظى على حياته !! ·

وتوقع المومس ورقة بأن الزنجى حاول اغتصابها ·· ولذلك قتله الأبيض · وينجو القاتل ، وتنطلق الكلاب البيضاء وهى تحمل المشاعل باحثة عن الزنجى الآخر لتقتص منه ·· « بلا جريرة » ·

صباح الخير ١٩٥٦/٧/١٢

صناعة الرأى العام

للناس جميعا الحق فى أن يعرفوا أخبار العالم الذى يعيشون فيه كما نصت وثيقة اعلان حقوق الانسان ·· وذلك لأن العالم الحديث قد أصبح عالما واحدا وان فرقته أمم شتى ·· ومن أنجح الوسائل لخلق الروح العالمية فى التفكير والسلوك ·· وفى النظر الى مشاكل العالم أن يحس كل انسان أنه احدى اللبنات الحية التى يتكون منها ذلك البنيان الكبير ·· وأن يشعر أنه بجهوده الصغيرة المتواضعة انما يضيف شيئا جديدا الى التراث العالمى ··

ولن يتوفر هذا الفهم لدور الفرد فى المجتمع الا اذا اهتم كل انسان بالعالم اهتماما حقيقيا والا اذا كانت نظرته لمشاكله وأحداثه صائبة فى تقديرها ، ولذلك كان الأخبار الصحيح من أهم الوسائل لخلق عالم الغد ··

وقد تنوعت طرق الاعلام والاخبار فى العصر الحديث ، فقد كانت الكتب والرحلات فى القرن الماضى هى النافذة التى يطل منها الانسان على حقائق الحياة فى الأمم الأخرى ، وهاتان الوسيلتان ليستا فى مستطاع كل انسان ·· ولذلك كانتا بطبيعتهما ضيقتى الأثر ، وكانت الفكرة التى لدى الأوروبى عن الشرق مثلا فكرة فاسدة بتأثير المخيـــلات التى تبتكر الكذب وتجنح الى التهويل ، وبتأثير محلية الثقافة واقليمية التمدن ··

والعصر الحديث عصـــر الرجل العادى ، الذى يندمج فى الملايين والذى يتلقى ثقافة عامة موحدة هى التى تنير له آفاقه ٠٠ هذا العصـــر الحديث هو عصـــر الراديو والتليفزيون والسينما والصـــحيفة ٠٠ وقد يخشى بعض المفكرين أن توحد تلك الأدوات الثقافية نماذج الناس بما تفرضـه عليهم من ثقافة واحدة ، ذلك لأنها تسلب الانسان الى حد كبير ٠٠ حرية القبول والرفض لما يعرض عليه أى يلقى فى أذنه ٠٠ وهى لذلك تطبع الناس جميعا بطابع موحد فى تفكيرهم رســـلوكهم ، وهذا ليس خطرا فى ذاته ولكن الخطر الحقيقى هو أن يسىءالقائمون على هذه المرافق الثقافية توجيهها ، وأن لا يكون لديهم الوعى بحقيقة الدور العظيم الذى يؤدونه وأن يفقدوا الاحساس بأنهم يتصرفون فى أسمى مايملكه الانسان ، وهو عقله وذوقه ٠٠

وقد حقق العالم الحديث تقدما ملموسا فى كثير من نواحى الثقافة الشعبية ، وساعدت المنظمات الدولية ، وبخاصـــة هيئة اليونسكو فى توجيه هذا النشاط، وفى تسجيله ورصـــده ! ولكن قرونا طويلة من التخلف الحضـــارى والاقتصـــادى فى آســـيا وأفريقيا مازالت تترك طابعها فى هذه البلاد ، فمن الغريب أن العالم بعد هذه السنين الطوال من الكفاح فى سبيل رفاهية الانسان ، وبعد هذه الانتصـــارات الأكيدة التى حققها الجنس البشرى فى مجال العلم والتفكير ، هذا العالم الكبير مازال نصف سكانه أميين لايعرفون القراءة والكتابة ويبدو الحرف المكتوب فى أعينهم كأنه طلاســـم لا تحل ٠٠

ونسبة الأمية مرتبطة ارتباطا كبيرا بالمستوى الاقتصـــادى والحضارى للأمم ٠٠ فشعوب شمال أوروبا والولايات المتحدة وكندا والاتحاد السوفيتى تقل نسبة الأمية فيها عن ٢٤٪ أما آسيا وأفريقيا فيقرأ من سكانها ٢٤٪ ٠٠

وتلقى الصحف منافسة شديدة من الراديو والتليفزيون وشريط الأنباء فى السينما ٠٠ ومع ذلك فان معظم الناس مازالوا يعتمدون

على الصحيفة كمنبع رئيسى للاخبار .. فهذه الوسائل الحديثة لم تؤثر فى معدل توزيع الصحف اليومية بل ان توزيع الصحف قد زاد فى السنوات الخمس الاخيرة بمعدل ١٤٪ ، وهذه الزيادة ليست مطردة فى جميع نواحى العالم .. ففى الولايات المتحدة أصبح عدد ما يوزع من الصحف عام ١٩٥٦ ، ٥٥ مليون نسخة بزيادة مليون واحد عن عام ١٩٥١ .. أما فى اليابان فقد زاد التوزيع اربعة ملايين ونصفا فى خمس سنوات .. وزاد التوزيع فى الاتحاد السوفيتى عشرة ملايين عن سنة ١٩٥١ .

أما التغيير الجوهرى فقد حدث فى أفريقيا . اذ صدرت الصحف لاول مرة فى الاعوام الاخيرة فى بلاد لم تعرف الصحافة من قبل ، فسجلت السنوات الخمس الأخيرة صدور ١١ صحيفة يومية فى ساحل الذهب .. و ٧ صحف يومية فى مدغشقر ..

ولصحافة الاتحاد السوفييتى ملامح واضحة . فلكل من الست عشرة جمهورية التى يتكون منها الاتحاد السوفييتى لغة رسمية خاصة فضلا عن اللهجات المحلية . ولذلك فان الصحف تصدر فى ١١٩ لهجة مختلفة . والجريدة القومية الكبرى هى « البرافدا » . وهى لسان حال الحزب الشيوعى . وتطبع البرافدا فى موسكو وفى ١٢ مدينة كبيرة أخرى .. ويبلغ معدل توزيعها ٤ ملايين نسخة يوميا ..

ومن ملامح الصحف فى الاتحاد السوفييتى قلة الاعلانات .. وقد كانت الاعلانات ممنوعة الى عهد قريب . وسمح بها أخيرا على أن لا تطغى مساحتها على الأخبار والمواد المختلفة الأخرى ..

ومن الطبيعى أن لا توجد فى الاتحاد السوفييتى صحف مملوكة للأفراد الا أن بعض الصحف المحلية التوزيع يملكها ويدير سياستها المنظمات والمزارع الجماعية والمصانع والنوادى الرياضية ..

وأكثر الشعوب اقبالا على قراءة الصحف هم الانجليز اذ يستهلك كل ألف مواطن ٦٠٩ نسخ . ويليهم السويديون الذين يستهلك كل ألف مواطن منهم ٥٠٦ نسخ .

وتتميز صحف الولايات المتحدة بالضخامة ·· فعدد صفحات الجريدة اليومية يتراوح بين ٢٠ و ٤٠ صفحة · وطبعات يوم الأحد تصدر عادة فى ١٠٠ صفحة · وهناك صحيفة تصدر طبعة يوم الأحد فى ٣٦٠ صفحة ·· ويزن ورقها أربعة أرطال ويزيد ارتفاعها على بوصتين ··

وتروج الصحف النسائية فى فرنسا ·· ويوزع بعضها مليون نسخة يوميا ·· وهناك صحف نسائية واسعة الانتشار فى انجلترا وأمريكا ··

أما أكبر المجلات توزيعا فهى مجلة « راديو تايمز » وهى المجلة الرسمية للاذاعة البريطانية ·· ويبلغ توزيعها ٨ ملايين نسخة كل أسبوع ·

والوسيلة الشعبية الثانية لنقل الأخبار وتثقيف الجماهير هى الراديو ·· وعدد الأجهزة المستعملة فى العالم ٢٥٧ مليون جهاز بزيادة مليونين عن عدد نسخ الصحف التى توزع يوميا ·· والراديو فضلا عن دوره فى تسلية المواطنين وتثقيفهم يقوم بدور هام فى الدعاية الدولية · ولذلك فان الأمم الكبرى تبذل عناية كبيرة بمحطات الاذاعة فيها · فالاذاعة البريطانية مثلا تذيع برامجها فى ٤٣ لغة مختلفة · وتذاع البرامج من راديو موسكو فى ٧٠ لغة · وقد فطنت مصر فى عهدها الجديد الى اهمية الراديو كوسيلة من وسائل الدعاية فابتدأت فى اذاعة برامجها الى أمريكا اللاتينية وجنوب شرق آسيا وسواحل أفريقيا ··

وقد استغل الراديو للدعاية التجارية فى معظم الدول الرأسمالية وتتراوح نسبة الوقت المخصص له من دولة الى أخرى ، وأكثر دول العالم استغلالا للراديو فى الاعلان هى أورجواى بأمريكا الجنوبية اذ يشمل الاعلان نصف الوقت المخصص للاذاعة ··

وتحرص بعض الدول على استعمال الراديو فى التثقيف ، وفى استراليا تستفيد ثلاثة أرباع المدارس من برامج الاذاعة فى

التحصيل المدرسى للطلاب · اذ أن هذه البرامج تناقش المقررات المدرسية وتوضحها · ويشغل البرنامج الثقافى والفكرى نصف وقت الارسال فى اليابان ··

أما الموسيقى المسجلة فيتراوح الوقت المخصص لها بين ٨٠٪ من فترة الارسال فى سلفادور ، و ٤٥٪ فى فرنسا ، و ٦٠٪ فى الاتحاد السوفييتى ··

وقد أصبحت السينما من الملامح المميزة للحياة العصرية ، وقد أثبت الاحصاء أن شخصا من كل عشرة يذهب الى السينما مرة فى الأسبوع ، ورغم ذلك فهناك بلاد لم تعرف السينما بعد ··

فالمواطن فى الصومال البريطانى مثلا لا يعرف شيئا عن هذا الاختراع العجيب بينما تحفل مدن الولايات المتحدة بـ ١٩٫٠٠٠ دار عرض منها ٤٫٠٠٠ سينما جاراج حيث يمكنك أن تدخل بعربتك وتظل جالسا فيها تستمتع بالفيلم · وفى انجلترا ٤٥٠٠ دار عرض تسع ٤ ملايين شخص ، والانجليز ـ بهذه المناسبة ـ هم أكثر الشعوب ترددا على السينما ، وقد امتحنت السينما الأمريكية بمنافسة التليفزيون ، وبعد عشر سنين من المنافسة انهزمت السينما ، وأغلقت ٦٫٠٠٠ دار عرض فى الولايات المتحدة أبوابها ··

وصناعة السينما صناعة كبيرة تحتاج الى رأسمال ضخم والى تنفيذ حرفى معقد ، وتتآزر فى خلقها فنون كثيرة ·· وتتعاون فى تقديمها للجمهور مؤسسات الانتاج والتوزيع والاعلان ، ولذلك فقد استأثر بها الرأسماليون · وصعب توجيهها من جانب المشتغلين بالثقافة الحقيقية . ولو نظرنا نظرة منصفة الى الانتاج السينمائى العالمى ، الذى تتزعمه الصناعة الأمريكية ، لهالنا مافيه من الضحالة والتمويه وسوء الفهم وللمسنا فى أغلب مايعرض على الشاشة بعدا عن الواقع وتجنبا للخوض فى المشاكل الحقيقية وافتعالا لقصص البطولة الزائفة والحب المريض والشجاعة الجوفاء · وقد كان من الممكن أن تستغل السينما فى التنوير والافهام ، وأن توجه الجماهير

الى فهم صحيح واع للحياة وأن تبث فى نفوسهم الولع بالبطولة الحقيقية البسيطة ٠

ولايمكن التفاؤل بمستقبل السينما العالمية الا اذا أحس القائمون بأمرها بدورهم الثقافى والفنى ٠ وأننا لنرجو أن تساير السينما سائر ألوان الفن فى فهمها لقضية الانسان ومحاولتها المساهمة فى اثراء وجدانه ٠٠

وهناك جانب مضىء من العمل السينمائى ،مازال هذا الجانب يحتفظ بفائدته وأغراضه الجدية رغم قلة ما ينتج منه ، وهو الأفلام التعليمية والثقافية التى تحكى قصة الاختراعات العلمية أو الاكتشافات الكبرى أو تصور جغرافية أحد الأقطار ٠ وتتميز كندا بهذا النوع من الأفلام ، وهى التى تصدر معظمه الى جميع نواحى العالم ٠٠

والتليفزيون هو اللقاء المثمر لفنى السينما والراديو ، ومن الأمور ذات الدلالة الواضحة أن الأمم التى تغلغل التليفزيون فى حياة أفرادها هى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفييتى أى الدول الكبرى ٠ ٠وأن هناك ثلاث قارات تكاد تجهل هذا الاختراع الجديد ٠ ففى أفريقيا نجد محطتان فى مراكش وتجارب بدائية فى مصر ٠ وفى آسيا نجد الفلبين واليابان وكلاهما لأمريكا فيهما نفوذ كبير ، وفى أمريكا الجنوبية وجد بصورة مبدئية فى البرازيل وكولومبيا ٠٠

وقد اتخذت الخطوات ليخرج الارسال بالتليفزيون الى نطاق عالمى فى برامجه فنظم للتليفزيون الأوروبى بين انجلترا وفرنسا والدانمارك وبلجيكا وجمهورية ألمانيا الغربية وايطاليا وسويسرا ٠ وكان المظهر الأول الذى تحقق فيه هذا الاتحاد هو اذاعة بطولة العالم فى الكرة عام ١٩٥٤ من أحد ملاعب سويسرا ٠

وقد أوجد التليفزيون تغيرا كبيرا فى حياة المواطن الأمريكى ٠ فارتفع عدد الأجهزة المستعملة فى الولايات المتحدة من ٨ مليون جهاز عام ١٩٥٠ الى ٣٨ مليون جهاز عام ١٩٥٦ ٠

ويمكن استعمال التليفزيون ·· كالسينما والراديو فى الأغراض الثقافية ، والى ذلك أشار تقرير اليونسكو لعام ١٩٥٦ حين قال « ان التعليم بالصوت والصورة يبشر بنتائج ثورية فى حقل التعليم »، وقد استغل التليفزيون فعلا للأغراض الثقافية فى الاتحاد السوفيتى اذ يحوى البرنامج على كثير من المواد الثقافية كما وضعت الأجهزة فى المدارس والأماكن العامة والنوادى الرياضـــية ليجتمع حولها المشاهدون · وقد حقق الاتحاد الســـوفيتى تقدما علميا آخر فى صناعة التليفزيون · وهو تلوين الصورة بالألوان الطبيعية ··

وأجريت فى فرنســـا تجارب فى تثقيف الفلاحين والدعاية لاستعمال الآلات الحديثة فى الزراعة وشملت هذه التجارب بعض القرى القريبة من باريس ··

وقد عادت هذه التجارب على الفلاحين بالخير الكثير ··

وهكذا ترى أن هذه الأدوات الثقافية قد حققت كثيرا من النفع والمتعة لانسان العصر الحديث · وذلك برغم مايحيط ببعضها من سوء التوجيه أو قصور الفهم · وانا لنطمح فى ظل عالم تسوده المحبة وحسن النية أن تقوم هذه الأدوات الثقافية جميعها بدورها فى خدمة الثقافة والتوحيد بين بنى الانسان ··

صباح الخير ١٩٥٦/٨/٩

هـــذا الرجل ليس قديســـا

روع حارس كنيسة ستراسبورج حين مر أمام قاعة الصلاة ذات مساء ، فسمع خطو أقدام تعبر القاعة ، وأرهف السمع فاذا بموسيقى سماوية تتناهى الى سمعه ، وكانت الموسيقى لحنا كنسيا رائعا لباخ العظيم تعزفه أصابع قادرة ، وعجب الحارس العجوز ، وأخذ يتقدم الى صدر القاعة · وهو يحدق بنظره الكليل · وعندما اقترب من الأرض رأى شبح رجل عريض المنكبين ، ناصع بياض الشعر ، وقد جلس الى الأرغن فى شبه تقديس ، وحاذاه الحارس العجوز ثم أمعن فيه النظر ، وكف الرجل عن العزف وتخايلت على شفتيه ابتسامة طيبة ، مالبث الحارس على أثرها أن صاح :

ـ ياالله ، أهو أنت ؟ لقد عرفت أنه لا يتقن هذا العزف غيرك ·
وابتسم الرجل ، ثم مد يده وربت على ظهر الحارس قائلا :

ـ كيف حالك ؟

وسأله الحارس :

ومتى عدت يا دكتور ؟

وأجاب الرجل :

ـ لقد عدت هذه الأيام ياصديقى ··

وابتسم الحارس وهو يسترجع ذكريات أربعين سنة مضت . لقد أصبح ذلك الشاب الالزاسي الذى كان يعزف على الأرغن فى الكنيسة الصغيرة ، ويعظ الناس فى صباح الأحد قديس هذا العصر، ولقب بالفيلسوف المنقذ ، ونال جائزة نوبل للسلام وأضيف اسمه الى سجل الخالدين . ولقد لقى من الحفاوة أينما حل مالم يلقه بطل فاتح .. فى لندن ونيويورك ، وباريس ، وبرلين .. لقد أصبح ألبرت شفايتزر اسطورة هذا العصر ، وأصبحت حياته ملحمة تروى ، ثم عاد فى ذلك المساء من الصيف سنة ١٩٥١ الى مدينة ستراسبورج ليستعد للسفر من جديد ، الى قلب الغابة الأفريقية .

ولد ألبرت شفايتزر عام ١٨٧٥ باحدى قرى الالزاس من أسرة من القساوسة الذين يجيدون عزف الأرغن ، وتجلت مواهبه فى العزف وهو فى السابعة من عمره ، ثم أتم دراسته اللاهوتية والفلسفية مترددا بين جامعتى ستراسبورج والسوربون .

وكان الموضوع الذى يشغل باله هو حياة المسيح فأخرج عام ١٩٠٥ كتابين يعتبران قوام نظرية جديدة فى اللاهوت . وكان طيلة هذه السنين يوالى تمرينه على الأرغن ، ودراسة امكانيات ذلك الجهاز فى الأنغام ويزداد قربا من ذلك الموسيقى العظيم الذى كتب للأرغن أروع الألحان .. سباستيان باخ . وقد كان باخ موسيقيا متدينا ارتبطت ألحانه بالكنيسة . ولذلك صادف هوى فى نفس ألبرت شفايتزر ابن القساوسة ورجل الدين ..

وأصبح شفايتزر وهو فى الثلاثين من عمره ذا مكانه ملحوظة كمفكر دينى ولاهوتى وفيلسوف ، ثم غير اتجاه حياته فجأة ، وقرر أن يدرس الطب .

يقول شفايتزر فى كتابه « حياتى وتفكيرى » لقد تخليت عن وظيفة التدريس فى جامعة ستراسبورج ، وعن أعمالى الأدبية والفلسفية ، وعن عزف الأرغن لكى أكون طبيبا فى الغابة الاستوائية .

كنت أجلس ذات يوم فى الجامعة مع بعض الزملاء عندما رأيت على مكتب احدهم تقريرا أرسلته احدى البعثات التبشيرية فى افريقيا ، وكان التقرير يتحدث عن الأحوال الصحية السيئة التى يعانيها هؤلاء الناس . ووضح من التقرير أن حاجتهم الى العناية الطبية اكثر من حاجتهم الى الخدمة الدينية . لقد كان واضحا أن هؤلاء الناس مثل اليعازر فى العهد الجديد يطلبون من يحييهم ، وصممت أن أقوم بهذا الدور واتجهت الى دراسة الطب .. لقد خدمت الله متكلما والآن أريد أن أخدمه بالعمل .

وقال لى كثير من الأصدقاء : انك واعظ موهوب ، ومكانك هنا بيننا ، وكثير من الأطباء يستطيعون أن يقوموا بالدور الذى تزمع القيام به ، ولكنى أجبتهم بقولى : تصوروا ماذا يستطيع رجل الدين أن يصنع اذا كان طبيبا . انه عندئذ يعالج الروح والجسد .

وتفرغ شفايتزر لدراسة الطب سبع سنوات طوال ، وفى أكتوبر سنة ١٩١٢ كان قد أنهى دراسة الطب وتدرن سنة فى مستشفى ستراسبورج ، وفى أصيل الجمعة الحزينة عام ١٩١٣ اختفى برج كنيسة ستراسبورج عن نظره ، وهو يستقل القطار الى باريس ، ومنها الى بوردو ، ثم يودع أوروبا الى الكونجو البلجيكية على باخرة اسمها أوروبا .

ورست الباخرة بعد رحلة طويلة فى ميناء ليبرفيل ، ومن هناك استقل شفايتزر وزوجته قاربا أوغل بهما فى النهر ، وكانت بعثات التبشير تستقبله مرحبة بالمبشر الجديد ، وربما حلا لبعضهم أن يصطنعوا لهجة العلم ، وأن يعلموه كيف يعامل السود ، وقال له عميد احدى الارساليات : « لا تعتمد على السود أبدا يا دكتور ! ويجب أن تقوم بكل شىء بنفسك » .

واختزن شفايتزر كل ماسمع من المبشرين القدامى حتى وصل الى السهل الذى أقام فيه مستشفاه ، والذى سيخدم فيه اخوانه فى الله . وعندئذ أدرك ثقل المهمة التى اضطلع بها ، فهتف من أعماق نفسه « ليساعدنى الله ! » .

يقول شفايتزر : « ولم يكن لدى مكان مخصص للكشف فيه على المرضى ، ولم أكن أستطيع أن أمارس عملى فى غرفة مقفولة خوفا من العدوى ! ومن القواعد المقررة فى أفريقيا وهكذا نبهت على الارسالية بشدة أن السود يجب ألا يمكثوا بين البيض كثيرا ، وهذا عمل واجب كى يأخذ الانسان لنفسه الحيطة » •

ان العبارة السابقة توضح لنا عن أى موقف فكرى يصدر شفايتزر فى عمله : انه يقر بادىء ذى بدء التفرقة بين البيض والسود • وينظر الى العمل الذى يقوم به كتفضل سيد على عبد • وحين يقول انه كان يخاف العدوى يطرح كثيرا من التقاليد النبيلة التى حملها كثير من الأطباء فى أيام المحن والأوبئة •

والواقع ان احساس المبشرين بأنهم عنصر نقى ، وأنهم ملح الأرض فى هذه البلاد ، يفسد كثيرا من الخير الذى يصنعونه ، وكثيرا ما أقام بينهم وبين السود سدا من سوء الفهم وضعف الثقة •

يتحدث شفايتزر عن حياته فى الغابة الاستوائية فيقول : « تبدأ الاستشارات فى الساعة الثامنة والنصف • وينتظر المرضى فى ظل منزلى ثم يقف أحد المعاونين ليقرأ عليهم الارشادات التى تلخص فى عدم البصق ، واستحضار الطعام معهم ، ورد الزجاجات الى المستشفى ، وفى منتصف الواحدة يعلن المعاون أن الطبيب سيتناول غذاءه فيهزون رؤوسهم ليعلنوا أنهم قد فهموا ما يقول • ويعود فى الساعة الثانية ، وفى الساعة السادسة يقفل المستشفى وينتظر من بقى منهم الى اليوم التالى ، واعتقد الناس فى مقدرتى • وأصبح اسمى عندهم « أوجانجا » ومعناها رجل الطلاسم • وكانوا يعتقدون أننى مادمت قادرا على أن أخلصهم من الحمى فاننى أيضا قادر على جلبها لهم ، أليس من العجب أن يكون الانسان نافعا وضارا فى الوقت نفسه • وكان كثير من الوقت يضيع فى محاولة افهامهم طرق الاستعمال وكان المعاون يكرر لهم الارشادات مرات ومرات ويكررونها وراءه ، ثم نكتب على الزجاجة أو الصندوق ليقرأها لهم أحد المعلمين فى قراهم وبرغم ذلك كان المريض يشرب الدواء كله مرة واحدة أو يلتهم الحبوب • ويأتى ليشكو الى الطبيب » •

أما حياته الخاصة فى المستشفى فقد كتبت عنها ممرضة كانت تساعده عشرين عاما ، واسمها هوسكت ، كتبت تقول :

« انى ممرضة فى مستشفى الدكتور شفايتزر وقد كان من حظى أن عملت مع هذا الرجل عشرين عاما • وقد أنهكنا التعب جميعا ، ولكن الدكتور برغم السبعين عاما التى عاشها ، مازال أكثرنا شجاعة وتحملا •

وهو بعد أداء واجباته اليومية يعزف على الأرغن ، وفى صمت الليل ، ومن قلب الغـابة الكبيرة نسـتمع فى غرفتنا الى أروع العزف الذى يعيننا على العيش ، ويملأ نفوسنا بالهدوء » •

ومنذ سنة ١٩١٣ الى الآن ، وألبرت شفايتزر يعالج المرضى فى أفريقيا ، مرضى السل والفيل والملاريا ويبشر بالمسيح والمحبة •

وفى بعض الأحيان يعود الى أوروبا فى زيارة قصيرة كى يلتقى باخوانه المبشرين ، ويدعو لمستشفاه ويجمع له التبرعات •• وبرغم ذلك فقد ظل هذا الرجل شبه الأفريقى حالما كما كان منذ أربعين سنة • فما زال الى الآن غافلا عن مشكلات القارة الحقيقية • وربما لم يدر بخلد شفايتزر أن الاستعمار والحضارة لايمكن أن يسيرا جنبا الى جنب فى أفريقيا • وأن الخدمات التى يؤديها للأفريقيين برغم جسامتها قاصرة لأنها لم تنظر الى حياتهم ككل متكامل • ولم تفطن الى أن احياء أمة من الأمم لا يكون بالتبشير والعلاج ، وانما بالتخطيط الواضح الشامل لحياتها المستقبلة ، مع قياس مقدراتها وامكانياتها • فان بلادا كالكونجو التى اتخذ منها شفايتزر مهبطا لرسالته الانسانية كان يجب أن تعد منذ زمن طويل لحكم استقلالى يعتمد الى جانب العلاج على التعليم والتثقيف والتوجيه المهنى وانارة الأذهان •

ولو كنا حسنى الظن بالقوى الاستعمارية مثل شفايتزر لطالبنا هذا الرجل الأبيض الذى قد أقام نفسه وصيا على القارة أن يعد

أخاه الأسود لهذا الدور · ولكن الاستعمار ليس مجرد كلمة ·ولكنه المظهر الوحشى لاستغلال المواد الخام وتسخير الامكانيات ، وهو التحقق الواضح للرأسمالية الجشعة ، ولن ترضى دول أوروبا عن اية محاولة تبذل لبعث هذه الشعوب . والطريق الوحيد الى رفاهية هذه الشعوب هو عدم استغلالها الذى يجب أن يؤيده المنصفون ، وان يدعو اليه أحباب الله وخلصاؤه . لأن المخلص الحقيقى الذى يقيم اليعازر من مرقده هو من يدله على طريق الاستقلال ·

ولكن من الخطأ أن نطالب انسانا باكثر مما تحتمل طبيعته ، وألبرت شفايتزر قسيس وابن قسيس وسليل قساوسة ، وهو يصدر فى أعماله عن فهم دينى مثالى يستعصى عليه الربط بين مظاهر الحياة المختلفة فى نظرة علمية تاريخية واضحة ··

ان ألبرت شفايتزر هو البقية الباقية من هؤلاء النبلاء الصليبيين الذين أوهمهم البابوات أن بيت المقدس بيد الكفرة ، وأن السفاكين يحتلون مفارق الطرق الى الله ، فخرجوا — ودوافعهم الطيبة ملء قلوبهم — ليحاربوا فى معركة لا تستحق عناء الحرب ·

لن تجد عند شفايتزر فهما واضحا لمشكلة الرجل الأســـود أو ادراكا كبيرا لدور الانسان الأبيض فى تلك البلاد · ففى فصل عقده فى كتابه « على حافة الغابة البدائية » بعنوان العلاقات بين البيض والسود كتب يقول :

« ينبغى أن تقال كلمة أخيرة عن العلاقات بين البيض والسود ، كيف يجب أن يكون التعامل بينهم ؟ هل على أن أعامل الأسود كفرد مساو لى أو كانسان أقل منى درجة ؟ الحق أننى يجب أن أحترم كرامة الانسانية · ولكن الظروف تتدخل — فى أثناء الحياة اليومية — وتجعلنى أعامله وكأنه أقل منى درجة · ان الزنجى طفل ، وحين

تعامل الأطفال يجب أن تستغل سلطتك ، فالقاعدة التى اتبعها مع الزنجى هى : أنى أخوك ـ هذا صحيح ـ ولكنى أخوك الأكبر ٠٠

وقد فشل أولئك الذين حاولوا أن تســـود بينهم وبين الزنوج مساواة مطلقة ، فمنذ أعوام افترق أحد مبعوثينا عن الجماعة ليعيش بين الزنوج كأخ لهم فحسب ، وبنى لنفسه كوخا فى قراهم ، ولكنه لما تهاون فى الفاصل الاجتماعى بين البيض والسود ، فقد نفوذه ، وفقدت كلمته وزنها ، ولم يعد أمره مطاعا ، بل كان يضـــطر إلى الالحاح فى الطلب والمناقشات الكثيرة قبل أن ينفذ له أمر » ٠

ويقول شفايتزر فى فصل آخر عن طبيعة سكان البلاد : « ان هؤلاء الناس بدائيون ، لم تتضح لهم وجهة نظر فى الحياة سواء بالقبول أو الرفض ٠ وليس لديهم رغبة حقيقية فى التقدم ٠ والحياة المثالية عندهم هى الحياة البسيطة ، المتناهية البساطة دون ازعاج أو عناء ، ولدى الزنجى مقدرة كبيرة على العمل ، ولكنه لا يعمل الا اذ كان مستخدمه يراقبه ٠ وكان فى حاجة الى المال أو الخبز » ٠

ونحن لن نناقش شفايتزر فى طبيعة سكان هذه البلاد ، فقد يكون صادقا أو لا يكون ، ولكنا كنا نريد منه أن يرد هذه المظاهر الى أسبابها العميقة ٠ لقد نظر الرجل الأبيض الى الزنجى كقوة بشرية غير عاملة ، فله عضلات مفتولة ، ومقدرة خارقة على العمل وحمل الأثقال ٠ وفى نفسه خوف من الأبيض وخداعه ، وهو كل يوم يبهره بأشياء كأنها سحر ، آلات كبيرة ، وأسلحة تقتل من بعيد ٠٠ والرجل الأبيض مزهو بهذا الوضع يريد لتلك القوة أن تظل غير عاقلة ليمكنه استغلالها بأيسر أجر » وليستطيع أن يسلبها حياتها وأرضها ٠

ولن يلام الأسود على تخلف نظرته أو قصورها أو على كسله أو عجزه عن مواجهة الحضارة ، ولكن الملوم هو ذلك الرجل الذى دخل الى تلك البلاد تاجرا يحمل الخرز الملون أو مبشرا يحمل رسالة المحبة ، وانتهى به الأمر سيدا طاغيا مستبدا ٠

ان ألبرت شفايتزر طراز منقرض . لأن هذا القرن هو آخر أيام الاستعمار ولأن هذه الأيام هى الأيام الأخيرة لسيادة الرجل الأبيض ، وسيكون طبيب أفريقيا وأسطورتها القادمة أحد أبنائها السود الذين يحملون العلم فى رأسهم ، والمحبة والتعاطف فى قلوبهم ..

صباح الخير ١٩٥٦/٨/٢٣

أصوات العصر

يسقط الحزن

لماذا أنت حزين ؟ لماذا أنا حزين ؟ لماذا نحن محزونون ؟

قد يجلس جماعة من الشباب ، شباب كالورد كما يقولون ‥ فى مقهى أو ناد ‥ ويمتد حبل السمر ويطول الكلام · وهم مبتهجون بنكتة مرحة أو حكاية حب أو متعة ·

فاذا تواعدوا الى لقاء ، وانصرف كل منهم الى حال سبيله ، مشى فى الطريق المظلم الى منزله ، وسرعان ما يتسلى بأغنية عن وحشة الطريق ، وتكون الأغنية عادة ذات نبرة حزينة ، ولا يلبث أن ينفعل بالأغنية · وتنتقل الأغنية الحزينة من لسانه الى مزاجه ، وربما دمعت عيناه قبل أن يصل الى منزله ‥

والأمهات يضعن رءوس أطفالهن على حجورهن ويمددن أيديهن يعبثن فى شعر الغلام أو الصبية · ثم يحدقن الى الفراغ فى سهوم · وسرعان ما يقفز التعديد والندب الى شفاههن المغلقة · ثم ينتقل الحزن من الشفة الى المزاج ‥ وينخرطن فى البكاء ‥

واخواننا الشعراء والفنانون جميعا حزانى · ما التقيت بصديق ممن يصنعون الكلام أو الأنغام ، وولد بيننا حديث الا وجدته حزينا · وربما استقبلنى والعبوس على وجهه كأنه عائد لتوه من المدفن ، وقد أودع التراب أعز عزيز ·

واخواننا هؤلاء ينشرون الحزن ، ويبشرون به ، ويدعون اليه الناس ، والأمر معهم أدهى وأمر لأنهم يعرفون الكلام المؤثر ويتقنونه .. وهم حلفاء الحزن ، واذا لم يتوفر لديهم يبحثون عنه ، ولأنهم يريدون أن يستلفتوا انتباه الناس نراهم يجسمون أحزانهم الصغيرة كأن الواحد منهم يريد أن يقول للناس :

« انظروا : كيف أنى بطل أحمل هذا القدر كله من الأحزان » .

كل شيء عندنا حزين .. أغانينا .. موسيقانا .. أشعارنا .. أدبنا ..

والأمهات يرضعن أولادهن الحزن . والآباء يلقنون أبناءهم الحزن ، وأمثالنا وحكمنا تنعى لنا الدنيا وتقول ان آخرتها خراب . فلماذا نحن محزونون .

* * *

قد تكون حزينا لفشلك فى الحب ، والحكاية المعهودة أن رجلا أحب فتاة ، ووضع فيها كل آماله ، ثم وجدها غير جديرة بهذا الحب .. أو العكس ..

وعلاج هذا الأمر سهل ، وأنا لن أكون ناصحا مخلصا الا اذا نظرت فى المشكلة من أساسها ، وحللتها الى جذورها .. واليك التحليل ..

الناس عادة يعيشون فى مجتمع ، ومعنى كلمة مجتمع أن الناس يجتمعون فيه ، ويعرف بعضهم بعضا .

أما نحن ، فاننا فى ناحية العلاقات بين الرجل والأنثى نعيش فى منفصل .. عكس مجتمع ، أى مكان ينفصـــل فيه الناس ولا يجتمعون ، فالاناث فى جانب والذكور فى جانب آخر ، وبينهم سور كبير كسور الصين العظيم .. وقد انفتحت فى السور بعض فتحات - وبعض الشباب ممن لديهم الجسارة والجرأة ينظرون من خلال هذه

الفتحات ·· ولأنهم لم يروا من قبل واحدا من الجنس الآخر فهم يحبون أول شبح تقع عليه أعينهم وراء هذا السور ·· ويسلمونه قلوبهم · · وتكون نتيجة ذلك أن يفقد الحب أهم ركن من أركانه ، وهو الاختيار · وهذه الفتحات قد تكون الجامعة ، أو الزيارات المنزلية · أو شبابيك الجيران · ولكنها جميعا مجرد فتحات صغيرة فى سور عظيم ··

وبعد مدة ، تحس أنك خدعت ، وانك سلمت قلبك الى يد غير أمينة ، وتحزن وتفكر وتحمل الهم · والواقع أنك لست المسئول الأول ، وليست هى المسئول الأول ·

ولكن المسئول الحقيقى هو المنفصل الذى نعيش فيه · فلماذا اذن تحزن على شىء لست مسئولا عنه ؟ ··

ونصيحتى لك فى هذه الحال أن تتفاءل معى بمستقبل يتحطم فيه السور · ونستطيع أنا وأنت أن نمارس حرية الاختيار فى الحب·

***

وقد تكون حزينا لأنك فقير · ولكن الفقر ليس قدرا لا فرار منه ·· وبامكانك أن تتغلب على الفقر · وأنا لن أكون خياليا أو مروج مخدرات فكرية فأزعم لك أن فورد كان عاملا فقيرا ، ثم أصبح صاحب ملايين أو أن روكفلر أصبح غنيا فى سبعة أيام · ولن أفعل أسوأ من ذلك فأعشمك بالجنة الموعودة · لا لأنى لا أؤمن بالجنة ، ولكن لأنى أعرف أن الجنة ونعيمها شىء والخبز والادام شىء آخر · ولكنى سأدلك على طريقة طيبة للتغلب على الفقر ··

قف وأسأل نفسك لماذا أنت فقير ؟ هل لأنك موظف صغير ·· اذن اجتهد وزود دخلك بضعة قروش أو جنيهات · هل لأنك عامل بسيط الأجر ·· اذن ابحث لك عن عمل آخر أكثر دخلا ·· لقد سدت الأبواب ولم يزد دخلك · فلابد اذن أن هناك خطأ كبيرا ·· أجل أن

هناك خطأ كبيرا هو خلاصة عيوب الاستبداد والظلم التى مرت بوطنك وأرضك ..

وهذا الخطأ ينسحب بأذياله على حياتنا جميعا . وهانحن ذا فى عهد جديد يرسى دعائم اقتصاد جديد .. وهذا الخير الذى سيتحقق سيعمنا جميعا ..

وفى فترة الانتظار هذه حاول أن تلائم بين ظروفك وبين دخلك وحياتك .. ولا تحزن ..

وتغلب على الفقر بأن تساهم فى البناء الجديد لنقتله قبل أن يقتلك ويقتلنى ..

* * *

وبعض الناس حزانى لأنهم مرضى ، وهم ليسوا مرضى بالحمى التى اما أن تذهب بالانسان الى الله أو تفارقه صحيحا ، ولكنهم مرضى بأمراض مداورة محاورة تظهر وتختفى . وقد يبتعد عنهم شبح المرض زمنا . ولكنهم من خوف المرض فى مرض ..

ولهؤلاء أهدى قصة حياة رجل عظيم . كان المرض هو سر قوته ..

اسم هذا الرجل مكسيم جوركى . وكان أبوه وأمه من رقيق الأرض فى روسيا فى أثناء الحكم القيصرى .

وقد ولد هذا الرجل فى مدينة صغيرة اسمها نوفجورود وحين ولد هاج جده وأرغى وأزبد لأنه لم يكن يريد لابنته أن تتزوج فضلا عن أن تلد ..

وكان الوالدان فى أشد حالات الفقر والاملاق . وخرج الأب من مدينته ومسقط رأسه الى مدينة بعيدة اسمها اصطراخان ليبحث عن عمل . .وحملت الأم وليدها بين ذراعيها وسارت وراء أبيه .

وما كاد الأب يجد له عملا حتى مات بالكوليرا وعمر الصبى أربع سنوات فحملت الأم المقهورة ابنها وعادت الى بيت أبيها ·· ولكن الجد ضاق به ، فما كاد الصبى يبلغ العاشرة حتى قال له الجد :

« لست وساما يعلقه الانسان فى عنقه أو يحمله على صدره ، اذهب وفتش عن رزقك » ··

وخرج صبى العاشرة هائما يبحث عن رزقه فعمل صبى جزمجى وخادم ورسام ، وضربه مخدومه علقة كادت تشرف به على الموت ·· فهرب من مسقط رأسه الى بلدة أخرى اسمها كازان وكان فى السادسة عشرة من عمره ، واشتغل فى مخبز يقف أمام النار أربع عشرة ساعة يوميا ·· ثم خرج من المخبز ليحترف كل الأعمال فى فضاء الله الوسيع ، وكان فى أثناء ذلك كله يقرأ كل ماتقع عليه عينه، ويراقب الناس بعين يقظة ·· ولكن هذه الحياة المضطربة القاسية أورثت صدره مرضا محاورا مداورا هو مرض السل ·

وعرف جوركى أنه مريض · وأن فى صدره داء يفترسه ·· ولكنه كان مصمما أن يعيش ، وان يهب للناس حياته · فكان المرض هو علة قوته لأنه أخذ يكتب للناس يبث فيهم الأمل فى الغد والتفاؤل بالمستقبل الأفضل · حتى أصبح اسمه علما على الأدب الذى يقول للانسان :

« انك قوى ، أنك مجيد ، وان المستقبل لك ! » وبارادة الحياة، وبمحبتها عاش هذا الرجل ثمان وستين سنة والداء فى صدره ··

* * *

ربما كنت مشغولا بالموت ·· كبعض الناس الذين لا يحبون الحياة ·· ان من يعرف الحياة جيدا ويفنى فى تيارها الصاخب المتجدد لا يفكر كثيرا فى الموت · وهب انك تفكر فى الموت فماذا تريد ؟ هل تريد الخلود ؟ هل تريد أن تكون حيا متجدد الحياة ؟ هل تريد أن تكون الها ؟

قد تبدو هذه الأمنية جميلة ٠٠ ولكن كاتبة فرنسية من أشهر كتاب عصرنا تؤكد لنا أن الخلود سخيف ومزعج وغير مريح بالمرة ٠

هذه الكاتبة هى سيمون دى بوفوار ٠٠ وهى مفكرة ممتازة وزوجة لفيلسوف كبير هو سارتر ٠٠

تقص علينا سيمون دى بوفوار قصة رجل خالد فتقول :

« كانت هناك ممثلة جميلة فاتنة اسمها رجينا ، وكان لهذه الممثلة مطامح وآمال كبيرة ٠ ولكنها كانت ترى أن الحياة أقصر من أن تتسع لآمالها ومطامحها ٠ وكانت ريجينا تتساءل دائما «ما الفائدة من كل ما نسعى اليه وكل شىء فى الحياة زائل ؟ لقد كان الموت فيها وهى تعرف ذلك ، بل هى تستقبله منذ الآن ٠ ستكون جميلة لعشر سنين أخرى ٠ وستمثل على المسرح الأدوار الخالدة ٠ وستترك فى قلوب الرجال ذكرى باهتة لأنهم سيموتون ويتحولون الى تراب ، وتتحول قلوبهم الى تراب » ٠

كانت مشكلة الموت تؤلم ريجينا كما تؤلمك ٠ ثم تعرفت ريجينا فى الفندق الذى تنزل فيه برجل غريب الأطوار يقضى معظم أوقاته فى غيبوبة متصلة ٠ وحين تخرجه ريجينا من صمته تعرف أن اسمه « ريمون توسكا » ٠ ولا يلبث هذا الرجل أن يطلعها على سره الرهيب ٠٠ انه انسان محكوم عليه بالخلود ٠٠

وقد عاش خمسة قرون طاف فيها العالم وتولى المناصب وحاك الدسائس والمؤامرات وأحب وعاشر كثيرا من النساء ٠٠

توهم « ريمون فوسكا » حين وهب الخلود أنه سيستطيع تحقيق كل شىء ٠ لقد تصور أنه سيكون الها ٠ وسيستطيع السيطرة على العالم وتنظيمه ٠ واذا به لا يجنى الا خيبة الأمل مرة بعد أخرى ٠

لقد كان الناس يموتون من حوله ، وهو يولد مرات عديدة دون أن يستطيع أن يبدل من أحوالهم شيئا ٠ ولذلك يقول لريجينا « انك

لن تستطيعى أن تتصورى هذا الامر ! سأكون هنا فى هذا العالم ، وسأبقى هنا دائما ! اننى احيا بلا حياة ، اننى لن اموت ابدا . وليس لى مستقبل ، ولست شخصا من الأشخاص .. وليس لى تاريخ ولا وجه » ..

لقدمات رفاقه جميعا واصدقاؤه وأولاده وأحفاده « كان الماضى قد سقط منى ولم يعد شىء يقيدنى . لا ذكرى ولا حب ولا واجب . لقد كنت مجردا من كل قانون » ..

لقد أصبح ريمون فاسكا وحيدا .. وحيدا بقسوة . وحرا حرية بلا معنى لأنها حرية الخالدين ..

ما قيمة أن تعيش بلا أصدقاء ولا ذكريات ولا اهل ولا خوف ولا أمل .. ولا موت ..

لو أصابتك لعنة الخلود كما أصابت ريمون فوسكا لانطلقت مثله هائما على وجهك بلا تاريخ ولا زمان ولا غرض ولا رغبة ..

والآن .. هل تريد أن تكون خالدا ؟

* * *

ربما كنت تريد الخلود للعالم والناس جميعا ، وتتمنى أن تعيش أنت ويعيش كل أحبائك وأصدقائك ، وأن لا يفرق الموت بينكم إلى الأبد ..

ولكن هذه الرغبة بصراحة دليل الأنانية . اذ كيف تجد الأجيال القادمة لها مكانا تحت الشمس اذا لم نخل لها مكاننا ..

يجب أن نكون واسعى الأفق . وأن تعرف ان الانسان ليس انا أو أنت فحسب . بل ليس هو جيلنا كله . فان عمر الانسان على الأرض طويل ومجيد أيضا . وقد حقق منذ كان يمشى على أربع الى أن فتت الذرة انتصارات مدوية . وكاد أن يصبح سيد الأرض ووارثها كما أراد له الله ..

ونحن نحترم الانسان ونقدسه · ونؤمن بخبرته وتجاربه ، وبقدرته على الانتصار دائما · ونؤمن أيضا أن كل جيل يرث الجيل الذى سبقه ويستفيد من خبراته ويطور انتصاراته ويحميها وينميها ·

ونحن نعرف أن الجيل القادم سيكون أقدر منا على ممارسة الحياة · ولا نشك في ذلك لأن التطور والارتقاء أمر حتمى · وسيكون الجيل القادم أصح منا بدنا وأسلم عقلا وأقدر على مواجهة الحياة ·

ولأننا نحب الانسان ، ونؤمن بتقدمه ، فاننا نخلى للأجيال القادمة مكاننا غير مجبرين ·· بل مختارين ·· اننا نموت باختيارنا ·· لأننا نؤمن بالحياة ··

* * *

أيها الصديق :

أرجوك أن تفرح وتتفاءل · وأن تحاول أن تنتصر دائما على ما يحيط بك · فان كل شيء جميل يولد في ظل الابتسامة ·

ودع الباكين يبكون ··

صباح الخير ١٩٥٦/٩/٢٧

رحلة على الورق

الميتافيزيقــا

الكلمة أجنبية كمايتضح من حروفها ·· وهى أقدم من جميع اللغات الحديثة لأنها أغريقية ، وكلمة ميتا معناها وراء ، والفيزيقا هى الطبيعة ، فالكلمة اذن تعنى ماوراء الطبيعــة ، فماذا ورزء الطبيعة ··

أول ما فكر الانسان فى انكون وجد أن هناك أشياء يستطيع معرفتها بحواسه وادراكه مثل الطبيعة وعناصرها ، ووجد أن هناك أشياء أخرى تستعصى على عقله ولا يستطيع ادراكه ان يتناولها مثل الآلهة وخلق الكون وأصله ومدى قدرة الآلهة أو علاقتها بالعالم، وهذه الأشياء كلها قد لفها ستار كثيف بحيث لايستطيع أحد أن ينفذ الى سرها ، وكانت هذه الأشياء كلها هى موضوع الميتافيزيقا ، التى شغلت بال الانسان قرونا طويلة ، فأخذ يخمن ويستنتج ، فقال بعض الفلاسفة ان الله خلق العالم ثم تخلى عنه ، وقال فلاســفة آخرون ان الله ليس خالقا ولكنه محرك فحسب ··

واشتد الخلاف ، وكان لابد أن تتكلم السماء بالقول الفصل ، وجاء الأنبياء والرسل ليضعوا نظريات ميتافيزيقية تحدد علاقة الله بالانسان ولكن هذه النظريات بدلا من أن تجمع الشمل فرقته ، لأن الخلاف فى التفاصيل ، ملأ صحائف وكتبا على مدى التاريخ ··

وفجأة ، وجـد نوع آخــر من التفكير قوض أركان التفكير الميتافزيقى وهو التفكير العلمى · ·فاذا كان التفكير الميتافيزيقى

لا يبحث عن العلة ولا يفكر فى السبب ولا يعنى بالظواهر ويرد كل شىء الى مشيئة السماء . فان التفكير العلمى يفتش عن السبب ولا يقتنع بالألفاظ البراقة أو الحجج الدينية . وهو يهتم بالظواهر لأنه يعتمد على التجربة الحسية ٠٠

وماتت الميتافيزيقا . وأصبح التفكير الميتافيزيقى الغيبى دليلا على التأخر والجمود ٠٠

صباح الخير ١٩٥٧/٥/٢٣

الفلســـفة !!

كتبت فى هذا المكان عن الميتافيزيقا . وقد تكرم الدكتور نظمى لوقا فراجعنى فى بعض ماكتبت ٠٠

كتب الدكتور نظمى لوقا يقول :

ان الميتافيزيقا ليست اسما أصليا لفلسفة الوجود ، وانما جاء هذا الاسم لأن أرسطو كان يعلم تلامبذه « الطبيعة » ثم انتقل من هذا العلم الذى يتحدث عن الموجودات المتعينة الجزئية الى الكلام عن « الموجود بما هو موجود » أو الموجود عموما ، ولم يجد عنوانا لذلك الدرس ، فوضع له تلاميذه عنوانا مشتقا من ترتيب الدراسة الزمنى ٠٠ وبما أنه درس لهم بعد علم الطبيعة فقد أسموه « مابعد الطبيعة » ٠٠

ماهى الميتافيزيقا اذن ؟

ان العلم ، وكل علم بالمعنى المحدد للعلم هو دراسة تحليلية لموجود معين أو طائفة معينة من الموجودات ، أما الفلسفة فهى دراسة الموجود من حيث هو موجود وللك أن تقول أنها دراسة الكون عموما على ضوء معطيات العلوم الجزئية لاعطاء صورة شاملة متكاملة للكون والوجود ٠ وغنى عن البيان أن اتخاذ موقف للانسان من الكون عامة هو حاجة عقلية للانسان ، بل ان الانسان قد يعيش بلا علم بالمعنى الفنى للعلم ٠ ولكنه لايمكن أن يعيش من غير نظرة كلية شاملة عن موقفه من الكون كله ٠٠ وهذه النظرة هى الفلسفة أو

ما بعد الطبيعة ‥ ولن يستغنى عنها الانسان فى أى عصر لأن ميدانها لا تدور فيه العلوم الجزئية ‥ فهى لهذا لا تسد فراغه ‥

هذا هو دور الميتافيزيقا الذى يتغير بتغير الأجيـــال ومدى معرفتها وثقافتها ولكنه لا يندثر أبدا ‥

ولعل الميتافيزيقا اليوم ألزم ما تكون لعصرنا العلمى بعد أن تنوعت المعارف وكاد العقل يضل ‥ وليس للعقل فى هذه المتاهة من معين الا نوره الخاص الذى نسميه فلسفة أو ميتافيزيقا ‥

* * *

ورأيى أنا أن الصديق الدكتور نظمى قد تجاوز الحديث عن الميتافيزيقا الى فلسفة العلوم تارة والى الانطولوجيا تارة أخرى . وكلانا ـ على أى حال ـ باحث عن الحقيقة ‥

صباح الخير ١٩٥٧/٦/٦

الفـــارس الحـــزين

على أحد مفارق الطرق . في الأندلس الجميلة ، تلاقى ثلاثة رجال على غير ميعاد ، وأخذ كل منهم يقدم نفسه الى زميليه · وكان أولهم رجلا قد جاوز الخمسين من عمره ، نحيلا طويل العنق كأنه مومياء محنطة ، يرتدى ملابس فارس قديم ، وكانت عيناه غائرتين محدقتين ، وانطلق يقول :

ـ وربما عجبت ياسيدى لمنظرى وهيئتى ، لأنك لم تتعود أن ترى مثلى ، ولكنك ستكف عن العجب حين أقول لك انى فارس ، ثم أخذ يتغنى :

من ذلك الفرع الذى يقول عنه الناس

انه يجـــرى وراء المغــــامرات

لقد تركت موطنى ، وهجرت ضيعتى ، وأسلمت قيادى المقد يقودنى حيث يشاء ، وقد عزمت على أن أبعث تقاليد الفروسـية الغابرة ، فأنا أحمى الارامل ، وأدافع عن العـذارى ، وأذود عن اليتامى والضعفاء · ولكى اختصر لك كل الكلام فى كلمات قليلة فانى أقول انى الدون كيشوت دى لامنشا ، ويدعوننى الفارس ذا الوجه الحزين ··

واستغرق دون كيشوت بعد ذلك فى صمت وقور ، ثم التفت الى الرجل الآخر ، وكان سيدا حسن المظهر فاخر الثياب يرتدى

معطفا أخضر ويركب عربة لامعة وقال له : وأنت ياسيدى الفارس
.. من أنت ؟ ..

وأجاب الرجل الآخر :

انى ياسيدى الفارس ذا الوجه الحزين مواطن قروى عندى بعض مال ، واسمى دون دييجو دى ميراندا ، وأعيش مع زوجتى وأطفالى وأصدقائى . ولذتى هى القنص وصيد السمك ، رغم انى لا أحتفظ بصقر او بازى ، اذ اننى أجد من أيسر الأمر أن يكون على مائدتى دجاجة مستأنسة أو سمانة لذيذة .. ولدى ما يقرب من سبعين كتابا بعضها بالأسبانية وبعضها باللاتينية فى التاريخ والدين .. وانا افضل كتب الدين وأقرأ فيها قليلا .. وأحيانا أتغدى عند جيرانى . وكثيرا ما أدعوهم للغداء على مائدتى ، ولا أحب الفضائح، ولا أرضى ان تذكر أمامى ، ولا أتدخل فى شئون جيرانى ، وأحضر القداس كل يوم . وأحسن الى الفقراء دون اعلان أو زهو ، وأحب العذراء المقدسة ، وأثق فى رحمة الله التى لا تحد ..

وسكت الرجل ذو المعطف الأخضر ، وابتسم ابتسامة ارتياح ورضا ، أما الرجل الثالث خادم دون كيشوت المدعو سانكوبانزا فقد ترجل عن حماره ، ثم خطا نحو السيد ذى المعطف الأخضر ومال على قدمه وأخذ يقبلها بقلب خالص والدموع فى عينيه .. وعندئذ صاح الرجل :

– ماذا تفعل أيها الأخ ؟

وأجاب سانكوبانزا :

– « اسمح لى ان أقبل قدميك لأنك أول قديس أراه على صهوة حصان » ..

وسار الرجال الثلاثة بعد ذلك ، رفاق سفر ، وكل منهم يفكر فى زميليه . كان الرجل ذو المعطف الأخضر يقول فى نفسه : « ان

هذا الرجل ، دون كيشـــوت ، مجنون بلا شك ،فان أحدا فى هذا الزمان لا يفكر فى أن يكون فارسا ، فقد مضى زمن الفروسية وانتهى. ولا يفكر أحد أيضا فى حماية الأرامل والعذارى فان القانون والنظام يحميان الناس جميعا ، ولابد أنه رجل ضعيف العقل قرأ كثيرا فى الكتب عن العهود الغابرة وعن الفروسية والفرسان ، فاختل تفكيره، وقرر أن يكون فارسا كما فى الكتب » ٠

وكان دون كيشوت يفكر : « ان هذا الرجل طيب بلا شك . يحيا حياة هنيئة كنت قادرا على أن أحياها ، ولكن على عبء مقدس ، هو أن أبعث الأيام الخالية ، وأن أعيد الأمجاد القديمة ، وأن أحمى الضعفاء والعاجزين ٠٠ اننى رجل يحمل أمانة مقدسة ويؤدى رسالة عليا . وحامل الرسالة لابد له أن يطرح عن نفسه كل مشاغل الدنيا وأن يغض النظر عن كل ألوان السعادة الهينة ٠ يجب على ذلك الذى يكافح فى سبيل رسالة أن يلقى عنان جواده الى القدر » ٠

أما سانكوبانزا فقد كان يفكر فى زميليه : « ان دون كيشوت رجل عظيم حقيقة ، وقد كنا جيرانا فى قريتنا ، وكنت أعرف فيه العقل والحكمة الى أن أقنعنى ذات يوم أن أخرج معه بحثا عن المغامرات ، وأن أكون تابعا له . وركبت حمارى وركب هو حصانه ، وانطلقنا بحثا عن المغامرة ٠ وقد وعدنى أن يهبنى جزيرة أحكمها مكافأة لى ، وأنا فلاح لا أصلح لحكم جزيرة ، ولكن سيدى دون كيشوت العظيم قد وعدنى بذلك . ولاشك أنه سيفى بوعده ٠٠ أما الرجل الآخر ٠٠ النبيل ذو المعطف الأخضر فهو قديس بلاشك ، وان حاول أن يبدو غير ذلك ٠ فليت سيدى دون كيشوت يأخذ عنه شيئا من الهدوء » ٠٠

كان كل من الرجال الثلاثة سارحا مع أفكاره حين صلصل على الطريق صوت عربة قادمة تجرها الخيل ويحميها الفرسان . وانتفض دون كيشوت وقد أعد نفسه لمغامرة جديدة ٠٠

كانت هذه المغامرة الجديدة حلقة من سلسلة مغامرات الدون كيشوت ، وقد قام قبلها بمغامرات كثيرة · فقد حارب أذرعة طواحين الهواء حين ظنها مردة وشياطين تنكرت له كى تختبر شجاعته ·· ورفعته الطواحين ثم ألقت به الى الأرض · وفى مرة ثانية فك أغلال قافلة من المسجونين ، ولكن المساجين انقلبوا عليه وضربوه بالحجارة ، وفى مرة ثالثة مرغه قطيع من الأغنام فى التراب لأنه وقف أمامه ، وقد توهم أن أعداء له قد تنكروا فى هيئة أغنام · وكان دون كيشوت يخرج من هذه المغامرات الخائبة وهو أكثر شجاعة وأشد تصميما على بعث تقاليد كل الأشياء العظيمة فى الانسان · وقد قال بعض الناس انه كان يحب فتاة اسمها دولسينة ، وربما كان دون كيشوت لم ير دولسينة هذه ، وربما كان قد رآها مرة واحدة فى شبابه كما رأى دانتى بياتريس ، ولكنه كان يتحدى الفرسان دائما حين يلقاهم على الطريق ويقول :

اعترفوا بأن الأميرة دولسينة دى توبوز هى أجمل النساء وأشرفهن ··

وكان الفرسان يقولون فى سخرية : « ولكنا لم نشاهد الأميرة دولسينة ، ولو رأيناها لاعترفنا ، فأرنا اياها أيها الفارس » ·

وكان دون كيشوت يغضب ويقول فى نفسه « ماقيمة الاعتراف اذا كان بعد الرؤية ·· يجب أن يعترفوا دون أن يروا » ··

الاعتراف دون رؤية ، كما نعترف بالله وبالفضيلة وبالحق وبالخير ، لأن دولسينة ليست امرأة من لحم ودم ، ولكنها رمز لكل شىء عظيم ·· ربماكانت دولسينة الحقيقية — ان كانت قد وجدت — لا تستحق كل هذا العناد · وربما كان الرجل ذو المعطف الأخضر ، وهو الرجل الوحيد الذى لم يحاربه دون كيشوت حين لقيه ، لا يفهم ما يجول بخاطر دون كيشوت ، وربما كان يعتقد أنه مجنون · ولكن الرجل ذا المعطف الأخضر رجل طيب ، أما دون كيشوت فانه رجل عظيم ··

والرجل العظيم عادة مجنون فى نظر الرجل الطيب

أما سانكوبانزا ، التابع المخلص الذى يتبع سيده دائما ولايهرب من الضرب الا حين يصبح احتماله فوق طاقة الانسان ، فهو مجرد رجل مخلص لا هو عظيم ولا هو طيب ..

وهكذا التقى الرجال الثلاثة على مفرق طريق فى بلاد الأندلس الجميلة ، أحدهم الرجل العظيم دون كيشوت دى لامانشا الفارس ذو الوجه الحزين ، والثانى الرجل الطيب دون دييجو دى ميراندا النبيل ذو المعطف الأخضر ، والثالث سانكوبانزا الفلاح المخلص ..

وكان الذى دبر هذا اللقاء الكاتب الأسبانى العظيم ميجويل سرفانتز فى كتابه الرائع دون كيشوت ..

ان كتاب دون كيشوت كتاب للأجيال ، كلما تأملت فيه أدركت حكمة جديدة ، وانفتح أمامك طريق واسع من اللذة والفائدة .. فهو ليس مجرد مغامرات تحكى ، وليس سيرة حياة فارس عجوز يعيش فى غير عصره . ونحن لا نعرف ماذا كان سرفانتز يريد بكتابة دون كيشوت . ولكن هو آخر ما يعنينا ، انما الذى يعنينا ما نجد نحن فيه ..

وقد تتساءل وأنت تقرأ سيرة ذلك الرجل الغريب الذى يصر على أن يكون فارسا فى زمن بلا فروسية ، وعظيما فى عصر الرجال العاديين ، وشريفا فى مجتمع التجار والقساوسة ، لعلك تتساءل : « أليس فى دون كيشوت روح نبى وقلب مصلح » ؟ ..

لقد كان دون كيشوت يحتج على زمانه ، وأعظم الرجال هم أولئك الذين لا ينفكون عن الاحتجاج .. ان دون كيشوت سيرة حياة رجل عظيم ، فهل أدرك الناس على مدى العصور هذه العظمة ؟ ..

فى ذات مساء فى القرن السابع عشر ، كان الملك فيليب الثالث الأسبانى يطل عن نافذة قصره فى مدريد ، فرأى منظرا

عجيبا . رأى طالبا يسير جيئة وذهابا على حافة النهر وهو يقرأ في كتاب ، وبين حين وآخر كان الطالب يضرب راسه بيديه وينطلق في قهقهة عالية · فقال الملك : « هذا الرجل اما أنه مجنون واما أنه يقرأ دون كيشوت » ··

فهذا الملك اذن قد فهم من دون كيشوت جانبه المضحك ! ··

وسأل لويس الرابع عشر ملك فرنسا أحد رجال بلاطه : « هل تعرف اللغة الأسبانية » ؟ فاجاب بأنه لا يعرفها ، ولكنه يعتقد أنه يستطيع فهمها والتحدث بها في فترة قصيرة جدا · وقد خيل اليه أن الملك يريد تعيينه سفيرا له في مدريد · فانكب على دراسة هذه اللغة بهمة ، فلم تمض بضعة أشهر حتى استطاع أن ينبىء الملك بنجاحه ··

فصاح لويس :

– انك لرجل محظوظ ! والآن تستطيع أن تقرأ كتاب دون كيشوت في لغته الأصلية ، وتتذوق سحره وجماله ·

وهذا الملك ايضا قد أدرك من دون كيشـــوت سحر ألفاظه وموسيقاها ·

أما الشاعر التركى العظيم ناظم حكمت فقد حيا دون كيشوت بقصيدة قال فيها :

فى سن الخمسين

اتبع فارس الشباب الأبدى

طريق العقل الذى كان يخفق فى قلبه

فمضى ذات يوم من أيام ابريل

وراء الجمال والحقيقة والعدالة

وأمامه كانت الدنيا

بعماليقها السخيفة والنتنة

وتحته كانت بغلته البرصاء
حزينه ومشبعة بفكرة البطولة
انا أعلم
انه حينما نقع في هذا الهوى
وحينما يكون لدينا قلب كبير
فانه لا مرد للقضاء يادون كيشوت
لا مرد للقضاء ·
اذ يتحتم علينا أن نقاتل طواحين الهواء ·
انت على صواب
فان دولسينه أجمل نساء العالم
أكيد انه كان يتحتم عليك أن تصرخ بذلك
في وجوه التجار الصغار الذين لا يساوون شيئا
وأكيد أنه كان يتحتم عليهم أن ينقضوا عليك
ليكيلوا لك الضربات
ولكنك فارس الظمأ الذى لا يغلب

* * *

انك ستبقى حيا كالشعلة
داخل درعك الحديدى الثقيل
وستظل دولسينة على جمالها
المتزايد مع الأيام

أجل ! سيظل دون كيشوت حيا على مر الأيام ، يرمز الى الجهاد الذى لا ينتظر جزاء فى سبيل الحق والخير والعدالة ··

وسيظل دون كيشـــوت رمزا للرجل العظيم فى عالم يمتلىء بالرجال الصغار ··

صباح الخير ١٩٥٧/٧/١١

الأمير الحقيقى والأمير المزيف

كنا جماعة من الأصدقاء نقضي سهرتنا فى أحد المحلات العامة على النيل ، وأطلت علينا مغنية أيطالية تعمل فى احد الملاهى ، فدعاها احد الأصدقاء الى مشاركتنا المائدة . ثم مال عليها راخذ يهمس فى أذنها ، وهى تنقل بصرها على اثر كل همسة من وجه الى آخر من وجوهنا كانها تتصــــفحها ‥ ولم انتبه الا والمغنية الحسناء الى جانبى وصــوتها المنغم يترقرق فى أذنى وبعد قليل استأذنت الحســناء منى ، وكان اســـتئذانها فى صوت يدل على الاحترام وان خالطه شيء من نبرة الأنوثة العذبة ، وغابت بضع دقائق ثم عادت ، وفى هذه المرة لم تتجه الى المقعد المجاور لى ، بل اتجهت الى الصديق الذى دعاها لمشاركتنا المائدة . ثم مالت على أذنه ، هى تهمس وهو يبتسم ، وهى تقطب وجهها وابتسامة تزداد اتساعا ، ثم نظر الصديق الى وجهى وانفجر ضاحكا ‥

وسألته : أيه الحكاية ، ما الذى أضحكك وأغضب صاحبتنا ؟

وقال الصديق : لقد همست لها انك أمير شرقى ، وأنك تملك بضعة آبار من البترول تغل عليك أكواما من الذهب ، ولكنك تحب الفن والفنانين ، وعندما سنحت لها الفرصة لتجلس بجوارك انتهزتها ، ولكن خاطرا شريرا دفعها الى أن تقوم وتسأل مدير المحل عنك ، وقال لها مدير المحل ان من يجلسون على هذه المائدة صحفيون وليس بينهم أمير ولا شبه أمير ، وهاهى قد جاءت غاضبة لتعاتبنى ‥

وانفجرت بدورى ضاحكا ، واتجهت الى المغنية الحسناء وقلت لها :

ــ ولكنى أمير ٠٠

ــ أمير هه ٠٠ أمير مزيف ٠٠

ــ لا ٠٠ بل أمير حقيقى ٠٠ أمير فى مملكة الكلام ٠٠

كنت أريد أن أقول لها أنى غنى بالكلمات ٠٠ ان عندى كلمات كالجواهر ٠٠ منها الكلمة البيضاء كاللؤلؤ ، والكلمة المتألقة كالماس والكلمة التى لا تصدأ كالذهب وان هذه الكلمات الغالية قد دخلت فى حوزتى لا بمحض الصدفة ، وليست هى هبة من قدر أهوج ، ولكنها ثمرة سعى مضن ، ومكافأة عن رحلات شاقة وراء الألفاظ والمعانى ٠٠ رحلات استغرقت العمر كله ، وشغلتنى كالمعشوقة الغيور عن أن أنظر الى أى وجه من وجوه الجمال الا فى الكلمات ٠

وكنت أريد أن أقول لها ان هذه لا تنزل على الانسان الا اذا أعد نفسه لها ، وتظل كالملك العظيم لا يفتح بابه الا بعد طول الطرق وكثرة الالحاح ، ولكنها حين تتنزل من عليائها تصبح أليفة حبيبة متواضعة ، وتدخل الى خزائن الأديب فى ابتهاج ورقة ٠٠

وكنت أريد أن أقول لها أن عندى آبارا أعمق من أى بئر بترول تتصورينه ، وان هذه الآبار فى نفسى ٠٠ اذا مددت أناملك فستستخرجين منها قطعا من اللهب ٠٠

لماذا سكت ولم أتكلم ؟ وربما خفت أن تخوننى لغتى الفرنسية فلا أستطيع أن أقول الا نصف ماكنت أريد قوله ، وربما خفت أن تورق ابتسامة الاستخفاف على شفتى الحسناء حتى تصبح ضحكة سخرية وأخيرا ، ربما كنت غير واثق مما أقول ، لعل هذا الكلام نعلل به أنفسنا ، نحن الذين اضطربت حياتنا فى محاولة الكلام ، وفقدنا سكينة النفس منذ أن أمسكنا بالقلم فى أيدينا لأول مرة ، وأخذنا نمارس الشقاء كل ليلة لكى نحاول أن نحد مالا يحد ، وأن نعبر عن اللامتناهى فى كلمات متناهية ٠٠

اننا نسائل أنفسنا كثيرا : هل استعبدنا الكلام أم نحن الذين استعبدناه ؟ هل نحن رعية ضائعة فى ملكه الكبير أم نحن ملوك نتصرف فى الكلمات كأنها رعايانا . وفرحتنا الكبرى هى حين ننظر فى أعقاب ليل الى ماخططناه على الورق ·· هذا النبش الأهوج ، ثم نقرؤه ونتغنى به ونجد فيه شيئا ·· شيئا من صنعنا ··

سحر الفاظه وموسيقاها ·

ولعلى لو وجدت من محدثتى أذنا مصغية ، ولو كانت ضيفتنا الحسناء تلك الليلة فتاة طيبة صغيرة من بنات وطنى لحدثتها عن عمرى وأيامى ، وكيف شغلت نشسى عن الفرجة على الأشياء بالتعبير عنها ، وعن التأمل فى الكون بالغناء الصوفى فيه ، وكيف وهمت ذات يوم أن للكلمات طعما ورائحة ووزنا وملمسا ، وأنها تؤكل كلما يؤكل التفاح وتشم كما يشم العطر وتوزن كما يوزن الذهب وتلمس كما تلمس بشرة المرأة الجميلة ··

ولعلى كنت أحدثها عن سنين ثلاث أو أربع من العمر ، قضيتها جالسا على مقهى ، التهم سندويتشات الفول والكتب وملامح الناس ·· طالب جامعى ريفى فى مدينة كبيرة مدببة الأسنان كفم التمساح ، لايستطيع أن يبحث لنفسه عن مكان فيها لأنه يخشى أن يجرح أو تدمى قدماه أو يبتلع التمساح رأسه ··

ولعلى كنت أحدثها عن أصدقاء أعزاء سمعوا لى فابتسموا ، وسـمعوا مرة ثانية فربتوا على كتفى ، ثم قالوا كما كان يقول القساوسة للفرسان : قم فأنت شاعر ، وقمت وانطلقت أعرض على الناس نفسى والسنوات الطوال من العذاب فى سبيل السيادة على الكلمات ··

هل كان من الخير لى أن أعيش فى الحياة ، وأن ابتعد عن الأدب ، هذه الصناعة الكاسدة ، كما تقول الحكمة القديمة ؟ هل

ماخسرته يوازى ماكسبته ؟ هل استطعمت أن اقول للكلمات : كونى فى ملكى فتكون ؟

وأخيرا : هل انا أمير حقيقى فى مملكة الكلام أم امير مزيف كما قالت المغنية الحسناء فى احد ملاهى النيل ، وهل تصبح كلماتنا بما نسكبه فيها من أنفسنا وحياتنا جواهر خالدة البريق ·· أم ستظل دائما ·· مجرد كلمات ··

صباح الخير ١٩٥٧/٩/٢٦

الحيـــاة ليست عبثـــا ..

قضت الآلهة على سيزيف فى الأساطير القديمة ان يظل حياته يدفع صخرة كبيرة الى أعلى الجبل ليراها تنحدر بعد ذلك الى آخر الدهر وظل سيزيف ، وسيظل فيما تقول الأساطير يقوم بهذا العمل الشاق المتكرر دون أن يتوقف لحظة ليسأل نفسه عن جدوى هذا العمل .. ان سيزيف صريع الارادة النافذة للآلهة ..

وظلت أسطورة سيزيف تنتقل على مدى العصور يستمد منها الكتاب والشعراء ما يحلو لهم من الرمز ..

أما البير كامى .. كاتب فرنسا المعاصر فقد وجد فى سيزيف رمزا للحياة جميعها ، انسانها وشقائه ، والموت وحتميته ، والحياة ولا معقوليتها ..

ان سيزيف فى نظر كامى يعرف أن جهاده عبث ، وأن أيامه ضائعة ، ويحس كما يحس كل انسان فى هذا العالم أنه يحمل على كاهله صخرة ، وأنه يرفع هذه الصخرة حين يدفع أيامه أمامه الى المستقبل ، وأن هذه الصخرة لابد أن تهوى كما تهوى أيامنا جميعا فى هوة الخيبة والاخفاق واللامعقولية ، واننا سنعيد رفع الصخرة لنمضى فى عبثنا هذا الى مالا نهاية ..

ألا من سبيل الى الانتصار على هذا العبث ، الا من سبيل الى معرفة غاية واحدة أو طريق واحد يؤدى الى أن ندرك مغزى

لحياتنا وسببا لوجودنا ؟ أما تلك المعرفة فمستحيلة لأن الواقع أنه لا مغزى ولا غاية ، وأما الانتصار على العبث فلا يكون الا بمعرفة أنه عبث ..

لقد اصبحت اسطورة سيزيف مذهبا فكريا ، نما على يد كامى فى كتابه الذى أصدره سنة ١٩٤٢ بهذا العنوان ، ثم تحقق فى أعماله الأدبية الكثيرة الطاعون سنة ١٩٤٧ ، العادلون سنة ١٩٤٩ السقوط سنة ١٩٥٧ وغيرها من الأعمال الأخرى ..

وعند كامى الأدوات الكثيرة لكى ينشر مذهبه هذا ، فهو روائى ومسرحى وكاتب مقال وفيلسوف وصحفى أيضا ..

وقد انتشر مذهب كامى « السيزيفية » وتجاوز فرنسا الى أوروبا بأجمعها ثم الى أمريكا والشرق ، وهاهو هذا المذهب يتوج بجائزة نوبل سنة ١٩٥٧ .

والفردية هى نقطة البدء عند المفكرين الوجوديين ، والبير كامى أحدهم بل هو من قادتهم ، والوجودية حين أنكرت الله والعناية الالهية لم تتبن بديلا آخر لها ، بل لقد تركت الانسان غريبا فى صحراء جرداء كتلك الصحراء الموحشة التى وصفها كامى فى رواية « الغريب » أو سلطت عليه الفئران المتوحشة من الشك والحيرة والارهاق كالفئران التى أطلقها كاتبنا كامى فى روايته المروعة الرائعة « الطاعون » أو الندم ..

ان محنة الانسان الحديث عند الوجوديين أن النعمة الالهية قد تخلت عنه لأنه رفضها .. ولكنه لم يأو بنفسه الى معتقد آخر . ومن هذا البدء الموحش يشرع كامى فى بناء فلسفته .. فلسفة العبث ..

وكما يدين كامى بتفكيره الفلسفى الى الوجودية فهو يدين بتفكيره الطبقى ووراثته الى طبقة غريبة .. طبقة لقيطة تاريخيا ، وهى طبقة « الكولونيين » الجزائريين ..

ولد كامى فى احدى القـرى الجزائرية من أب فرنسى وأم أسبانية ، ومات أبوه وهو وليد وانفق حياته فى الجزائر حتى حصل على شهادة فى الفلسفة من جامعتها ، وأصيب بالسل ثم شفى وانضم الى الشيوعيين عاما ثم ارتد عنهم وفى فترة الاحتلال الألمانى لفرنسا اشترك فى حركة المقاومة وأشرف على تحرير مجلة « كومبا » السرية، ثم اشتغل بكتابة الرواية بعد الحرب ومازال يوالى نشاطه الأدبى ٠٠

فى حياة كامى مواقف مشرفة ضد النازية ولكنه مازال حتى الآن كولونيا ٠٠ يمثل عقلية الرجل المستعمر ، فهو ـ رغم ادعائه أنه جزائرى ـ لم يحاول أن يؤدى دوره كمثقف فى وقف المذبحة فى الجزائر ، ولم يوقع مع مورياك وسارتر وماسينيون وغيرهم تلك العريضة التى تقدموا بها للحـكومة الفرنسـية لوقف الحرب فى الجزائر ، وتذرع بأنه لا يحب أن يؤدى دورا سياسيا ٠٠

ولكن كامى رغم ذلك قد توج بجائزة نوبل وهو فى الثامنة والأربعين من عمره ، وهذا مجد عظيم لم ينله فى سنه الا روديارد كبلنج شاعر الامبراطورية البريطانية الاستعمارى الذى قال يوما « ان الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقيا » ٠٠

صباح الخير ١٩٥٧/١١/١٤

فى معبـــد الانســـان

« لعل أهم شىء وأكثره قيمة من الناحية العملية فى أى انسان هو نظرته الى العالم ، وعندى أن صاحبة المنزل التى تود التعامل مع مستأجر عليها أن تنظر الى ايراده ، وأن كان من الأهم لها أن تعرف فلسفته »

« تسشترتون »

لا يعنى هذا أن تكون فيلسوفا ، يبحث فى أصول الأشياء وعللها البعيدة ويشغل نفسه بمماحكات الألفاظ ، بل لابد أن يكون لك موقف من كل ماحولك ، تتميزه فى نفسك ويحكم سلوكك ويوجهك وتصطبغ به وجهة نظرك ٠

ولقد حدثت ضجة كبرى فى أروقة الفلسفة فى هذا القرن ٠٠ تبدلت مقولات ، وجدت وجهات نظر ، وتحددت معانى ألفاظ ، وأصبح الفيلسوف مطالبا بأن يعيش فى الحياة ، وأصبح من يعيش فى الحياة مطالبا بأن يعرف ماذا يقول الفيلسوف ٠٠

والفلســـفة مثل الانســـان ، لأنها هى العلم الذى أنتجه عقل الانسان ، وكما أن تاريخ الانسان على الأرض وحدة متطورة هادئة الى أعلى ، فكذلك الفكر الفلسفى ٠٠

ولكن كثيرا من مثقفينا في مصر مازالوا يعيشون في فلسفة المعميات والألغاز ، ويلغطون بمذاهب التبرير والشـــك والعدمية والفردية ، وهم مع ذلك يتخذون سمة الفلاسفة ويضـــعون على رءوسهم شعر الحكمة المستعمار ..

وهؤلاء الفلاسفة الكذبة مثل الانبياء الكذبة ما أن تظهر فلسفة الانسان الحقيقية حتى تنصرف عنهم رعيتهم بعد أن تقطع رءوسهم ونضعها على طبق ..

وفلسفة الانسان الحقيقية هى فلســـفة التفاؤل والمادية وبناء الحضارة والتكاتف الانســـانى ، لا فلســـفة الوجود والميتافيزيقا والمثاليات المعلقة علىحبال الوهم ..

والعالم يزدحم الآن بالحكماء الحقيقيين .. حكماء شريعة الانسان ، وهم لا ينكرون الجهود الباهرة التى قام بها أسلافهم ، بل يتناولونها بحرص يقارب القداسة ، ويتأملون فيها بوعى نافذ كأنه سهم مطلق ، ثم يتخيرون منها أحسن مافيها ، ويجعلون من ذلك كله فلسفة جديدة .

وقد نقل الينا الزميل انور عبد الملك كتابا من الكتب القيمة الانسانية ، وهو كتاب مدخل الى الفلسفة لجون لويس ، والكتاب الجديد المفيد فى مكتبتنا العربيةهو كنز جديد يضاف الى ثقافتنا ويزيدها لمعانا وخصوبة وقوة ..

وقيمة كتاب جون لويس أنه قد نقل الينا فى أوانه ، الفلسفة ليست علما « مضنونا به على غير أهله » كما كان يقول الأقدمون، ولكنها سعى عشرات من العقول مثل عقلى وعقلك ، لا لكى تفسر الكون فحسب بل لتغيره أيضا ، والانسان الواعى المخلص هو من يجعل نقطة بدئه هى العلامة التى ركزها سابقوه فى طريق الانسان الطويل للسيطرة على الكون .

لقد شجب جون لويس، باصالة وأمانة كل الفلسفات التى تعوق سير الانســـان ‥ النزعات المثالية والتجريدية ومذهب الذرائع والوجودية ودفع القارىء دفعا بنفس المستوى من الأمانة لكى يعرف فلسفته الحقيقية ‥

أما الزميل أنور ، فقد بذل بلا شك من الجهد فى الترجمة ماهو جدير بأن يهنأ به ‥ ولكن لى عليه بعض مراجعات ‥

● يستعمل الزميل كلمة « الاســـكولائيين » كترجمة لكلمة « سكولاستك » ، وقد سبق ترجمتها بكلمة المدرسين فى كثير من المراجع الفلسفية العربية الحديثة ، ودارت هذه الترجمة وشاعت على الألسن ‥

● كنت أفضل لو استعمل الزميل كلمة « الحدس » بدلا من « العيان » ‥ اذ أن العيان تعنى المشاهدة البصرية ، كما يتضح من تركيبها اللغوى ، الحدس أشمل لأنها معرفة سابقة بدون تصورات أو تركيب وتحليل ‥

● فى صفحة ٢٣ فى معرض الحديث عن أفلاطون يستشهد الكاتب برأى للأستاذ زيمرن فى يوتوبيا أفلاطون ، ويورد الزميل المترجم النص هكذا : انها (جمهورية أفلاطون) الأساس المباشر أو غير المباشر لتلك المشروعات أو المحاولات العديدة لايجاد الكومنولث الكامل ‥

ورأيى ، أن الأستاذ زيمرن لم يستعمل كلمة الكومنولث بمعناها الاصطلاحى السياسى ، بل بمعناها اللغوى الحرفى ، وكان من المستحسن ترجمتها « الرفاهية الشاملة » ‥

● يشرح المترجم كلمة الأرثوذكسية بأنها كل مايتفق مع الرأى الصحيح ، وقد كتب الأستاذ بول هازار فى كتابه أزمة الضمـــير الأوروبى فصلا قيما عن الأرثوذكسية يتضح منه أنها قد اكتسبت

معنى التزمت الديني والحرص على حرفية التعاليم الكنسية في مقابل دعوات الاصلاح الديني والشك في صحة الكتب المقدسة وهو التيار الذي قاده في العصور الوسطى كثير من المفكرين والكنسيين الأحرار ..

● كانت جامعات العصور الوسطى تمنح لقب دكتور لمن أنهى دراسته فيها ، ومن التجاوز ترجمة النص ص ٧٠ هكذا « وذلك بايعاز من كبار الدكاترة الاسكولائيين » وكان الوضوح يقتضي وضع هامش يرجع فيه الى أحد القواميس الفلسفية مثل قاموس « لالاند » لكي يوضح تطور معنى لفظة « دكتور » ..

● رجوت لو خلا الكتاب من بعض الأخطاء النحوية كما في صفحتي ١٧ ، ٦٤ وغيرهما من الصفحات ..

وأخيرا ، فاني أتقدم الى الأستاذ أنور بشكري الذي لا يحد لأنه قد تكلف عناء نقل هذا الكتاب الذي يحكي قصة الانسان منذ أن كان حيوانا يمشي على أربع الى أن صار مفكرا عظيما صانعا للمذاهب ، والذي يقودنا في تبصر خلال جولتنا في معبد الانسان .

صباح الخير ١٩٥٧/١٢/٥

الايمـــان الجـــديد

حين انتصر العلم فى القرون الثلاثة الأخيرة تخلى له الدين عن سلطانه وأصبح هذا المجهول الذى تسلل الى الجامعات والمعاهد والأندية ثم الى عامة الناس هو الأمل فى مستقبل أسعد وحياة أكثر رغدا ٠

لقد بدأت التكهنات الحـــديثة بكوبرنيكس ثم بنيوتن وانتهت بالعالم العظيم تشارلز داروين ، بدأت بدراســـة الجاذبية ومركز الأرض ، وانتهت بوضع نظرية عامة فى « البيولوجيا » ليس لفكرة الخلق المستقبل مكان فيها ٠٠

وقد كان صدى هذه التكهنات عند عامة الناس أعمق منه عند العلماء أنفسهم ، اذ قد خيل للكثيرين أن مشاكل هذا الكون قد حلت، أو هى فى الطريق الى أن يجد هذا الانسان المتعب لها حلا ٠ ولم يسلم من هذا التفاؤل الهين كثير من المشتغلين بالفكر وظهر هذا الأثر فى روائيى القرنين التاسع عشر والعشرين . ففى قصة مثل قصة ٢٠ر٠٠٠ فرسخ تحت الماء لجيل فيرن ، وفى قصص الكاتب الانجليزى هـ ٠ ج ٠ ولز ٠ نجد أن النهايات العلمية قد استحالت الى تكهنات حالمة ، وخلقت عوالم جديدة لم تخطر على قلب بشر ٠

ان التفسير العلمى للعالم من أهم جوانب دراسة الحياة ولكنه قد تحول عند كثير من المفكرين الى « تفسير ميكانيكى » يكتفى

بدراسة الظواهر ، ولا يحاول أن يبحث عن « علة غائية محدثة » ان صح هذا التعبير · وكانت نتيجة هذا التفسير الميكانيكى أنه استبعد الفكر استبعادا مطلقا ، وفشل فشلا واضحا فى دراسة حالات الذهن أو النفس · فان تلك الحالات لا يمكن ردها جميعا الى تلك العناصر الأولية الثابتة التى تعادل الذرات المادية · كما أنه لا يمكن الاستعانة بنظرية التداعى كبديل لنظرية الجاذبية ··

وحين اتضح فشل التفسير الميكانيكى للحياة ألقى كثير من المفكرين على « العلم » ذاته هذا المعبود القديم ، وزر هذا الفشل · وعاد كثير منهم القهقرى الى الايمان القديم بالروح والغيبيات وفعالية الفكر وحقيقته ·

ونحن نستطيع أن نتلمس تاريخا عريضا لهذه الردة الغيبية ، نستطيع أن نتلمسه عند الفيلسوف الوجودى سيرين كيركجارد ثم فى أتباعه من المدرسة الوجودية حتى جابرييل مارسيل ، ونستطيع أن نراه فى المحاولات المتكررة لاحياء الدين فى صورة جديدة عند كثير من مثقفى اللاهوتيين أنصاف الفلاسفة ··

وينبغى الاشارة الى أن هناك اتجاها ثانيا ، كان هو الآخر بمثابة رد فعل على الفشل المتوهم للعلم فى حل مشكلات الكون · وذلك هو التيار الذى أنكر العناية الالهية وأنكر معها تقدم الانسان المعاصر وانتصاراته العلمية والفكرية · وأكد أن الانسان لم يجن فى حياته الطويلة على ظهر الأرض الا الشقاء والتعاسة ·

هذا التيار نستطيع أن نلمسه عند فرانز كافكا حين يؤكد فى رواياته جميعا أن الانسان قد حكم عليه بالحياة · وأن « ليس هناك الا العالم الروحى ، وما ندعوه بالعالم الطبيعى ماهو الا جانب الشر من العالم الروحى · وأول علامة من علامات المعرفة الناضجة هى الرغبة فى الموت » ·

ويقول الكاتب المعاصر ألبير كامو الحائز على جائزة نوبل هذا العام « هناك مشكلة فلسفية واحدة هى الجديرة بالبحث لجديتها ·· وهى الانتحار » ·

أما المسرحى الأمريكى الكبير أوجين أونيل فهو يبنى مسرحياته على أن الحياة صراع بين الوهم والحقيقة أى بين ماهو فكرى غير ظاهر ، وبين ماهو مادى ملموس محسوس ، ويؤكد أونيل أن الوهم هو الذى يعين على تحمل الحياة فى حين أن الحقيقة باهظة الحمل ، بل هى تعنى الموت ·

* * *

والآن لنعد الى أولئك المتدينين المحدثين ، ولعل من أوضح ملامح هذا الاتجاه الشاعر والناقد الكبير ت · س · اليوت ·

ان اليوت يمثل الرجوع الحقيقى الى الله والعناية الالهية فى هذا العصر ·

واليوت عائد كامل العودة سواء فى الفن أو الاجتماع أو السياسة أو العقيدة · لقد قال اليوت عن نفسه منذ زمن طويل انه كلاسيكى فى الأدب ملكى فى السياسة ، كاثوليكى فى العقيدة ·

«I am classicist in literature, royalist in poliitics and catholic in religion».

وقد بدأ اليوت حياته الشعرية سنة ١٩١٧ متشائما كارها للحياة · اذ أصدر فى هذا العام مجموعة قصائد مختارة من ت·س· اليوت ، وكان أهم ما فيها قصيدته المشهورة أغنية العاشق ج · ألفريد بروفروك وشخصية بروفروك هى شخصية اليوت · والرجل اليائس فيها الذى يخشى أن يرتد خائبا ، والذى لا يجرؤ على الحركة اذ يخشى أن يزعج الكون والذى يدخل نفسه دقيقة ليتدبر ، والذى يجد فى هذه الدقيقة متسعا للعزم والعدول عن العزم والعدول عن العدول ·· هذا الرجل المتوقف عن الفعل هو نفسه ت · س · اليوت ·

وانتقل اليوت من المرحلة المتشائمة الى الايمان بالكنيسة ، مالبث أن أكمل حول نفسه سلسلة من الارتدادات ، فأصبح انجليزيا

ملكيا لأن نظام الأمريكيين الجمهوري لم يرق له ، وترك البروتستنتية الى الكاثوليكية ثم أخذ ينعى العالم في قصائده « الرجال الجوف » و « الأرض الخراب » وغيرهما ، وابتدأ منذ عام ١٩٣٥ في كتابة قصائده الدينية الشهيرة « الرباعيات الأربع » وانتهى منها في عام ١٩٤٣ . وطبعت في ذلك العام في انجلترا وأمريكا في وقت واحد .

ان طريق الخلاص كما يحدده اليوت في قصائده الأخيرة هو :

اهبط الى العالم السفلى ، الى عالم العزلة الدائمة

العالم الذى ليس عالما ، ولكنه ماليس بعالم

واللحظة التى تسعد الانسان هى :

لحظة الوجد فى الشجرة التى تلاطمها الأمطار

ولحظة الوجد فى الكنيسة التى تخترقها

تيارات الهواء حين يتكاثف الدخان

أجل نذكرها مشتبكة بالماضى وبالمستقبل

وبالزمن وحده نقهر الزمن

وكل سعى الانسان الى الخلاص فى مدى عشرين قرنا قد أدى الى العقم والافلاس .

ان الدورة التى لا تنتهى للفكرة والعقل

والتجارب التى لا تنتهى ، والاختراعات التى لا تنتهى

قد علمتنا الحركة ، ولكنها لم تعلمنا السكون

وعلمتنا الحديث ، ولم تعلمنا الصمت

وعلمتنا الكلمات ، ولم تعلمنا « الكلمة »

وجهلنا يقودنا لنقترب من الموت .

ولكن القرب من الموت ليس قربا من الله ·

أين الحياة التى أضعناها فى العيش ؟

أين الحكمة التى أضعناها فى المعرفة ؟

أين المعرفة التى أضعناها فى الأخبار ؟

أن دورة السماء فى عشرين قرنا

قد أبعدتنا عن الله ، وقربتنا من الموت ·

لقد أصبح الدين هو العزاء الوحيد لهذا الشاعر ، وانه ليرقب هذه التجارب الاصلاحية التى يخوضها العالم وهو يعتقد فى قرارة نفسه أنها جميعا تجارب فاشلة ، وأنه قد قضى على العالم بالرجعة الى الدين لو قيض له الخلاص من محنته ·

وهذا الموقف الفكرى لايكاد ينفصل عن المواقف السياسية أو الفنية للشاعر ، ففى « مقالات مختارة » صفحات من الدراسة السياسية أفلتت من قلمه عفوا ، ونجد فى هذه الصفحات آراء قريبة من آراء فلاسفة العنصرية والفاشية · ويبرر اليوت هذه الآراء دائما بأسانيد دينية نقلية من توماس الأكوينى وسانت أوغسطين وغيرهما من فلاسفة اللاهوت ·

وأخيرا فان فى العالم كثيرا من كبار الأدباء مازالوا يؤمنون بتقدم الانسان ، وتصطبغ نظرتهم الى الحضارة بشعور الغبطة والفرح بهذه الانتصارات التى حققها البشر ، ويدركون أن كل تقدم علمى هو خطوة تبعدنا عن الموت لا تقربنا منه ، ولكن شاعرا كاليوت هو ظاهرة جديرة بالدراسة ، لأنه لا يمثل فى اتجاهه الى الكنيسة نفسه فحسب ، بل هو يمثل قطاعا كبيرا من مفكرى وفنانى مابين الحربين وبعد الحرب الثانية ، نذكر منهم ماكسويل أندرسن فى مسرحيته « عذراء اللورين » التى يقول فى مقدمتها :

« نحن نعيش بأوهام لا نستطيع أن نناقشها كما لم تناقش جان دارك ذلك الصوت الذى سمعته فى الحديقة ٠ والدين هو الذى يهدينا الى الحب » ٠

ونجد هذا الاتجاه فى كثير من الأفلام السينمائية الحديثة التى يتوقف فيها الحل على المعجزة أو على نداء الكنيسة مثل « أغنية برناديت » و « اعتراف » و « أجراس القديس مارى » وغيرها ٠

لقد قام هذا الاتجاه لأنه قد فشل فى التفرقة بين التفسير العلمى والتفسير الميكانيكى ، ولأنه لم يدرك أن التقدم العلمى الحديث قد نشأ فى مجتمع استطاعت فيه حفنة قليلة من البشر أن يجنوا ثمراته سواء فى مجتمعات أوروبا الرأسمالية أو فى المجتمع البلوتوقراطى الأمريكى ٠

الشهر ١٩٥٨/١

أصوات العصر

زوبعـــة فى كتــاب

من الكتب مايموت بين يديك بعد قراءته ·· يظل صوته يخفت حتى تطوى صفحته الأخيرة ، فاذا هو ملقى أمامك بلا نبض ولا صوت ، ومنها مايحيا حياته الجديدة بعد أن تطوى آخر صفحة منه، اذ يولد ثانية في عقلك ، وتظل أفكاره ومعانيه تدور فى وجدانك . كالزوبعة الهادرة ··

والكتاب الذى يعيش هو الكتاب المزدحم بالناس ، الذى يركز أفكاره فى قلوب البشر ، ويستمد عمقه من نفوسهم ··

ومن هذه الكتب الصارخة ، هذا الكتاب « اللامنتمى » ··

مؤلف الكتاب شاب انجليزى فى الرابعة والعشرين من عمره ، اسمه كولن ولسون ، لم يتلق العلم فى كلية أو جامعة ، ولكنه درس وقرأ ، وعاش بكل نفسه فيما يقرأ ، ثم كتب هذا الكتاب فى مئات الصفحات ·· ليعرض فيه نفسية الانسان اللامنتمى ··

والانسان اللامنتمى هو الانسان المرير الموحش الذى لا ينتسب الى شىء ، لا يستطيع أن يضم نفسه الى حزب أو منظمة ، ولا ينتمى الى طبقة أو عقيدة ، ولا يسلك سلوكاً فرض عليه من قبل ، وانما هو انسان عملاق غريب عن الناس والمذاهب ، كل أعماله من ابتكاره

الخاص ، وكل أفكاره من وحى نفســـه المنفردة ، وهو يمشى فى الحياة يجرر ظله الطويل الوحيد على طرقاتها ٠

هذا الانسان اللامنتمى هو انسان العصر الحديث ، لقد اهتزت اركان الدين ، وتخلخلت قيم الفضيلة التقليدية ، وعرف العلم أنه محدود الدائرة ، لم يعد المتدين فاضلا والملحد شريرا ، وأصبحت الوصايا العشر نقشا على حجر ، وتخلى الله عن الانسان أو تخلى الانسان عن الله ٠٠

انها لمأساة ثقيلة أن يصبح الانسان هو المسئول الوحيد عن مصيره ، وأن يكون — الى جانب ذلك — مطالبا بأن يختار دائما دون أن يغير له أحد الطريق الى الاختيار ، ولكن هذا هو ســـر عظمة الانسان ٠٠

استمد المؤلف نماذجه من اللامنتمين من منبعين : الكتب والحياة ، أما الكتب فقد اختار المؤلف بعض شخصيات الروايات ، وانطلق يحلل تلك الشخصيات من وجهة نظره ، انها كلها شخصيات غريبة نافرة ، لم تدخل فى اطار المجتمع ، ولم يخرطها الدين أو التقاليد كما تخرط المعادن ٠٠

اليك مثلا شخصية الغريب فى رواية « كامو » المسماة بهذا الاسم ، انه انسان منفرد ، ماتت أمه ، وفى اليوم الذى ماتت فيه أمه خرج للهو وضاجع امرأة ، وقتل رجلا دون أن تكون بينهما عدواة سابقة ، وحوكم فى اليوم التالى ، ثم حكم عليه بالاعدام ٠٠

هذا الرجل الغريب يواجه مصيره دون أن يستلهم عونا من أحد ، ويقوم بهذه الأفعال فى حرية مطلقة ٠٠

شخصية ثانية ، رجل بلا اسم فى احدى قصص هنرى باربوس، انه يقيم فى فندق ، وينظر من خلال ثقب فى حائط غرفته الى الغرفة المجاورة ، ويراقب الحياة فى تلك الغرفة ، ثم لا يفعل شيئا ٠٠

الأول عنده المقدرة على « الفعل الحر » ، والثانى وقف أمام « الفعل » عاجزا ضائعا ·· وكلاهما لامنتمى ··

ان الانسان اللامنتمى قوة . ولكنه لا يعرف أين يستطيع ان يوجه هذه القوة ·· وهناك فنانون لامنتمون ··

كان « جوته » فنانا عظيما ، ولكنه عرف أين يوجه قوته ، فقد كتب ما أراد أن يكتبه . وعاش الحيـــاة التى أحب ان يعيشـــها وحين تقدم به العمر ، مات فى سعادة شاملة لأنه كان منتميا ·

أما « فان جوخ » الرسام فقد كان فنانا عظيما أيضا ، ولكنه لم يعرف أنه قد خلق للرسم الا بعد ان جاوز الثلاثين ، وحتى تلك الفترة كان قد أخفق مرتين فى الحب ، وحاول أن يكون راهبا ، وعاش بين عمال المناجم ، وحين أوشك أن يجد نفسه ، وأن يوجه قوته الوجهة التى يريدها ، فقد عقله وقضى بقية سنواته فى مستشفى المجانين ··

الانسان اللامنتمى يعيش فى مأساة دائما ، لانه يسأل دائما لماذا أعيش ؟ وحين لا يجد مبررا فهو اما ان يجن كما جن نيتشه وفان جوخ أو أن ينتحر كما انتحر تجنسكى راقص الباليه ·

ان نزعة التشاؤم عميقة فى قلب الرجال اللامنتمين ، أنهم يرددون النغمة الشكسبيرية القديمة :

نحن بالنسبة الى الآلهة كالذباب بالنسبة الى الصبية العابثين يقتلوننا ·· للتسلية ··

ما أصدق ما يسميهم بيتس « جيل المأساة » أسماء وأسماء بول فيرلين ، كوربيه ، بودلير ، مالارميه ، لوتريمون حتى نصل الى اليوت وجيمس جويس فى القرن العشرين ، انهم جميعا يخرجون من بين ضفتى سفر الجامعة فى العهد القديم ، ويرددون مع الكتاب المقدس « الكل باطل ·· باطل الأباطيل » ··

انهم يرفضون كل شيء ، ان همنجواى يعبر عن نفوسهم أصدق تعبير حين يقول على لسان أحد ابطاله :

« الدين أفيون الشعوب ، أما الآن فان الاقتصاد هو أفيون الشعوب بالاضافة الى الوطنية ·· فماذا عن الاتصال الجنسى ؟ أليس هو أيضا أفيون الشعوب ؟ على أن الشراب هو الأفيون الحاكم ·· الأفيون الرائع ، مع أن بعض الناس يفضلون الراديو الذى يعتبر أفيونا آخر للشعوب » ·

لقد رفضوا كل شيء ·· هؤلاء الناس ، أبوا أن تدخل أرواحهم الطليقة فى أنبوبة الدين أو الفضيلة أو التعصب الوطنى ··

وكانت الغربة المريرة هى نتيجة هذا الرفض ·· لقد دمروا حب الحياة فى قلوبهم الغريبة ، وأصبحت نفوسهم نافرة عن هذه الدنيا المليئة بالبشر ، ان أمام اللامنتمى ثلاثة حلول :

الأول ان يسكت ، ويدخل فى ثيابه كما تدخل السلحفاة فى الدرقة ، ولا يخرج رأسه الا بمقدار ، والثانى أن يحتج ، أن يصرخ ·· ويقول : لا ، ان أحدهم يخبرنا كيف شعر ذات ليلة كان فيها فى المسرح برغبة قوية فى الهتاف والتعبير عن رأيه فى الطريقة التافهة التى كان الممثلون يقدمون بها « روميو وجولييت » ··

« وفاجأنى هذا الخاطر ، ترى ما الذى سيحدث اذا خلعت فردة حذائى ، وألقيت واحدة على روميو ، والأخرى على جولييت ، أيمكننى أن أهب حياتى المقبلة مثل هذا الهدف المحدد ·· وقلت بصوت خفيض :

ـ لست تملك الشجاعة !

الا أننى أجبت :

ـ بل أملكها ، ثم بدأت بخلع حذائى ..

والحل الثالث ، هو أن ينتمى الانسان الى شىء ، الى منظمة أو حزب أو مبدأ أو طبقة . وهذا هو أبسط الحلول وأعقدها ، لأن هناك دائما السؤال الخالد :

ـ ماهو الشىء الجدير أن ينتمى اليه الانسان ويهبه حياته ؟

صباح الخير ١٩٥٨/٤/٣

فيلسوف .. على رأس مظـاهرة

« ان الأمم الغربية جميعا تمجد المسيح ، مع انه لو عاش اليوم لكان بالتأكيد موضع ريبة من رجال البوليس السرى فى انجلترا ، ولامتنعت عليه الجنسـية الأمريكية على أسـاس نفوره من حمل السلاح » ..

منذ أيام نقلت الينا الأنباء أن مظاهرة كبيرة قد طافت بشوارع لندن ، وكان هدف هذه الظاهرة هو الاحتجاج على اجراء الحكومة البريطانية للتجارب الذرية وعلى سـماحها للأمريكيين أن يقيموا قواعد ومحطات ذرية فى الأراضى الانجليزية ، وأن يحلقوا بطائراتهم المحملة بأسلحة الدمار فوق الأرض الانجليزية ..

وكان يقود هذه المظاهرة رجل أشيب الشعر ، أرسـتقراطى الملامح .. قد تجاوز الثمانين من عمره

هذا الرجل العجوز هو الفيلسوف والرياضى الانجليزى اللورد برتراند رسل ، وليس هذا أول احتجاج يلقى به رسل فى وجه القنبلة الذرية .. فقد أرسـل منذ شهور قليلة رسـائل شـخصية الى خروشتشيف وايزنهاور يدعوهما فيها الى الاتفاق على نزع السلاح ، وكتب مقالات ضافية فى الصـحف الانجليزية ينبه فيها مواطنيه وقراءه الى خطر هذه الأسلحة المبيدة ، وكأنه يناشدهم أن يستمعوا الى الكلمة الأخيرة لرجل حكيم ..

وبرتراند رسل عدو قديم للحرب ، فقد رفض أن يجند فى الحرب العالمية الأولى ، ايمانا منه بأن الحرب امر يجب أن يرفضه كل انسان ، وأن الانسان يجب ألا يلجأ الى الحرب الا حين تسد الطرق امام كل حل سلمى للمشاكل ··

وقد آلمه حينئذ – على حد قوله – « ان معظم الناس كانوا فى نشوة نفسية بسبب قيام الحرب » ··

وحين قامت الحرب العالمية الثانية لم يخفف من كراهية رسل لها الا ايمانه أن هذه الحرب موجهة ضد الفاشية ، وهو يعتبر أن الفاشية تهدم حرية الفرد التى هى مقوم أساسى من مقومات فلسفته ··

وفى تلك الحروب التى عاصرها رسل كان يكتفى بالاحتجاج الصامت دون أن يحاول أن يبذل بعض الجهد لوقف هذه المذابح البشرية ، فهو يقول فى تعقيبه على قيام الحرب الأولى : « ومهما يكن من أمر فقد رأيت العالم عندئذ يسير رويدا نحو الحرب ونحو الديكتاتورية ، ووجدت انني لا أملك الا أن أعمل عملا يفيد ، فأسرعت الخطى عائدا الى حظيرة الفلسفة وتاريخ الفكر » ··

كان الهرب من الأزمة هو موقف رسل تجاه الحروب السابقة التى عاصرها وفى عزلته تلك شغل بالبحث فى الرياضة ، وكتب كتبا كان لها فى التفكير الرياضى والفلسفى شأن كبير ، ولكنه الآن يخرج على رأس مظاهرة ، ويكتب الخطابات المدلولة الى قادة العالم ، والمقالات الضافية لعامة الناس ··

ربما كان رسل قد أدرك فى ختام حياته ·· ان الفيلسوف انسان مسئول مسئولية اجتماعية ، وأن من واجب صاحب الفكر الفلسفى أن يحقق هذا الفكر بالعمل ، وربما كان جزعا على مصير العالم اذا شبت حرب قادمة ، حرب لا تبقى ولا تذر ·· حرب قد تهدم على رأسه ذلك الكوخ الصغير الذى يقضى فيه أيامه ·· وتهدد

انجلترا ، وتتهدد ذلك الأمن الفلسفى الذى ينسج خيوطه حول الفيلسوف العجوز ..

* * *

ينحدر برتراند رسل من خلاصة الأرستقراطية الانجليزية وقد مات أبوه وهو طفل ، وتربى بعد موت أبيه ـ فى كنف جده ..

وحدثه الجد فيما حدثه به فى لهجة يشوبها الزهو والتقدير عن جدهم الكبير « لورد وليم رسل » الذى أعدم فى حكم شارل الثانى لمطالبته بالحقوق الدستورية للشعب .

أما جدته فقد كانت سيدة مستنيرة القلب ، سلخت جزءا كبيرا من عمرها تدين بالديانة المسيحية ، كما تعتنقها الكنيسة الانجليزية من حيث ايمانها بالتثليث ، ولكنها تحولت فى سن السبعين الى عقيدة أخرى هى عقيدة « الموحدين » .. وكانت تلك العقيدة تؤمن بانسانية المسيح ، وتنفى عنه كل نزعة الوهية ..

وصاحب هذا التحرر الدينى فى نفسية الجدة العجوز تحرر سياسى ، قال عنها رسل فى المقدمة التى كتبها لكتاب « بول آرثر شاب » عنه :

« أخذت جدتى على نفسها أن تنصر الحكم الذاتى لايرلندة ، وراحت تعارض الاستعمار فى حرارة ، ولقنتنى وانا بعد فى نحو السابعة أن أسىء الظن ببلادى فى حروبها ضد الأفغان وقبائل الزولو » ..

وحين أكمل رسل دراسته فى كامبريدج قرر أن يحترف الفلسفة ، فقد كان عنده من المال ما يكفيه ، وشغل نفسه بهذه الدراسات الفلسفية عن العالم ومايدور فيه من أحداث ، وان كانت نفسه ظلت تستنكر كل عسف بالانسان أو طغيان على حريته .

ومرت برسل تجارب سياسيه متفرقة جعلته أكثر ابتعادا عن الحياة العامة ٠٠ سعى اه أصدقاء أسرته حتى عين ملحقا شرفيا فى السفارة البريطانية بباريس . ولكنه مالبث أن سئم هذا العمل الكئيب ، فقد كان دوره لا يزيد على تحرير بضـــعة خطابات تافهة وانتظار الرد عليها ٠٠ وفى عام ١٨٩٥ سافر الى ألمانيا واستقر فى برلين التى كانت عندئذ مركزا كبيرا للدعوة الاشتراكية ، وكانت زوجة السفير البريطانى هناك ابنه عم رسل . وكان ذلك يخوله الحق فى أن يدعى هو وزوجته لحفلات السفارة ، وفى ذات مساء ذكرت زوجته فى معرض الحديث انها قد حضرت هى وزوجها اجتماعا اشتراكيا ٠٠ ومنذ ذلك الحين أغلقت السفارة أبوابها فى وجه رسل، فشد رحاله هو وزوجته الى أمريكا ٠٠

وفى أمريكا زار رسل قبر الشاعر الأمريكى العظيم « وولت ويتمان » ، وشفى من مرض « النظرة الاقليمية » الذى أمرضته به- كامبريدج ، ومن ايمان الانجليز الشديد ببلادهم ، اذ ان الرحلة فى العالم قد فتحت أمامه آفاقا من فهم الناس وتقديرهم ٠٠ ثم عاد مرة ثانية الى كوخه فى مقاطعة « سسكس » فى انجلترا ٠

وزار رسل الصين فى عام ١٩٢٠ ، ولم يحظ بلد باعجابه مثلما حظى هذا البلد الواسع العظيم ٠٠ لقد علمته رؤية الصينيين وهم يعيشون فى مأساة الفقر والضياع ٠ علمته العطف والحساسية ، كما علمه تفاؤل الصينيين رغم هذه الظروف المريرة « كيف أفكر تفكيرا يمتد ليشمل مسافات بعيدة من الزمن ، وألا أدع الحاضر بسيئاته باعثا على اليأس ، ولولا هذا الدرس الذى تعلمته من الصين لما احتملت الســـنوات الطويلة التى تلت ذلك بما فيها من مآس وفواجع » ٠٠

وحين قامت الثورة الاشتراكية فى الاتحاد الســوفيتى، ثم انتصرت على حروب التدخل ، وأعلن قادة الثورة أن روسيا قد أصبحت جنة العمال الموعودة ٠٠ اتجه كثير من المفكرين الأوروبيين

الى روسيا كأمل أخير للعالم ، وكان منهم رومان رولان ، وبرنارد شو ، وأندريه جيد ، وبرتراند رسل ..

زار هؤلاء جميعا الاتحاد السوفيتى .. وتقاربت آراؤهم فى التجربة الجديدة بين الاعجاب والاستهجان ، ولعل أقساهم فى الحكم على هذه التجربة كان هو برتراند رسل ، اذ قال عنها : « لم أجد فى روسيا الجديدة شيئا جديرا بحبى أو حقيقا باعجابى » ..

ان رسل يؤمن بحرية الفرد الى أبعد الحدود ، وهو يزعم أن الماركسية تنتهى الى الاعتداء على حريات الأفراد وطمسهم فى لجة المجموع ، وهى كذلك ـ فى رأيه هو ـ تمجد العامل بيديه على حساب المشتغل بفكره ، وفضلا عن ذلك فهى تتخذ من حرب الطبقات ومن الكراهية بين الناس حافزا للتقدم .. مع أنه محال على الانسان أن يتقدم على أســـــاس من الحسد والحقد .. أنه يقول : « فليس هنالك الكيمياء التى يمكن بها أن نستخرج من الكراهية وفاقا وانسجاما بين الناس » ..

* * *

ويختلف مؤرخو الفلسفة فى تقدير فلسفة رسل ، فالفلاسفة المثاليون الذين يؤمنون بأن الفكر هو الموجود الحقيقى ولا يعدون المادة الا مظهرا من مظاهر الفكر يعتبرون رسل آخر الفلاســـــفة العظام .. أما الفلاسفة الماديون الذين يؤمنون بالتطور الاقتصادى للتاريخ ، ويهتمون بالفلسفة كعلم من علوم الانسان ، فانهم لا يكنون تقديرا كبيرا لدور رسل الفلسفى ..

ووجه الخلاف بين رسل وبين هؤلاء الفلاسفة هو أن الفلاسفة الماديين لا يقبلون الا كل ما يمكن اثبات وجوده سوء أكان حسيا أم معنويا . أما رسل فانه يقبل كثيرا من الأفكار أو الأشياء حتى ولو لم يقم الدليل الحسى على وجودها أو صحتها ..

وعند رسل ان الانسان يستطيع أن يفهم العلم والرياضة ، ويستخرج الحقائق فى هذين الميدانين بالمنطق وحده ، أما الأخلاق والدين فان الانسان يجب أن ينبذ العقل حين يدخل فى ميدانهما ..

ان الأخلاق والدين ، وكذلك السياسة عند هذا الفيلسوف هى مسائل شعور شخصى ..

* * *

فى مقال قديم لرسل فى مجلة « الآفاق » نادى الفيلسوف بشن حرب ذرية وقائية ضد الاتحاد السوفيتى ، ورحب بسيادة أمريكا العسكرية على العالم ..

كان هذا منذ بضع سنوات حين كانت أمريكا هى الدولة الوحيدة التى تحتكر أسرار الذرة ، وحين كانت تلك الحرب العدوانية مضمونة النتائج ، اذ كان هو يريد لها أن تنتهى بسيادة أمريكا ومن خلفها حليفتها بريطانيا ، ورسل شديد العداء للنظام الشيوعى اذ أنه يعتقد اعتقادا لا يناقش أن حرية الفرد المطلقة من أهم مايجب أن يحرص عليه ، وهو يضيف الى هذا الاعتقاد اعتقادا آخر ، وهو أن روسيا السوفيتية لا تعرف حرية الفرد ..

والآن ، أصبحت روسيا أكثر تفوقا فى ميدان التسلح الذرى والنووى ، وأصبحت الحرب الوقائية غير مضمونة النتائج ، بل لعل كفة روسيا قد ترجح فى نهاية المعركة ، ولذلك فان رسل يعدل اقتراحه، ويتقدم به فى شكل جديد ..

فى مجلة الأوبزرفر ، منذ حوالى شهر كتب رسل مقالا عن أخطار الحرب الذرية .. وكان اقتراحه الجديد هو نزع السلاح والكف عن التجارب الذرية والهيدروجينية بالنسبة للمعسكرين .. كما أنه قد اقترح اقامة منطقة محايدة بين الشرق والغرب ، بحيث تشمل هذه المنطقة ألمانيا بشطريها وبولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا ، وأن يترك الباب مفتوحا للدول الأوروبية التى ترغب فى الانضمام الى هذه المنطقة ..

ويبدو رسل فى نهاية مقاله متشائما بالنسبة لمصير العالم ، اذ يقول :

« تتراءى أمام ناظرى صورة النهاية المفاجئة لحياة الانسان . حين أرى العلم ، وهو فى حد ذاته أروع ما توصل اليه الانسان ، ينحرف ليصبح رسولا للموت ٠٠ وأرى الشباب يصبح أداة للاغتيال » ٠٠

ان الفيلسوف العظيم جزع على مستقبل العالم ، ولكنه لم يحاول بعد أن يربط بين هذه الأزمة الرهيبة ، وبين أسبابها الاقتصادية والسياسية ٠

انه مازال ــ رغم الثمانين عاما التى عاشها ــ فى منطقة الأفكار المجردة ٠

صباح الخير ١٩٥٨/٤/٢٤

قـــال لى .. ولـــكم

لم التق بسلامة موسى الا فى كتبه ، ومنذ بضعة أسابيع كنت قد اتفقت مع الزميل فتحى خليل أن نسعى يوما الى لقاء بالمفكر الراحل ولكن مشاغل الحياة اليومية أخذت تؤجل الميعاد يوما بعد يوم .

وفوجئت بنعيه واللقاء مازال وعدا لم يتحقق ، وكنت قد أعددت الأسئلة .. وهاهى الورقة أمامى .. السطور المتناثرة التى تذيلها علامة الاستفهام ..

ان حديثى يمكن أن يتم ، ومن الممكن أن تتصل الدائرة بين سلامة موسى وبينى ، بل بينه وبين الملايين الذين يريدون أن يسألوه سؤالا أو يكسبوا منه فكرة أو يستهدوا برأيه فى الحياة ، لأن الكتب الثمانية والثلاثين التى كتبها سلامة موسى ستظل خالدة للأجيال ، فاذا كانت السبعين سنة الأولى من حياة المفكر الراحل قد انقضت وأصبحت جثته فى التراب ، فان عديدا من السبعينات المقبلة ستزدحم بأفكاره وكلماته التى لا يطويها التراب .

لقد عاش سلامة موسى فى مؤلفاته ومن مؤلفاته سأجيب على علامات الاستفهام التى ظلت تنتظر الموعد الذى لم يتحقق ..

ـ صباك وشبابك باختصار ؟

ـ رأيت القرن التاسع عشـــر بعين الطفولة ، وهو خلو من الغش ، لم يلابسه شىء من مخترعات القرن العشرين ، وولدت فى

الزقازيق ، وان كان أصل أسرتى من مديرية أسيوط ، ومات أبى الذى كان موظفا وعمرى عامان وترك لنا ثروة لابأس بها ٠

ودخلت المدرسة الاميرية بالمدينة والتحقت بالمدرسة التوفيقية ثم الخديوية ، ولو ســئلت عن الفرق بين القاهرة فى عام ١٩٠٥ والقاهرة الآن لقلت أن نبض القاهرة فى ذلك الحين كان أبطأ ، كما أن الايقاع كان شرقيا فى كل شىء تقريبا ٠

كان أول يقظتى الذهنية من قراءة المقتطف ، فقد كان الدكتور شبلى شميل يشرح فيه نظرية التطور ٠ وقد وجدتنى وأنا فى الثامنة عشرة داعية متحمسا لهذه النظرية وتعرفت بالدكتور شميل ٠ ولكن المجتمع المصرى وقتئذ لم يكن يجيز لنا أن نبوح ونعلن عن سرائرنا . فكنا لذلك أفرادا متفرقين نناقش هذه الأفكار والآراء فى همس ٠ وكثيرا ما كنت أجد أن الحجة تنتقل من الرأس الى الذراع ، فأسارع الى التسليم وأعلن صحة العقائد والتقاليد وكذب الآراء والعلوم ٠

ثم تأثرت بكتابات لطفى السيد وعبد العزيز فهمى وقاسم أمين ويعقوب صروف وفرح أنطون ٠

وســـافرت بعد ذلك الى فرنسا عام ١٩٠٨ وليس لى وجهة دراسية معينة الا الاستفادة من العلم ، ثم رجعت الى مصر ثم عدت الى لندن بعد شهرين ، وحاولت دراسة القانون ، ولكن نفسى صدت عن اجراءاته المعقدة فانصرفت الى دراساتى الحرة ٠

ـ ماذا كان هدفك من الدراسة عندئذ ؟

ـ لم يكن هدفى ماديا لأنى كنت فى سعة من العيش ٠ كنت أريد أن أحيط بالعلم فقط ، وأن أعود الى وطنى أكافح الانجليز ٠٠ وأكافح تاريخنا ! ٠٠ أكافح تاريخنا الشرقى المتعفن الذى تنفعل فيه ديدان التقاليد ٠

ـ من ذكريات كل من قضى حقبة من شبابه فى أوروبا قصة حب ٠٠ أليس لك ؟

ـ نعم ! كنت أصطاف فى احدى المدن الصغيرة على الشاطىء الشرقى لانجلترا ، فعرفت هناك فتاة ايرلندية فى سنى كانت تشتغل بالتدريس ، وصارت الصداقة حبا وغراما ، واستسلمت لى واستسلمت لها ، وكانت تمتاز ببشرة غاية فى النعومة والصفاء ، مديدة القامة كأنها علم يخفق ..

ـ بمن تأثرت من كتاب أوروبا ؟

ـ لقد ولدت لأول مرة فى عام ١٨٨٣ ولكنى كنت كلما قرأت لمفكر عظيم أحس أنى أولد من جديد .. تكرر ميلادى الجديد على يد ماركس وفرويد وبرنارد شو وابسن وجوركى وتولستوى وديستويفسكى وداروين .. وخاصة الأخير ..

ـ لماذا .. داروين ؟

ـ لأن نظرية التطور قد حملتنى واجبا روحيا ! عرفت بها معنى دينيا جليلا ، وهو أننا والأسود والقياطس والسمك أبناء عمومة ، وعرفت بها أن الرقى واجب حتمى علينا ، بل هو واجب دينى .

ـ هل لك ذكريات عن برنارد شو ؟

ـ فى أول مرة رأيت فيها شو سخر منى ! كان فى سنة ١٩١٠ مازال شابا أحمر اللحية ، وكان أول لقائى له أنه رآنى أتأمل رسما له على الحائط ، فجاءنى وقال : ما رأيك فى هذا القذف ؟

فقلت : ان الرسم جميل ولا يعد قذفا ، فلما عرف أنى قبطى سألنى قائلا : هل أنت مونوفيزيت ؟

فاربكنى السؤال لأنى لم أكن أعرف معنى هذه الكلمة الضخمة، وظننت أنها تتعلق بالطعام النباتى لأن الضمير « أنت » فى الانجليزية هو الضمير « أنتم » فقلت له : اننا نأكل اللحم فى مصر ، وعندئذ ضحك شو ضحكة عالية ، وطلب منى أن أبحث عن معنى الكلمة فى المعجم .

وعندما بحثت عن معناها عرفت أنها تشير الى مذهب دينى فى الديانة المسيحية لا صلة له بالنباتيين أو أكلة اللحوم !

ما رأيك فى الصلة بين الأدب والسياسة ؟

ــ ان الأدب للأدب هو الأدب فى الخواء · وقد يقال حسب الأديب يكون انســـانيا ، ولكن كيف يكون كذلك اذا لم يشتبك فى المشكلات الانسانية الحاضرة ··

ان الأديب فى عصرنا يخون عصره اذا لم يكن سياسيا ··

ــ ما فلسفتك فى الحياة ؟

ــ فلسفتى تتلخص فى كلمة شو : ان الرجل الطيب هو الذى يعطى الدنيا أكثر مما يأخذ منها ··

ــ هل أنت متدين ؟

ــ لقد نشأت فى الكنيسة ، ولكنى عزفت عنها أيام الشباب لأن وطأة العلوم العصرية كانت شديدة على نفسى ، ثم عدت اليها فى حنان فوجدت فيها تاريخنا الممزق المعذب · ووجدت صـــوت الفراعنة ينطلق عاليا من منابرها ، فأصبحت الكنيسة القبطية عندى كنيسة قومية مصرية ·

ــ ألا تجد تعارضا بين الدين والعلم ؟

ــ قد يقال ان فى الدين غيبيات وليس فى الفلسفة غيبيات · ولكن هل هذا صحيح ؟ ألسنا نقف مع اينشتين أو غيره ازاء غيبيات علمية حين يتحدثون عن الكون المتحدد الذى يدأب فى الاتساع فى الخواء ؟

ــ بعد أربعين أو خمسين سنة من الكفاح هل تظن أنك نجحت ؟

ـ كثير من الناس يفهم النجاح على أنه نجاح الحرفة أو الثراء أو الجاه ·· ولا يفهمه على أنه نجاح الحياة كلها ، نجاح الصحة التى نعيش بها الى يوم الوفاة ، ونجاح الفلسفة التى توجهنا فى هذه الدنيا ، ونجاح الحرفة التى نحصل منها العيش الانسانى ، بل كذلك نجاحنا فى البناء العائلى والبناء الاجتماعى ··

وقد نجحت فى كثير من هذه النواحى · وسوف أتقبل النهاية فى طمأنينة كاملة ، وأحب أخيرا أن أموت كما مات الجاحظ « وعلى صدره كتاب » ··

صباح الخير ١٩٥٨/٨/١٤

حـكايات من بغـداد

خلع عمامته السوداء وقال لها جربيني !
نصف رجل ونصف عاشق وأرملة انجليزية
أغنية العجوز الأعمى على أطلال كسرى

الشـــاعر فى بغـــداد هو رجل المجتمع اللامع ، له معجبون يتمنون رؤيته ، وجمهور ضخم يحبه ويدافع عنه ، وشـــلل تروى سيره وأخباره ··

وقصائد الشاعر الناجح فى بغداد مثل أغانى المطربين يترنم بها الناس فى الوحدة ويستشهدون بها عند اللزوم ، وكل انسان يجد فيها تعبيرا عن جزء من نفسه ··

الشاعر فى بغداد مثل « نجم السينما » فى غيرها من العواصم، وسبب ذلك أن بغداد والعراق بأجمعه بيئة لها تقاليدها وأصـــولها العريقة ··

ففى مدارس النجف وكربلاء يتدارس الجميع الشعر والبلاغة قبل أن ينتقلوا الى درس الشريعة أو غيرها من العلوم ، وهناك مئات من الحلقات تلتف حول مئات الشيوخ الذين يسندون ظهورهم الى أعمدة مثل أعمدة الأزهر ··

وبغداد قد عاشت فى ثورة واحدة متصلة منذ عام ١٩٢٠ ، وتوجت هذه الثورة المتصلة بالثورة العراقية يوم ١٤ يوليو الماضى ·· وفى كل انتفاضات العراق كان لابد من شعر وشعراء · فهناك قصائد مشهورة هى التى قادت المظاهرات · وشعراء كانوا الى جانب دورهم الأدبى مكافحين سياسيين ظاهرين ·

وأعظم شعراء العراق هو محمد مهدى الجواهرى ·· ان بيته على شط دجلة منتدى أدبى لاينقطع رواده ، ولن تجد مثقفا عراقيا لا يحفظ له قصيدة أو مقطعا من الشعر أو على الأقل بيتا واحدا من أبياته الجامعة المحكمة ··

وقد كانت أول مرة رأيت فيها الجواهرى ·· فى الظلام ·· فى حديقة دار أحد الأصدقاء ·· وما كاد الصـــديق يقدمنى الى الجواهرى حتى انقطع تيار الكهرباء ·· ومددت يدى فصافحت يدا قوية ضخمة طويلة الأصابع تلتف حول يدك كلها حين تصافحك ·· ثم جلست بجانبه وأخذنا فى حديث متقطع بضع دقائق · وثب فدها ذهن الجواهرى من سوريا الى مصر الى معروف الرصافى أستاذه فى الشعر الى صباه الى الفكاهة العراقية الى منظر السماء فى ليالى النيل المقمرة ، وسكت الجواهرى فجأة ، ثم استأذن ليقوم بعد أن اتفقنا على موعد ·

وفى الموعد أرسل لى الجواهرى أحد أصدقائه ليصحبنى ، وهو شاعر أيضا ، ولكنه قد قنع من الشـــعر برواية أبيات الجواهرى وحكاياته · كان طوال الطريق يتحدث معى عن الجواهرى كأنه يحكى عن أسطورة ·· لم يحدثنى عن نفسه ولم يقل لى حتى اسمه ، يكفيه أن يتحـدث عن الجواهرى ·· وكان الجواهرى قد التهم حيـــاته التهاما ··

وفى هذا الموعد ، على شـــاطىء دجلة تأملته ،هذا الرجل الطويل النحيل القلق ، تسترسل على جانبى رأسه شعيرات بيضاء مشعثة تلتف حينا بأذنيه وتفسح المكان لجبهة سمراء ناتئة كأنها صخرة من صخور النهر ·· وعينان براقتان فى صفاء ومودة وان كانت ظلال من التحـــدى تمتد عليهما بين لحظة وأخرى · وأنف لا يتناسب مع وجهه المخروطى الطويل قط ·· أنف قصير مقطوع الأرنبة ، وفم يبتسم صامتا فاذا تكلم خرج منه صوت عميق مسترسل فى أغواره رنة من السخرية المبهمة ··

وتحدثنا فى الشعر . والجواهرى يجاملنى لأنه يعلم أنى من المهتمين بالشعر الحديث ، فهو يمتدح هذا الشعر ، ثم مايلبث أن يقول ان الشعر فى مصر قد انتهى بعد شوقى وحافظ ، وان مكانه قد أصبح فى العراق . وكأنه يريد أن يقول .. ان مكان الشعر هو هذا البيت المتواضع الذى يمتد على شاطىء دجلة .

وهو لم يتعلم فى مدرسة منظمة .. ولد فى النجف حيث ظل سنوات يحفظ الألفية ومتون الفقه والشريعة ، ثم انتقل الى بغداد منذ مايقرب من ثلاثين عاما لكى يكون أحد شعراء البلاط ..

كان بلاط فيصل الأول بلاطا عربيا تقليديا . فكان الملك يجمع الشعراء ويأويهم فى قصره . وحين خرج الجواهرى من النجف ، شيخا من شيوخه ، قد تسلسل نسبه من عديد من شيوخ النجف وعلى رأسه عمامة سوداء كبيرة ، ونزح آلى بغداد منذ مايقرب من ثلاثين عاما لبس البدلة الأفرنجية ، وكتب قصائد فى الغزل ..

كانت أول قصيدة فى الغزل نشرها الجواهرى عنوانها « جربينى » كان الشاعر يدعو فيها الغانية أن تجربه ، أن لا تحكم عليه بوجهه الدميم الحزين ، بل أن تجربه وتعاينه لكى تعرف فن الغزل وصناعة الغرام . ونشر الجواهرى القصيدة تحت اسم مستعار ، ولكن الأبيات دلت على كاتبها ..

وثارت ثائرة البلاط لهذا الشيخ المعمم الذى خرج عن حد الأدب ، وانحدر الى هذا الغزل الصريح ، الفاجر وذهب الملك «على» شقيق « فيصل » الذى كان يأوى الى بلاطه بالقصيدة الى أخيه ، ووجهه ينتفض بالانفعال ، ثم نشرها أمامه وهو يهدد بالويل والثبور .

واستدعى « فيصل الأول » الجواهرى الشاب ، ثم سأله .. هل هو صاحب القصيدة ؟ .. ولم ينكر الجواهرى ، وأعجبت صراحته فيصل ، فعفا عنه ..

واشتدت حماسة الشاب ، فكتب قصيدة هجا فيها شيوخ النجف الذين تربي فى ظلهم وتلقى العلم بجوار أعمدتهم القديمة · وانهالت البرقيات على القصر ، وفيها عبارة واحدة موجهة الى الملك « لحقتنا الاهانة من بلاطكم » ·

وعندئذ سرح الشاعر من البلاط ··

واشترك الجواهرى فى كل الانتفاضات الوطنية ·· كان لسانا ثوريا يلقى البيت فيؤجج النار فى القلوب ، وفى احدى المظاهرات الوطنية استشهد أخوه الصغير « جعفر » ·· وأصبح بين الجواهرى والأسرة المالكة بحر من الدم ··

وضاق الجواهرى بحياته فى العراق ، فهاجر الى سوريا وأقام فيها مدة ، ولـــكن الحنين غلبه على أمره · فعاد مرة ثانية الى العراق ··

هذه حكاية حياة الجواهرى ·· قصة مغامر براق العينين ·· وشاعر حتى أطراف أصابعه الطويلة ··

حتى أخطاؤه دفعه اليها حنين القلب الذى لا يغلب ··

الحكاية الثانية :

اتصل بى يوسف العانى ممثل السينما والمسرح الأول فى بغداد ، وقال لى انه قد حدد لى موعدا لالتقى بفتاة عراقية مثقفة وعاملة فى حقل الخدمة العامة ··

وفرحت ·· وقلت لنفسى : لقد خاب ظنى ، فقد كنت أعتقد أن مجتمع بغداد مجتمع رجالى · يدير سياسته الرجال ، ولا يهتم بمشاكله العامة الا الصنف الخشن ··

والتقيت بسافرة جميل حافظ ، وهى سافرة كاسمها ، تتحدث فى انطلاق وان كنت استطعت بعد لحظات قصيرة من الحديث ان أتوقع الاجابة التى أسمعها منها ··

هى مهتمة بالسياسة فقط ، والسياسة من وجهة نظر أصدقائها والمناقشـــة تزعجها لأنها تدفعها الى مراجعة أفكارها ، وهى قد استراحت الى الأفكار الجاهزة ··

والنشاط النسائى عندها لابد أن يكون نشاطا سياسيا ، وميدانه المفضل هو المؤتمرات العالمية ··

وهى تقرأ كثيرا ، ولكن قراءاتها كلها تنبع من وجهة نظر اصـــدقائها أيضا · فهى لا تظن أن الأرض التى حولهـــا فيها من الخصوبة ما يدفعها الى تلمسها ومعاينتها فالأدب الحق ليس فى مصر أو الشام أو العراق ، ولا يكون باللغة العربية · والسينما العربية مفلسة وأحسن الأفلام فى نظرها فيلم « اسكندر بك » الذى يعرض الآن فى بغداد ··

لم أستطع أن أسأل محدثتى عن أحوال المرأة العراقية أو عن النشاط النسائى فى حقل خدمة الأطفال وحضانتهم أو محو الأمية بين العاملات أو مساعدة المرضى الناقهين أو غير ذلك ·

ذلك أننى لو سألت لما وجدت جوابا ·

الحكاية الثالثة :

ساعة الغداء ·· وفى الحديقة ساعة شاى العصر ··

رجل وامرأة ، وسأبدا بوصف المرأة :

طويلة شـــقراء على عينيها دائما منظار أسود لايكاد يخفى جحوظ عينيها الزرقاوين ، انجليزية أصيلة فى مظهرها ولكن مشيتها وتصرفاتها توحى اليك أنها « ليدى » فقيرة أخنى عليها الزمن فى دارها فنزحت الى المستعمرات لتجرب حظها مع الرجال السمر ·

أما الرجل فأسمر وسيم التقاطيع ، أنيق المظهر ، يتصرف بلباقة على المائدة ·· والشوكة والسكين فى يديه ثابتتان تعرف كل منهما طريقها بين يديه وفمه ·· ولكنه حين يقوم من المائدة يفاجئك بساقيه الصناعيتين ··

وكانا دائما معا طيلة النهار ·· اذا اقتربا من المائدة فى مطعم الفندق أسرع الرجل وهو يلهث ، وساقاه الصناعيتان تهتزان تحت ثقل جسمه النحيل فسحب لها المقعد، وتلتفت هى اليه فى عنجهية تقليدية ، ثم تبتسم ··

واذا جلسا فى الحديقة صب لها الشاى ·· ومع الشاى نظرة الحنان ··

أما فى المساء فكانا يفترقان ·· تذهب هى الى غرفتها فى الفندق · ويستقل هو سيارته ، وينطلق بها الى حيث لا أدرى ·

ما الذى جمع بينهما ؟ ·· ظل هذا السؤال يتردد فى ذهنى أياما طويلة حتى وجدت اجابته من فم الجرسونات ··

ان الشاب سليل أحد شيوخ الاقطاع ·· غنى الي حد أن العين لاتكاد تحيط بمزارعه · ولكنه نصف رجل ··

والسيدة كانت زوجة لموظف انجليزى ·· أغرقه حر بغداد فى كئوس الخمر حتى فاضت روحه فى آخر كأس شربه ··

والسيدة تعيش على حساب الشاب كأنها عشيقته ، وهو سعيد لأن الناس يرونهما معا ·· هو ·· النصف رجل ·· مع الانجليزية الشقراء ، ثم يظنون بهما ما شاءوا من الظنون ··

وهى سعيدة لأنها تعيش فى الشرق ·· فى غرفة جميلة على شط دجلة ·· مجانا ··

الحكاية الرابعة :

اسم الرجل : محمود بن سليمان

أوصافه : أعمى عجوز

ومقره فى سفح أطلال ايوان كسرى وصناعته مغن بربابة ··

وايوان كسرى بناء قد أكل الدهر معظمه ، ولكن بقى منه رغم ذلك شىء عظيم ··

والطريق اليه يمر بقرية مسماة باسم « سلمان الفارسى » أحد أصحاب الرسول ·· وبجانب قبر الصحابى حديقة واسعة يحتفل فيها أهل بغداد بمقدم الربيع ·

واذا اجتزت الحديقة وأصبحت على حافة الصحراء وجدت نفسك أمام الايوان · وعلى سفحه يقف رجلان أحدهما يبيع « الكازوزة » والثانى هو محمود بن سليمان الذى يبيع الشعر الشعبى ·

وقال صاحبى لمحمود ·· غن لنا أغنية ·· وجلس محمود ووضع طرف الربابة بين أصابع قدمه اليمنى ، ثم أقعى وقد وضع قدمه اليمنى فوق اليسرى ، وانطلق يغنى ··

وفى سفح الايوان الذى كان يجلس عليه كسرى ترددت أصداء أغنية شعبية :

يا حلوين المراتب من نسلكم

من السيوف الجواهر ما نسلكم

جمال عبد الناصر قاد العرب بالزور

وبالعرب تطح العدوان بالزور

وعبد الكريم قاسم على الاطناب

ياحلوين المحاكي بلا جناب

وصفقت لمحمود · وشددت على يده ، وما كاد يسمع لهجتى المصرية حتى انطلق يحكى ··

قبل شهرين من ثورة العراق نما الى علم البوليس أن الشباب يأتون الى ايوان كسرى ليسمعوا غناء محمود بن سليمان الضرير الذى يرتجل الأغانى عن الحرية والاستقلال ·

وجاءت عربة البوليس لتحمل محمود الفقير الضرير الى أحد مخافر البوليس حيث أبقوه ثلاثة أيام ، ثم أخلوا سبيله بعد أن أخذ عليه تعهدا ألا يغنى للشباب ٠

وعاد محمود الى ايوان كسرى ، كسير النفس ، ولم ينطلق صوته منذ ذلك اليوم الا يوم الثورة ٠٠

ومن يومها ، ومحمود بن سليمان الضرير يغنى للحرية تحت سفح ايوان كسرى ٠

روز اليوسف ٣ /١٩٥٨/١٠

ميــلاد الانســان النمــرة

يتنبأ لك بعض المفكرين بأنك ستصبح رقما ‥ مجرد رقم ‥ وان اسمك سيختفى كما تختفى كل الأسماء · ان الاسم يميز الناس بعضهم عن البعض الآخر ، ويوحى لكل منهم باستقلاله وفرديته · ولن يكون فى المستقبل أفراد ، سيكون الجميع أرقاما ‥

هذه نبوءة بعض المفكرين ‥ وهم يقدرون لها ٥٠ سنة أخرى من عمر العالم ‥ أنهم يقولون : لقد أصبح الناس متشابهين الى حد غريب ‥ الناس يفكرون بنفس المنطق ويحسون بنفس العاطفة · ان أصواتهم تنطلق من حناجرهم بنفس النبرات ‥ وأيديهم تشير حين يتكلمون بنفس الحركات ‥ لقد تشابه البشر تشابها واضحا كأنهم قطيع واحد ‥ أبيض أو أصفر أو أسود ‥

وبداية هذا التفكير تتضـــح فى كتابات كثير من المفكرين المعاصـــرين ‥ ان جورج ديهاميل مثلا الأديب والطبيب الفرنسى المعروف يقول : ان الاذاعة والصحافة والســـينما والتليفزيون قد أسبغت على الناس جميعا طابعا واحدا · فكل الناس يستمعون الى نفس الأغانى فى الراديو صباح مســـاء ، ويتلقون نفس الأفكار والتوجيهات ‥ وعلى شاشة السينما تلمع صور الحب والبغض ‥ والأبوة والبنوة ، والفتنة والقبح ، والحـــركة والخمول · وهذه السينما قد أصبحت عالما منفصلا عن عالمنا · وكثير من الناس قد فر من الحياة الحقيقية الى الحياة « الفضية » وأصبحوا يمارسون

الحب والبغض والأبوة والبنوة والحركة والخمون كما يمارسـها ملائكة الشاشة البيضاء ..

والسينما باب مفتوح . والذين يدخلونه يزداد عددهم كل يوم، والذين يهربون من الحياة الى « صور الحياة » يزدادون أيضا حتى لنستطيع أن نقول ان السينما قد أفلحت فى خلق الانسان السينمائى، وتستطيع أيضا أن تقول ان خمسين سنة أخرى كفيلة بان تصنع منا جميعا هذا الانسان السينمائى ..

وكذلك التليفزيون والصـحافة . اذا أضفتهما الى الراديو والسينما فهما « كيتشيهان » آخران يطبع بهما عقل الانسان الحديث ووجدانه ..

وديهاميل يقول ان المهم فى كل هذه الأدوات الثقافية أن الانسان قد فقد أمامها حرية الاختيار .. ان أمامك مثلا عشرة كتب احدها فى الاقتصاد والآخر فى الأدب والثالث فى السياسة .. وهكذا ، وأنت تستطيع أن تختار منها ما يرضيك .. ولكن المجلات العشر التى فى السوق متشابهة جدا .. لاتكاد تختلف الا فى خفة الدم أو ثقله ، وفى ارتفاع ثمنها قرشا أو انخفاضه قرشا آخر ..

والناس جميعا أو معظمهم يقرأون المجلات ولا يقرأون الكتب .

ان الانسان الحديث قد انصرف عن المتعة التى له فيها حق الاختيار الى متع أخرى قد سلبته هذا الحق .

وتصور اذن أنك قد وضعت ثلاثة أفراد فى صالة واسعة مغلقة لمدة سنة . وأن هؤلاء الأشخاص الثلاثة يختلفون عن بعضهم كل الاختلاف ، ثم صببت عليهم برنامجا واحدا من الأغانى والأحاديث والأفلام والصور والموضوعات ..

لن تكون هناك حاجة بعد ذلك الى أن يكون اسم أحدهم محمد .. والثانى على والثالث حسن .. ان الاسم دليل الشخصية المنفردة

الوحيدة التى لا تشبه شخصية أخرى · ومادام التشابه بينهم قد وصل الى هذه الغاية فمن الأصوب أن تجعلهم ·· أرقاما ··

وهؤلاء الأفراد الثلاثة قد تم ترقيمهم فى سنة ، والعالم كله قد يتم ترقيمه فى ١٠٠ سنة ·· مضى منها خمسون وبقيت خمسون أخرى · ان ديهاميل لم يقل كل هذا، لقد قاله مفكرون آخرون تأثروا بكلامه ، أما هو فقد وقف عند التنبه لهذه الظاهرة · وارتعش قلبه بالخوف من نتائجها · لقد لاحظ أوجه التشابه ، واحتج فى وجه هذه الأدوات « الجماعية » لصنع الانسان ، ووقف ينادى الناس أن يعودوا الى المتعة الاختيارية · متعة الكتاب الدسم ، والمسرحية الثقيلة ، والنزهة فى الحقول والغابات ·

ولكن هناك مفكر آخر ، أضاف الى هذا الجانب من المخاوف جانبا سياسيا ، وهو الروائى الانجليزى جورج أورويل الذى مات منذ عامين بعد حياة شاقة متعبة حائرة ··

ولجورج أورويل رواية مربكة محيرة ، قال عنها بعض النقاد انها نبوءة نبى صادق قد مد بصره فرأى ماتحمله الأيام القادمة من أحداث وتطورات ·· وقال آخرون انها هلوسة رجل يائس أوشك اليأس أن يدفع به الى الجنون ··

اسم هذه الرواية « ١٩٨٤ » ·· و « ١٩٨٤ » هى السنة التى تجرى فيها أحداث الرواية · ان العالم فى هذه السنة قد أصبح دولتين كبيرتين ، أحدهما مملكة الرجل الأبيض التى شملت أوروبا وأمريكا ، والأخرى مملكة الرجل الأصفر والأسود وهى آسيا وأفريقيا · وكلتا المملكتين تجرى على نظام حازم صارم ، ينكر حرية الأفراد وكيانهم والحكم فيها فى يد فئة مختارة من رجال الدولة يدينون بالولاء لزعيم قد جمع فى يديه كل السلطات ··

والجهاز الحكومى قد استفاد أكبر فائدة من تقدم العلم الميكانيكى الحديث ·· ان الزعيم يستطيع وهو جالس الى مكتبه

أن يعرف ماذا يفعل أى فرد من الأفراد حتى ولو كان قد أرخى ستائر مخدعه ، بل انه يستطيع أن يعرف أيضا فيم يفكر ! • فان الآلات المبثوثة فى كل مكان تتجسس على كل شيء حتى الفكر ••

والناس كلهم عند الدولة آلات لها أرقام • ولا يطلب منهم اكثر من أن يعيشوا ، أن يأكلوا ويشربوا ويعملوا ويتوالدوا • والفكر هو أكبر جريمة يمكن أن تخطر لانسان على بال ••

وفى كل مكان يذهب اليه الناس ، فى المصنع وفى الشارع وفى البيت وفى المقهى قد علقت الشعارات التى تمجد الزعيم وانطلقت الميكروفونات التى تذيع الأهازيج فى مدحه والتغنى بعظمته وفضائله •• وسطوته التى لا حد لها ••

والناس بهذه الطريقة قد أصبحوا متشابهين كل التشابه •

وما شأن الحب فى هذا المجتمع اذن ؟

ان الحب اختيار •• ان الرجل يختار المرأة التى تروقه من بين آلاف النســـاء •• ولكن اذا كان البشر سيصلون فى التســاوى والتشابه الى هذا الحد فتلك هى شهادة الوفاة للحب •• ان الحب أصبح جنسا صرفا ، أصبح طريقا الى التوالد لتكوين أفراد جدد ، لكى تخرج من آلة المجتمع الكبيرة أرقام جديدة ••

ان النظرة الأولى لهذه الدولة الجديدة تحار فى بنيانها الشامخ الذى لا خلل فيه ، وقوتها الخرافية التى لا تحد زوائد العقل والقلب والتأمل ولم يبق من الانسان الا دورته الدموية وجهاز هضمه وتناسله •• لقد مات الانسان « الفرد » ليعيش الانسان « الرقم » • •

ولكن حادثا صغيرا •• صغيرا جدا ، يهز هذا البنيان الشامخ ويكاد أن يقوض أركانه •• لقد وقع رجل وامرأة فى الحب • اشتهى كل منهما الآخر بالذات ••

٠٠ أراد كل منهما أن يضاجع « الانسان » فى صاحبه ٠ وحين اجتمعا فى خلوة بين الغابات بعيدا عن أجهزة تسجيل الأفكار ناما برهة ، ثم شرعا بعد ذلك يتناقشان ٠٠ ولكن كل شيء سرعان أن اكتشف واهتز كيان الدولة لهذا الخطر الجديد ٠٠ خطر أن يتحول الانسان مرة ثانية من مجرد « رقم » الى « فرد » ٠٠

هذا هو ملخص قصة « جورج أورويل » التى شغلت كثيرا من النقاد ، والتى اختلف فى صاحبها الرأى ٠٠ أهو نبى أم مجنون ؟

والخلاف حول « أورويل » لا يستطيع أن ينفى بعض الجوانب من فكرته ٠ فبغض النظر عن جانبها السياسى المرتبط بظروف أوروبا قبل الحرب العالمية الثانية الا أن الجانب الفكرى فيها نذير خطر رهيب ٠٠

هل أصبح محتوما على « الانسان الفرد » أن يفقد شخصيته ازاء الوسائل والعواطف ؟ ٠٠

هل سيختفى الانســـان الحقيقى ٠٠ بحبه العميق وكراهيته العميقة أمام العواطف السينمائية والاذاعية ؟ ٠٠

هل سيعيش الانسان ماقدر له من العمر دون أن يستطيع مرة واحدة أن يقول كلمة نفسه ؟

هل نحن على أبواب عصر الانسان « الرقم » ؟

ان المفكرين يجسمون الحالة ٠ ان تشخيصهم مثل تشخيص الطبيب الذى يجد ورما فى جسم المريض قد يكون قيحا مكتوما أو دملا أو سرطانا خبيثا ، ولكنه يكاد يشـــير بكلماته الى الاحتمال الأخير ٠٠

أين اذن طريق النجاة ؟ ٠٠

هل يستطيع الانسان أن يمارس عملية الاختيار ازاء السينما والراديو والمجلة ·· أن يفتح الراديو حين يريد لأن ذوقه الخاص يتطلب منه أن يمتع نفسه بالصوت أو الموسيقى أو الكلمات ·· وان يختار مجلته كما يختار زوجته ، وان يترك الصفحة التى لا ترضيه مقفولة مشبكة بدبابيسها ، وأن لا يذهب للسينما لقضاء الوقت فقط ·· هل يستطيع الانسان أن يكون حرا فى اختيار الطبق الذى يرضيه فى هذه الوجبات الشعبية ؟ ··

وثانيا : هل يستطيع الانسان ·· كل انسان أن يرتفع من مستوى المتعة الشائعة العامة الى مستوى المتعة الخاصة ·· أن يتجاوز المجلة الى الكتاب والمتحف ومعرض الفن ··

وثالثا : هل يستطيع الانسان ·· كل انسان أن يعرف كل الديانات ويختار له ديانة ، وأن يدرس كل المذاهب ثم يعتنق مذهبا ، وأن يخوض فى كل الأفكار ثم ينتسب لفكرة ··

ورابعا وأخيرا ·· هل يستطيع كل انسان أن يجعل من ساعات نهاره ساعة واحدة للوحدة والتأمل ·· يعيش فيها مع نفسه فقط ·· يستخرج أعماقها ويبسطها أمامه كأنها كنز ما ويختار منها أجمل مافيها · لقد قال باسكال الفيلسوف « ان كل شرور البشر مرجعها أنهم لا يستطيعون البقاء وحدهم فى غرفة » ··

فالانسان يهرب من نفسه كأنها عدو يتربص له ··

ان ساعة الوحدة هى الساعة الوحيدة التى تستطيع فيها أن تهرب من أن تدمغ بأكليشيه عصر الأرقام ··

صباح الخير ١٩٥٨/١١/٢٧

السـائح وزوجتـه فى باريس

هذا كتاب من أخف الكتب القديمة دما ، كتبه رجل صاحب مزاج ، وجرىء ورحالة ، عاش كثيرا ورأى كثيرا ، كتبه منذ حولي مائة عام ‥ واشتغل بالصحافة عند سـلطان الأتراك ، وبكاتبة الرسائل عند باى تونس ، وبتأليف الكتب فى مصر ، وبتأويل الاحلام وهو فى أوروبا ‥

وهو في الأصل احد أبناء جبل لبنان ، امتدت سياحته حتى وصل الى باريس ولندن وبرلين ، والتقى بأهل تلك البلاد من كل الطبقات ‥

* * *

لا نعرف اسمه الحقيقى ، واسمه على غلاف كتابه أحمد فارس الشدياق ‥ وأصله مسيحى مارونى ، ولكنه اختلف مع البطاركة والقساوسة فآلى على نفسه أن يترك لهم دينهم كله ، ودخل فى دينه الجديد ، الذى لم يكسب به شيئا ‥

وكتابه اسمه « الساق على الساق فيما هو الفارياق » واسم الكتاب لغز ‥ والساق على الساق تركيب معناه فى بطن المؤلف ٠ والفارياق مركب من اسميه ‥ فارس والشدياق ‥ والكتاب سيرة حياته المضطربة ، ولذلك اضطرب الكتاب من يدى مؤلفه بين المجون والأدب والشعر والنثر والخيال والواقع ، والتشهير والنقد ‥

ويبدأ المؤلف من الفصل الأول بحكاية تاريخ ميلاده على عادة المؤلفين القدماء وكتاب سير العظماء ، ولكن السخرية لا تفوته ، فيضع بعد كل جملة كلمتين بين قوسين ، كأنها تعليق ساخر على الكلام ، يقول :

كان مولد الفارياق فى طالع نحس النحوس ، وكان والده من ذوى الوجاهة والصلاح « مرحى مرحى » ‥ الا أن دينهما كان أوسع من دنياهما (برحى برحى) ولم يكن فى طاقتهما أن يبعثاه الى الكوفة أو البصرة ليتعلم اللغة انما جعلاه عند معلم كتاب القرية التى سكنا فيها (تف ‥ تف) ‥ الخ

ثم يسترسل المؤلف فى روايته الى أن أنهى الكتاب ، ثم هجر لبنان الى مصر وفيها نزل بالاسكندرية ثم (انقلع) منها ــ على حد تعبيره ــ وكان أول ما راعه فى مصر تسلط الأجانب على أهل البلاد ، حتى دعا الله أن يمسخ طربوشه برنيطة ‥

« ومن خواص مصر أن البرنيطة فيها تنمو وتعظم » وتغلظ وتفخم ، وتتسع وتعرض وتعمق ، فاذا رأيتها على رأس صلعاء حسبتها شونة ‥

ومن ذلك أن كثيرا من أهلها يرون كثرة الأفكار فى الرأس تكثر فيها الهموم والعكس بالعكس ‥ وقالوا ان العقل فى الرأس كالنور فى الفتيلة ‥ فمادام النور موقدا فلابد أن تذهب الفتيلة ، وكالماء فى الوادى ، ومادام الماء جاريا فلابد وأن ينضب وينصب فى البحر ، ومن ثم اصطلحوا على طريقة لتوقيف جريان العقل فى الدماغ وذلك بشرب المخدر ، أو بمضغه أو بالنظر اليه ‥ فحين يتعاطونه تغيب عنهم الهموم ويحضر السرور ، وتولى الأحزان . ويرقص فؤاده فمن يراهم على هذه الحالة يود لو يدخل فى دينهم ولو كان قاضى القضاة ‥

زواج الفارياق بالفارياقة ..

وتزوج الفارياق من احدى بنات مصر ..

وقصة غرامه بزوجته .. كما يحكيها هو من أجمل قصص تلك الأيام ..

كان البيت الذى نزل فيه مجاورا لدار أحد التجار ، وكان للتاجر بنت تحب السماع والطرب وترتاح الى الغناء جدا .. وكان من عادة الفارياق أن يعزف على نايه فى المساء فكانت الفتاة اذا سمعت الفارياق يغني يعزف فى غرفته تصعد الى سطح دارها وتنصت الى أن يفرغ من غنائه ، ومكثا على ذلك وهو ملتزم غاية الحذر .. حتى اذا رآها تمسح عينيها بمنديل اما من حر الصيف أو من شيء آخر ، فظن أنها تبكى من غرامه وصمم على أن يتزوجها ..

ولكنه أراد أن يراها عن قرب ، فابتدأ حيله لكى يجتمعا فى مكان بحيث يرى شكلها عن قرب قلما بصر بها ، والفضل لمخترع الزى المصرى يقول ، وجدها سمينة ، ولو كانت مرتدية الافرنجى لعرف هل كان ماحول جسمها لحما أو قطنا ..

وأخذ الفارياق زوجته المصرية المولد اللبنانية الأصل ، ورحل بها الى بلاد الاعجام ..

فى باريس

ولنتركه يتحدث عن يومهما الأول فى باريس أخذ الفارياق وزوجته يطوفان فى شوارع المدينة ، وهما فى زى أهل مصر وقد لبس هو سراويل واسعة تلتف عليه أسفلها من أمام ومن وراء عند المشى ، والتحفت هى ببرنس ليغطى كميها اذ كانا يكنسان الأرض . .. فجعل المارة وأصحاب الدكاكين يتعجبون منهما ولم يكونوا

يعرفون أن زوجته امرأة ·· فكان بعضهم يقول ·· أرجل هذا أم امرأة ، وبعضهم يتعقبها وبعضهم يلمس أثوابها ويحدق فى وجهها ، ويقولون ما رأينا مثل هذا قط ·· شىء لا هو رجل ولا امرأة ··

ثم دعى الفارياق وزوجته الى حفـــلة رقص ·· فلما رأت الفارياقة الرجال يرقصون وهم يخاصرون النساء سألته :

ـ هل هؤلاء النساء أزواج هؤلاء الرجال ؟

ـ منهم أزواج ، وغير أزواج ··

ـ وكيف يخاصرونهن اذن ؟

ـ هذه عادة القوم هنا وفى بلاد الافرنج كلها ··

ـ وبعد المخاصرة ماذا يكون منهم ؟

ـ بعد انفضاض الحفل يذهب كل منهم الى منزله ··

ـ ماذا يكون احساس المرأة اذا خاصرها رجل ؟

وأجاب الفارياق مغتاظا :

ـ لا أعلم انما أنا رجل لا امرأة ··

أخـــــلاق باريس

ضاق الفارياق بأخلاق الباريسدات ·· ان المرأة الفرنسية تتوهم من كثرة ترددها على حلبات الرقص انها ترقص دائما ، فتمشى وهى تهتز وتتمايل ··

« وكل مايخطر على بال النحرير من أمور الفسق يراه الانسان فى باريس بالعين ولا فرق عند أهل باريس بين امرأة متزوجة لها سبعة بنين وسبع بنات تربيهم فى تقوى الله وطاعة الملك وبين من تبيع عرضها لكل ابن سبيل ، ولو خرج الرجل من بيته وخالفه فيه جاره الى زوجته مائة مرة فى اليوم لم يمكنه أن يعلم » ·

« اما تجار باريس فانهم لو قدروا على سلخ جلد المشترى لما تأخروا .. وقد يضعون فى وجوه المحلات أصنافا من البضاعة مسعرة ، فاذا أردت أن تشترى شيئا من ذلك الصنف جاءك بصنف اقل منه فى الجودة ، ولايزال يبربر ويثرثر ويحلف ويحنث حتى تشتريه حسما للنزاع ، ولهم فى الوزن لباقة لم أرها عند غيرهم .. وذلك أن من باعك شيئا موزونا يطرحه فى كفة الميزان بعجلة ، كأنه غضبان من سحنتك ، وأول ما تميل به الكفة يرفعه بلباقة ويسلمه لك » .

وقالت الفارياقة للفارياق .. الا تدعنى أسافر من هذه البلاد التى أسقمت بدنى ، بمأكلها ومشربها وبرد هوائها ..

ووافق الفارياق زوجته على رأيها ، وشد الرحال الى لندن

اعـــترافات ..

ان عمر هذا الكتاب يقرب من مائة عام !! كتبه صاحبه فى عصر كانت الكتابة فيه باردة الظل ثقيلة الوقع على النفس . وكان الكتاب يتفننون فى الغموض أو ترصيع الكلام بالحكم ! فنال المؤلف من هذا العيب شيئا كثيرا ، اذ حفل الكتاب رغم خفة روحه وجمال اســلوبه بالألفاظ الغريبة التى يســوقها لبيان مقدرته فى اللغة والتأليف ..

ولكنه رغم ذلك من أجمل الكتب التى خلفها لنا القرن التاسع عشر .. فان شخصية صاحبه الصحفى الأديب اللغوى الشاعر الرحالة قد انعكست فيه بكل ملامحها ، وتلك الثورة التى عرفها وهو صغير على مشايخ طائفته ظلت فى نفسه نحو كل ما يمر به من أحداث وأماكن .. فلا تعجبه ولا تروقه .. فيأبى الا أن ينهال عليها سخرية وتهكما .

وهو بعد ذلك أول كتاب فى أدب الرحلة فى العصر الحديث كما أن من الممكن اعتبــاره نوعا من أدب الترجمة الذاتيــة أو الاعترافات ..

صباح الخير ١٩٥٩/٣/٥

مجـاذيب باريس ومجـاذيب القاهرة

باريس تفكر هذه الأيام فى التخلص من مجاذيبها ، ومجاذيب باريس طائفة غريبة من الناس ، لحاهم طويلة ، ووجوهم شاحبة ، وملابسهم مهلهلة متسخة ، يمشون فى وقار ، يذرعون الطرقات ، ويجلسون على أعتاب الكنائس ، فاذا أقبل الليل تجمعوا تحت جسور نهر السين ، وناموا هادئى البالى ·

ان السائح فى باريس يستوقفه هذا المنظر كثيرا ، منظر هؤلاء الناس ، وقد يكون بعضهم على جانب من الفن أو الموهبة ، وان كان معظمهم مجرد أفاقين ، ولكنهم جميعا ، يبدون فى عين الأمريكى الثرى أو الشرقى المستطلع ، نماذج بشرية تستحق التأمل ·

وهم تقريبا شحاذون ، ويعيشون على التسول ، ولكنهم يرفضون رفضا مطلقا أن ينبذوا بهذا الاسم ان لهم اسما خاصا يطلقونه على أنفسهم ، هو « الكلوشار » ، وفيهم كل غرور الصـــعلوك وزهوه وخيلائه ·

والكلوشار يتعرضون الآن لهجوم عنيف ، يلمح القارىء صداه فى الصحف الفرنسية ، وقد كانت آخر صيحة أزعجتهم فى الأسابيع الماضية ، وأقضت مضاجعهم الحجرية ، هى الصيحة التى أطلقها عمدة أحد أحياء باريس ، واســـمه فريدريك ديبو ، حين أهاب بالحكومة أن تخلص الشـــوارع من جموعهم ، وأن تودعهم أحد

الملاجىء أو تيسر لهم سبيل العمل ، ولم تجد صيحة المسيو ديبى استجابة سريعة ، لا من المسؤولين ولا من جمهرة الناس ، بل ان كثيرين أحسوا بالعطف على هؤلاء « الكلوشار » وتمنوا أن يتركهم العمدة العنيد فى حالهم ٠

وشغلت هذه المشكلة باريس ، وانتهز برنامج التليفزيون هذه الفرصة ، وقدمهم فى برنامج شبيه ببرنامج « جرب حظك » الذى يذاع عندنا وقبل أن يقدم البرنامج قدمت ادارة التليفزيون للشحاذين الوقورين السجاير والنبيذ ، ولكن أحدهم ، واســـمه لوســيان « الصاروخ » وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه يندفع كالصاروخ حين يشرب الخمر رفض أن يقبل السيجارة ٠ وقال انه تعود على تدخين الأعقاب ، ولذلك فهو لا يريد أن يفسد مزاجه ٠٠

وثارت المناقشة بين العمدة الذى نصب نفسه لاعلان الحرب على « الكلوشار » وبين وفد الكلوشار الذى كان يرأسه بول ذو العين الواحدة ٠

وقال « بول » اننا نرفض أن ندخل الملجأ لأن لدينا أعمالنا ٠

وقال مذيع البرنامج ٠٠ وما عملكم ؟

وأجاب بول ٠٠ ان باريس بدوننا لن تصبح باريس ٠٠ أن يزورها أحد ٠٠

وقال آخر ٠٠ اننا لن نتخلى عن تقاليدنا التى رسمها لنا أعظم « كلوشار » فى التاريخ ٠٠ فرانسوا فيون ٠٠

والاسم الأخير ٠٠ فرانسوا فيون ، هو مفخرة « الكلوشار » على مدى الأجيال ، وهم يعتزون بنسبتهم اليه ، ولهم الحق فى هذا الاعتزاز ٠ فقد كان فرانسوا فيون شاعرا من أكبر شعراء فرنسا فى القرن الخامس عشر ، واسمه يقرن فى تاريخ الأدب الفرنسى بأسماء فيكتور هيجو ولامرتين ٠٠

وقد عاش هذا الشاعر حياة مضطربة . أمضى نصفها فى السجون والنصف الآخر تحت جسور نهر السين ، واتهم مرة بجريمة قتل ، ومرة بالسرقة ، ومرة ثالثة بالاشتراك فى مشاجرة ابتدأت بالكلام واختتمت بالدم ، وحكم عليه بالاعدام ، ولكنه أفلت من المشنقة بأعجوبة ٠ واختفى ، دون أن يعلم أحد حتى الآن سر اختفائه وهى فى الثانية والثلاثين من عمره ٠

وبرغم هذه الحياة المضطربة فقد أنتج فيون كثيرا من الروائع الشعرية ووقف بشعره في صف جماهير باريس الغاضبة على حكم الملكية ، وله قصيدة رائعة اسمها «نشيد المشنوقين »يتهكم فيها بالملك لويس الحادى عشر ، ويصف فيها الغابة الشجراء التى تحيط بقصر التويلرى وقد علقت على أشجارها جثث المشنوقين ٠

كان فرانسوا فيون اذن شاعرا عظيما كما كان « كلوشارا » عظيما ، وقد احتمى هذا الجيل المنحدر من الكلوشار وراء اســـمه الضخم ، ولم يسفر هذا اللقاء أمام شـاشة التليفزيون عن تقارب وجهات النظر بين العمدة العنيد والشحاذين الوقورين ٠

ان باريس ميالة بقلبها الى الكلوشار ، وأغلب الظن أن فلولهم المتفرقة ستظل تزدحم على عتبات الكنائس وتحت جسور الســـين ليقف السائح الأمريكى أو الشرقى المتطلع يتفرج عليها ويقول ٠٠ نعم هذه هى باريس ٠٠

وقد حكى لنا كاتبنا العظيم ، توفيق الحكيم الشاب الشرقى الذى عبر البحر الى باريس منذ ثلاثين عاما ٠ وملء رأسه عين متطلعة مبهورة ، حكى لنا تجربته مع أحد هؤلاء « الكلوشار » ، فى كتابه « زهرة العمر » ٠

كان رجلا عجوزا مهدما زرى الهيئة التقى به الشاب العربى فى أحد المتاحف وأخذ العجوز يشرح للشاب المبهور ما وراء اللوحات من روعة وجمال ، ثم مالبث أن أخذ يقرأ معه بعض كتب الأدب ، ويعرفه بوجه باريس الحى من فن وتصوير ومسرح ٠

وكان فى الوقت نفسه يعيش عالة على هذا الشاب ، يقاسمه نقوده ويؤاكله فى طعامه ، ويستعير من ملابسه ، والشاب فرح بهذا الصديق الذى يشرح له كل ما خفى عليه ، ويوضح له أسرار كل ما يبهره ٠

وأحس الشـــاب بعد فترة أنه لم يعد فى حاجة لهذا الدليل المرهق ، فمالبث أن تخلى عنه فى جمود وقسوة ٠

لقد كان هذا الرجل العجوز فى يوم من الأيام شاعرا له اسم وصيت ، ولكن الأيام دارت وطحنته رحاها ، وألقت به فى الطريق ، وشيع وهو حى جنازة اسمه وصيته ، فمالبث أن أصبح واحدا من هؤلاء ٠٠ الكلوشار ٠

ان الصعلكة اذن طريق للهروب من الحياة ٠٠ والصعلوك يدير للحياة ظهره بعد أن يلقى بكل ما فى يده من أحمال الأسرة والمستقبل والأمل والدفء ، ثم ينطلق خفيفا كأنه آرييل اله الهواء ٠

ولا أدرى لماذا يثب ذهنى كلما فكرت فى هؤلاء المجـــاذيب الفرنسيين ، وتتبعت قضيتهم فى الصحف الى حى الحسين بالقاهرة ومجاذيبه ٠٠

يثب ذهنى الى الشيخ على : مارشال المجاذيب المشـــهور ، رحمه الله بلحيته البيضاء ووجهه الأحمر وحلته العسكرية الزائفة وقد أخذ يلقى بكلماته المضحكة المبهمة عن جيوشه السماوية ٠

وثبت الى ذهنى صورة زبون آخر من زبائن الحى العتيد . اسمه الشيخ ابليس ، أطلق عليه أحد الأدباء هذا الاسم ، فلصق به. وهو رجل أمى جاهل ٠ لا يعرف الألف من المئذنة اذا رآها مكتوبة ، أما فى الكلام فهو بليغ متدفق ، يحفظ كثيرا من الشعر ، ويبدو تحت زيه الأزهرى كأنه عالم مطمطم ويخدع الكثيرين بهذا الزى الوقور برغم أن رائحة الخمر تتصاعد من فمه عادة ، وتقلب رأس محدثه بنفاذها وحدتها ٠

وتذكرت ذوى الجلاليب البيضاء والعمم الخضراء والمسابح الطويلة الذين يلقون بظهورهم الثقيلة الى حائط الضريح ، ويحدقون الى المارة فى بلاهة خابية ٠

وهذا الرجل البدين الذى سحب كرسيا وجلس به أمام الباب الأخضر ، وقد أمسك فى يده بمنشة ، وهو يلقى السلام على من عرف ومن لم يعرف ٠٠

وهذا الفتى الأسمر العريض القفا الذى قدم — بلاشك — من أقصى الصعيد ، لكى يحمل حجرا فى بناء أو يقف حارســـا على مخزن ، ولكنه وجد الانجذاب أكثر نفعا ٠

ولعل فى كل مدينة كبيرة مجاذيبها ، باريس مثل القاهرة ، انهم ينطلقون فى رحابها ، وقد نفضوا أيديهم من كل شىء ، ووجدوا الكسل أقرب طريق للمتعة ، مثل الحيوانات الضعيفة التى تتمدد فى الشمس ٠٠ وقنعوا بعقب السيجارة وبقية الرغيف وفراش الحجر ٠

وفى كل مدينة كبيرة أيضا طريق للانجذاب ، ان طريق باريس هو الفن ، هو ادعاء الرسم أو الشعر أو الفكر ٠

أما نحن ، فاننا شعب يحفظ الايمان فى أعمق ركن من قلبه ٠

ولذلك فان مجاذيبنا يتمسحون بالدين ٠٠

صباح الخير ١٩٥٩/٥/١٤

أصوات العصر

الجـــنس الثـــالث

ان الجنس الثالث على الأبواب

ليس هو الرجل ، وليس هو المرأة ، ولكنه جنس جديد لم يعرف العالم بشائره ! الا منذ خمسين عاما ٠

وميلاد هذا الجنس انقلاب ٠٠ بل لعله أكبر انقلاب عرفه التاريخ ٠٠ وقد كانت الانقلابات البشرية العظيمة تتم فى مئات السنين ٠ أما هذا الانقلاب الهائل فميلاده لم يستغرق ما يجاوز عمر رجل واحد من صباه الى كهولته ٠٠

والجنس الثالث فى البشر مثل الجنس الثالث فى النمل والنحل ٠٠ فان فى النمل والنحل ذكورا واناثا ، وجنسا ثالثا كان فى الأصل أنثى ، تفرغ لحماية الخلية وبنائها وتدعيمها ، لتوجيه العمل فيها ، وسيطر على الذكور ، ثم مالبث أن فقد أنوثته بعد أجيال وأجيال

والفيلسوف الذى أنقل عنه هذا الرأى ، اسمه ول ديورانت يقول انه يتوقع أن يكون البشر فى المستقبل ثلاثة أجناس ٠ رجال ونساء وجنس ثالث من نســـاء وهبن أنفسهن للنشـــاط العلمى والاقتصادى والاجتماعى بحيث يفقدن أولا الرغبة فى الحمل ، ثم مايلبثن أن يفقدن القدرة عليه ، يبتعدن عن الأنوثة ، حتى يقفن فى منتصف الطريق بين المرأة والرجل ٠

ان أجيالا وأجيالا من التطور خليقة بأن تقدم نبأ هذا النوع الجديد من البشر ، الذى يقف الآن على أعتاب الانسانية ٠

ان الجنس الثالث فى رأى الفيلســـوف ليس تطورا طبيعيا للجنس الثانى ٠ والخلاف بينهما ليس خلافا فى المظهر فقط ، انه خلاف فى الوظيفة والعقل مالبث أن أصبح خلافا حتى فى الشكل نفسه ٠٠

ان جسم الجنس الثالث قد تغير فى بنيانه وهيكله عن جسم الجنس الثانى ٠

ولنعد الى ما قبل الانقلاب ٠٠

كانت المرأة منذ فجر الانســـانية حتى أواخر القرن الماضى تعرف مكانها الصغير فى جوار الرجل ٠

وكان العالم كله مذكرا ، وكان الرجل هو الذى يعمل ، وهو الذى يشترى المرأة أو يختارها وهو الذى يحكمها بعد ذلك ٠

وكانت الحرية مؤنثة اسما فقط ، أما فى الحقيقة فهى رجل له شوارب وعضلات ٠٠

وكانت الفكرة التى عاشت فى عقول فئات الملايين من الناس على مدى عشرات الألوف من السنين هى أن المرأة أقل من الرجل ، انها ليست ندا له ، ولكنها مكمل ٠٠

وقد قال أرسطو منذ خمسة وعشرين قرنا « ان وجود المرأة اخفاق من الطبيعة فى أن تنتج رجلا » ٠٠

وقال نيتشه فى القرن الماضى واذا أقبلت على المرأة فلا تنس أن تحمل سوطك » ٠٠

ولكن الضعيف دائما يلقى من العطف مالا يلقاه القوى ٠ وقد تعلمت المرأة فى سنوات ضعفها الطويلة أن تصنع من هذا الضعف قوة ، فاختارت لنفسها عالما خاصا ، هو العالم الذى رفض الرجل المزهو بعضلاته وانطلاقه أن يدخله ٠٠

امتلكت المرأة عالم البيت ، وتفرغت لرسالتها وهى تجميل البيت وخلق الأطفال ..

وفى المجتمعات القديمة كانت المرأة تلقى الاحترام بقدر ما انجبت من أطفال . ومازال النساء فى المجتمعات الريفية ينذرن النذور لكى يرفع الله عنهن بلاء العقم ..

تصـــنيع المـــرأة ..

ان اختراع الآلة البخارية هو الذى أعلن عن قرب ميلاد هذا الجنس الثالث ..

فالآلة البخارية احتاجت الى عمال ، وتكونت حولها المصانع. وكان سعر المرأة العاملة اقل من سعر الرجل ، وتلك ميزة لا تفوت اصحاب المصانع كما أن صـــبرها الطويل واقبالها على الأعمال اليدوية قد مهدا لها السبيل لمنافسة الرجل ..

وحين هجرت المرأة البيت الى المصنع ، ابتدأت تفكر من جديد فى الأمومة .

رأت أن الأمومة عبء ثقيل لأنها تعطلها عن أداء عملها ، وأن الحمل والولادة مثل المرض الطويل الذى يعوق الانسان عن النشاط .. وابتدأ التفكير فى الحد من النسل ، وظهرت الشقق الصغيرة كالعلب ، والمطاعم الشعبية الرخيصة بدلا من تجمع الأسرة حول وجبة الغداء أو العشاء ..

ونافست المرأة الرجل فى الحق الوحيد الذى احتكره لنفسه آلاف السنين .. حق الانطلاق خارج البيت ، فأصبحت تقضى نصف حياتها فى العمل والطريق وزحام الحياة ..

أن تسع
ما كانت جدا:

لقد تد
مقاييس الجـ
دائما ..

ان الجـ
كانت هى المر
لأنها ســـتر
المتينة البنيا،

ولو تد
الرسامون من .

انهن جميعا
يترقرق فى خدودهن

أما فاتنات العصـ
النحافة التى توشك أ
أنفسهن قد ضمرت
الجهامة والخشو

لقد تغير حد

وحين يتم ميلا
سيضمر كل مالا يسـ

وتصبح المرأة ا
الرجل ..

ان الفيلسوف يذكر بأسى شديد حديثا دار بينه وبين عالمة ذرية معروفة حين سألته فى حياء ·· لماذا لا أتزوج ·· لماذا لا يحبنى أحد مع أننى أستطيع أن أمنح الحب كما تمنحه أى امرأة ·

ونظر الفيلسوف فى وجهها الذى غضنه التفكير وذوت الأنوثة من وجناته ، ثم أوشك أن يقول لها انها قد فقدت أنوثتها ، ولكنه فى اللحظة الأخيرة عض على لسانه ولم يتكلم ··

ينظـــر الى الـــوراء ··

والآن ما رأيك أنت فى هذا الجنس الثالث ؟·

ان الظاهرة التى تنبه لها الفيلسوف ظاهرة حقيقية ، فجيل النســـاء العاملات يزحف نحو واجهة الحياة ، وقد فقد كثيرا من أنوثته وضعفه وحصل على كثير من حريته واستقلاله · وشـــغله السعى لكسب الرزق عن البيت والأمومة الى حد ما ·

ولكن هل كان أحد يستطيع أن يوقف هذا التطور ؟

ان الريف مثلا بأشجاره الباسقة وخضرته الممدودة أجمل من المدينة بمصانعها وضجيجها ودخانها · ولكن الحياة رغم ذلك تنتقل من الريف الى المدينة · وأفواج المهـــاجرين يتركون ذلك الهدوء والصفاء لكى يجربوا حظهم فى زحام المدينة وضوضائها ·

وقد كان الانسان الأول العارى الجسم صحيحا قويا ، ونحن الآن نتفنن فى ايذاء صحتنا باحمال الملابس التى نلتف بها · ولكنا لن نستطيع أن نخلعها لكى نعود الى فتوتنا الأولى ·

وتحول النساء من الأنوثة الى العمل ، ومن الضعف الى القوة دليل تطور لا تأخر ··

ونسبة النساء العاملات ترتفع دائما كلما تحول المجتمع الى الصناعة ··

والجنس الثالث هو الصورة الجديدة للجنس الثانى ، هو جنس المستقبل الذى سيصبح بعد اجيال وأجيال هو الأنثى العادية ٠

ولكن الأيام القادمة ، بعد أن تنحسر موجة الانتقال السريعة . ستدفع المرأة الى أن توفق بين أنوثتها وعملها ٠٠ بين أن تكون أما وتكون فى نفس الوقت كائنا اجتماعيا ٠٠

صباح الخير ١٩٥٩/٥/٢٨

التعليم الجامعى بين العقـــل والعاطفـــة

الشكوى من ضـــعف مستوى الخريجين تتزايد كل عام ·· أصبحت هذه الشكوى كأنها نكتة تتردد دائما فى دواوين الحكومة ، وعلى لسان المسئولين فى ديوان الموظفين ، وفى الراديو والصحف ، ولا يستبعد أن نسمع فى المستقبل من يقول ·· كان فيه واحد خريج جامعة ·· ثم تتردد بعد ذلك الضحكات ! ··

وفى كل عام أيضا ، تناقش مشاكل الجامعة · ولكننا نفكر فى الجامعة بعواطفنا ·· لا بعقولنا ، وبنوع من النفخة الكدابة ··· نفرح جدا حين يدخل الجامعة كذا ألف كل عام ، وحين يتخرج منها « كذا » ألف ·· ولا نفكر فى مصير هذه الألوف وفى مســتواها العلمى ، وفى مقدرتها بعد التخرج على شق طريقها فى الحياة ·

ومنذ أسابيع قامت ضجة حول نظام الانتساب ·· هل يلغى هذا العام أم يبقى ·· وكان أمامنا أن نفكر بعقولنا ، فنضع أمامنا الاحصائيات والحقائق واحتياجات المستقبل ، أو أن نفكر بعواطفنا ، فنمصمص بشفاهنا ، ونقول ·· معلهش ·· دول طلبة مساكين ·· ولازم نديهم فرصة ·

وفكرنا بعواطفنا ، وبقى نظام الانتساب و « روزاليوسف » تضع الحقائق والاحصائيات التى كان يجب أن تبرز وتضىء أمام

مديرى الجامعات وعمداء الكليات . تضعها أمام عيونهم ثم تتركهم ليعيدوا النظر فى قرارتهم .

الحقيقة الأولى :

● الانتســـاب مباح فى ثلاث كليات جامعية .. هى الآداب والحقوق والتجارة .. وهذه الكليات الثلاث كليات نظرية ، تتضخم أرقام طلبتها وخريجيها عن طريق الانتساب .. فى عهد التصنيع والتخطيط والبحث العلمى ! ..

● وقد أبيح الانتســـاب لهذه الكليات فى العام الدراسى ١٩٥٣ ــ ١٩٥٤ ، وبلغ عدد المنتسبين فى ذلك العام ٥٧٩٩ طالبا ، موزعون على النحو التالى :

- **الآداب ١٣٥٥ طالبا**
- **التجارة ١٧٦٦ طالبا**
- **الحقوق ٢٦٧٨ طالبا**

وفى العام الدراسى الماضى بلغ عدد هؤلاء المنتسبين ١٩٣٠٢ طالبا ، موزعون على النحو التالى :

- **الآداب ٥٧٩٤ طالبا**
- **التجارة ٨٩٨٨ طالبا**
- **الحقوق ٤٥٢٠ طالبا**

وهذه الاعداد الضخمة التى لا تتلقى الا دراسة نظرية ، رج معظمها فى الأعوام القادمة ، وسوف يطرقون بأيديهم الحكومة والمصالح والشركات ، ولكنهم سيعرفون عندئذ

ان الطالب المنتسب فى جامعاتنا ٠٠ أغرب طالب جامعى فى الوجود ! ٠٠

● **يقول الدكتور عز الدين فريد عميد كلية الآداب :**

« ان الطالب المنتسب يتوهم أنه طالب جامعى ، فاذا حاول الدخول من باب الجامعة ، وقع تحت طائلة القانون ، لأن هناك قانونا يحرم على الطالب المنتسب دخول المحاضرات ، ولو تسلل من الباب لعومل معاملة المتلبس باقتحام حرم الجامعة ٠٠ والحياة الجامعية ليست مجرد مذاكرة وامتحان ونقل من سنة الى سنة ثم شـــهادة مذيلة بامضاء مدير الجامعة ، ولكنها وسط علمى ينمو فيه الطالب ، ويبحث ويفكر ، وحياة رياضية واجتماعية نظيفة ، ومجال لكى يعرف فيه الطالب امكانياته وحدود طاقته ، ووسيلة لكى يتعرف بأساتذته ، ويحاول أن يرتفع بتفكيره الى مستوى تفكيرهم

ولكن الطالب المنتسب قد يدخل الجامعة ويخرج منها ، وهو لم يرها من بعيد » ٠

وأوضح دليل على أن الطالب المنتسب لا يستطيع الاستفادة علميا من الجامعة ، هو مراجعة نسبة النجاح بين الطلبة المنتسبين . ففى كلية الحقوق ، وهى كلية ذات مناهج محددة ، ولجميع الأساتذة فيها كتب مطبوعة ، من الممكن دراستها قبل الاستعداد للامتحان ، نجد النتائج فى عام ١٩٥٦ كالآتى :

السنة الأولى ٢٠٪

السنة الثانية ٣٢٪

السنة الثالثة ٦ر٢٤٪

السنة الرابعة ٩ر٣١٪

هذا بينما تبلغ النسبة العامة للنجاح فى كلية الحقوق ١ر٥٦٪٠

هذه هى الملامح العامة لنظام الانتساب فى جامعاتنا ، لو فكرنا فيها بعقولنا ، لألغيناه بجرة قلم ·· غير آسفين ·

* * *

والنظام الجديد الذى تسلل الى حياتنا الجامعية بعد نظام الانتساب هو نظام الفترتين ··

ونحن نعترف أن نظام الفترتين نظام متبع فى كثير من جامعات الخارج ، ولكنه فى جامعات الخارج نظام متكامل ، منسجم مع نفسه ·

● **يقول الدكتور عبد الفتاح القصاص الأستاذ بكلية العلوم :**

ـ ان نظام الفترتين نظام متبع فى كثير من جامعات الخارج ، بل نظام الثلاث فترات فى بعض الاحيان · ولكن الامتحانات فى هذه الجامعات ميسرة على الطالب والأستاذ معا · ان القاعدة التى تتبعها هذه الجامعات أن غاية الامتحان هى قياس قدرة الطالب على فهم الموضوع لا قياس قدرة الطالب على « الصم » ·· على دس المعلومات فى ذهنه وافراغها على ورقة الاجابة ·

والأستاذ فى هذه الجامعات يستطيع أن يعرف مستوى طلابه عن طريق الابحاث وأعمال السنة فى الكليات النظرية ، وعن طريق نشاطهم فى المعمل فى الكليات العملية ، وهناك ثقة تامة فى الأستاذ، فليست هناك أرقام سرية أو اجراءات شبه بوليسية للرقابة على الامتحان ، ولا يستغرق الامتحان عادة أكثر من ساعة وقرار الأستاذ نهائى ··

والمدرجات والمعامل فى جامعات الخارج لا تزدحم بالطلبة ولكل أستاذ مجموعة من الطلبة يعرفهم جيدا ، ويتتبع تطورهم العلمى عن كثب ، ولذلك فان الامتحان يتم فى يوم واحد ، وتعلن نتيجته فى الحال ·

ان التقدم الذى يسير فى اتجاه واحد ويشمل ناحية واحدة فقط ، تقدم زائف ، والتقليد الذى لا ينبع من الحاجة ، بل من مجرد الرغبة فى التقليد ، تكون اضراره ، أكثر من مزاياه ..

ولنعد الى الأرقام ، لنقارن بين نسبة النجـــاح فى ظل نظام الفترة الواحدة ، وفى ظل نظام الفترتين ..

● نسبة النجاح فى ظل نظام الفترة الواحدة فى عام ١٩٥٢ :

الآداب	٩٢ر١ ٪
الحقوق	٥٦ ٪
التجارة	٨٨ر٥ ٪
العلوم	٩٦ر٥ ٪
الطب	٤٢ر٩ ٪
طب الاسنان	٧٣ر٥ ٪
الهندسة	٧٨ر٨٩٩ ٪
الصيدلة	٨٤ر٧ ٪
الزراعة	٩٣ر٨ ٪
دار العلوم	٩٦ر٥٪

● نسبة النجاح فى ظل نظام الفترتين :

الآداب	٨٧ر٥ ٪
الحقوق	٤٣ر٤ ٪
التجارة	٦٢ر٧ ٪
العلوم	٨٥ر٨ ٪
الطب	٥٣ر٩ ٪

طب الاسنان	٣ر٨٣ ٪
الهندسه	ر٦٦ ٪
الصيدلة	٦ر٧٦ ٪
الزراعة	٨٧ ٪
دار العلوم	٤ر٦٠ ٪

انخفاض واضح للنسبة فى كل كليات الجامعة بلا استثناء ..

وبعد :

هاتان مشكلتان من مشاكل التعليم الجامعى ، وهذا هو وقت اثارتهما ، ونحن على أبواب عام جديد من عمر جامعاتنا .. جامعاتنا التى نريدها أن تكون ضـــرورة من ضروريات حياتنا مثل التنمية الاقتصادية والســد العالى والوادى الجديد ، فنفكر فيها بعقولنا لا بعواطفنا ، ويكون كل تفكيرنا عندئذ بالأرقام ..

جامعاتنا التى لا يدخلها الترف .. ولا التقليد الأعمى ، ولا يصبح مستوى خريجيها العلمى .. نكتة ..

روزاليوسف ١٩٥٩/٩/١٤

التحــرر من النظــام

احفظ هذا الاسم جيدا ٠٠

كولن ولسن ٠٠

عمره ٢٨ عاما ، وقد أخرج كتابه الأول ، الذى أثار أكبر ضجة أدبية فى السنوات العشر الأخيرة ، وهو فى الرابعة والعشرين من عمره ٠٠

احفظ اسمه جيدا ، فان شهرته أخذت تعبر بحر المانش الى القارة الأوروبية ، والنقاد بدأوا يدرسونه بعقولهم المحايدة الباردة ، أما الشباب ، بقلوبهم الساخنة ٠٠ فهم يمطرونه بالرسائل ، ليقولوا له ٠٠ نحن معك ٠٠

سيصبح هذا الكاتب ، أو الجانب السهل من كتابته ، تقليعة كما أصبح سارتر ، واذا كان سارتر قد انتقل بجسمه ولحمه وفلسفته من أروقة السوربون الى رصيف المقهى واندفع الشباب وراءه الى المقاهى التى قادتهم الى كهوف تحت الأرض ، تلك الكهوف الساخنة بالغرف والموسيقى العاصفة والكحول ودخان السجائر ، فان لهذا الكاتب أيضا جانبا من الحياة ، يغرى هواة التقاليع ٠٠

انه بلا مكان ٠٠ ان الأثير هو الأرض التى تقيد أقدامه ٠٠ انه بلا منزل ، وكل ما يملكه هو خيمة سفر يضعها على ظهره ٠٠ وكيس

للنوم لا ينفذ منه الماء ، وسرير سفرى ، ودراجة ، وحقيبة عسكرية صفراء كبيرة ليضع فيها حاجياته وكتبه ··

وهو قد طلق زوجته ، وترك معها طفله الوحيد ، لكى تكون حياته منسجمة مع فلسفته ··

وهو يكره العمل ، ويعبد البطالة ، لأن العمل يجعل منه انسانا كالآخرين ، تستعبده المواعيد وشباك الصراف فى أول الأسبوع ، وتكسوه بلادة الروتين الرتيبة ·· وتحصر أفق حياته أرقام الجمع والضرب والقسمة ··

لقد أقام بناء حياته على الاستمرار فى التنقل ، وعلى عدم البقاء فى مكان واحد ·· لئلا ينتابه السأم ، والسأم هو عدوه الأول ··

وهو لا يألف الناس ، ولا يحب أن يلتقى بهم ، لأنهم جميعا لا يبلغون منزلته ، ولذلك فهو رجل وحيد ··

وقد تعرضت وحدته للامتحان ، حين أخرج كتابه الأول الذى لم يكن هو أو الناشر يتوقعان له النجاح ، ولكن الكتاب نجح ، وأصبح كولن ولسن شهيرا حين استيقظ ذات صباح ·· كما قال الشاعر بايرون ذات مرة ··

وانهالت عليه رسائل القراء ، منهم من يهنئونه على فتحه الجديد فى عالم الفكر ، ومنهم من يسبه ويشتمه ، ويتهمه بالكفر والالحاد ، ومنهم من يعرض عليه حالته ، ويكاشفه بجراح قلبه ونفسه ، ويلتمس عنده الحل ··

لقد نال وجوه الشهرة الثلاثة ·· أصبح قديسا ومجرما وفيلسوفا ··

وتمتع بالحب والكراهية والاحترام فى نفس الوقت ··

منه ، ويتلقى منها كل ما يملأ به نفسه ، ثم يخطو بهذه الأفكار خطوة الى الأمام ٠

ولذلك فلن تجد فى أفكار أى مفكر عظيم استقلالا عن المفكر الذى سبقه ، انك تحس بخلايا الأموات فى لحم الاحياء ٠٠

والمفكرون الذين أخذ عليهم كولن ولسن العهد هم الوجوديون ٠٠ كيركجارد وكارل يسبرز ٠٠ وهدجر ٠٠

وأخيرا ٠٠ جان بول سارتر ٠٠

وفلسفته هى الوجودية ، ولكن فى نسيج جديد ٠٠

وكلمة الوجودية من الكلمات الزئبقية التى تطول أو تقصر وترتفع درجة حرارتها أو تنخفض حسب مزاج قائلها ، رغم أنها فى الأصل من أكثر الكلمات وضوحا ٠

وقد قيل عن الوجودية أنها ضد الأخلاق ، والواقع أن الوجوديين ليسوا أسوأ أخلاقا ولا أحسن أخلاقا من غيرهم ٠

وقيل عن الوجودية أنها ضد الدين ، رغم أن فى الوجوديين قساوسة ومتصوفين كما أن فيهم ملحدين ومنكرين لله ٠٠ وقد ثارت ضجة ضد الوجودية فى يوم من الأيام ، فى القاهرة . وفى نفس تلك الأيام كان المسرح العربى يعرض لسارتر مسرحيته « المومس الفاضلة » ، التى يهاجم فيها اضطهاد الزنوج فى أمريكا ، وكان بعض كبار المثقفين يفكرون فى دعوة سارتر الى القاهرة ليشهد رفع الستار عن مسرحيته ٠

ان الاختلاف كبير اذن فى تقدير الوجودية ، وذلك كله يرجع الى اختلاف الفلاسفة الوجوديين أنفسهم ، والى أن كلا منهم يختار من النظرة الوجودية ما يناسبه ٠٠

أما النظرة الوجودية نفسها فهى نظرة بسيطة ٠

انها تقول أن الانسان يصبح موجودا حتى يصبح له جسم واسم ·· وكيان ·

وتقول انه من المستحيل التنبؤ بما سيصبح عليه أى انسان فى المستقبل ، الا بعد أن يحدث هذا المستقبل . وهذا عكس الكائنات الأخرى ·

ان بذرة الشجرة لها تاريخ حياة مرسوم ، اذا وضعتها تحت الظروف الملائمة ، تحولت الى نبته ، ثم صارت شجرة صغيرة ، ثم أصبحت شجرة كبيرة ·

كل البذور ينطبق عليها هذا القانون ولذلك فان من الممكن أن نلقى هذا السؤال :

ماهى الشجرة ؟

أن تسأل عن « ماهية » الشجرة ، ثم تتلقى نفس الاجابة مهما اختلفت الحالات ·

وكل الموجودات الأخرى تستطيع أن تعرف ماهيتها ، قبل أن توجد ·· ماعدا الانسان ··

ذلك لأن محمد ليس مثل محمود ·· ومحمود ليس مثل جورج ·· كل واحد منهم له وجوده الخاص ·

ولذلك لا تستطيع أن تسأل : ماهو الانسان ، الا بعد أن يظهر كل فرد الى عالم الوجود ، ويعيش حياته الخاصة · التى تزدحم بخبراته الخاصة ، وتجاربه الذاتية ، وعندئذ تصبح « ماهية » أى انسان هى وجوده الخاص ·

ليس هناك مثل أعلى للانسان ، مرسوم قبل وجوده ، ويصبح تطبيقه على جميع البشـــر ، بل ان كل « فرد » يصنع مثله الأعلى الخاص ، وأخلاقه الخاصة ، وقوانينه الخاصة ، دون تقيد بشىء مرسوم ··

ان سارتر يقول أن الانسان حر ٠٠ حر من أخمص قدمه الى قمة رأسه ٠٠ وهو يمارس حريته فى كل لحظة ، وأمام كل اختيار فهو يستطيع أن يختار بين أن يكون قديسا أو مجرما ، مسيحيا أو بوذيا ، بنفس الدرجة التى يستطيع بها أن يختار بين أن يذهب الى فراشه أو يذهب الى السينما ٠٠

والحرية عبء على ظهر الانسان ، لأنه مطالب أن يكون مشرعا لنفسه فى كل وقت ، دون أن يلقى اعتبارا للقوانين السابقة التى عرفها غيره من البشر ٠

انها اذن نظرية تؤمن بالانسان الفرد لا الانسان المندمج فى المجموع ٠

وكولن ولسن مؤمن بهذه النظرية ، ومؤمن أيضا بالانسـان الفرد الذى يشعر بالغثيان والقرف حين يقف فى وسط البشر ، ويحس أن قامته أعلى من قاماتهم وأن مدى رؤيته أوسع من مدى رؤيتهم ٠

انه انسان نفذ الى قلب الانسانية ، فلم يجد شيئا انسانيا فى هذا القلب ، فعاد الى نفسه ، بعد أن أحس أنه ليس من هؤلاء الناس، وأنه لا ينتمى اليهم قط ، ولذلك أطلق على نفسه هذا الاسم الموجز ، المليء بالمعانى ٠٠

٠٠ اللامنتمى ٠٠

وكانت هذه الكلمة هى عنوان كتابه الأول ٠

والكلمة الأولى فى الكتاب أن العالم كئيب جدا ، وغريب جدا ، وغير انسانى ٠

وأرض الحياة ضـيقة ومحدودة مثل شاشة السينما ، وكل ما عليها خيالات دون روح ، ومقدر عليها أن تظل ملتصقة على هذه الشاشة ما عاشت ، ولا طريق أمامها الى الداخل أو الخارج أو ما حول الشاشة ٠٠

وعلة ذلك الجدب الذى أقفرت بعده أرض الحياة ، أن كل شيء موضوع ضمن نظام قاس دقيق · ان كل انسان مثل رقم الحساب لا قيمة له وحده الا اذا وضع ضمن مسألته ، وحين تتم الحسبة يمحى كأن لم يكن ·· ان الانسان مقيد داخل وظيفة ووطن ومنزل وزوجة وأبناء ··

وليس لدى الانسان الحديث وقت لكى ينظر داخل نفسه · يتأملها ·· لكى ينمى فرديته واحساسه ·· لكى يصبح أعلى من انسان ·· لكى ينفصل عن هذه العجينة البشرية اللزجة التى تملأ وجه الأرض ، ويشتغل بوجوده بعد ذلك ··

ألم تفكر يوما وأنت ذاهب الى عملك حين تعبر الطريق الى الرصيف الآخر ، لتنحرف بعد ذلك الى الشارع الذى يقع فيه المبنى الذى تعمل به ، ألم تفكر يوما فى أن تقف وتفكر ·· هل أنا أحب هذا العمل أو لا ؟ وهل أنا أمارسه بملء حريتى كانسان ؟

والمرأة التى تذهب الى فراش زوجها ·· ألم تفكر ذات ليلة فى أنها قد لا تحب هذا الفراش ؟ وانها تريد أن تنام وحدها أو فى فراش آخر ··

ولكن لا أحد يستطيع المقاومة ·· ان هناك شيئا أكبر من الانسان ·· اسمه النظام ··

والكاتب يكره النظام ·· النظام الذى يتسمى بألف اسم ، وهو يخدر الناس جميعا ، كأنه أفيون ··

كانوا يقولون ان الدين هو أفيون الشعوب ، أما الآن فان الاقتصاد هو أفيون الشعوب ، بالاضافة الى الهوس الوطنى ، أليس ذلك أيضا أفيون الشعوب · على أن الخمر هى الأفيون الحاكم ·· الأفيون الرائع ·· مع أن بعض الناس يفضلون الراديو ·· الذى يعتبر أفيونا آخر للشعوب !

وفى وسط هذه القيود يشعر الانسان الحساس أنه حائر نعس ، ويفكر فى أن يكون لامنتميا ، أى أن لا ينتمى الى شيء ·

والكاتب يتساءل فى علة هذا النظام ·· فى خالقه ··

أن خالق كل هذه النظم هو العقل ·

وأمام الانسان طريقان لكى يعرف ما حوله ··

أمامه أولا العقل المغرور الذى يفكر ويدير ، ويبتكر القوانين العلمية ·

وأمامه ثانيا الالهام ··

والانسان الحديث فى أوروبا قد اختار طريق العقل ، ونسى طريق الالهام ، مع أن كل القوانين العلمية كانت نوعا من الرؤيا والالهام قبل أن تثبتها التجارب المتوالية ·

وعلى الانسان اذا أراد أن يكون سعيدا أن يخضع لغريزته والهامة ، عليه أن يعيش حياته باحساسه الدافىء ، وأن لا يصبح حلقه فى سلسلة ، بل فردا الى جانب أفراد آخرين ··

وليبدأ الانسان بأن يكسر حلقة النظام الملتفة حول عنقه ، حتى ولو قيل عنه انه مجنون ··

وذلك هو دور الانسان اللامنتمى ·

❊ ❊ ❊

هذه هى خلاصة آراء « كولن ولسن » التى جمعها فى كتابين يزيد عدد صفحاتهما على ألف صفحة ، وملأهما بالاقتباسات والتحليل الأدبى والفنى ··

انها صيحة جريئة ، ولكنها كان من الطبيعى أن تنبت فى الغرب ·· الذى يقدس العقل ولا يعرف الالهام ·· والذى تنمو فى ظله الأمم ، ولا تنمو الأفراد · انها نوع من الندم والتراجع وتأنيب النفس ··

لقد حقق الغرب أرفع مستوى من التقدم العلمي والآلي ، ولكنه لم يحقق السعادة للانسان ·

فالرجل يركب الطائرة ، ويبتكر الصاروخ ، ويفلق الذرة ، ولكنه ليس أسعد من جده ··

والمرأة وجدت المطبخ الحديث . والثلاجة ، والغسالة الكهربائية، ولكنها فقدت الطمأنينة ·

وأمم الغرب عرفت الثروة والفتح . وعاش أفرادها في مستوى مادي أعلى من مستوى الأمم الأخرى ، ولكنهم فقدوا الشعور بالانسانية ·

أنها حضارة طال أحد ذراعيها ، وهو العلم حتى امتد الى مالانهاية ، بينما ذراعها الأخرى ·· التي تمثل المثل الخلقية والتقاليد الحضارية مازالت قصيرة ·

وكولن ولسن يلقي اللوم على العلم والنظام ، بينما كان من الواجب عليه اذا أراد أن يكون عميقا وفيلسوفا أن يلقى اللوم على المناخ الذي نما فيه ذلك العلم وهذا النظام ·

لقد نما العلم في مناخ فاسد · ففكر العلماء في تركيباتهم ومعادلاتهم دون أن يفكروا في الانسان ، وأصبحت تنطبق على العلم تلك الكلمة الواردة في التوراة « وأتى فارس اسمه الموت » ·

روزاليوسف ١٩٦٠/٤/١١

تاريخـــان يلتقيـــان

تاريخ اليونان الحديث معنا تاريخ مشرف ..

فاليونان هي الدولة الوحيدة فى أوروبا .. باستثناء البانيا ، التى لم تعترف باسرائيل ..

وهى الدولة الوحيدة التي رفضت الدعوة لمؤتمر لندن ، الذى عقدته عصـــابة الدول المنتفعة بقناة الســــويس ، وكانت بريطانيا وفرنســـا تنويان به القاء ســــتار من الدخــــان الكثيف ليحجب استعداداتهما العسكرية لغزو اقليم مصر ..

وحين انسحب المرشدون الأجانب من قناة الســــويس ، وقف المرشدون اليونانيون مع اخوانهم العرب ، ليسدوا النقص ، ويحافظوا على تدفق الملاحة فى شريان العالم ، وفشلت عندئذ مؤامرة سحب المرشدين ، وكان بعض الفضل فى فشلها يعود الى علاقاتنا الطيبة مع اليونان ..

وعلاقاتنا الطيبة مع اليونان لا تعود الى هذه السنوات العشر أو العشرين الأخيرة وحدها ، ولكنها تمتد فى أعماق التاريخ الى الأيام الأولى للانسان المتمدن على هذه الأرض .

ويكفى مثالا على ذلك أن الاسكندرية .. مدينتنا الثانية فى اقليم مصر ، مسماة باسم بطل يونانى قديم ، وأن فى متاحفنا نماذج من الفن اليونانى الى جوار النماذج الفرعونية والعربية .

والزائر للمتحف المصـــرى يستطيع أن يفرق للوهلة الأولى بين نماذج فن الفراعنة ، وبين نمـــاذج فن اليونان ٠٠ فالتمثال الفرعونى شامخ ، يقف وقفة ثابتة ، ويســـتعمل النحات فيه حجر الجرانيت أو الصوان ، فتكتسى ملامح صاحب التمثال سمرة مصرية داكنة ٠

والتمثال اليونانى أقرب الى تمثيل الحـــركة ، وأكثر عناية بالتفاصيل ، والحجر المفضل للمثال اليونانى المتمصر هو الرخام أو الحجر الجيرى ٠٠

ولكن كلا الاتجاهين يتجاوران فى غرفات المتحف المصرى - ويرمزان الى أن تاريخ الانسان المصرى امتزج بتاريخ الانســـان اليونانى يوما ما ٠٠

ماذا أعطت للعـــالم ؟

واليونان القديمة أهدت الى العـــالم كثيرا من الافكار التى مايزال يعيش عليها حتى الآن ٠٠

وحضارة اليونان القديمة احدى الحضارات الكبرى التى لابد أن يقف المؤرخ أمامها حين يدرس تاريخ العالم القديم ٠٠

ومن أهم الأفكار التى أهدتها اليونان القديمة للعـــالم فكرة الديموقراطية أو حكم الشعب ٠٠

كان العالم القديم قبل الحضارة اليونانية يؤمن بحق الملوك المقدس ، وسيطرة الكهنة على الحياة العامة ٠٠

- وخلعت اليونان سلطة الكهنة ، ولم تعترف بسيادة الملوك ، وأقامت بناء المدينة السياسى على حق المواطنين جميعا فى اختيار حكامهم الذين يجتمعون فى المدينة ، ويناقشـــون اجراءات الحكم ويجمعون فى أيديهم كل السلطات ٠٠

وتطورت فكرة الديموقراطية اليوناية حتى أصبحت من مفاخر الانسانية ، وأصبحت شعارا لكل الثورات الاصلاحية حتى عصرنا هذا ٠٠

وأعطت اليونان للعالم تراثا فلسفيا ضخما ، بدأ بسقراط ، الذى استشهد فى سبيل نشر فكرته عن التوحيد ، ثم أفلاطون الذى حاول أن يقيم مدينة مثالية ، تتمتع بنظام محكم لتوجيه الأمور ، ويحكمها الفلاسفة الذين تتفوق عقولهم على نزواتهم ، ويعدون حتى سن الخامسة والثلاثين لحكم الدولة · ويعيشون عيشة مشاعية ، لا يملك أحد منهم شيئا من المال أو الثروة ، حتى زوجاتهم وأولادهم يكونون على المشاع وهم فى المدينة بمنزلة الرأس ··

وتلى طبقة الفلاسفة الحكام طبقة أخرى ·· هى طبقة الجنود، ومهمة هذه الطبقة الدفاع عن المدينة ضد أعدائها ، فهى « أيدى المدينة » ··

أما الطبقة الثالثة فهى طبقة العامة من صناع وتجار ومزارعين، ومهمة هؤلاء هى العمل الدائب للوفاء بحاجات المدينة ، وهم « جسم المدينة » ··

ومن الواضح أن محاولة أفلاطون ظلت محاولة على الورق ولم تنتشر فى زمانه الى أبعد من عقول تلاميذه ، وان كانت قد أثرت فى الفكر العالمى الى أبعد مدى بعد ذلك ، وتوالت المؤلفات التى تحاول أن تقيم بناء مدينة فاضلة تخلو من عيوب المجتمع البشرى ، وتحقق السعادة لجميع سكانه ··

أما أرسطو ثالث فلاسفة اليونان العظام ·· فقد اهتم بالمنطق والعلم ، حتى قال أحد المؤرخين ان أرسطو هبط بالفلسفة الى الأرض بعد أن رفعها أفلاطون الى السماء ، وقال أرسطو ان الفيلسوف يجب أن يهتم بثلاثة أمور ·· أولها الانسان ، ثم الطبيعة ، ثم مالا يستطيع أن يدركه بعقله ، ولا يقع فى دائرة الانسان أو الطبيعة ، وقد أطلق أرسطو على هذا العلم الجديد « ما وراء الطبيعة » أو « الميتافيزيقا » باليونانية ، ومازال ذلك الاســـم يطلق على كل بحث فى الدين أو اللاهوت حتى الآن ·

والعلم الذى يبحث فى شئون الانسان هو الاخلاق ، ولذلك الف ارسطو كتابا فى الآخلاق ، ترجمه الى العربية فى مطالع نهضتنا الفكرية أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد ..

والعلم الذى يبحث فى عقل الانسان ، ويصحح نظرته للأمور هو المنطق ، ولذلك كتب أرسطو كتابا فى المنطق ، وقد ظل منطق أرسطو يدرس فى جامعات أوروبا حتى القرن التاسع عشر ، ولم يبعده عن الميدان الا بيكون الفيلسوف الانجليزى الى حد ما ، ثم اينشتاين وبرتراند رسل أخيرا ..

أما الطبيعة فقد ألف فيها أرسطو كتبا ظلت هى الآخرى فى الجامعات حتى انتصرت عليها المخترعات العلمية الحديثة ، وظل العلم الذى قدمه أرسطو مقدسا خلال القرون الوسطى ، وحافظ عليه الكهنة فى الأديرة والأساتذة فى الجامعات ، وكان من يخرج عليه يتعرض للأذى الشديد ، وكأن ما قاله أرسطو صفحات من الكتاب المقدس ..

ولكن الحضارة اليونانية الزاهرة اصطدمت بحضارة عسكرية لا تهتم بالعلوم .. ولا تعنى بالفلسفة ، وهى الحضارة الرومانية ..

لقد انتصرت روما على أثينا ، وغزتها .. وغزت كل العالم القديم ، بما فيه مصر والشام ..

واندثرت الحضارة اليونانية تحت وطأة خيول الرومان القدماء الذين لم يكونوا يهتمون بالفكر بل بالعضلات ، ولا يقيمون وزنا للشعر والموسيقى والفلسفة ..

وكادت الحضارة اليونانية أن تموت لولا أن تولى نقلها الى العالم أمة جديدة ظهرت على قمة التاريخ ، وكانت تهتم بالفكر والكفاح معا ، تلك هى الأمة العربية ..

ان العرب فى عصور العباســيين هم الذين ترجموا أفلاطون وأرسطو الى العربية ، وهم الذين حافظوا على تراث الحضـــارة اليونانية ، وحموه من الاندثار ··

فى ذلك الوقت كانت أوروبا كلها قبائل متبربرة ، تعيش على ضفاف الأنهار ··

وحمل العرب شعلة الثقــافة بعد مصـــر القديمة واليونان القديمة ، وأنشأ الرشيد فى بغداد دار الحكمة التى جمعت كل تراث الثقافة اليونانية · وتولى المترجمون نقله والتعليق عليه ، وعين رجلا من خاصته « مديرا » للترجمة ·· وكان يقوم بالترجمة بعض النصارى من أصل يونانى مثل ابن البطريق وحنين بن اســحاق والحجاج بن مطر ومتى بن يونس وغيرهم ··

وعرف العرب أسماء فيثاغورس الفيلســوف واقليدس عالم الرياضة وجالينوس الطبيب وأفلاطون وسقراط وأرسطو ·

ونشأ جيل من الفلاسفة العرب الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية، ومنهم الفارابى وابن رشد وابن سينا ··

وحين أرادت أوروبا ــ فى عصر النهضة الذى بدأ فى أوائل القرن الخامس عشر ــ أن تعرف تراث اليونان عرفته عن طريق هؤلاء العرب ، فقرأت أرسطو بالعربية زمنا طويلا حتى استطاعت أن تترجم الأصل اليونانى القديم الى اللغات الأوروبية الحديثة ··

مع الاســتعمار ··

وتاريخ اليونان مع الاستعمار تاريخ طويل ··

لقد فقد اليونانيون استقلالهم ثمانية عشر قرنا متوالية ، من القرن الأول الميلادى الى القرن التاسع عشر الميلادى ·

كان المستعمرون الأول هم الرومان البرابرة الذين تأثروا باليونان بدلا من أن تتأثر اليونان بهم ، فقد دخلوا أرضا لها تقاليد وحضارة ، فاقتبسوا منها حضارتها حتى قال المؤرخون : لقد هزمت أثينا المهزومة روما المنتصرة » ٠

وبعد الرومان دخلها الأتراك العثمانيون ٠ وظلوا فيها حتى اجلتهم الثورة اليونانية التى أيدتهـا جميع دول أوروبا فى عام ١٨٣١ ، وقامت عندئذ أول حكومة مستقلة بعد سنين طويلة من الاحتلال الأجنبى ٠٠

ومن الجدير بالذكر أن مفكرى أوروبا وشعرائها كانوا من أكبر الدعاة للحركة الاستقلالية اليونانية ، وأن الشاعر الانجليزى الكبير اللورد بايرون اشـترك فى هذه الثورة ، ومات على أرض اليونان ٠

ومنذ ذلك التاريخ ، واليونان تعيش كدولة مستقلة من دول البلقان ٠٠

وقد اجتاحت قوات ايطاليا اليونان فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وأبدى اليونانيون شجاعة رائعة فى الدفاع عن بلادهم ، وبعد الحرب تعرضت اليونان لبعض الهزات الداخلية ، ثم مالبثت أن أستقرت فى داخل نطاق مصالحها مع دول البلقان ودول غرب أوروبا حتى الآن ٠٠

ضـيوفنا ٠٠

والجالية اليونانية فى اقليمنا الجنوبى هى أكبر الجـاليات الأجنبية اذ يبلغ تعدادها حوالى السبعين ألفا ، وهى تمتاز عن غيرها من الجاليات الأجنبية بمقدرتها على الاندماج فى المواطنين ، حتى انك لاتستطيع فى بعض الأحيان أن تفرق بينها وبين سكان البلاد الأصليين ٠٠

والزائر لليونان يفاجأ بأن اللغة العربية هى لغة التفاهم الثانية فى اليونان ، وأن أحداً لن يفهمه اذا حاول التحدث بالانجليزية أو بالفرنسية بينما يستطيع أن يقضى كل حاجاته اذا تكلم بالعربية ..

وذلك كله يشير الى عمق الصلة بين اليونان والجمهورية العربية المتحدة ، تلك الصلة التى لم تنقطع أبدا بين اليونان ومصر القديمة ، وبين الثقافة اليونانية والحضارة العربية طوال العصور الوسطى ..

واليونانيون حين استقبلوا الرئيس جمال عبد الناصر كان وراء هذا الاستقبال رصيد ضخم من المشاعر المتجاوبة .. والاحساس المشترك بالمحبة بين الشعبين .. يضاف الى ذلك كله الايمان بأن على الدول المحبة للسلام أن تبذل جهدها لتوثيق علاقاتها التجارية والاقتصادية والسياسية ، مادامت شعلة السلام والصداقة تضىء كل قلب ..

روزاليوسف ١٩٦٠/٦/١٣

١ + ١ = ٢

والحيـاد الايجـابى

كبير فلاسفة العالم وشيخهم ، برتراند راسل ابن الثمانين ، وجه الدعوة الى زعماء دول الحياد لكى ينقذوا السلام ٠٠

وراسل اسم مضىء فى عصرنا ، وتاريخه فى عداوة الحرب تاريخ طويل ، فقد سجن فى الحرب العالمية الأولى لمعارضته فى اعلانها ، وامتناعه عن التطوع بين صفوف القتلة والسفاكين وكان هو فى ذلك الوقت يحتل نفس المكان الذى يحتله الآن ، فيلسوفا مرموقا ، وأستاذا من أشهر أساتذة كمبريدج ٠٠

وقد بدأ راسل حياته الفكرية بالبعد عن الحياة والحرص على عدم الخوض فى مشاكلها ٠٠

وكان أهم ما يشغله أن واحد + واحد يساوى اثنين ، وهو القانون الأول فى علم الرياضة ، وكان يقول ان الرياضة بأرقامها التى لا تعبر عن شىء أكثر من أنها أرقام هى الشىء الوحيد الذى تثق فيه ، ونستطيع أن نقول انه حق ، والأرقام المعادلات جميلة أيضا فضلا عن أنها صادقة ، ولكن جمالها جمال بارد صارم كجمال التماثيل الحجرية ، لا تســتطيع ادراكه الا العقول الكبيرة وتتبع المعادلات الرياضية وحلها يلقيان فى نفسك الاحساس بانك أكثر من انسان ويبعدانك عن الشهوات البشرية ووقائع الحياة الحقيرة ٠٠

وفجأة قامت الحرب الأولى ٠٠

ورأى رسل الشبان وهم يرحلون فى قطارات نقل القوات العسكرية لكى يذبحوا على ضفاف انهار السين والسوم ، وشعر بالحنان المفجع نحو أولئك الشبان ، فبدت له آراؤه فى الرياضة تافهة ضحلة ، وأحس أن الفيلسوف الحق يجب أن يعيش على الأرض بدلا من أن يحلق فى السماء ٠

ورفض الحرب فى عام ١٩١٧ ، وظل حريصا على موقفه فى رفض الحرب حتى الآن ٠٠

وراسل يتزعم دائما مظاهرات الاحتجاج ضد القنبلة الذرية وضد التفرقة العنصرية فى شوارع لندن ويمشى بهامته البيضاء وظهره المقوس أمام الشباب الذين يدافعون عن حق الحياة والحرية ٠

وانتقال راسل من دور الفيلسوف المنعزل عن مشاكل العالم الى قيادة المظاهرات ، وارسال برقيات الاحتجاج هو أوضح دليل على أن الفيلسوف فى عالمنا الحديث لا يستطيع أن يكون محايدا حيادا سلبيا ، بل لابد أن يكون حياده حيادا ايجابيا ، حين يزن المواقف ، ويقارن بين الخير والشر ، ثم يختار الخير ، ويدافع عنه ٠

والفرق بين موقف الفيلسوف المنعزل ، وموقف الفيلسوف المتفاعل مع المجتمع ، هو نفسه الفرق بين موقف دولة مثل سويسرا ، تبتعد بنفسها عن مشاكل العالم ، وتحرص على أن لا تبدى رأيها فى أزمته ، وبين دولة مثل الجمهورية العربية أو الهند أو يوغوسلافيا ٠

ولذلك كان من البديهى أن تتجه دعوة رسل الى زعماء الحياد الايجابى ، لأن الحياد الايجابى موقف فكرى وفلسفى كما هو موقف سياسى ٠٠

روزاليوسف ١٩٦٠/٦/٢٦

النقطـة السـوداء

الحكمة البوذية القديمة تقول : مفاتيح الجنة هى نفسها التى تفتح أبواب الجحيم ..

والشباب بين الخامسة عشرة والعشرين يملك المفاتيح التى تفتح له أبواب الجنة كما يملك مفاتيح الجحيم ..

كلهم يحسون خلال فترة المراهقة ، بتلك الحيوية الجديدة التى بعثها النضج فى عروقهم ، وهم جميعا يحبون المغامرة والاثارة واستعراض القوة البدنية .. ولكنهم يختلفون بعد ذلك ، فبعضهم يمارس رياضة البدن المنظمة أو رياضة العقل الهادئة ، ليصبح بطلا رياضيا أو مفكرا ، وتستبد ببعضهم روح المغامرة والاثارة ، فيصبحون لصوصا وزعماء عصابات ، وقتلة وسفاحين .

والمنحرفون هم مشكلة هذه الأعوام فى أمريكا ، والمتصفح للعناوين الحمراء الضخمة ، ولاعلانات السينما الملتصقة على الجدران ، ولواجهات المكاتب لابد أن تفاجئه هذه الوفرة الهائلة من الكتابات والمقالات والدراسات عن انحراف الشباب فى أمريكا ، وقد يتساءل : هل هى مشكلة حقيقية ؟

هل جذورها عميقة وضحاياها كثيرون بحيث تستحق أن تحظى بهذا الاهتمام أم هى مجرد مشكلة فردية عابرة ، أضفت الصحف والمطبوعات حولها جوا مسرفا من الدعاية والتهويل .

وعندئذ يجب أن نعود الى الاحصاءات والاحصاءات باردة لا تبالغ ، صادقة لا تخدع أبدا ، وهى تشير بأصابعها كلها الى هذه المشكلة ، وتقول بلغة الأرقام انها مشكلة حقيقية عميقة ، لا فى أمريكا وحدها ، بل فى كل مجتمع صناعى متطور ، من الولايات المتحدة . الى بريطانيا وفرنسا الى ألمانيا الغربية ، وغيرها من بلاد أوروبا ٠

الاحصاءات حين تستطرد فى الحديث تقول ان عدد المنحرفين من الشباب يزداد كلما تقدم المجتمع صناعيا ٠٠

وهذا الكتاب الجرىء ، الذى أقدمه الآن ، يقدم هذه النصيحة فى اطار من التفكير الهادىء والحاسم معا ٠

المؤلف « فردريك ماير » أستاذ العلاقات الانسانية باحدى الجامعات الأمريكية ٠٠

وخلاصة الكتاب أن سبب انحراف الشباب ليس هو الفقر أو الحرب أو طلاق الأبوين أو ضعف الرعاية المنزلية ٠٠ فقط ٠٠ بل أن هناك سببا آخر يسبق هذه الأسباب كلها ، وهو أن المجتمعات الأوروبية والأمريكية قد تحولت بسرعة فى السنوات الخمسين الأخيرة من مجتمع زراعى ، تمتد فيه المراعى والحقول وتنتشر بين جنباته الهادئة تلك البيوت الريفية الرقيقة المليئة بالدفء ، الى مجتمع صناعى كبير ، تتركز حياته فى المدن الكبرى التى يعد سكانها بالملايين ٠٠

ولكن المجتمع الصناعى زلزل سيطرة الدين ، وقوض نفوذ الأب على الأسرة ، ودفع المرأة الى العمل ، وحين كسبت المرأة المال كسبت الى جانبه حق السهر وقضاء الليل خارج المنزل ، ومصاحبة الأصدقاء ، وانطلقت لا يحد انطلاقها شىء ٠

والمؤلف لا يقف فى وجه المجتمع الصناعى ، ولا يطالب كما طالب روسو وثورو بالعودة الى الريف ، ولكنه يقول : ان علينا أن نفكر مرتين مرة لعقولنا ٠٠ ومرة لقلوبنا وأرواحنا ٠٠

والنقطة السوداء فى قلب أى منحرف سواء أكان شابا أو فتاة، هى وضعه بين المجموع ، فالمنحرف يحس بأنه وحيد تائه ، وأن أمه وأباه ليسا الا علاقات اجتماعية مفروضة عليه ، وأن رجل البوليس عدو فى ثياب صفراء أو سوداء وأن المدرسة سجن ٠

ان كل شيء عنده بلا معنى ٠٠ الا نفسه ٠٠

وعندما يشتد هذا الشعور ، يتغذى من نزعة المغامرة والاثارة التى يحسها فى نفسه ، فاذا كان الشاب العادى يدرك قداسة الدين ويقدر سلطة القانون ، ويعرف احترام المدرسة ٠ فيحرص على أن يوفق بين هذه المعانى جميعها ، وبين نشاطه وحيويته المتدفقة ، فان المنحرف لا يرى فى كل هذه المعانى الا قيودا فى رقبته ومعصميه وقدميه ، ولا يحس الا بالرغبة فى تحديها ٠٠

والمجتمع الأمريكى ، مثل معظم المجتمعات الصناعية ملىء بالأساقفة والكرادلة ورجال الدين ، ومزدحم بالمدارس والجامعات والمنشآت العلمية ، ويتكون من أسر مختلفة شأن المجتمعات جميعا ، ولكنها كلها ٠٠ بلا تقاليد ، وهى كلها مجرد طلاء على وجه المجتمع، أما خلايا المجتمع الحية ، فمليئة بما ينمى تلك النقطة السوداء فى قلب أى شاب أو فتاة ٠٠

ماذا يقرأ الشباب ؟

وماذا يشاهدون ؟

ان فى أمريكا كتابا عظمـــاء مثل همنجواى وفوكنر وأوجين أونيل وغيرهم ولكنهم ليسوا كتابا مفضلين ٠

فالكاتب المفضل فى أمريكا ، الذى تبيع رواياته ملايين النسخ اسمه « مارك سبيلاين » وهو كاتب بوليسى ٠٠ تدور قصصه حول مغامرات وحش بشرى ذكى اسمه « مايك هامر » يقتل بلا رحمة ، ويتسلى بتحطيم عظام ضحاياه ، ويحيط به ســرب من الفاتنات المشغوفات بقلبه الحجرى ٠

ولكن هذا قد يكون كاتبا بوليسيا ، فمن هو أكثر كتاب أمريكا العاطفيين رواجا عند الشباب ؟

انه كاتب اسمه « جيمس كان » ·· وأشـــهر رواياته رواية عنوانها « ساعى البريد يطرق الباب مرتين » ··

وقصة ساعى البريد ·· قصة شاب صغير السن ، تبناه صاحب مقهى ·· وأسكنه فى بيته ، ومد له جناح رعايته وصداقته وعطفه ، ويشتهى الشاب زوجة صاحب المقهى ويقتل الزوج ·· والزوجة والشاب المتبنى كلاهما لا يحســـان بأى قيد من دين أو قانون أو مجتمع ·

وفى نفس الخطوط يدور الفيلم الأمريكى وتلمع شـــــاشة التليفزيون · ومؤلف الكتاب يحكى قصة صغيرة ·

دخلت عليه فى عيادته للأحداث ، فتاة فى السادسة عشرة من عمرها ، تحمل مولودها الحرام ·· كان أبوها رجلا ثريا وأمها امرأة فاضلة وكانت طالبة فى مدرسة خاصة راقية ، وحار المؤلف فى سبب اغرائها وبخاصة أنها لم تكن تعرف من هو أبو الطفل ·

وتحدثت الفتاة ، قالت أن أبويها لا يشعران بها، فكل منهما يعيش فى عالمه ، ومدرسوها ينظرون اليها على أنها طفلة لا تستحق الاهتمام ، وحين أحست بالوحدة حاولت أن تنشىء علاقات مع الشبان ، فهى لا تهرب من وحدتها الا اذا نامت مع رجل ·· أى رجل !

ومثل هؤلاء الشباب الأعلى هو جيمس دين ، سواء فى حياته الخاصة أو أدواره على الشاشة ··

كان جيمس دين رمزا للوحدة ، وممثلا للشباب الذى لا يعنيه شىء ، ولا يحس بأمه أو أبيه ، ولا يخشى ســـطوة القانون ولا يحترمها ، ولا يفكر كثيرا فى الله ·

والطريق الى اصلاح الشباب يجب أن يبدأ من النقطة التالية :

كيف تقنع الشباب بألا يهز كتفه للمجتمع ·· كيف نجعله يؤمن بشيء ما ·· أى شيء ··

والمجتمع الزراعى لديه دائما مايؤمن به ··

وحياة أمريكا كمجتمع زراعى ، ثم كمجتمع نصف صناعى ، ثم كمجتمع صناعى كامل ، تبرز لنا حاجة الانسان الى الايمان ··

بدأ المجتمع الأمريكى كما يبدأ أى مجتمع ·· خاضعا لسيطرة الدين ، وفى أمريكا كانت هذه البداية أوضح ، لأن المهاجرين الأوائل كانوا من سلالة المتطهرين الذين هربوا بدينهم من طغيان الملك ·

وبلغت أمريكا أوج المجتمع الزراعى فى أواسط القرن التاسع عشر حين كانت كاليفورنيا أكبر مزرعة للقطن فى العالم ، ثم مالبثت أن التفتت الى الصناعة ، ولكن تقاليد « المتطهرين » كانت مازالت تعيش ·

كان الناس يؤمنون بأن العالم مشمول برعاية آله قوى عادل رحيم ، وحكام بررة هم ظل الله على الأرض ، وآباء طيبين هم ظل الله فى الأسرة ··

وكانت المرأة فى نظر المجتمع ، مخلوقا رقيقا جميلا هشا تجب رعايته وحمايته ومهمتها هى الاشراف على المنزل وتربية الأطفال ··

وكان الرجل تستبد به المفاجأة اذا وجد امرأة تملك بعض العقل · وكانت مفاجآته أقسى اذا رأى فيها المقدرة على استعماله أو الرغبة فى اظهار هذه المقدرة ·

وكان الأبناء يحسون برعاية الأب والأم ·

وكانت الفتاة لا تعرف السهر غير ليلة الأحد ، وفى الحفلات المنزلية ·

وكانت غاية الناس من حياتهم ، هى قضاؤها فى هدوء ..

وحين دخلت الصـــناعة المجتمع دخل معبودان جديدان فى معبد التقاليد ، وهما العمل والثراء ، وأصبح الذهب الها جديدا . ولو جاء سقراط بعلمه وفلسفته الى أمريكا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لظنه الناس رجلا فاشلا ومتسولا ، لأنه لا يتقن شيئا الا التفكير ، ولايصيح صيحة البحث عن الذهب ..

انه العصر الذى عبر عن فلسفته « ديل كارنيجى » فى كتبه « فكر واكسب » و « كيف تربح ألوف الجنيهات » وغيرها ..

ونشأ مجتمع الرفاهية ، وأصبحت غاية الناس من حياتهم هى قضاؤها فى لذة !

واختفى الدين أو توارى وراء المعبودين الجديدين شيئا فشيئا، ولكن اللذة لا تصلح هدفا ، انها نشوة سريعة يعقبها فراغ .

والايمان باللذة لا يستطيع أن يجعل من الحياة الا انتهازية وسخرية ..

وكان كاتب عصر اللذة هو « سكوت فيتزجرالد » الذى عرضت السينما فيلم « معبودى الخائن » عن حياته ونهايتها الفاجعة ..

كانت روايات فيتزجيرالد تعبيرا عن مجتمع الارســـتقراطية الجديدة ..

كان « سكوت فيتزجيرالد » هو كاتب مجتمع اللذة السعيد ..

وكما مات الكاتب بالسكتة القلبية مات هذا المجتمع ..

أصبحت فرصتك فى أن تصبح مليونيرا أقل ، وان كانت الفرصة مازالت أمامك لكى تصبح موظفا فى مؤسسة أو عاملا فى مصنع .

وخرجت الفتاة الى العمل ، وأصبح الشاب مطالبا بأن يعمل وهو فى السابعة عشرة ، لكى تستطيع الأسرة أن تدفع قسط الثلاجة والعربة والسخان .. البقية الباقية من مجتمع اللذة ..

وبنيت ناطحات السحاب ، وأقبل الناس على سكنى الشقق الضيقة المعتمة .

وفتش الناس عن الدين فلم يجدوه وعن سلطان الأب فاذا به قد انهار تحت أعباء العمل ، ورأى الشباب أنفسهم أحرارا لأنهم يعملون ويكسبون ..

ولكن المجتمع الجديد كان بلا تقاليد .. بلا شعار يجمعه . وفكر بعض الناس فى اطلاق شعارات وهمية ، مثل « الأسلوب الأمريكى فى الحياة » أو « الديمقراطية الأمريكية » أو غيرها، ولكنها لم تستطع أن تصل الى القلوب ..

ان الشعار الجديد ينبغى أن يكون فى قوة الدين أو الاحساس بالأسرة ..

وأصبحت مشكلة تواجهها أمريكا واجهة العالم الصناعية .. ويواجهها كل مجتمع صناعى بعدها ..

والمجتمع الناضج هو ذلك الذى يسبق المشكلة الى التفكير فيها .. هو الذى يستطيع أن يضع فى قلب الأجيال الجديدة ايمانا جديدا ..

وعند هذا المجتمع كل الأدوات .. المدرسة والكتاب والراديو والتليفزيون والمجلة ..

ولابد أن تؤدى هذه الأدوات دورها ، والا أصبحت روح المغامرة والاثارة فى نفوس المراهقين صخبا وعنفا وغشا وكذبا واغتصابا .. وتحول واحد من كل عشرة الى سفاح محترف ..

روزاليوسف ١٩٦٠/٦/٢٧

رحلة على الورق

ماذا تريد أن تكون ؟

كنا مجموعة من الأصدقاء ، والقى أحدنا سؤالا وجهه الى كل منا .. ماذا تريد أن تكون من الشخصيات الأدبية الخالدة ؟

هل تريد أن تكون دون كيشوت ، الرجل النحيل ، الذى يركب حصانه ، ويأخذ سيفه ، ليحارب فى سبيل أعادة تقاليد الفروسية النبيلة ، ويسعى لتغيير وجه العصر ، من عصر يمتلىء بصغار التجار ذوى الأخلاق الصغيرة ، الى عصر ملىء بالبطولة والشهامة ..

أم هل تريد أن تكون هملت ، الأمير الحزين ، الذى قتل المغتصب اباه الملك ، وتزوج أمه قبل أن يجف دم القتيل ، والذى يقف عاجزا عن الانتقام من القاتل ، لأن قلبه ملىء بالحب ، وارادته مريضة بالتردد ، لأنه لا يريدأن يزاحم الله فى وضع النهاية لحياة الناس ، وعندما ينوء بحمله الثقيل ، تهتز نفسه كبندول الساعة ، ثم يهرب الى الجنون ..

انه يمثل صراع الانسان المهذب المتحضر ضد قوانين الوحشية البشرية ..

أم هل تريد أن تكون ايفان كارامازوف ، بطل ، أو أحد أبطال قصة دستويفسكى الخالدة « الأخوة كارامازوف » الذى قرأ كثيرا ، وتأمل كثيرا ، ملأ قلبه الشك فى كل المقدسات ، وأيقن بعقله أن

الله غير موجود ، ولكن وجدانه مازال ملقى على أعتاب الكنيسة ٠ وقال لنفســــه : اذا لم يكن الله موجود ، فكل شىء اذن مباح ٠٠ وحين قتل أخوه غير الشرعى ، سميرديا كوف ، الأب الفاجر كارامازوف ارتاع وارتعد ضميره ، لأنه أدرك أنه مسئول بأفكاره عن الجريمة الفعلية ٠٠

انهم جميعا ـ نفسيات واسعة رحيبة كالبحر ، يمثلون العصر الذى عاشوه كله ، ومع ذلك فهم ـ رغم أن عقول سرفانتس وشكسبير ودستويفسكى هى التى خلقتهم من العدم ـ أكثر صـــدقا وواقعية وحياة من ملايين البشر الذين يعيشون على الأرض ويشغلون حيزا ملموسا ٠٠

أما أنا ٠٠ فقد اخترت شخصية « سانتياجو » الصياد العجوز فى قصة همنجواى « العجوز والبحر » ٠

وسانتياجو صياد مسكين ، فى السبعين من عمره لم يشغل نفسه كثيرا بالثقافة والمعرفة ، ان كل همه هو أن يصيد سمكة كبيرة ليبيعها ، وقد خرج الى البحر أربعة وثمانين يوما متوالية ، وفى كل مرة يعود خائبا كسير النفس ٠٠ انه يفشل فى كل مرة ، ولكنه لاييأس ، لأنه يعرف أن من السهل جدا أن تحطم الرجل ، ولكن من الصعب أن تهزمه ٠٠

وفى اليوم الخامس والثمانين ينطلق سانتياجو الى البحر . ويصطاد سمكة ضـــخمة بعد أرق ليلتين ، وفى أثناء عودته تلتهم أسماك القرش الدنيئة سمكته الضخمة ٠٠

ويعود ســـانتياجو خائبا ، ويخلع ثيابه لينام ،ثم يقوم فى الصباح لينطلق فى عرض البحر ٠٠ انطلاقه الذى لا نهاية له ٠

آه ٠٠ ياسانتياجو الشجاع ٠٠ الشجاع الحقيقى ، الذى لا يشقشق بالكلمات ، والذى تأكل أسماك القرش الدنيئة حياته .

والذى لا يتحطم ولا يحنى رأسه ، والذى لم يقرأ فى حياته الا أخبار مباريات البيسبول فى الصحف القديمة

ياسانتياجو الشجاع ·· يا اشجع من القائد ، وأكثر حكمة من الفيلسوف ، وأطيب قلبا من القديس ··

لكم أحبك ، وأحب خالقك العظيم همنجواى ·· قصـــاص الشجاعة فى عصرنا ، قصاص مصارعة الثيران ، والحروب العادلة وموت الأبطال فى ظهرة النهار ··

روزاليوسف ١٩٦٠/١١/١٤

أخلاقك فى المجتمع الجديد

منذ سنوات · كان رجال الدين يتناقشون هل لمس يد المرأة حرام أم حلال ··

والآن · وفى بعض الأوساط ، تصـــاب السيدة بالذعر اذا صافحتها دون أن تقبل هذه اليد ··

وقديما كان اكرام الضيف أن تذبح له ناقة ، وان تشعل النار امام بيتك · ويظل دخان النار يتسرب خلال شعر ذقنك حتى تنضج الذبيحة ، ويأكل الضيف وينام ·· وتستمر الضيافة ثلاثة ايام ، أو سبعة · أو عمرا طويلا ·

والآن ، نكتفى لكي نبرد أشواقنا ونظهر فرحتنا بالصديق العائد، بهزة اليد ، والابتسامة الواسعة ، وكلمة خلينا نشوفك ، التى نعلقها عادة على الظروف الطيبة ··

ومعظم جدودنا تزوجوا قبل أن ينبت شعر شواربهم ولعبوا مع العروسة « النطة » بعد خروج المأذون واكتشـــف الطفلان اللذان أصبحا زوجا وزوجة · أسرار لعبة الجنس الكبرى معا لأول مرة ·· ونحن ، أحفادهم لا نتزوج أبدا حبنا الأول ، وفى حياة كل رجل منا فترة عزوبية طويلة قد تكون ممتلئة أو فارغة ··

والمرأة العاملة الآن ، حين تخرج الى المجتمع ، وتكسب القرش، تفرح به مثل فرح الطفل بلعبته الجديدة ، لأن هذا القرش هو رمز استقلالها ، وتعيش مع هذا القرش أجمل سـنوات عمرها ، بين العشرين والثلاثين ، وهذا المكسب المادى يشعرها باستقلالها المعنوى .. تحب هي الأخرى وتخوض المغامرة الى منتهاها ، أحيانا فى الوهم .. وأحيانا الحقيقة ..

وكثير من الرجـال يجدون أن الرذيلة أرخص من الزواج ، وخاصة وقد زال عندهم ذلك الدافع التقليدى الذى كان يجعل أجدادهم حريصين على الزواج وهو انجاب الأطفال وكثرة عددهم ، لكى يحموه عند اللزوم . ويفاخر بهم أهل بلده ويصبحوا مصدر قوة لأسرته ، وليسـاعدوه فى زراعة الأرض وسقى الماشـية وارواء الحقل ..

وفى الجانب الآخر ، تلجأ كثيرات من النساء الى منع الحمل ، بعد أن كانت العاقر تبحث عن الأولاد من أى طـريق ، وتطوف بالأولياء والصالحين وتعلق التمائم والتعاويذ ، بل لقد كان أجدادنا القدماء في جزر المحيط الهادى يذبحون المرأة العاقر . ويأكلون لحمها . لأن لحمها فى نظـرهم هو الفائدة الوحيـدة التى يمكن الحصول عليها ..

وعدد العوانس يزداد ، ومستوى سن العانس يرتفع ، فاذا كانت العانس من خمسين سنة هي من تخطى سنها العشرين ولم تتزوج ، ومن أربعين سنة من تخطى سنها الخامسة والعشرين ، فاننا نتحرج الآن أن تطلق على فتاة فى الثلاثين من عمرها كلمة « عانس » لأن معظم الزيجات الآن تدور حول هذه السن ..

وقد تغير ايقاع الحياة كلها ، من الهدوء الرتيب كأنغام تقاسيم العود ، الى ضجيج متداخل سريع كأنغام الأوركسترا ..

والضجة تلد الحيرة ، وكثير من الناس يدقون الآن كفا بكف ويؤكدون لك أننا نعيش فى آخر زمن ، وحتى أولئك الذين عاشوا فى

المدينة ، وارتدوا البدل والأحذية الملونة ، ولفوا أعناقهم بالربطات الأنيقة ، حتى هؤلاء ، كثيرا ما يتوقفون عن الاندفاع مع التيار · وتستيقظ فى عروقهم نبضة التقاليد القديمة ، وتســـتعبدهم عقون أجدادهم ، ويهمسون لك فى لهجة واثقة حين تصدمهم مشاهد الحياة الجديدة ، بأن الأزمة ·· أزمة أخلاق ··

ليس منا من لم يسمع هذه الكلمة المأثورة أكثر من مرة ، ومن لم يقلها أكثر من مرة كأنها احدى شعارات الزمن الذى نعيش فيه · وهى كلمة حائرة ، وذات دلالة عميقة ، لأن الحكم على أخلاق المجتمع معناه الحكم عليه بأنه مجتمع خير أو مجتمع شرير ، والحكم بأن هناك أزمة معناه أن الاخلاق غير موجودة أصلا حتى يحكم عليها بالخير أو بالشر أو أن المجتمع لايعرف له قانونا خلقيا حتى يعرف أين الخير وأين الشر ·

فهل مجتمعنا يعانى حقا من أزمة الأخلاق ؟

ســـــر الأزمة

قال أحد الفلاسفة القدماء :

اذا جمعت فى كومة كل التقاليد التى تعد فى عصر من العصور أخلاقية ثم نزعت منها جميع التقاليد التى تعد فى عصر آخر لا أخلاقية ، فلن يبقى فى الكومة شىء ·

هذه الكلمات القديمة هى مفتاح فهم أزمة الأخلاق فى عصرنا ·· اننا نعيش على الحافة بين زمنين ، أحدهما ميت لم يبق الا ان يوارى التراب والآخر أطل برأسه ، ولكنه لم يرفع قامته ، ويثبت وجوده بعد ··

أننا نعيش فترة تحول حياتنا من مجتمع زراعى الى مجتمع صناعى ، وليس هذا التحول تحولا بسيطا أو سطحيا ، بل لعله أعمق تحول يقدر مجتمع من المجتمعات أن يجربه ، ولم يسبقه الا تحول آخر ، فى مدى عمقه ، وشمول التغيير الذى يلحقه بالمجتمع ، ذلك

هو التحول من مجتمع الصـــيد الى المجتمع الزراعى منذ حوالى خمسة آلاف سنة وفجأة بعد خمسة آلاف سنة ، غلى الماء فى أنبوبة أحد العلماء ، ودفع البخار غطاء الأنبوبة حتى اصطدم بســقف الحجرة ، وولدت فى تلك اللحظة قوة جديدة قلبت وجه المجتمع ، وهى قوة الآلة ..

وأخلاق أى مجتمع من المجتمعات ، ليست فى الواقع الا خلاصة تقاليده وأسلوبه فى الحياة ، فحين يصبح الكرم تقليدا من تقاليد المجتمع ، يصبح فى نفس الوقت قانونا خلقيا من قوانينه ويصبح أكرم الرجال فى القرية وأكثرهم احسانا وعطاء هو المثل الأعلى لأخلاق القرية ..

والتقاليد من ناحية أخرى تنشأ لأن المجتمع يجد فيها وسيلة لتسهيل علاقة أفراده بعضهم بالبعض ..

فالناس كما يقول شوبنهور مثل مجموعة من القنافذ ، كل منها يوجه شوكته نحو الآخر ، وغمد أخيه هو اتباع التقاليد ..

واذا اختلفت أساليب الحياة فى مجتمع من المجتمعات اختلفت تقاليده ، وأصبح معظمها غير ذى موضوع أو متخلفا متأخرا عن تفكير الناس وعقلياتهم ومعظم هذه التقاليد فى الواقع لا تطاع ولا تراعى مجرد اعجاب الناس بها ، ولكن لمنفعتها الشخصية العاجلة فى كثير من الأحيان .

ولنضرب مثلا ..

كان العرب القدماء يفتخرون بالكرم باطعام الضيفان ، وكان حاتم الطائى يشعل النار فى قمة الجبل لكى يهتدى بها السائر فى الصحراء ، وكان الكرم والفضيلة الأولى عند العربى .

لماذا ؟

تخيل أنت قافلة تضرب فى الليل برد الصـــحراء القارس . وليس معها طعام أو ماء أو زاد ، وفى بلاد لا تعرف قيود ولا تتعامل

بالعملة الذهبية أو الفضية ·· ان عدم اطعام هذه القافلة هو القضاء عليها بالموت جوعا ··

العرب كلهم بدو رحل ، وكلهم يعرفون ظلام الليل على ظهر ابلهم ، فاذا أقفل احدهم باب خيمته ، ثم تبعه ذلك الجميع ، لكان معنى ذلك أن لا تسير عجلة الحياة فى المجتمع ، وأن يهلك العالم كله من الجوع ··

فالأخلاق والتقاليد اذن نفعيه بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة ومهمتها هى « تثبيت » المجتمع ومساعدته على الحياة وحمايته من القضاء عليه بالموت ·

لذلك ، فانه من الواجب قبل أن نبحث أخلاقنا أن نعرف فى أى مجتمع نعيش ونعرف ذلك معرفة واعية يقينية ، ونجعل من أخلاقنا طريقا لمساعدة مجتمعنا على الحياة والتطور ، والتقدم بآفاق جديدة ·

فى أى مجتمع نعيش

هل هنا ، فى البلاد العربية وخاصة فى الجمهورية العربية المتحدة نعيش فى مجتمع زراعى ، وفى نفس الوقت نخطو الخطوات الأولى نحو المجتمع الصناعى الذى هو غايتنا وأملنا فى المستقبل ·

واذا كانت قلوبنا المتشبثة بالماضى ، وبتقاليد الأجداد ، تحن الى تراثنا الزراعى القديم فى الأخلاق والعادات ، وتترحم على كرم أيام زمان ، وفضيلة أيام زمان ، وشجاعة أيام زمان ، والى الحجاب والخبرة والى التعامل بكلمة الشرف دون ورقة أو كمبيالة والى طاعة الزوجة التامة لزوجها ، وغير ذلك من تقاليد المجتمعات الزراعية ، فأن عقولنا المطلعة للمستقبل يجب أن تفكر فى بناء تقاليد جديدة لمجتمعنا الصناعى الجديد ، تقاليد شريفة وأخلاقية ، ولكنها واسعة الأفق ، تقاليد تعمل على « تزييت » المجتمع لا تجميده ·

اننا نعيش فى نفس الفترة التى مرت بها أوروبا منذ مائة سنة، وحينئذ لم يكن أمام أوروبا مثال مرسوم أو خطوات سبقتها فى نفس الميدان لتستفيد من تجربتها ، أما نحن فأمامنا عشرات الأمثلة على التطور الصناعى الذى ينعكس على أخلاق المجتمع . ومن الواجب علينا أن نتوقف عند هذه الأمثلة ، ونحاول أن نستفيد منها ، بالقدر الذى يجعـــل خطواتنـــا واســـعة وســـليمة ، وبأقل مقدار من الخســـائر .

ان تفكك الأســـرة فى أمريكا ، وازدهار البغاء فى ايطاليا وفرنسا ، والحرية الجنسية فى السويد، وغيرها من ظواهر الانحراف انما هى من انتاج هذا المجتمع الصناعى بلاشك ، فالأسرة القروية الريفية مثلا تحتفظ بتماســـكها الى أقصى حد ، ومن يطالع الأدب الأمريكى فى أوائل القرن الماضى ، يلمس صورة هذا البيت الدافىء الحميم فى وسط المزرعة ، الذى يسكنه الأب والأم وأولادهما ، ويقوم على دعائم الدين ، ولاينسى الأب قبل الجلوس على مائدة العشاء أن يقبل الصليب ويطلب من أبنائه الصلاة ، وشكر الله على أن أعطاهم خبزهم الكفاف ..

والآن تغيرت الصورة تماما ، أصبح البيت مجرد حجرة أو حجرتين فى عمارة ضخمة سيئة التهوية ، وأصبح الأب كثير الصخب والتضرر ، وعلقت صورة المسيح فى ركن مظلم ، وجفت الصلاة على لسان الابناء ، بل انهم ليهجرون البيت متى بلغ سنهم السادسة عشرة أو السابعة عشرة ، وينطلق كل منهم فى طريقه كما يحلو له .

هل المجتمع الصناعى اذن مجتمع لا أخلاقى ؟

ان التطور الى الصناعة تطور محتوم على الانسانية كلها ، وهو تطور لخير الانسانية ، ولكن هذا المجتمع الصناعى يدفع بتقاليده الجديدة فى عنف ، وقد كان تقدم العلم والتكتيك الآلى سريعا بحيث أن المجتمع لم تتح له الفرصة لكى يلائم دائما بين نفسه وبين التطور العلمى فيه ، وبالتالى ..

لم يستطع أن يلائم بين نفسه وبين ما يفرضه التقدم العلمي من تقاليد جديدة ..

ولكن التفكير الهادىء ، وعدم العداء للقديم ، وعدم التحيز التام للجديد أو العكس ، هى العناصر التى تتيح للانسان أن ينتقل من الأخلاق الجديدة دون هزة ، التى تجعله لا يضرب كفا بكف قائلا : ان الأزمة أزمة أخلاق ..

الرجـــل والمـــرأة

وأول ملامح المجتمع الصناعى هو حرية المرأة ، وفى انجلترا مثلا كانت الدعوة لتحرير المرأة مصاحبة لانتشار المصانع .

ومن الجدير بالذكر أن أول قانون صـــدر لصالح المرأة فى انجلترا عام ١٨٨٢ ، وكان ينص على حق المرأة فى التمتع بمالها الخاص والتصرف فيه ، كان أول الداعين له ، والمؤيدين لاصداره فى البرلمان الانجليزى هم أصحاب مصانع النسيج . وبديهى أن أصحاب مصانع النسيج لم يكونوا يفكرون عندئذ فى حرية المرأة بشــكل حماسى تجريدى ، ولكنهم كانوا يعرفون أن المرأة العاملة أجرها أرخص من أجر الرجل : وأن الطريق المضمون هو اتاحة الفرصة لها ، لكى تتمتع بثمار كسبها الخاص ..

ويقول بعض علماء الاجتماع أن تصنيع المرأة هو أكبر انقلاب ثورى فى تاريخ المجتمع ، فبعد أن عاش المجتمع عشرة آلاف سنة ، والرجل هو العنصر الفعال فيه ، والمرأة ملتصقة بالبيت ، اذ بها تخرج الى الحياة العامة فى خلال جيل أو جيلين من الزمان ، ويكون لخروجها من الآثار الاجتماعية البعيدة المدى ما يغير وجه الحياة كلها ..

وقد يقول قائل ان المرأة كانت تساعد زوجها فى الحقل طوال هذه السنين العشرة آلاف ، وان خروجها للعمل ليس أمرا جديدا

عليها • وهذا قياس غير صحيح ، لأن عمل المرأة فى الحقل كان كتابعة للرجل ، ليس لها وجود مستقل عن وجوده ، وعملها جزء من عمله •

اما الآن فان المرأة تعمل لحسابها الخاص وقد يكون عملها مغايرا لعمل زوجها تماما وقد تتفوق عليه فى كثرة الدخل ، أو اجادة العمل ، أو المكانة والشهرة الاجتماعية •

ومن الواضح أن أهون أنواع التغيير الذى لحق بالمرأة « المصنعة » •• هو التغيير فى هيئتها وشكلها • فقد خلعت الحجاب. واستغنت عن الأثواب المعقدة الطويلة المضايقة ، ولبست البنطلون فى بعض الأحيان ، كما أن جسمها قد زالت منه هذه البدانة المسترخية التى تميز نساء القرون الوسطى ، والتى شوهدت نماذج منها لوحات الرسام روبنز ، وفى الغزل العربى فى العصر العباسى والمملوكى حين كان الشاعر يقول ان محبوبته تدخل من الباب اليوم . وتدخل أردافها غدا •

هذا هو أهون أنواع التغيير ، ولكن التغيير الحقيقى كان فى الروح •• فى الخلق •• فى التقاليد ••

اننا – فى مجتمعنا العربى – لا نعترف مثلا بنظام الزواج الحر ، الذى تعترف به بعض الشعوب الشمالية ، ولا نحترم «المرأة غير المتزوجة » أو الفتاة التى تمارس حياة النساء دون زواج •• ولكننا قد بدأنا نتساهل فى صداقة الرجل والمرأة ، وفى خروج المرأة وحدها أو مع أصدقائها للنزهة أو لقضاء العطلة • وفى اشتغال المرأة بالتمثيل او عرض الأزياء أو غيرها من الأعمال التى تظهر مفاتنها للرجال ••

كما أن الرجل أصبح فى كثير من الأحيان حريصا على أن يتزوج امرأة عاملة تكسب كما يكسب • وتعيش الحياة كما يعيش ، والمرأة العاملة نفسها اصبحت اكثر احتراما لنفسها من جدتها

العاطلة عن العمل ، وهى التى تشترط شروطها فى زواج المستقبل ، وكأنها تحس أن مكانتها الاجتماعية قد ارتفعت بفضل عملها ..

ولكن هذا الموقف الذى تقفه المرأة العاملة . والذى يقفه الرجل بازائها ليس موقفا صلبا ، انه موقف متأرجح مثل فترة الانتقال التى نمر بها فالرجل الذى يضع مرتب زوجته على مرتبه فى البيت وينفق منه ، يحمر وجهه خجلا اذا حاولت زوجته أن تدفع حسابه فى مقهى أو مطعم وبعض النساء اللاتى أحسسن بالحرية أخطأن فى تطبيقها ، وفهمن حرية المرأة على أنها حرية الجسد ..

حقا أن مفهوم العفة القديم مفهوم زراعى صرف ، ففى عصر الصيد ، قبل عصر الزراعة كان الرجل لا يهتم بالبكارة ، لأن المرأة كانت تخطف ، فلما تحول الخطف الى شراء وامتلاك يرضى الأبوين فى المجتمع الزراعى حرص الرجل على أن تكون المرأة التى يشتريها بكرا ، بل وجعل نفسه قيما على عفتها طوال حياتهما الزوجية .. وقد كان بعض الرجال فى أوروبا يلبسون زوجاتهم حزام العفة المعروف اذا خرجوا فى رحلة أو سفر ، حتى يضمنوا نقاءها حين يعودون ..

ان هذا المفهوم القديم ينبع من اعتبار المرأة ملكا للرجل ومادامت المرأة قد تمردت على مملكة الرجل ، وأحست بحريتها ، فان عليها أن تضع هى حول نفسها حزام عفتها المعنوى ، وأن تحتفظ وهى فتاة ببكارتها المعنوية ، فلا تتدنى الى مستوى الغريزة الفجة . أو النزوة العابرة ، بل تكون علاقتها مع الرجل قائمة على احترام الجسد وتقديره ، لأن هذا الجسد نفسه هو الذى يعمل ويكد فى المصنع أو المتجر . وهو الذى يبنى لها حياتها الجديدة ..

ان المرأة « المصنعة » الجديدة فى حاجة الى التفريق بين الحب والجنس ، ولا أقصد بالحب هنا ، الحب الرومانتيكى الذليل الذى يتضور فيه المحبون جوعا الى الجسد ، ولكنهم يعاقبون أنفسهم بانكار هذا الجوع ، فذلك الحب كما يقول عنه نيتشه من مبتكرات شعراء الاقاليم .. ولكنى أقصد الحب الاجتماعى ، الذى يعتبر

الاتصال الجنسى سبيلا الى تجديد الحياة ، وحفظ النوع ، والتقدم بالانسان ..

وأخوف ما يخافه الاجتماعيون هو أن تسقط التقاليد القديمة . ولا تقوم تقاليد جـــديدة لتحـــل محلها ، ولعل هذا هو ما عناه ديستويفسكى حين قال « اذا لم يكن الله موجودا فكل شىء مباح » ، ونستطيع أن نضيف الى كلمة « الله » كلمتى التقاليد والأخلاق دون أن نغير من معنى عبارة ديستويفسكى ..

الرجــــل مـــع الرجــــل

والميدان الثانى الذى تبرز فيه قيمة الأخلاق بعد ميدان العلاقة بين الرجل والمرأة ، هو ميدان العـــلاقة بين الرجل والرجل ، أو الرجل .. فى المجتمع ..

ان المجتمع الزراعى يقوم على العصبية العائلية ، سواء فى معناها الضيق حين تنحصر فى الأسرة المكونة من أب وأم وأولادهما أو فى معناها الواسع حين تضم الأسرة الكبيرة أو القبيلة أو القرية بأكملها ..

والمساعدة للغير والاحسان والنجدة والشجاعة كلها فضائل خالدة ، ولكن مفهومها عندنا مازال مفهوماً قروياً ..

ان الفلاح عندنا يقتل من أجل كوز ذرة اقتلع من حقله ، أو رجل غريب داس على طرف أحد أقربائه . ولكنه قد يجبن اذا حاولت أن توجه شجاعته نحو قضية عامة ، تخص الوطن بأسره .

والثرى الريفى قد يتصدق ببعض ماله على فقراء عائلته ، أو يفتح دوار منزله لأهل قريته ، ولكنه لا يفكر فى التبرع لبناء مستشفى أو افتتاح جامعة ..

وقد اهتز هذا المفهوم القبلى القروى كثيرا اثر اتجاهنا نحو المجتمع الصناعى وكثيرا ما تسمع المعمرين من أهل زمان يترحمون على الكرام والشجعان الذين عاصروهم ..

وفى نفس الوقت لم تولد تقاليد جديدة للفضائل القديمة الخالدة ..

ومن المهم جدا أن نوجه هذه الفضائل الخالدة وجهتها الجديدة فى المجتمع الصناعى ، ولما كان المجتمع الصناعى لا يقوم على النزعة القبلية أو العائلية بل يقوم على النزعة الوطنية والقومية فان هذه النزعة الجديدة يجب أن تحاط بالتقاليد الجديدة .

ان كلمة « الوطن » بمعناها الحالى الآن ، لم تؤكد الا حين نشأت الطبقة المتوسطة ومفهومها الذى ولد فى المجتمع الصناعى .. حين نشأت المدن والتجمعات الكبرى ، وتفككت عرى الولاء للقرية والقبيلة ، وذاب الأفراد فى وحدة أكبر هى سكان البلاد بأسرها ، وعندئذ تحولت كلمة وطن من معناها الأصلى .. البيت .. مجرد البيت الذى يقيم فيه الانسان ، الى معناها الحديث الذى نعرفه جميعا ..

وكلمة « مواطن » بمعنى ساكن الوطن كانت من مستحدثات الثورة الفرنسية وعندنا ، فى اقليم مصر ، لم تعرف الكلمتان بمعناهما الحديث الا فى كتابات رفاعة الطهطاوى فى منتصف القرن الماضى وكان عندئذ قد استعارها من لغته الفرنسية التى تعلمها فى باريس أما فى الأدب العربى القديم كله . فهذه الكلمة « مواطن » تستعمل دائما بمعنى بيت الأسرة أو مساكن القبيلة .

وينبغى أن لا يغيب عن أذهاننا أيضا أن القوميات كلها لم تتماسك الا فى ظل المجتمع الصناعى وتحت رايته ..

ومن هنا يتضح أن الفضائل العائلية القديمة .. مثل الشجاعة ، والاحساس والتعاطف البشرى ، يجب فى ظل هذا المجتمع أن توجه الى معنى كبير .. الى الوطن كله ..

وهنا يكون العلاج لما نلمسه الآن ، حين يقول أحدهم اذا دعوته للاشتراك فى قضية عامة « وأنا مالى » ونجد العلاج أيضا لكثير من أمراضنا الاجتماعية كالانانية والرشوة ، والاختلاس من أموال الحكومة واللامبالاة فى القضايا العامة ٠

وهنا فقط ، نضمن الا نسمع قائلا يقول ، وهو يضرب كفا بكف ٠٠

ان الأزمة ٠٠ أزمة أخلاق ٠٠

روزاليوسف ١٩٦١/٦/١٩

المسافر الى الله

ان صداقة الزائر العظيم ، ارنولد توينبى(*) ، لبلادنا وتاريخنا ، التى هى نفس الوقت صداقة للحق والخير والضمير .. هذه الصداقة ليست جديدة ..

فتوينبى لم يقف فى العام الماضى فقط ، ليعلن أن اليهود ليسوا أصحاب حق فى فلسطين ، وليندد بمذابح « قبية » و « دير ياسين » ، بل لقد قال هذا القول الناصع ، منذ ست سنوات ، على وجه التحديد .

وعمر أرنولد توينبى الآن اثنان وثمانون عاما ، وعمره العلمى خمسون عاما على الأقل ، وهو لم يتأخر بحديثه عن مشكلة اليهود والعرب فى فلسطين حتى عام ١٩٥٥ حتى يتبين له وجه الحق ، ولكنه تحدث عنها فى تلك السنة لأنه كان قد وصل فى كتابته لتاريخ العالم الذى نعيش فيه الى مشارف عصرنا الحاضر ، وأراد أن يتناول احدى مشاكله العويصة بالبحث : وهى المشكلة العربية الاسرائيلية .

وفى المجلد الثامن من كتاب « توينبى » العظيم « دراسة فى التاريخ » أعلن المؤرخ رأيه ، وحين يقول « توينبى » رأيه ، فهو رأى مسئول ، يتلقاه معظم المؤرخين والباحثين باحتفاء واقتناع . فان

(*) كتب هذا المقال ابان زيارة توينبى لمصر عام ١٩٦١ .

كثيرا من هؤلاء الباحثين قد يتعرضون لتوينبى ، وينتقدون منهجه فى تفسير التاريخ وفهمه ، أو نظريته فى تقسيم الحضـــارات وتتبع ميلادها ووفاتها ، ولكن أحدا لا يستطيع أن يتحدث عن ضميره ..

وكيف يشـــك انسان فى ضمير توينبى ، وهو يعتبر التاريخ رحلة الانسان الى .. الله ، ويعتبر أن كل حضارة قامت على وجه الأرض ، سواء فى مصر القديمة . أو فى سهول بين النهرين ، أو على جزر أرخبيل اليونانى ، حتى الحضارة الغربية الحديثة ، كلها كانت محاولات من الانسان لمعرفة الحق ، وتغليب الروح .. والفناء فى الله ..

ولكن بعض الأصوات ارتفعت رغم ذلك تندد بالمؤرخ . وبرأيه فى المشكلة العربية الاسرائيلية ، وكان أعنفها صوت « أبا ايبان » أحد أعمدة دولة اسرائيل ، الذى أصدر فى نيويورك كتابا عنوانه « ضلال توينبى » ..

وقام بدور الكورس الى جانب صوت « أبا ايبان » أصوات محررى الصحف اليهودية فى العالم ، مثل « جويش كرونيكل وغيرها ..

ولكن المؤرخ لم يتراجع ..

حتى كانت مناظرة العام الماضى ، وفكرنا بعدها فى دعوة « توينبى » ، صديقنا القديم ، الى بلادنا ..

وتوينبى ، صديق مشاكلنا ، وهو أيضا صديق تاريخنا ..

فهو — مثلا — يعتبر مؤرخنا العربى « ابن خلدون » أحد الذين الهموه منهجه فى التاريخ ..

وهو يتحدث عن الحضارة الاسلامية حديثا منصفا ، ويقول ان العالم الجديد .. الذى تبسط عليه حضـــارة أوروبا ظلالها ، محتاج الى أن يفهم عن الحضارة الاســـلامية درسا هاما ، وهو كراهيتها للعنصرية ، وايمانها بالمساواة بين البشر ، وبأن الناس كلهم لآدم ، ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى ..

وهو أيضا ، ينصف نبينا محمدا ، ويتخذه نموذجا من بين نماذجه للرجال العظام ، ويقول « ان رجلا ثبت فى دعوته ثلاثة عشر عاما ·· قبل أن يهاجر الى المدينة ، تعرض خلالها للأذى والموت ، لا يمكن الا أن يكون عامر النفس بايمان دينى عميق » ··

ولاشك أن توينبى فى اقامته القصيرة فى بلادنا سيلقى بضع محاضرات فى جامعاتنا ، يتناول فيها بعض المشاكل المعاصرة · فهو ليس مؤرخا جامدا ، يتعرض للموتى دون الأحياء ، ويستهويه الماضى دون أن يتأمل الحاضر ، بل لعله أكثر المؤرخين المعاصرين اهتماما بمشاكل العالم المعاصرة ، وبخاصة فى مقالاته التى ينشرها فى الصحف البريطانية والأمريكية ، وفى أحاديثه الاذاعية ··

ولاشك أيضا — أن تلاميذ توينبى عندنا — سيستفيدون كثيرا من رؤية الأستاذ وتتبع محاضراته ، ولكننا سنضيع على أنفسنا الكثير. اذا لم نحاول أن نفهم نظرية توينبى فى نشوء الحضارات ، ونحن نبنى حضارتنا العربية الجديدة ··

ان نظرية توينبى قد تكون عونا كبيرا لنا فى حياتنا العربية المعاصرة · بل اننا نستطيع أن نستفيد منها ، لا فى الهيكل العام فقط لتخطيطنا السياسى والثقافى والاقتصادى ، بل فى التفاصيل أيضا ··

فما هى الخطوط الرئيسية لهذه النظرية ؟

أولا : ان توينبى ليس مؤرخ ملوك ودول ، مثل هذا الطراز الشائع بين المؤرخين · انه لا يقول ان الملك (فلان) تولى العرش عام (كذا) . وتمت فى عهده الاصـــلاحات المعينة ، بل أنه حتى لا يتعرض للدول ، فهو مثلا حين يدرس تاريخ الحضارة الغربية ·· لا يتعرض بالتفصيل لبريطانيا أو لفرنســـا أو لألمانيا ، انه ينظر للغرب ككل متكامل ·· وذهنه ملىء بشتى التفاصيل ، ثم يحاول أن يميز طابع الحضـــارة الغربية . فى نواحيها الروحية والمادية ·· ويقدر بعد ذلك ما أدت هذه الحضارة للعالم من نفع ··

وعلى هذا الأساس ، فان توينبى يرى فى تاريخ العالم المكتوب ، منذ ستة آلاف من السنين نشوء احدى وعشرين حضارة ، ثم فناءها وانهيارها بعد ذلك · تبدأ تلك الحضارات بالحضارة المصرية القديمة، وحضـــارة بين النهرين ، وحضـــارة الصين القديمة ·· وتنتهى بالحضارة الغربية التى نعيش الآن فى ظلها ··

ومن النواحى المشرقة فى تفكير توينبى انه لا يؤمن بأن بعض الأجناس تتفوق حضاريا على الأجناس الأخرى ، فاذا كان الجنس الأبيض قد أقام الحضارة الهندية واليونانية والغربية · فان الجنس الأصفر هو الذى أقام الحضارة الصينية واليابانية ··

بل أن توينبى يتحمس لدحض أســـطورة شعب الله المختار ، كما يتحمس فى رفض أسطورة تفوق العنصر الجرمانى ، التى روج لها هتلر ودعاته منذ ثلاثين عاما ··

لماذا تنشأ الحضارات ؟ وهنا نستطيع أن نستفيد من توينبى ·

ان عمر الانسانية المكتوب هو ستة آلاف سنة ، بينما يبلغ عمر الأرض ملايين السنين ، وهذا العمر المكتوب هو الذى نشأت فيه الحضارات ، فما الذى جعل الانسان الذى يسكن الكرة الأرضية يتحول من حالة الخمود الى حالة الانطـــلاق ، ومن الكســل الى الاندفاع ؟

وتوينبى يلقى عندئذ بجوابه ··

لقد انتشر جفاف تدريجى بعد انتهاء العصر الجليدى · فى منطقة جنوب آسيا وشمال أفريقيا ، وأصبحت تلك المناطق مناطق صحراوية ، والقبائل التى لبثت فى تلك الصحراء · أو زحفت الى وسط أفريقيا ·· حيث الحياة مازالت سهلة · وحيث تنمو المراعى ·· ظلت على كسلها وخمولها ·· ومنها زنوج وسط أفريقيا وسكان جنوب الهند ·

ولكن قبائل أخرى استجابت لتحدى الطبيعة ·· استجابة من نوع جديد ·· لقد فتشـــت عن مجـــارى الأنهار ، وحـــاولت قهر

فيضاناتها ، وبناء بيوتها على ضفافها وزرعت الارض ونظمت طرق الفلاحة · وحاربت التربة والصقيع والوحش والحشرات ·

لقد أنشأت تلك القبائل حضارات شامخة ، فى وجه مقاومة الطبيعة وطغيانها ··

ومن هنا نشأت الحضارة المصرية القديمة فى دلتا النيل وحضارة بين النهرين · وحضارة وادى النهر الأصفر فى الصين

وكانت هذه الحضارات استجابة لتحدى الطبيعة ·

ومن هنا يصوغ توينبى نظريته فى نشوء الحضارات ·· إن الحضارات تنشأ كرد فعل لتحدى الطبيعة ·· وحضـــارة أوربا الغربية مثلا ، ناتجة عن تحدى الطبيعة للأوروبيين · انها تتحداهم، بالجبال الشامخة والوديان الهاوية والصـــقيع والبرد القارس · ولذلك فهم يحاولون أن يحتالوا على هذه الطبيعة القاسية بالتفكير الدائب ، والحركة اليقظة ، والذهن المتفتح ··

ان الحضارة اذن صراع ، وكلما كان التحدى أكبر كانت الحضارة أعظم ··

ان الحضارة جنين فى بطن الحياة لا يولد الا بعد جهد جهيد ·

وكم هناك من دوافع وراء نشوء كل حضارة ، هذه الدوافع التى شحذت ذكاء الانسان وهمته · فالأرض الصعبة القاسية مثلا أقدر على انجاب الحضارة من الأرض السهلة المهدة · والنكبات حين تهز الأمة تدفعها الى التجدد ·· فان هزيمة جيش روما فى احدى معاركه الكبرى هى التى جعلت روما دولة عظيمة وانكسار ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى هو الذى خلق منها أكبر قوة فى أوروبا والخطر أيضا دافع من دوافع بناء الحضارة · فقد كانت المدن المهددة بغزوات البرابرة فى القرون الوسطى هى التى تتماسك وتتآزر ··

وبالنسبة لنا ·· أظن أن نكبة فلسطين ، وتهديد اسرائيل عدا من أكبر دوافع بعثنا العربى الحديث ·

ان تاريخنا الحديث ملىء بألوان التحـــدى وعلينا أن تكون استجابتنا لهذه التحديات استجابة قوية صلبة ، حتى نستطيع أن نبنى حضارتنا الجديدة ··

والآن · وقد نشأت الحضارة ، كيف لها اذن أن تنمو ··

وجواب توينبى هو أنه لابد لكل حضـــارة من أقلية مبدعة من عباقرة ··

هؤلاء العباقرة قد يكونون أنبياء أو زعماء أو قادة أو مشرعين أو فلاسفة ·

ولنأخذ هنا أحد الأمثلة التى أختارها توينبى · وهو فى نفس الوقت مثال قريب من حياتنا ·

مثال الحضارة العربية ··

لقد عاش العرب فى الجزيرة العـــربية على أطراف الدولة الرومانية والدولة الفارسية ··

وتجمعوا تحت تأثير ضغط الصـــحراء فى مدن على طريق القوافل وبنوا فيها بيوتهم وجمعوا ثروتهم وكانت الحضارة العربية حتى ذلك الحين قد نشأت ولكنها لم تبلغ دور النمو بعد · وفجأة وجدت الأقلية المبدعة فى شخص « محمد » والأقلية المبدعة — فى رأى توينبى — قد تكون انسانا واحدا فحسب ·

ومن هذه الأقلية المبدعة يفيض بريق الطاقة الابداعية لكى يمس الناس جميعا وعلى أساس محاكاة الأقلية المبدعة ، يصبح للحضارة طابع خاص ·· فان هذه الأقلية المبدعة تنشر تعاليمها ·· ونظرتها للحياة ، فهمها للكون وأملها فى المستقبل ، انها تجمع الناس حولها بنوع من الاستهواء والاقتناع المنبعث من بريق الشخصية العبقرية ·

ان الأكثرية عندئذ تتبع الأقلية المبدعة باستجابة جاهزة تكاد تقترب من المحاكاة الآلية • ولكن كيف تصبح الأقلية المبدعة بهذه القوة وتلك المقدرة على الاقناع • لابد أن تكون هذه الأقلية مدركة لكل هموم الأكثرية • عالمة بمشاكلها وبنمط تفكيرها ونفسياتها • وحياة الأقلية المبدعة تتراوح دائما بين محورين هما الاعتكاف والعودة • ان العبقرى ينسحب دائما من مجتمعه ويغرق فى وحدته ليصارع المشاكل ويبحث لها عن علاج •

وهذه المعاناة الهائلة التى يعانيها وحده هى التى تزيده نفسه غنى وتفكيره ثراء •

ولكنه لابد أن يعود بعد اعتكافه ، وقد زادت مقدرته على تحريض الأكثرية لكى يخوضوا معه أهوال الطريق •

« ان الاعتكاف فرصة ، وقد يكون شرطا ضروريا لتجلى العبقرية الوحيدة ، غير أن هذا التجلى يفقد غايته • ويبطل معناه اذا لم يكن تمهيدا لعودة نفس العبقرى الى البيئة الاجتماعية التى نشأ فيها » • هكذا حياة العبقرى •• اعتكاف وعودة حتى يفيض على الأكثرية من عزيمته وقوته ، ثم اعتكاف جديد لكى تشحن روحه من جديد ، لعودة قادمة • والمحاكاة والتقليد هما أساس تماسك المجتمع • وهناك نوعان من المحاكاة •• أولهما الأسلاف والأجداد وتلك هى المحاكاة الفارغة التى تعرفها الشعوب البدائية ، وثانيهما محاكاة الأكثرية للأقلية المبدعة • محاكاة الجيش للطليعة التقدمية ، وتلك هى أهم ملامح الحضارة النامية • ولقد اعتكف جميع العباقرة •• موسى مثلا اعتكف ثم عاد الى قومه بالألواح وعليها الوصايا العشر وعيسى اعتكف ثم أعلن رسالته • ومحمد عليه السلام اعتكف خمسة عشر عاما فى غار حراء قبل أن يدعو الناس الى الاسلام وكذلك فعل الشاعر دانتى والفيلسوف كانت والقديس بولس •• وغيرهم • والآن أليس فى هذا الحديث عن الأقلية المبدعة درسا لنا ونحن نصنع حضارتنا ونفكر فى خلق قادة لمجتمعنا •

والنقطة الأخيرة فى تفكير « توينبى » فى الحضارة هى اجابته عن السؤال الخالد : لماذا تموت الحضارات ؟ ان الحضارات تموت لأنها لا تجد الأقلية المبدعة · ان الأقلية المبدعة يصـــبحون حكاما لا ملهمين · يصبحون سياسيين لا رجال دولة · وبذلك يفقدون قدرتهم على دفع الأكثرية الى محاكاتهم · وحينئذ تفقد الأقلية المبدعة قدرتها التلقائية على دفع الأكثرية الى محاكاتها وتجنيدها وراءها بالاستهواء والمثل الأعلى ، وتلجأ الى القانون · لقد تبدد التشابه الموحد الذى كان هو خيط العقد الذى ينتظم حبات المجتمع ، لقد فقدت الحضارة طابعها ، والأقلية المبدعة حين تعجز عن ايجاد هذا التشابه الموحد بالمحاكاة والمثل الأعلى تلجأ الى القانون ، وتفكر فى بناء الدولة الجماعية ، وحين تقوم الدولة الجماعية يقضى على الأقلية المبدعة النامية ، ومن التناقض بين الأقلية المبدعة وبين الأكثرية تواجه الحضارة مصيرها التدريجى ·· الانحلال ·· ثم الموت ·

وهناك خطر آخر وهو الترف ، لقد زاد منذ أن أرست الحضارة بناءها والتفتت الأقلية المبدعة الى بناء القصور وتســـهيل الحياة والاستمتاع باللهو فلم تعد تجد الوقت للاعتكاف داخل نفسها ، ثم العودة الى الناس · ومن هذين العنصرية ينشق قبر الحضارة ·

ان الحضارة الرومانية ــ مثلا ــ ماتت فى مواخير نابولى ، كما ماتت الحضارة الاسلامية فى قصور بنى العباس ·

والحضارة الغربية تعانى الآن نفس المصير ·

لقد أصبحت الحياة سهلة الى حد مذهل · فلم يعد هناك مجال للتحدى والاستجابة لذلك التحدى ، بل ان الكهرباء والبخار قد جعلا كل شىء سهلا · والجبل الذى لا تستطيع عبوره تستطيع أن تحلق فوقه بالطائرة · كما أن هذه الحضارة قد فقدت أقليتها المبدعة ، التى تستطيع أن ترسم لها المثل الأعلى ·

وفى رأى توينبى أن الحضارة الروسية الحديثة التى قامت على أساس الشيوعية هى جزء من الحضارة الغربية ، واحتجاج

عليها فى ذات الوقت . انها محاولة من ألمانيين هما « ماركس » و « انجلز » اللذين ولدا فى احدى مقاطعات المانيا ، وأمضيا حياتهما فى لندن وروشستر ، محاولة من هذين الرجلين الغربيين لكى يجدا للحضارة الغربية معنى ، ولولا كون الشيوعية نباتا غربيا لما تبنتها روسيا ، التى كانت تحاول أن تلحق بالغرب باستعمال نفس أسلحته منذ عهد بطرس الأكبر .

لقد كانت روسـيا دائما هدفا لهجوم الغرب ، حين هزمها البولنديون منذ ثلاثة قرون ونصف ، والسويديون بعد ذلك . وأحيانا الفرنسيون ، حتى خسرت الحرب العالمية الأولى فى مطالع هذا القرن .

وكان سبب هذه الهزائم كلها هو ضعف الروس فى التكتيك العسكرى ، انهم يحاربون كآسيويين بينما تجتاحهم جيوش أوروبية متقدمة ..

وروسـيا تفكر منذ قرنين من الزمان على الأقل فى اللحاق بالغرب ، وتقليد طرقه وأساليبه فى الحياة ، لكى تستطيع أن تقف بازائه ، تماما ، كما فكر فى ذلك محمد على فى مصر ومصطفى كمال أتاتورك فى تركيا .

ولولا أن الشيوعية بدعة غربية ، ما انحازت اليها روسيا وتبنتها بهذا الاصرار .

انها تحارب الغرب بسلاح مستمد منه .. ولكن .. هل الشيوعية هى طريق الخلاص للحضارة الغربية ؟

ان توينبى يقول : لا ..

ان الشيوعية مرحلة وليست خاتمة ، وهى تتنازل دائما عن كثير من ملامح تفكيرها لكى تقترب من الغرب .. بكل فضائله وبكل اخطائه .

فهل تموت الحضارة الغربية اذن مادام هذا الأمل الوحيد أملا زائفا . وتصبح حضارة طى التاريخ مثل الحضارات العشرين التى سبقتها ..

ان هناك أملا واحدا .. وهو العودة الى الدين .. هكذا يقول توينبى :

ولكن .. أى دين ؟

انه دين رباعى جديد ، يوفق بين الاسلام واهتمامه بالاحساس، والمسيحية واهتمامها بالنشور ، والهندوكية وولعها بالتفكير ، والبوذية وولعها بالحدس والتصوف .

هذا الدين وحده هو الذى يخلص العالم من الحرب .. الحرب الذرية القادمة الماحقة ..

ان تفكير توينبى يعود دائما الى الدين بعد جولته الطويلة فى التاريخ ، ولعلنا لا ننسى أنه كتب كتابه العظيم فى التاريخ بعد أن رأى نفسه فى الحلم معلقا فى قدمى المسيح على الصليب ، وسمع صوتا يقول له « تعلق وانتظر » .

وتفكير توينبى الدينى ، هو سر كثير من الهجوم عليه .. انه سر ضعفه .. وهو أيضا سر قوته ..

انه تفكير ينبع من الضمير .. نفس الضمير الذى قال كلمة الحق فى قضية الجزء الجريح من وطننا ..

روزاليوسف ١٩٦١/١٢/٤

رحلة على الورق

محمـــد الانســـان

الحـــــزن رفيقى

سأل على ابن أبى طالب يوما ابن عمه العظيم

ـ ما سنتك وما طريقتك ؟

وأجابه محمد :

ـ المعرفة رأس مالى والعقل أصل دينى والحب أســاسى والشوق مركبى وذكر الله أنيسى والفقر فخرى واليقين قوتى والحزن رفيقى ..

وسكت ابن أبى طالب متأملا فى معنى هذه الكلمات القصيرة الحاسمة ولعله توقف قليلا عند كلمة الحزن واستعرض فى ذهنه هذه الأحزان الكبيرة التى خاضها الرجل العظيم وخرج منها وهو أشد قوة وأعذب نفسا وأصفى روحا وأقدر على الابتسام .

لم يعرف أحد الحزن كما عرفه محمد .. لقد واجه الحزن وهو طفل يرضعه مع الحياة وواجهه وهو شيخ يمضى بالحياة الى الغاية التى أرادها وأراد الله أن يمضى بالحياة اليها .

كان الموت هو أكثر زواره ترددا عليه وأقربهم ألفة له بل لقد ولد محمد فى ظلال الموت فقد خرج أبوه الشاب الى تجارته والجنين

فى بطن أمه ومات الأب قبل أن يرى ابنه النور ومالبثت الأم أن ماتت والطفل ابن ست سنوات وكان جده العجوز هو الحضن الذى أواه ولكن هذا الجد مالبث أن مات بعد عامين ·

ولعل الطفل الصغير تساءل يومها ما الموت ؟

ما هذا الزائر الغريب الذى يتسلل مع ظلام الليل أو يتقطر مع شعاع النور فيدخل الى الخيام المسدلة الستائر ولا يخرج الا بعد أن يأخذ معه أعز الناس لديه ··

أيكون الموت جزءا من الحيـــاة أيكون الموت هو قمة الحياة ومعناها ·

ولعل هذا التفكير فى الموت هو الذى فتح عينى الطفل على حكمة بل لعله ـ لأمر اراده الله ـ هو الذى جعله يفكر فى الحياة الأخرى ·· فى البعث بعد الموت فى الايمان الجديد الذى سيواجه به ايمان أهل العدم ·

ان بعض الناس يقولون ·

ان الحيـــاة الدنيا هى كل شىء ·· وبعدها نموت ثم نفنى وما علينا الا أن نغتنم اللذات ونقضى الشهوات ونكرع كأس المتعة الى آخر قطرة ·

الحياة ·· والموت ·· ثم لا شىء ·

ولكن هؤلاء كلهم لم يفكروا فى الموت كما فكر فيه محمد الطفل لأنهم لم يجربوه كما جربه محمد الطفل ·

انه ليتمنى أن يلتقى بأبيه وأمه وجده لأنه لم يستطع رغم حبه لهم أن يشبع عينيه من رؤيتهم كان أبوه ذكرى وكانت أمه خيالا وكان جده طيفا وما أكثر شوقه الى أن يراهم ويشبع عينيه الجائعتين فى عالم خالد لا موت فيه ·

ولذلك فان محمد عليه السلام كشف الدورة الثلاثية فصـــاح فى قومه : الحياة ·· ثم الموت ·· ثم الحياة ·

كانت خديجة حب النبى الكبير · كان يحظى منها بعطف الزوجة وحنان الأم ·

ولننظر فى هذه الصورة الرائعة التى حفظها لنا التاريخ ··

رجل وسيم فى الأربعين من عمره قد رققت العبادة قلبه يعود من الغار بعد أن هبط عليه الملاك الجميل ·· جبريل ··

كان الرجل يرتعد وهو عائد الى بيته حيث زوجته السيدة الوقور المليئة بالعطف ذات الخمسة والخمسين عاما ·

واستقبلته السيدة وهو يتصبب عرقا فضمته الى صـــدرها وغطته بغطائه بعد أن اســـتلقى نائما وأخذت تجفف عرقه بيدها الحنون ·

انه يخشى أن يكون ما رآه جنا أو شيطانا ·· أو خيالا محموما ·· ولايكاد يحس نفسه الا حين يسمع الصوت يناديه وهو نائم ويدعوه الى النهوض برسالة ربه ·

ولكن اليقين يدخل الى نفسه بطيئا مترددا فيلجأ الى خديجة يستشيرها فى أمره ·

وتمتحن خديجة هذه الرؤيا باحساسها الأنثوى ·

لقد طلبت الى محمد أن يخبرها اذا جاءه جبريل فلما أخبرها قالت له :

ـ قم فاجلس على فخذى اليسرى ففعل فقالت : هل تراه قال : نعم فألقت خمارها وسألته فقال : الآن ·· لا أراه فقالت يا ابن العم اثبت على دعوتك وأبشر بنبوتك فانه ملك وماهو شيطان ان الملائكة تستحى ولكن الشياطين لا يستحون ·

والملك لم يغلبه الحياء لأن خديجة أخذت محمدا وأجلسته على فخذها · ·انها لم تأخذه فى حضنها كما يفعل الأزواج لقد أخذته على فخذها كما تفعل الأمهات ··

ولقد قال الله تعالى فى كتابه : ألم يجدك يتيما فأوى ·· وما هذا الايواء ·· الا خديجة وهل يأوى اليتيم الا أهله وقد كانت خديجة أهله جميعا ·· لقد صنعت له بيتا من مالها وحنانها وايمانها وحبها· صنعت له خلوته التى تلقى فيها وحى ربه ·

وماتت خديجة ··

ماتت بعد الحصار الاقتصادى الذى فرضته قريش على محمد وأصحابه ·

والحصار الاقتصادى صورة قديمة من صور محاربة الدعوات والرسالات فالبيع والشراء هما عصب الحياة الاجتماعية وقد فكر فيه أشرار قريش كما فكر فيه المستعمرون وأذنابهم بعد أربعة عشر قرنا من الزمان ·

لقد كتب القرشيون ـ اعداء محمد ـ وثيقة تعهدوا بمقتضاها الا يبيعوا ولا يشتروا من محمد وأصحابه ما يأكلون ·

وكانت خديجة قد تقدمت فى السن ووهن جسمها كانت فى الخامسة والستين من عمرها ذات جسد ضعيف يرهقها الجوع والعطش ·

وأطلق محمد على عام وفاة خديجة عام الأحزان ·· وهل خلت حياته من الأحزان ولكن هذا هو الحزن الكبير حزن الرجل على خمسة وعشرين عاما من الدفء والمودة والحنان والذكريات الجميلة ··

* * *

وتكررت زيارات الموت ·

لقد ولدت خديجة ستا من الابناء أربع بنات وولدين ·

ومات خمسة منهم فى حياته ·

لقد أصبح الموت زائرا مألوفا مايكاد يمضى بغنيمته من بيت الرسول حتى يعود مرة ثانية ليطالب بغنيمة جديدة ..

والقلب الجريح لا يشكو ولا يتألم .

كان ذات يوم فى احدى معارك كفاحه بل فى أولى معارك كفاحه فى بدر حين واقاه نعى احدى بناته وحين عاد احتفل بنصره هو أصحابه وطوى ألم الموت فى صدره الكبير .

* * *

لقد تقدمت السن بالرجل العظيم وتخلل الشيب لحيته وأصبحت خطواته أكثر بطئا وبعض أعدائه يعيرونه بانه ابتر مقطوع الذنب لأنه ليس له ولد ذكر .

انه هو لا يحمل لهذه النبوة المفقودة هما ، لقد بنى دولة ونشر دينا وأقام حضارة واطلع فجرا وغيب فى الظلمات ليلا كالحا .

اذ كل المسلمين اخوانه وأبناؤه وحفدته .. اذا كان اباؤهم قد وهبوهم الحياة .. فهو قد وهبهم أثمن من الحياة وهبهم معنى الحياة ..

ولكن هناك جنينا يتحرك فى بطن مارية القبطية . ولعل الجنين يكون ذكرا .. يبلل ظمأ الرجل العظيم الى الأبوة وجاء ابراهيم وفرح به محمد واندمل جرح ولديه اللذين ماتا طفلين منذ أعوام طويلة فكان يحمله وهو خارج من بيته وينظر فى وجهه ثم يسأل أصحابه .. الا يشبهنى .. أليس وجهه وجهى .

وفجأة مرض ابراهيم وهو ابن سنة ونصف ونقله أبوه الى خارج المدينة لكى تستشفى رئتاه الغضتان بالهواء النقى وذات صباح جاءه الخبر أن ابراهيم يحتضر .

وذهب الأب لرؤية ابنه المريض لم يستطع أن ينهض وحده فتوكأ على كتف أحد أصحابه وحين نظر فى وجه الطفل رأى فيه علامة الموت ..

جلس الرجل العظيم على رمال الصـــــحراء الى جوار الأم المفزوعة ووضعه فى حجره وغاض الدمع فبلل وجنتيه وخديه ٠٠ الرجل الذى بنى دولة وخاض معارك هائلة وتلقى السهام وألقى السهام وأرسل الرسل الى ملوك الأرض يدعوهم الى دعوته ٠

الرجل الذى يتحدث بوحى الله فتنطلق كلماته قانونا ٠٠ هذا الرجل الذى لم يمنح أحد الانســــانية مثل عطائه أحس أن ابنه تتساقط حياته قطرة قطرة بين يديه وهو لا يستطيع الا أن يقول أنا يا ابراهيم لا تغنى عنك من الله شيئا ٠

ويكى الرسول فقال له أصحابه ـ ألم تنهنا عن الحزن ؟

وأجابهم قائلا :

ـ ما عن الحزن نهيت ٠٠ وانما عن رفع الصوت بالبكاء وان ما ترون هو أثر مافى القلب من محبة ورحمة ٠

ودفنه بيده ووضــــع على قبره علامة لكى يزوره لو امتدت أيامه ٠

وعاد محمد الى بيته محزون القلب ومات بعده بشهور ٠

❊ ❊ ❊

كم مرة التقى فيها محمد بالحزن مرات ٠٠ لاتعد

اننا نفارق أحبائنا برغمنا ٠ وما أظلم الحياة لو كنا لا نلتقى بهم فى عالم آخر ٠

عالم يشبع فيه الحبيب من حبيبه ٠٠ عالم لا يدخله الموت ٠٠ ولكن ٠

أى سر فى حياة ذلك الرجل العظيم الذى تلقى هذه السهام الجارحة القادرة على أن تجعــــل أعظم الرجــــال وأكثرهم تفاؤلا

وأسررهم نفسا كسيف البال ومع ذلك فقد بنى هذا الرجل كل ما بنى وقدم للانسانية أحد آمالها الكبار ٠٠

الرجل الذى كان يحارب ويجادل ويبتسم ويضـــحك ويقول الفكاهة العذبة اللطيفة وتفيض محبته على الناس جميعا ٠

أنه سر الرسالة الالهية سر الرجل الالهى ٠

(٢) قلب الرجـــل

سأله مرة أحد أصدقائه

من أحب الناس اليك

فقال :

ـ عائشة ٠٠

وقال السائل : ومن الرجال ؟

وقال عليه السلام :

ـ أبوها ٠٠

وعائشة هى بنت أبى بكر وقد كان أبو بكر حبيبه ٠٠

وسمع ذات يوم بمقتل أحد أصدقائه ـ زيد بن حارثة ـ فبكى حتى انتحب وعلا صوته بالبكاء فسأله أحدهم فى لهجة يمتزج فيها الاشفاق بالتعجب :

ما هذا يارسول الله فأجاب والدموع ملء جفنيه ٠٠

ـ هذا شوق الحبيب الى حبيبه ٠

لقد كان قلبه مليئا بالحب وكان أحب الناس أصدقاؤه والصداقة هى سر قلب الرجل ٠ ان قلب الرجل قلب مبصر يرى ويعقل قبل أن يحس وعينا قلب الرجلتبحثان عن الرجولة فى قلوب الآخرين

فاذا اهتدى رجل بقلبه الى رجل آخر وأحس أنه يستطيع أن يتكىء عليه وان يشركه فى شواغله وأن يطمئن الى مودته فى ســاعات الصفاء وصلابته باتا شقيقين وأصبح البعيدان أخوين قريبين ٠

ولذلك فقد كان كل أصحاب محمد هم فى واقع الأمر اخوة محمد وأشقاؤه وقد كان يقربهم اليه بمقدار رجولتهم وأكثرهم رجولة هو أقربهم اليه واخوه الشقيق ٠

وليس غريبا أن اقرب الناس اليه فى حياته وزيراه أبو بكر وعمر كانآ أعظم اسلمين بعد موته وانهما اســتطاعا أن يجعلا لنفسيهما سيرة عظيمة مستقلة حين أصبحا حاكمين للمسلمين ٠

انها عين القلب المبصرة ٠٠ قلب الرجل ٠

ومن الحق انهم جميعا كانوا يتمتعون بجوهر العظمة ٠

ولكن من الحق ايضا أن محمدا هو الذى قاد خطواتهم الأولى فى هذا الطريق فلو لم يرد الله أن يبعث فى هذه القرية التجاريه المنسية فى بطن الصحراء رسولا لما حفظ لنا التاريخ اسماء أبى بكر وعمر وعلى وخالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص وغيرهم من عظماء الرجال ٠٠

ولعل من أكرم مواهبه أنه كان قادرا على اكتشاف العظمة وتنميتها ودفعها فى طريقها ٠٠ كان قائدا للأمة ولكن لم يكن يضيره أن يبرز الى جانبه عشرات القادة ٠

كان ــ بحسب تعبير عصرنا ــ حريصا على ابراز الكفايات ٠

كان أبو بكر تاجرا غنيا رقيق النفس لين الجانب حسن الخلق ٠٠ والتقطت عين قلب محمد المبصرة هذا الخلق الحسن فجعلت منه ايمانا مستقيما ٠

وكان عمر بن الخطاب فتى قويا شديد البطش مخيفا فالتقطت عين وقلب هذه القوة وجعلت منها استقامة مؤمنة ٠

وكان خالد بن الوليد محاربا للشيطان فاصبح محاربا لله ــ

وكانوا جميعا يحبونه ويحبهم حبا لا يوصـــف وكان ـ هذا السياسى الماهر ـ يربط بينه وبينهم برباط وثيق ٠

فقبل أن تخترع الأوسمة وتعرف النياشين عرف محمد كيف يطلق الكلمة فتصبح أرفع من الوسام وأعلى من النياشين ٠

سمى أبا بكر بالصديق ٠٠ والصدق هو أرفع وسام ٠

وسمى عمر بن الخطاب بالفاروق لأن الله فرق به بين الحق والباطل ٠

وسمى خالد بن الوليد ٠٠ سيف الله المسلول ٠٠ على أعدائه من الكافرين والمشركين ٠٠

وسمى أبا عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة ٠

وحدث ذات مرة أن كان أحد أصدقائه ـ عبد الله بن مسعود ـ يصعد نخلة ليجلب بعض البلح وكانت ساقا ابن مسعود نحيلتين فقال لهم محمد :

ـ ان ساقى بن مسعود أثقل فى ميزان الله من جبل أحد ٠

ويالسعادتك يا بن مسعود بهذا الوسام الكريم ٠

ومات أحد أصدقائه فى غزوة فأخذت أمه تبكى فذهب لتعزيتها وقال لها :

« الا يجف دمعك ويذهب حزنك فان ابنك أول من ضحك الله له واهتز له العرش » ٠

ومن بعدئذ الا يجب أن يموت فى سبيل محمد ٠٠ فى سبيل الله ؟

انه يعرف ان كلمة الثناء الصادقة تفعل فى النفوس فعل السحر ولعله لهذا أوصانا ان ننادى أصدقاءنا بأحب الاسماء اليهم ٠

لقد عرف محمد أن صداقة الرجل بالرجل هى أعز ما يخرج به الرجل من دنياه وأكبر ما يستعين به عليها ٠

من كان هؤلاء يكونون لو لم يلتقوا بمحمد لنأخذ أحدهم مثالا أبا ذر الغفارى ٠ ٠الذى أنعم عليه محمد بأحد الأوسمة الرفيعة حين قال من سره أن ينظر الى تواضع عيسى بن مريم فلينظر الى أبى ذر ٠٠

لقد كان أبو ذر مثـــال التواضـــع والوداعة التى تذكر من يراه بامام الوداعة وسيد الوادعين ٠٠ المسيح عيسى بن مريم

كان أبو ذر قبل أن يلتقى بالنبى قاطع طريق ٠٠ كان شجاعا ينفرد وحده فى الصحراء ٠٠ ويغير على القوافل فى ظلام الليل على ظهر فرسه أو قدميه وكأنه السبع فيأخذ ما يريد ٠

ولابد أنه كان فى هذا القلب القاسى جوهر رقيق هذا الجوهر الرقيق هو الذى رآه محمد وعرفه فأخذ يقلب فى هذا القلب بأنامله الحساسه حتى استبعد أغلفة الغلظة والعنف ٠

ولو اسعفنا التاريخ بما كان يدور بين محمد وبين صديقه الجديد أبى ذر الغفارى كل يوم يلتقيان فيه وماكان يتبادلان من حديث لاستطعنا أن نكون صورة رائعة من صراع بين الخير والشر ينتهى بان يصبح قاطع الطريق الذى يهجم كأنه السبع حملا وديعا كعيسى ابن مريم ٠

* * *

كان يعرف كيف يجعل من العدو صديقا ومن كلماته الخالدة قوله « الاسلام يجب ما قبله » أى أن الاسلام يمحو ما قبله ٠٠ كل ذنوبك وأخطائك قبل أن تعرف محمداً وتعرف الاســـلام ترفع عنك ولا يحاسبك الله الا على ما ترتكب بعد اسلامك من أخطاء ٠

وكم كان لهذه الكلمة من أثر ولنأخذ خالد بن الوليد مثالا ٠٠

كان خالد بن الوليد من أشد اعدائه وأقساهم خصومة بل لقد كان هو قائد الاعداء فى غزوة أحد وكانت خطته هى التى أتاحت للأعداء هزيمة المسلمين

وأسلم خالد بن الوليد متأخرا ٠

ذهب خالد بن الوليد الى رسول الله مترددا فحين علم الرسول ان خالدا قد جاء ليعلن اسلامه قابله بوجه مبتسم وبادره قائلا لقد كنت أجد فيك عقلا راجحا وكنت واثقا ان هذا العقل سيقودك الى معرفة الحق ورضى غرور خالد وقال فى حياء :

ـ يارسول الله ٠٠ ادع الله أن يغفر لى حروبى ضدك ٠

وأطلق الرسول شعاره الذى يكسب به الأعداء ويحولهم الى أصدقاء الأسلام يجب ما قبله ٠٠

وبعد شهور قليلة أرسل محمد جيشا لتأديب أحد العصاة وجعل خالد بن الوليد أحد جنوده رغم أنه كان من قواد قريش لقد كان يريد ان يعطى بعض الفرص لخالد ليثبت ولاءه للدين الجديد كجندى عادى وسقط القواد الثلاثة الذين ولاهم محمد على الجيش قتلى وتقدم خالد من بين صفوف الجند ليحمل الراية ٠

وحارب خالد كما لم يحارب فى حياته حتى تكسرت تسعة أسياف فى يده ٠

وحين عاد من الغزوة منسحبا انسحابا أشبه بالانتصار أطلق عليه الرسول لقب سيف الله المسلول ورقاه الى أعلى الرتب حسب مفهومنا الحديث ٠

لقد أصبح العدو القديم صديقا قديما لأن الفرصة أتيحت له لكى تمتحن صداقته ٠

وأضيف اسم خالد الى الاسماء العظيمة التى حفظها لنا التاريخ جيل من العظماء خلقهم الله ووهبهم محمد بن عبد الله فوهبهم محمد للانسانية وتلك هى العظمة الخيرة التى لا تتطاول بجلالها ولا تشمخ بذاتها وتلتهم حياة أصدقائها وتحيل كل من حولها الى أقزام بل تفتش فى كل انسان عن جوهره النقى ثم تجلوه فى وهج الشمس ونور الحياة ٠

(٢) اليك أشكو ..

الهزيمة قدر على الرجال والرجل قد يهزم ولكنه لا يتحطم فنحن لا نكسب كل المعارك التى نخوضها ولكن الهزيمة قد تفيدنا اكثر مما يفيدنا النصر .. هى التى تعطى للنصر مذاقه الحلو وهى التى تصنع التجربة وتفتل العضل وتشد العظم .

والفرق بين الرجال وأشباه الرجال أن الرجل يتذوق طعم الهزيمة ويدير لقمتها المغموسة بالمر والحنظل فى فمه ثم يلفظها ويلقى بها على قارعة طريق حياته .. أما أشباه الرجال فهم يبتلعون المرارة فى يأس وانكسار حتى يصبح لون دم شرايينهم أسود قاتما كلون الهزيمة ذاتها .

* * *

ان الرجل ينهزم ساعة واحدة فيحنى رأسه ثم مايلبث أن يمد قامته فاذا بها قد ازدادت طولا .

وفى حياة محمد كثير من ساعات الهزيمة . ولعله كان يذكر هذه الساعات المريرة حين دخل مكة منتصرا وجمع العرب تحت لوائه وحكم فيهم بسلطان الرسول والقائد معا وتردد اسمه مع اسم الله وعلى لسان كل مسلمٍ كلما ارتفع صوت أذان .

ولكنى أشك فى أن تكون ذكرى هذه الساعات قد احتفظت بمرارتها فقد كان يعرف أن الهزيمة دين يدفعه الرجل .

ولست أجد أو أقرأ فى حديثه النبوى أو سيرته بعد انتصاره ذكرا لهذه الهزائم الأولى .. انه لا يتحدث عنها أبدا كأنه قد طواها فى صدره الى الأبد بعد أن زالت مرارتها ولكن هل ينسى هذا اليوم .

كان ذلك بعد عام الحزن بشهور وعام الحزن هو العام الذى ماتت فيه خديجة حصنه ووكره وواحته .. ومات فيه أبو طالب . حامه الذى يمنع الناس عن ايذائه .

وكان ذلك بعد أن جربت قريش حصارها الاقتصادى فمنعت أهل مكة أن يبيعوا لأصحاب محمد أو يشتروا منهم حتى التوت امعاؤهم من الجوع ·

وكان محمد عندئذ يقيم فى بيته وحيدا يائسا من مكة وأهلها

وخطرت فكرة ·

لماذا لا يذهب الى الطائف وهى قرية قريبة من مكة تتدفق فيها الآبار وتلتف حولها حدائق النخيل والعنب ويسكنها قوم اشتهروا برقة القلب لعل قلوبهم الرقيقة تميل الى صوت الايمان ·

وخرج محمد من مكة وحيداً حتى صديقه أبو بكر لم يقل له بل وحتى ابنته العزيزة فاطمة · وقصد الطائف وحين دخل القرية وجد أهلها مجتمعين فألقى عليهم السلام وابتدأ يحدثهم عن رسالة الله ، ويالخيبة الأمل ··

لقد تهكموا عليه وأشبعوه سخرية واستنكارا وهو صــــامت يسأل نفسه : هل الخير كريه الى هذا الحد ؟ لماذا لا يحب هؤلاء الناس وجه الخير الذى لم يكد يظهر لى حتى عشقته ·

ويئس محمد وتصور شماتة أهل مكة به حين يعلمون أنه خرج الى الطائف يطلب من أهلها أن يؤمنوا به فعاد الى استئناف حديثه ·

رجاهم محمد فى صوت حزين أن يكتموا ســـــر زيارته لهم ولا يحدثوا به أحدا من أهل مكة والا أشبعوه سخرية ·· انهم لم يؤمنوا به ولكن له عليهم حق الرجل على الرجل وهو الا يفشى سره ولا يعرضه للمهانة والسخرية ··

وكأن شيطانا قد ركب هؤلاء الناس فى ذلك اليوم فانهم لم يكتفوا برفض رسالته بل لقد صنعوا به شر ما يصنع الانسان بالانسان ·

لقد سلطوا عليه العيال والحمقى لكى يجروا وراءه ويشتموه ويلقوا عليه الحجارة ·

وخرج الرجل العظيم من الطائف ووراءه هذه القافلة الملتاثة العقل ٠

ووجد محمد سورا لحديقة في نهاية القرية يجلس عليه شابان من أولاد الأعيان فنظر اليهما بعين مستجيرة كأنه يطلب حمايتهما ثم جلس وقد أسند ظهره الى السور وهو يسترد أنفاسه ٠

ورجع العيال والحمقى الى آبائهم وذويهم مزهوين بما فعلوه ورفع محمد رأسه الى السماء وجالت عيناه الحزينتان فى زرقتها ثم تمتمت شفتاه اللهم ٠٠

اليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى ٠٠

وهوانى على الناس ٠

يا أرحم الراحمين ٠٠

أنت رب المستضعفين ٠

وأنت ربى

الى من تتركنى

الى بعيد يتجهم فى وجهى

أو الى عدو ملكته أمرى ٠

ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ولكن عافيتك أوسع لى ٠٠

ونظر اليه الشابان المزهوان بغناهما وثروتهما فدبت فى قلبيهما الرحمة ودعا أحدهما خادمه وأمره أن يبعث بعنقود من العنب لهذا الرجل الغريب ٠

وتقدم الخادم لمحمد الجائع المرهق الحزين النفس الضعيف الحيلة وأعطاه عنقود العنب فأخذه منه محمد شاكرا وشرع يأكل حباته وهو يذكر اسم الله ٠

وكأن اسم الله مفتاحا لقلب هذا الغلام الخادم فلم يخرج محمد من القرية كلها الا بايمان هذا الغلام ٠

وحين رجع .. رجع سعيدا وبعد ذلك اليوم بأيام قليلة كان محمد يعرض نفسه ودعوته على أهل المدينة بنفس متفتحة بالأمل وقلب طامع فى نشر الهداية وكأن يوم الطائف لم يكن .

وفى هذه المرة أحب أهل المدينة وجه الحق الذى كشف لهم محمد عن جماله .

***

فقد كانت فيه أيضـــا أيام مرة وكان من أكثرها مرارة يوم (أحد) .

فى ذلك اليوم انهزم محمد وجـــرى معظم رجاله من الميدان وتركوه وأصاب سهم وجهه فكسر أسنانه وانهمر الدم من فمه .

وطاف محمد بعد المعركة بحقل القتال فرأى جثث أصحابه وأحبائه ملقاة على رمال الصحراء بعضها مبتور البطن أو مهشم الرأس أو مقطوع الأطراف .

وكأن أعداؤه لم يكتفوا بقتل المحاربين بل تعدوا ذلك الى التمثيل بجثثهم وتشويهها .

وحين رأى محمد ما فعل أعداؤه ازداد غضبه وتغلبت فيه رجولة المحارب على سماحة الداعية فحلف لئن انتصر على قريش مرة ثانية أن يمثل بجثث قتلاهم أشنع تمثيل .

ولكن محمدا مالبث بعد هذا اليمين القاسية أن سمع صوت الله يقول له :

وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ..

هذا هو وجه المحارب الذى يأخذ طريق الانتقام أما حق الانبياء فيه فهو هذه الآية التى تلى الآية السابقة .

ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وماصبرك الا بالله » ٠

وعفا محمد عن أعدائه ونهى نهيا تاما عن التمثيل بالجسد بعد الموت ٠

ان جسد الانســـــان كريم حتى وهو كومة من اللحم والعظم والموت ٠

هذا ما فعله محمد باعدائه ولكن انظر اليه وهو يعانى من الهزيمة حين يفكر فى انتصاره القادم ويتوعد أعداءه فى ثقة ٠

ان يعرف أن هذه المعركة ليست هى المعركة الأخيرة رغم جسامة خسائرها بل ان لهذا اليوم غدا وفى الغد آمال وأهداف ففى اللحظة التى حلف فيها محمد لئن انتصر على قريش فى هذه اللحظة كانت هزيمته وولد انتصاره ٠٠

يامحمد ٠٠

يا أحب من أنجبهم التاريخ الى نفسى وأعظمهم فى عينى

ان بعض من لا يعـرفونك يتوهمـــون انك مادمت نبى الله ورسوله ٠ فقد كان الله يهون لك كل صعب ويسهل لك كل عسير ٠

وهم لا يدرون كم كانت شاقة حياتك ٠٠ لا يدرون أنك جعت وظمئت ونوديت بأقبح السباب ٠

والقيت عليك الأقذار وخرجت من بلدك فى ظلام الليل خائفا تترقب وجرحت فى وجهك بالسهام وفى قلبك يموت الأحباب والأبناء ٠

وهم لا يدرون أن الله حين أودعك رسالته أراد لك فى نفس الوقت أن تكون بشرا ٠٠ انسان له جسد يتألم وقلب يحس وذراع تعمل وقدم تخطو وتتعب وقدر ومصير عليه أن يصنعهما بيديه ٠

لقد كانت الرسالة عليك عبئا لا رفاهية

وهؤلاء الذين لا يعرفون بشريتك لا يعرفونك حتى ولو كانوا من أتباعك وبعض الذين لا يعرفونك يتوهمون انك كنت محاربا قاسيا لا تعرف الا القتل والقتال .

وهم لايعرفون أنك كنت تبكى فى جنح الليل من خوف الله وتبكى على قبور أصحابك وتبكى ابنك الرضيع بين يديك وأنك كنت الحب كله والعفو كله .

لقد كانت حياتك مزيج من الحب والألم والذين لا يعرفون هذين الينبوعين فى حياتك .. لا يعرفونك أما المحبون والمتألمون فهم وحدهم الذين عرفوك حقا .

روزاليوسف مقالات من ٥ الى ١٩٦٢/٢/١٩

رحلة الأسبوع الى : النمسا

عشت فى فيينا عاصمة النمسا بضعة أيام ، وأنا فى الطريق من يوغوسلافيا الى ايطاليا وكنت وحيدا كقطرة المطر ، ومفلسا كورقة شجر مغسولة ، ومع ذلك استطعت أن أعيش بضعة أيام سعيدة فى احدى عواصم السحر فى العالم ·

أول ما يستوقفك فى فيينا انها مدينة صغيرة ، ولكنها فاتنة ، تحس فيها بطابع الأصالة العريقة ، وتدرك على الفور ان هذه المدينة الصغيرة كانت يوما ما احدى عواصم أوروبا الكبيرة ، حين كانت أسرة الهابسبورج تحكم النمسا والمجر وبلاد الصرب ، وتمثل احدى القوى الكبرى فى أوروبا فى القرن التاسع عشر ·

النمســـا ·· فى ســـطور

تتكون النمسا من اكثر من مقاطعة لكل مقاطعة طابعها الخاص المستقل حتى فى المناظر الطبيعية وفي عادات السكان وتقاليدهم · وهذه المقاطعات فورارلبرج وهى أكثر المقاطعات تصنيعا ومقاطعة البترول ومقاطعة ســالسبورج وهى مدينة الموسـيقار الخـالد « موتسارت » ويطلق عليها « روما الشـمال » ومقاطعة كيرنتش ومقاطعة شتاير مارك ويطلق عليها المقاطعة الخضراء لأن الخضرة تغطى أكثر من نصف مساحتها ومقاطعة النمسا العليا – وهى اقليم زراعى – ومقاطعة بورجن لاند ، ومقاطعة فيينا وهى عاصـمة النمسا ·

● عدد السكان بالنمسا ٧٫٠٧٣٫٨٠٧ ومســاحة النمســا ٨٣٫٨٥٠ ك٠م ، يتكلم السكان اللغة الألمانية واللغة السلافية ٠٠٠ الحكم في النمسا جمهوري ديمقراطي يستمد سلطاته من الشعب ٠

والواقع أن فيينا توحى اليك أنها مازالت تعيش فى القرن التاسع عشر ، لو لم تنظر الى واجهات المتاجر وأزياء الناس فما أكثر القصور النمسوية التى بنيت على الطرازين القوطى والباروكى، وهو ما كان شائعا حتى ذلك القرن ، ويكفى أن تقف فى ريشتراشة ، وتتلفت الى القصور القائمة حولك ، والمتاحف المتراصة المتواجهة : متحف الفنون ومتحف التاريخ الطبيعى وقصر الحكم وغيرها من الأبنية الأنيقة لتدرك غلبة هذا الطابع ، وأذكر أنى لم أر فى فيينا عمارات عالية أو شبيهات ناطحات السحب ، وكأن أهل المدينة قد فرغوا من بنائها منذ القرن التاسع عشر ٠

وفى التلال التى حول المدينة تتناثر البيوت والفيلات الصغيرة، حيث تصعد اليها على طريق مدرج أنيق من الحصباء ، طريق يوحى اليك أنه أعد لكى يمشى فيه عابران فقط ٠

قصـــة الـــكرافتة فى أوبرا فيينـــــا

استمتعت فى فيينا بمتع التقشف ، فحرصت على دخول أوبرا فيينا ، وبخاصة أننى قرأت أن أوبرا الاسكالا الايطالية تقدم أحد عروضها على خشــــبتها ، وبكرت بحجز تذكرة فى أعلى التياترو بحوالى خمسة شلنات ، والشلن النمساوى يساوى تقريبا قرشين بالعملة المصرية ، وفرحت لأنى وجدت تذكرة ، ثم اتجهت الى المدخل، ودخلت وصعدت السلالم واثقا ويدى فى جيبى ، وفى منتصف السلم، أحسست بيد رقيقة توضـــع على كتفى ، والتفت فاذا أحد حراس الاوبرا يستوقفنى ويشير الى ملابسى ٠٠

كنا فى ذلك الوقت فى أوائل نوفمبر ، وكانت درجة الحرارة تحت الصفر ، وكنت لا أملك ملابس داخلية صوفية ، فلبست بلوفرين

أحدهما فوق الآخر ، وقلبت أحدهما لكى يغطى صدرى ورقبتى ٠ ولم أفهم اشارة الحارس الا بعد أن مد يده الى عنقى وهبط بها على صدرى راسما كرافتة وهمية ٠٠ أدركت عندئذ أنى لا أرتدى كرافتة وأنى لذلك سأمنع من دخول الاوبرا ٠

رأى الحارس نظرة التوسل فى عينى ، فسحبنى من ذراعى ، واتجه بى الى المدخل ، وفتح درجا ، وأخرج منه ربطة عنق من أردأ ما رأيت ولفها حول عنقى ، وطالبنى بعشرة شلنات رهنا لهذه الكرافتة ٠

وأعطيته الرهن ولبست الكرافتة دون قميص ، وأنا أتعجب لشئون الخلق الغريبة ٠

وصعدت الى أعلى التياترو ، ووقفت . ولاحظت أن هناك عديدا من المناديل المربوطة على حديد السور ، فلم آبه لذلك ، ووقفت أمام أحدها وبعد قليل جاء شاب ليفهمنى أن معنى ربط المنديل على السور هو حجز المكان وأنى اعتدى على حقوقه ، فتركت المكان ، ووقفت وراءه ٠

وبالرغم من رداءة الرؤية فانى أشهد أننى استمتعت متعة رائعة ، وعندما هبطت لأرد الكرافتة للحارس ، أخذها ، وصنع أذنا من طين وأذنا من عجين ، ولم يرد الرهن ، فمضيت وأمرى الى الله ٠

هذه فيينـا ونسيت باريس

ومن متع التقشف التى عرفتها فى فيينا زيارة المتاحف ، وفيينا مدينة مملوءة بالمتاحف ، وأهمها متحف هوفبورج ومتحف التاريخ الطبيعى ومتحف البرتينا ٠ ومتحف البرتينا فيه أعمال رائعة لكثير من الفنانين الكبار مثل دوريه ورافاييل وروبنس ورمبرانت ففيه ألوان مختلفة من الأساليب ، فالى جانب كلاسيكية رافاييل نجد هذا

العالم الحسى المليء بالسحر الذى تمثله لوحات روبنس ، الى جانب اتجاه رمبرانت المميز الذى يمثل وحده مدرسة من مدارس الفن ٠

ولأن فيينا مدينة القرن التاسع عشر فانك لن تجد فيها لوحات من الفن الحديث لن تجد لوحات لسيزان أو جوجان أو فان جوخ أو بيكاسو ٠ وأذكر أنى سألت صديقا تعرفت به فى أرجاء المتحف عن الفن الحديث ، فقال لى فى لهجة رقيقة : هذه فيينا ، وليست باريس ٠٠

أكلت فى فيينا فى مطاعم «اخدم نفسك» ٠ فى ميدان الاندرجراوند مطعم كبير اسمه « أوكى » تدخله وتأخذ صينيتك وتختار الطعام الذى تحبه بشلنات زهيدة ، لم اعمل حساب يوم الأحد ، وذهبت اليه فاذا هو مقفول ، فأخذت أطوف بالشوارع وأدخل فى الحوارى حتى وجدت مطعما صغيرا ، ودخلته فاذا هو غرفة أنيقة ، تقدم منى جرســـون أنيق بمائدة عليها لأورديفرات ، وآخر بمائدة عليها المشروبات ، وعزف رجلٌ كان يجلس على البيانو معزوفة خاصة بدخولى ، وأدركت أنى وقعت فى فخ ، فطلبت قطعة لحم صغيرة ، ورددت الاورديفرات والمشروبات ، وحين جاء الحساب عرفت أننى يجب أن أقطع من الغد رحلتى فى فيينا ٠٠

قال لى بعض الطلبة العرب أننى دخلت أغلى مطعم فى فيينا . وقالوا لى ان هناك متعا لا تتيسر لامثالى من المفلسين ، ومنها مسارح الاســـتعراض والتزحلق على الجليد فى أطراف المدينة ٠ ولكنى قنعت بمتع الفقراء : الاوبرا والفنون الجميلة ٠

الاذاعـة ١٩٦٦/١/٢٩

مقال فى الانسان والشعر والتجربة

اذا كان لى أن أرتب الكتب التى أعجبتنى هذا العام بحسب ما أثارت فى نفسى من أفكار بحيث يصح اعتبارها كتبا مقلقة للسكينة ، وهذا النوع من الكتب فى رأيى هو أرفع أنواع الكتب ، لأنه يحرك بحر الحياة الراكد ، ويتفتت داخل نفس الانسان بحيث تبقى منه شظيات ملتهبة على الدوام . اذا كان لى أن أرتب هذا الترتيب فانى أقرر أن أهم كتابين قرأتهما هذا العام هما « ماركسية القرن العشرين » لروجيه جارودى من ترجمة نزيه الحكيم ، والثانى هو « مقال فى الانسان » لارنست كاسيرر ترجمة د . احسان عباس

●

فكتاب جارودى اضاءة حية الى الفكر الماركسى ، الذى هو أحد منابع الفكر الهامة فى عصرنا ، وهو ليس « حاشية » تفسيرية على « متون » ماركس ولينين ، كما يصنع معظم مفكرى الماركسية من دراويشها الصغار حتى كبار كرادلتهم ، وليس محاولة لسحب الماضى على الحاضر والقاء أجوبة القرن التاسع عشر فى وجه القرن العشرين ، وهو أيضا برىء براءة ناصعة من عادة بعض الماركسيين ، فى اعتبار كل ماعدا الماركسية من انجازات عصور التنوير والليبرالية هرطقة فكرية وسياسية ، وكأن العالم بدأ بالبيان الشيوعى ، بل هو يذهب الى أبعد من ذلك فيعترف بحق كل أمة فى الوصول الى الاشتراكية لا بطريقتها الخاصة فحسب ، بل بمنابعها

الفكرية الخاصة التى قد تختلف عن الماركسية اللينينية ، كما أنه يقر باشتراكية بعض الخطوات الاصلاحية فى بعض المجتمعات ، رغم أنها اصلاحات مفردة ، لا تدخل فى تصميم اشتراكى متكامل ٠

أما كتاب « مقال فى الانسان » لارنست كاسيرر ، وكاسيرر فيلسوف المانى الأصل أمريكى الهجرة ، قد لا نعرفه كثيرا فى بلادنا ولكننا نستفيد كثيرا لو عرفناه ، وهو أحد الفلاسفة القلائل فى عصرنا هذا والذين مازالوا يتحدثون بلغة الفلسفة ، دون أن يدخلوا فيها لغة السياسة ، أو لغة الدين ٠

وكتابه هذا « مقال فى الانسان » مقدمة طويلة أو مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية يبدأ فيه بتعريف « الانسان » هذا المخلوق الذى اهتم عصرنا بكل ما يحيط به من أوضاع اقتصادية أو اجتماعية أو جغرافية او فلكية أحيانا ، ولكنه نسى الانسان ذاته ، فيبدأ بطرح الاجابة السقراطية « اعرف نفسك » ثم يتتبع ألوان الاجابات التى قدمها الدين ـ المسيحية ـ ثم قدمها العلم الرياضى ، وقدمتها البيولوجيا وعلم النفس ونظرية النسبية ، ثم يستطرد الى تحليل أوجه النشاط الانسانى فى مجالات اللغة والفن والدين والعلم باعتبارها مظاهر للوجود الانسانى ، لكى يخلص منها الى تحديد الجوهر ٠

وفى رأيى أن عظمة كتاب كاسيرر هى آية تقصيره أيضا ، فهو حين تحدث بلغة الفلسفة نسى كثيرا من الأمور المادية ، فلن يسعف رصدها النشاط العقلى والوجدانى للانسان وحده فى تفسير حضارته ، دون رصد النشاط « الحركى » للانسان والاهتمام به ٠ وقد كان يستطيع أن يقف موقفا وسطا فى رفض ادخال عناصر الاقتصاد فى تقييم الحضارة الانسانية ، ولكنه آثر أن يكون مثاليا كاملا فتجنب ثمرات الفكر المادى بقدر الامكان ٠

هذان هما أهم كتابين قرأتهما فى هذا العام ، ويأتى بعدهما ، مجموعة محاضرات « رينيه ويج » التى ألقاها فى مصر ، وترجمها الدكتور عبد الرحمن بدوى ٠

ثم لا أنسى كتابا كتبته مجموعة من المستشرقين باشـــراف الأستاذ فون جرونباوم المستشرق المعروف ، وصدر بالعربية تحت عنوان « الوحدة والتنوع فى الحضارة الاسلامية » ولو أغضينا عما فى كتابات المستشرقين ، وبخاصة المدرسة الألمانية والأمريكية ، من اعتبارهم العالم الاسلامى « حتى العصر الحديث » وحدة حضارية واحدة تشتمل المنطقة من حدود الصين وأندونيسيا الى المغرب · ولمحاولتهم اعتساف النظرة ، وتطبيق الفكرة على الواقع لوجدنا فى هذا الكتاب مجهودا عظيما يساعدنا على أن نرى أنفســنا رؤية جديدة ·

ولعل أهم ما ينقصه هو عدم رؤيته للقوميات فى نطاق العالم الاســلامى ، فمما لاشك فيه أن الظروف الاجتماعية والاقتصادية تختلف فى أندونيسيا عنها فى باكستان · وتختلف فى باكستان عنها فى مصر ··

أما فى مجال الشعر ، فقد ترجمت بعض الدراسات الممتازة فى نقده وفهمه ، مثل كتاب الشاعر أرشيبالد ماكليش «الشعر والتجربة» الذى ترجمته الشاعرة « سلمى الخضراء الجيوشى » وكتاب « الشعر ·· كيف نفهمه ونتذوقه » الذى كتبته الناقدة اليزابيث درو، وترجمة محمد ابراهيم الشوشى ، والكتابان يفتحان نوافذ مضيئة على فهم الشعر وتذوقه ، كصوت من أصوات الانسان ، لا مثيل له فى النقاء ولا الحلاوة ·

هذههى بعض الكتب التى قرأتها ، وهى ترجمات رائعة لفكر أصيل ، وهنا أكرر الالحاح على أهمية الترجمة ، كما أكرر انحنائى المتواضع شكرا وتقديرا لدور المترجم فى حياتنا الثقافية الآن ·

أما بالعربية فانى أذكر كتاب الدكتور عز الدين اسماعيل «الشعر العربى المعاصر الذى أعده أوفى دراســة عن حركتنا الشــعرية المعاصرة ·

كما أذكر كتاب « شخصية مصر » للدكتور جمال حمدان ، الذى استطاع أن يستشرف من أرض الدراســة الجغرافية آفاقا حضارية وفكرية واسعة ·

المصور ١٩٦٨/١/٥

انهيــار معبــد فرويــد

منذ سبعة وعشرين قرنا ولدت في بلاد اليونان أسطورة عن رجل تعس ، ولد في بيت ملكي ، وتربى في بيت ملكي آخر ، هربا من نبوءة تنبأها لأبويه كاهن حاذق ، بأنه سيقتل أباه ، ويتزوج أمه ، ولكن ارادة القدر نفذت ، فعاد أوديب الشاب الى مسقط رأســه ليمضي بالنبوءة الى غايتها ، وكانت نهايته من أتعس النهايات في تاريخ الأساطير ، وكانت الى جانب ذلك ينبوعا لمئات من الأعمال الفنية على مدى التاريخ ٠

وتلقف ســيجموند فرويد ، خــالق التحليل النفسي ، هذه الأسطورة ، فجعل منها نموذجا للبشر جميعا ٠ وزعم أن في كل منا رغبة باطنية في قتل أبيه ، والاستحواذ على أمه ، وأطلق على هذه الرغبة «عقدة أوديب» ٠

يحس الطفل في طفولته أن أباه يحرمه من أمه ، وقد كان يظن أنه هو شغلها وشاغلها الوحيد ، فتتحول صورة الأب الى خصم ، يتمنى الطفل الموت لهذا الخصم ، ولو في الأحلام ، كما أن أمه تمثل له عندئذ الصورة الوحيدة للانتماء والدفء والحنان ٠ ومن المؤكد أن كثيرا منا ــ على رأى فرويد ــ لا يدركون هذا الشعور ادراكا واضحا ، ولكنه غامض مستكن في النفس ، يتحكم في كثير من التصرفات ، ويظل الدافع الرئيسي وراء كثير من الخطرات والأفكار والأعمال ٠

ومنذ حوالى ثلاثين قرنا ، عاش فى مصر فرعون تعس الحظ اسمه « اخناتون » خرج من ديانة أبيه وأجداده ، وهى عبادة آمون التى تتمثل فى قرص الشمس ، الى عبادة « آتون » التى تتمثل فى شعاع الشمس ، أى نقل العبادة من مرحلة « التجسيد » الى مرحلة « التجريد » ومن أسلوب عبادة الكائنات الى عبادة سر الحياة ، وكتب بضعة أناشيد رائعة من أناشيد التعبد ، رأى فيها المؤرخون أول نزعة الى توحيد الخالق ، بعد أن كانت الديانة المصرية القديمة تلجأ الى تعدد الآلهة ، أو ما يعرف بالوثنية ٠

ومن الغريب أن الصور التى حفظت لاخناتون ، على النقوش التى وجدت فى عاصمته التعسة ، بعد أن هجر طيبة ، تصوره لنا على عكس الصورة التى درج المثالون والمصورون على تسجيل الفراعنة بها ٠ فالفرعون عادة رجل بسيط القوام ، وافر الأعضاء ، متناسب التكوين ٠ أما هذا الفرعون « أخناتون » فقد تصوره لنا رجلا برأسين ، أى أن رأسه يمتد الى الوراء منتفخا مكورا ، يرتكز على صدر عريض أكثر مما يجب ، ويقف جسمه كله على قدمين منتفختين ، فكأنه صورة كاريكاتيرية لمثال الفرعون التقليدى ٠

هذا الملك التعس أيضا كان ممن استوقفت سيرتهم سيجموند فرويد ، ففى آخر كتب فرويد المسمى « موسى والتوحيد » رأى فرويد أن موسى كان مصريا انضم الى بنى اسرائيل ٠ وأنه تعلم التوحيد من الفرعون المصرى اخناتون أو من تعاليمه ، وبهذا يكون اخناتون أول الموحدين ، والقديس المبشر بموسى ، كما كان يوحنا المعمدان مقدمة لمجىء المسيح ٠

وقصة « أوديب » التعس ، وقصة « أخناتون » التعس قطعتان من الأسطورة والتاريخ ، لا تكادان تلتقيان الا فى تعاسة نهاية كل منهما ، فأوديب فقأ عينيه ، وخرج من مدينة طيبة اليونانية متوكئا على ابنته انتيجونا ليتشرد فى البلاد بعد أن انكشفت لعينيه جريمته البشعة ٠ أما أخناتون فقد قامت ضده ثورة شعبية تصدى لقيادتها كهنة آمون بطيبة ، ويقال انه قتل ليتولى الحكم ولداه سمنخكارع ،

وذلك الفرعون الجميل الصغير « توت عنخ آمون » ، ولا يبقى من العاصمة الجديدة التى عاشت خمسة عشـــر عاما فقط الا بقايا واطلال ٠

وأوديب شخصية أســـطورية تماما ، فقد بحث العلماء عن مقبرته ، أو عن أثر لأسرة لايوس التى ينتمى اليها ، أو عن بقايا تاريخية لســـيرته ، وكان بحثهم عبثا ، حتى انهم انتهوا الى أن شخصية « أوديب » لم تعرف الحياة قط ٠

أما اخناتون ، فهو شـــخصية تاريخية تماما ، فعاصـــمته وأناشيده وتماثيله يزاح عنها التراب لتكمل لنا جزءا جزءا ملامح سيرته وصورته ٠٠

ورغم ذلك فقد طلع علينا أحد ثقات المؤرخين ، وخاصة فى علم « المصرولوجيا » أى الدراسات المصرية القديمة ، ليقول لنا :

ان أوديب هو هو اخناتون ٠٠

يقف ايمانويل فليكوفسكى ٠٠ وهذا هو اسم هذا العالم عند ذكر « أبى الهول » فى قصة أوديب ، فنحن نعرف من القصة أن « أوديب » عندما وقف على مشارف طيبة ، بعد قتله لأبيه الملك لايوس بطريق الخطأ ، وجد على المشارف وحشا على صدره صورة فتاة مجنحة يلقى بسؤال الى كل قادم ، فاذا عجز عن رد السؤال افترسه، وكان اسم هذا الوحش « أبا الهول » ٠

وقاد هذا الاسم فليكوفسكى الى مصر الفرعونية ، فلم يكن اسم أبى الهول ولا صورته ، من المخلوقات الشائعة فى الميثولوجيا اليونانية ولكننا نعرف أن أبا الهول المصرى يرمز للملك خفرع ، وهنا يتتبع المؤلف دلالة أبى الهول فى التراث الفرعونى ليكشف لنا أنه كان صورة للآلهة تفنوت أو حتحور ، وأن جسم الحيوان الذى يرفع رأســـه هو جسم لبؤة وكانت حتحور هى التشخص الأنثوى لحورس ٠ وكان دورها هو الانتقام بالقتل ممن يعبثون فى الأرض

لقد انطبقت اذن صورة أبى الهول الاغريقى على أبى الهول المصرى ، فلنمض خطوة أبعد ، لنرى أن اخناتون قد قتل أباه ، ولكن بالتعبير المصرى القديم ٠

كان المصريون القدماء يؤمنون بعودة الروح بعد الموت ، وبأن هذه الروح حين تعود ستبحث عن طعامها وشرابها ومسكنها ، ولذلك حرصوا على اقامة القبور ، وكان القبر أكثر أهمية من البيت ، وبالنسبة للفرعون كان قبره هو مكان حكمه الأبدى الدائم ، فكان يحرص على جعله مستكملا لكل متطلباته فى الحياة ٠

وكان المصريون القدماء يؤمنون بأن اسم الانسان هو خلوده فاذا محى اسمه فقد حرم من الخلود ، أما اذا فنيت جثته ، فلن تجد الروح مكانا لتستقر فيه عند عودتها ٠

والمؤرخون يحدثوننا أن اخناتون هدم معـــابد أبيه امنحوتب الثالث ، ومحا اسمه من على جدرانها ، وهجر عاصمته ، ومعنى ذلك فى شرع المصريين القدماء ــ انه قد قتله ٠

وهكذا تنطبق جزئية من جزئيات قصة أوديب مع تفسير المؤلف لقصة أخناتون ، وتبقى المسألة الأكثر أهمية ودلالة ، وهى زواج الأم ، اذ أن قتل ملك لأبيه ، سواء كان حقيقة أو بالمجاز ، وسواء أكان يعرف أنه أبوه أم لا يعرف ، أمر شائع بين الملوك ٠

الجزئية الأهم عندئذ ، هى الزواج بالأم ، وهنا يبدو الكشف الغريب ، اذ يســوق الينا المؤلف الدليل تلو الدليل أن الفرعون اخناتون تزوج أمه فعلا ، وهو يعرف أنها أمه ، وأنجب منها أولادا ، وأنه جمع فى وقت واحد بين زوجته الفاتنة نفرتيتى ، وأمه القوية الملكة « تى » ٠

ولنبدأ الحكاية كما حكاها فليكوفسكى ، معتمدا على الحفائر والبرديات والنقوش ٠ كان لامنحوتب الثالث ولد لم يظهر معه فى

تمثال من تماثيله أوصورة من صوره قط ، وهذا دليل على أنه كان يربى بعيدا عن مصر كما ربى أوديب بعيدا عن قصر أبيه ، وربما كان السبب فى اقصائه نبوءة كاهن من كهان طيبة ، وتدل النقوش على أنه كان يربى فى بلاد الميتانيين ، الذين كانوا يدينون بالديانة الزرادشتية التى تبيح زواج الاقارب ٠٠

وحين مات الملك امنحوتب الثالث تولت زوجته القوية الملكة « تى » الوصاية على العرش حتى عاد ابنها المنفى من بلاد الميتانيين، فتقلد عرش أبيه باسم امنحوتب الرابع ، وبعد أربع سنين من حكمه قتل أباه ــ على الطريقة الفرعونية ــ بازالة تماثيله وأسمائه من على جدران المعابد ، وغير اسمه الى أخناتون ، وأبدل العبادة الشائعة ، وتزوج أمه الملكة « تى » جريا على عادة الميتانيين الذين تربى بينهم ٠

ومن هنا قامت الثورة ضده ، ليس لاصلاحه الدينى ، ولكن لانه خرج على العرف الأخلاقى لعصـــره، وقد وقف المؤلف عند لوحتين وجدتا فى احدى المقابر الملكية ٠٠ اللوحة الأولى لاخناتون ونفرتيتى ومعهما بناتها الأربع ، أما اللوحة المواجهة لها فهى للملك والملكة « تى » الأم ومعهما ابنتهما الأميرة بكتاتن ، وثلاث وصيفات ٠

كما وقف المؤلف عند وصف تى فى نقش على اللوحة بمايلى :

« الأميرة الوريثة ، كريمة فى هباتها ، سيدة الرشاقة ، خلابة برقة حبها ، تملأ جوانب القصر بجمالها ، سيدة الشمال والجنوب ، زوجة الملك العظمى التى يحبها ويقدسها ٠٠ سيدة الأرضين تى ٠٠

أما بجانب الأميرة بكتاتن التىولدت بلاشك بعد وفاة الملك الأب ، فقد كتب « ابنة الملك من جسده ، المحببة الى نفسه » ٠٠

وهكذا تتضح القصة ، أما ما حدث بعد ذلك ، فيكاد يكون مطابقا تمام المطابقة لقصة أوديب . فليس أخو « تى » المسمى «آى» الا صورة لكريون ، وليس العراف الذى لجأ اليه اخناتون ، وهو

العراف المصرى المشهور « امنحوتب بن حابو » الا صورة أصلية لتريزيسياس الكاهن اليونانى . وليس ولدا أوديب الا نموذجا للمصير الحزين لولدى اخناتون .. سمنخكارع وتوت عنخ آمون .

لقد تحولت القصة التاريخية اذن الى أسطورة وأضاف الاغريق اليها ذلك العنصر الذى ميز ثقافتهم وفنهم وهو عنصر صراع الانسان مع قدره .

وهنا يجب أن نعود الى « فرويد » أو يعود المؤلف اليه ليصفى معه حسابا عسيرا .. اذا كان أوديب هو اخناتون ، وكانت قصة أوديب تحويرا لقصة تاريخية ، وليست تعبيرا أسطوريا عن حالة بشرية عامة ، فقد سقطت « عقدة أوديب » وانهار جانب هام من معبد فرويد ..

واذا كان اخناتون ليس أول الموحدين ، فقد انهار جانب آخر من معبد فرويد .

لقد استمد فرويد خطوط « عقدة أوديب » من حالته الشخصية ، اذ كانت أمه امرأة صغيرة السن . وكان مرتبطا بها ارتباطا وثيقا .

واستمد تقديسه لاخناتون من محاولته التخلص من يهوديته ، أو من صراعه بين الانتماء الى يهوديته والتخلص منها ، وكان تكريمه لاخناتون على حساب انتقاصه لموسى .

ولقد خلق فرويد حين أراد أن يزيح الأوهام الصغيرة وهمين كبيرين ، فليس كل انسان راغبا رغبة غير محسوسة فى قتل أبيه ، والاستحواذ على أمه ، وليس اخناتون الا ملكا سيىء السيرة تعس الحظ ، وليس ما نادى به الا توحيد العبادة لا توحيد المعبود .

هذه هى الخطوط العامة لكتاب أعده من أهم الكتب التى صدرت بالعربية هذا العام ، حين ترجمه الأستاذ فاروق فريد ، كتاب يثير الفكر ويدعو الى التأمل ، ومع ذلك لا يستطيع الانسان أن يقطع فيه

برأى ، فالحقل الذى يخوض فيه حقل موحش ، لا تتضح معالمه الا حين يتكشف قبر أو تفصح الأرض عن أثر من آثارها ٠ وقراءة الهيروغليفية تفاجئنا بألوان من التنقيح تكشف معها أن العلماء الاجلاء قد قرأوا ذات مرة نصا قراءة خاطئة ، فاستنتجوا منه استنتاجا خاطئا ٠ ولكن المؤلف على أى حال رصين ، مولع بجمع التفاصيل وتوجيهها فى منهج علمى سليم ٠٠

أما الترجمة ، فهى ترجمة جيدة فى معظم الأحوال ، وان كنت آخذ على المترجم كتابته للاعلام القديمة بطريقة غير ما ألفناها ، فهو يترجم مثلا « جوديا » بنفس الاسم ، وقد عرفناها بأرض اليهودية كما وردت فى التوارة ، ويترجم يهوذا الأسخريوطى بيهوذا اسكاريوت ٠

ولكن لاشك أن صوابه الكثير ، ووضوحه المبين يشفعان لقليل من الخطأ والغموض ٠

المصور ١٩٦٨/٤/٢٦

حتى نقهر الموت

لا يقهر الموت الا الحجر والكلمة ، والكلمة أطول عمرا من الحجر ، وأصلب على الزمن ، وأقدر على مغالبته · فالأهرام وكتاب الموتى ولدا فى يوم واحد من أيام التاريخ ، التى هى كألف يوم مما يعدون أو تزيد ، ومازالا يتنفسان أنفاس الحياة حتى غدنا وبعد غدنا · وقد يأكل الزمن المتطاول من الأهرام حجرا فحجرا ، ولكنه لن يسقط من كتاب الموتى كلمة واحدة ، بل قد يزحم صـــفحاته بالحواشى والتعليقات ·

وقد قرحت الأيام جسد امرىء القيس بن حجر ، بعد أن وارت أباه حجرا فى ترابها · ولكن كلمة قالها ظلت تتفتح كقرص الشمس جيلا بعد جيل ، فوهبت الجسد القريح حياة خالدة ، أما حجر ·· فمن هو حجر ان لم تجعله مصادفة ساذجة أبا لامرىء القيس ، وتجعل مصـــادفة أخرى من فتى طائش خدينا للجن تخبره الجن أشعارها ، فما شاء من أشعارها اختار ··

والموت هو حقيقة الوجود الكبرى ، يختلف الناس فيما بعده لا فيه ، وهل ثمت مجال للاختلاف فيه ، وهو يقف على مفارق الطرق ، وفى منعطفات الأزمة ، بل يختبىء تحت الوسائد ، وفى أكمام الملابس ، بل فى النفس تحت اللهاة · ولن يقهره أحد مهما جهد الجاهدون · وقديما تذرع الخائفون على حياتهم بالصناديق المسحورة ، التى كلما فتحت صندوقا وجدت بداخله صندوقا أكثر احكاما ، ولكن ملك

الموت ـ فيما حدثتنى به جدتى رحمها الله ـ مد أصبعه فالتقط المتماوت المرتاع من قلب أصغر صندوق · وحديثا يفكرون فى احياء الموتى غير عالمين ان هذا محال ، لا لأن الله احتفظ بالموت لنفسه ، يوزعه كما شاء ، بل لأن فى اختفاء الموت اختلالا لناموس الحياة ، وقديما قال شاعرنا الملهم :

سبقنا الى الدنيا ، فلو عاش أهلها
متعنا بها من جيئة وذهوب

والانسان الفرد لايملك للموت ردا ولا دفعا ، ولكن الأمة من الناس تستطيع أن تضع حجرا فوق حجر ، وتجعل منها نصبا ، وتستطيع أن تلوى ألسنتها بنغم يلهمها الحماسة فى العمل ، أو تتقدم به قربى للآلهة ، تستطيع الأمة ان تقهر الموت بالفن · وحين تدرك الأمة سر الخلود ، يتقدم طليعتها الموهوبون ليبدعوا لها نظام أمجادها ونظم كلماتها ، وكأن كل ابداع الأمة ، يتجمع عندئذ فى هذه الأيدى الموهبة والألسنة الفصيحة · وحين يولد فنان ، تعرف الأمة أنها قد قهرت جيشا من جيوش الموت ·

الفن هو خلود الأمة الحق ، فالأمم لا تخلد بالانتصارات والمعارك ·· لقد شنت قرطاجنة العظيمة كما قال بريخت ثلاث حروب ، انتصرت فى الأولى ، وأكدت انتصارها فى الثانية وانهارت فى الثالثة ·· وحين انهارت انسحبت من التاريخ ، وكأن هذا المجد كله لم يكن لأنها لم تستطع أن تبدع فنا ، واذا نظرنا حولنا وجدنا أمة كالترك العثمانيين ، أجتاحوا الشرق العربى اجتياحا ، ودقت سنابك خيلهم قلب أوروبا ، وحين انهار مجدهم العسكرى ، ومسحت الأيام الغبار الكثيف الذى أثارته السنابك ، أمسى الترك أمه مقهورة من صغار الأمم ·

ومن نحن ، ومن أجدادنا العرب ، لولا حكيمنا القومى محمد العظيم عليه السلام ، ولولا هؤلاء الذين خرجوا من تحت خبائه : فتفرقوا فى الأرض والتاريخ ، فلاسفة وفقهاء وشعراء ومؤرخين

وناثرين وأهل جدل ، ومصورين وبناة مآذن وناحتي رخام وحجر ، وناقشى منابر ومشـــربيات وشبابيك ، ومرتلين للقرآن بالقراءات السـبع والعشـر وقصاصين للملاحم والبطولات على أنغام الربابة والمزمار ٠

ومن نحن ، وما حاضرنا ومستقبلنا ، وكيف ستذكرنا الأجيال القادمة بل والأمم القادمة ، اذ لم يبق منا شعر رفيع أو فن رائع ٠

لذلك فان الحديث عن الفن ليس ترفا ، ولكنه ضـــرورة ٠٠ وبخاصة فى هذه المرحلة التى تجتازها بلادنا العربية ، مرحلة الميلاد الجديد ، اذا استعرنا كلمة « الرينسانس » بعد تعريبها ٠ فلقد ولدنا مرة من قبل ، ثم أدركتنا الشيخوخة التى لم تكن مبكرة أبدا ، اذ عشنا حياة كاملة زهاء خمسة قرون ، وليس هناك أمة من الأمم القديمة باستثناء مصر القديمة ظلت فى الأوج هذه الفترة الطويلة ٠ لا الهند ولا الصين ولا اليونان ولا الرومان ٠ ولا ينبغى هنا أن نقيس عصر حضارة أسلافنا بعصر الحضارة الأوروبية المعاصرة ، فتلك حضارة قارة كاملة ، بل قارتين كاملتين ، وقد اهتدت باهتدائها الى البخار من ناحية ، والى المطبعة من ناحية أخرى الى اكسير كاكسير الخلود ٠

ويحاول بعض المتعجلين أن يحاكم الحضارة العربية القديمة على ضوء عصرنا الحديث ، متأملا جوانب القصور فيها ، ناسيا انها كانت آخر حضارات العالم فى هذا المجال القديم ، وأنها تنتمى اليه ولا تنتمى الى عصرنا ٠ حقا لقد كان المجتمع فى بعض صوره متخلفا تخلفا مقلقا للضمير الحديث ٠ فهم يتحدثون عن صـــورة الحكم الأوليجاركية أو الثيوقراطية ناسين حكم الأباطرة والاقطاع والكهنة ، ولا جدوى لادخال الاسلام وتعاليمه فى هذا المجال الواقعى. فلقد ظل الاسلام سابقا للمجتمع العربى ، كما ظلت المسيحية متقدمة على العالم المسيحى ٠ ظل الاسلام والمسيحية هما المثال بينما الحقيقة ملامح أخرى وجسد آخر ٠ ولكن هذه الملامح وذلك الجسد ــ فى وطننا العربى ــ كانت قمة ما وصل اليه العالم القديم من تقدم ، لأن

هذا الشعب العربى ، بماله من مقدرة على الاستيعاب ، استطاع ان يضم شتات الحضارات التى سبقته ، وأن ينطلق بها خطوات فسيحة ٠

وحين هجمت القبائل المتبربرة من كل صوب وحدب ، مغول وتتر وعثمانيين ، على وطننا العربى ، وسقطت فى يدها الجواهر المتلألئة ، بغداد ودمشق والقاهرة ، كان ذلك ايذانا بانهيار العالم القديم بحضاراته المتلاحقة ، وخاصة حضاراته الثلاث الكبرى . الافريقية والرومانية والعربية ٠

وقد فطن مؤرخو الحضارة الى هذه الحقيقة ، حين أطلقوا على الفترة الكائنة بين انهيار الحضارات القديمة ونشوء الحضارة الحديثة « العصور الوسطى » ، وحين أطلقوا كلمة « الرينسانس » على فترة نشوء الحضارة الحديثة ٠ فكأن هذه الحضارة كانت ميلادا جديدا لعالم قديم ٠

وربما كانت كلمة « الرينسانس » ورسوخ معناها فى الضمير الأوروبى الحديث هى سر تقدمه ٠ فأوروبا حين ولدت من جديد ، لم تحاول أن تحيى القديم وتلزمه ، بل حاولت أن تبنى حياة جديدة بعد تمثل القديم ٠ لقد فتشت عناصر القديم ، وأعادت تركيبها ، بعد أن طرحت عنها كل مالا يصلح للحياة ، ايمانا منها بأن المولود الجديد ، ينبغى أن يعيش فى جو جديد ، ومناخ جديد ، لأنه سيواجه ظروفا جديدة ٠

كانت كلمة « الرينسانس » تعنى الحياة الجديدة ، لا اعادة الحياة القديمة ٠

وسر أزمتنا الحضارية المعاصرة أننا لم ندرك بعد أننا نعيش منذ أوائل القرن التاسع عشر فى فترة ميلاد جديد ٠ وليس استشراء بعض النزعات السلفية والمحافظة الا نتيجة لغياب هذه الحقيقة ٠

والفرق بين السلفى والمحافظ فرق واسع ٠ فالسلفى هو الراغب فى العودة الى الماضى الزاهر ، ناسيا أن هذا الماضى كان زاهرا ،

لأنه كان وافيا باحتياجات عصره ، مستجيبا لها · وأن مادة العصر تتغير ، فتؤذن ، بل توجب تغير صورته ، أما المحافظ فهو الراغب فى بقاء كل شىء على حاله ، مؤمنا بأن الحاضر أو الماضى القريب، هو أنسب الصور للمجتمع البشرى · ولكن كلاهما ـ السلفى والمحافظ ـ يلتقيان فى كراهية لانطلاق المستقبل والتخوف منه ·

أما الميلاد الجديد ، فهو يحتاج لانسان متطور ، مؤمن بأن التجربة هى زاد رحلة الحقيقة ، وأن الحوار هو السبيل الأول للمعرفة ، وان الجدل هو أعلى صور العلم ، وان الحرية هى حامية هذه القيم جميعها ··

وفى ميلادنا ، كانت لنا خصائص موروثة ، علينا أن نتمسك ببعضها ، وأن نحاول أن نطرح عنها بعضها الآخر ، ونكتسب ـ بدلا منها ـ خصائص جديدة · وليس شأننا فى ذلك مختلفا عن شأن كل مولود صحيح من أسرة صحيحة · ولا يصدق ذلك قدر صدقه فى مجال الأدب والفن · وذلك هو مجال حديثى ··

نحن أمة تحمل تاريخا على ظهرها ، وقد يصبح ذلك التاريخ عبئا ثقيلا ، لو لم ندرك أنه كحاضر قد مضى وانقضى ، ولم تعد له قدرة على الحياة فى الزمن ، بعد أن أصبح خارجه ، الا اذا نظرنا فيه نظرة جديدة ·

وبين اكبار التاريخ والتهوين من شأنه ، أو بين اكبار الأبوين وتأليههما وتقليدهما فى كل ما يقولان وما يفعلان ، وبين التمرد على الأبوين ووضع أعمالهما تحت مجهر الفحص الجارح ثم كراهيتهما وازدرائهما ، يسقط كثير من المواليد الأحداث ·

ونحن أمة تعيش فى عالم جديد وحضارة جديدة ، قد سبقتنا الى بنائها أمم أخرى ، أسهمت وتفوقت ، واستقرت ملكاتها واستقامت وجداناتها ، وشحذت عقولها · وكان من سوء حظها وحظنا معا أن تقدمها التكنولوجى قد دعم اقتصادها ، بينما هدم

قصور وسائلنا التكنولوجية اقتصادنا ، فسعت الينا دول الغرب مستعمرة زاحفة ، ووقفت سيوفنا عاجزة كليلة أمام بنادقها ، وبنادقنا صامتة خرساء أمام مدافعها ، وانحنت مدافعنا لطائراتها ودباباتها · فتبدى ضعفنا ازاء قوتها ، والأطفال كثيرا ما يصابون بمرض يدعونه « جنون المراهقة » اذ يولع الضعيف المرهق بشخصية جاره القوى ، فيقلده فى ملبسه ومأكله ، بل وفى نظرته ومشيته ، بل وفى زاوية نظره للأمور وموقفه منها ، دون اختيار أو تبصر ·

فالمشكلتان اللتان يجب أن نواجههما اذن هما موقفنا من تاريخنا وآبائنا من ناحية ، وموقفنا من العالم المتقدم من ناحية أخرى ، فاذا نقلنا الأمر الى صعيد الأدب والفن ، كنا مطالبين بأن نحدد بوضوح جرىء وجهير موقفنا من تراثنا الأدبى والفنى من ناحية ، وموقفنا من تراثنا الأدبى والفنى من ناحية ، وموقفنا من الثقافة الأوروبية من ناحية أخرى ·

ولكن يكون للعرب الجدد فن عظيم وأدب عظيم ، يخلد ويخلدهم ، ينبغى أن نحل هذه المعادلة الصعبة حلا موفقا ·

وقد تبدت هذه الأزمة بين سبيلى الاختيار فى الفكر العربى بعامة ، وفى آدابه وفنونه بخاصة منذ زمن بعيد · فقد عرف مجال الفكر السياسى فى أواخر القرن التاسع عشر نظرتين الى المستقبل ، تلك النظرة التى تدعو الى الولاء للرابطة الدينية ، بوصفها ميراث القرون الماضية ، حتى ولو تمثلت الرابطة فى الأتراك والعثمانيين ، والنظرة الأخرى التى تدعو الى طرح كل قديم ، ومحاولة تقليد الغرب فى كل شىء ، حتى مظهره وأسلوبه فى السلوك ·

كان الشيخ محمد عبده يقول فى وقت ما ، ان الولاء للخليفة والخلافة هو ثالث الشهادتين بعد لا اله الا الله ومحمد رسول الله ، وكان الكثيرون يطالبون بالرجعة الى ما توهموه نقاء الحياة الأولى رافعين راية كتب عليها : ان آخر هذا الزمان لن يصلح الا بما صلح به أوله ، بينما فتن آخرون بدعوة زائفة كدعوة مصطفى كمال

أتاتورك الى لبس القبعة وتغيير الأبجدية ، ودعوا الى شيء شبيه من ذلك في بيئتنا العربية .

ومن بين هذين الرأيين انبعثت النظرة العربية الجديدة علمانية الطابع ، وان احترمت الدين ، متينة الصلة بالتاريخ ، وان استشرفت الآفاق الواسعة للحاضر . متينة ومستفيدة من كل ثمرات الفكر الانساني ، بريئة من الاستعلاء والتعصب وضيق الأفق .

ولم تولد هذه النظرة العربية ميلادا سهلا ، ولم تتم دون مقاومة ، ومرت بأطوار الاجتنان واليناعة ثم تجاوزتها الى شبه شباب ونضوج .

لقد حدثت تسوية فكرية في مجال الفكر السياسي بين الرافدين الأصيلين ، رافد المكان الذي يتمثل في موقعنا الجغرافي وتاريخنا الحضاري ، ومقومات شخصيتنا القومية ، ورافد الزمان الذي يتمثل في هذه الحقبة من تاريخ العالم المعاصر ، بحضارتها وفلسفتها وتقدمها العلمي والتكنولوجي .

فهل استطاع أدبنا وفننا أن يقيم هذه التسوية ؟

لعلي هنا أميل الى ان أتتبع فنوننا فنا فنا ، فمن الغريب أن كلا منها مر بظروف تختلف عن ظروف قسيمة .

— ١ —

ولأبدأ بفن الفنون ، وهو الشعر . وهو فن الفنون ، لأنه يتبدى في كل لون من ألوان الفنون ، حين تحلق وتسمو . فاللوحة الرائعة لا نملك الا أن نصف تحققها بأنه شعر ، واللحن الجميل يوصف احكامه وحلاوته بالشعر ، والصفحات النابضة في رواية طويلة حين تستوقفنا نتشمم فيها مسك الشعر وأنفاسه . ولعل هذا الاحساس هو الذي يدفعنا الى القول بأن الشعر أسبق من النظم ، وما النظم الا أسلوب لقولبة الشعر ، ووضعه في أطر خوفا عليه

من القيود والضياع · وقد اهتم البلاغيون حين عرضوا لشعرنا العربى القديم بالاطار أكثر من اهتمامهم بما تأطر عليه · فلم يقولوا ان الشعر أسلوب فى النظرة للحياة والأشياء ، بل زعموا أنه هو الكلام الموزون المقفى · ولسنا نلومهم فى ذلك · فلو أدركنا — كما أدرك غيرنا — أن كل الحضارات القديمة قد خلطت بين الشعر والنظم ، وأن التفرقة بين الشعر والنظم ، لم تولد الا فى الثورة النقدية الرومانتيكية ، لهان علينا أن نطرح آراءهم غير آسفين أو خجلين · فالاغريق مثلا كانوا لا يفرقون بين أناشيد بندار وسافو الغنائية والياذة هوميروس ، وبين الأعمال والأيام لهسيود ، وهى مجرد مذكرة راع بالمواقيت والفصول وأوان الزرع والحصد منظومة نظما جيدا ، بل لقد نظموا المعارف والعلوم ، وعدوا ذلك النظم شعرا ·· وكذلك الرومان كانت دروس « هوراس » البلاغية والنقدية عندهم شعرا مثلها مثل سونيتات بترارك · ولعل التفرقة بين كلمتى « شعر » و « نظم » لم تظهر ظهورا واضحا الا بمحاولات كولردج النقدية ، وزادت هذه التفرقة وضوحا حين ورثت الرواية الملحمة الشعرية وتميزت العلوم بحيث أصبح من العسير أن ينظمها الشعراء وعندئذ بقى للشعر عالمه ·

ولكن الواقع فى وطننا العربى أنه مازال من الصعب علينا أن نفرق بين النظم والشعر ، ولعل مما رسخ هذه الصعوبة مايتمتع به شعرنا العربى القديم من جهارة وموسيقية ، جديرتين بأن تستهويا الأذن لو أحكم نسجهما ، فبعض القصائد أشبه بالموسيقى فى تجريديتها لمن لا يفهم اللغة ويدرك دلالاتها ·

نشأت هذه الجهارة استجابة لطريقة تلقى الشعر القديم ، اذ نشأ هذا الشعر فى ظل الالقاء ، فكان يلقى فى محفل ، يقف فيه الشاعر منشدا ، ليسمع الرواة انشاده ويتناقلوه جيلا بعد جيل · فالدائرة بين الفنان ومتلقيه تتم حضوريا ، وذلك هو ما فرض عليه الى جانب جهارته الاستقامة فى القصد ، والحذر من الابعاد أو التحليق ، ووحدة البيت اذ أن القافية عندئذ هى نهاية الصورة عند

الشاعر ونهاية تتبع المستمع أيضا ، لكى يبدأ كلاهما بعد ذلك جولة جديدة فى هذه المواجهة الثنائية ٠

وافتراض مستمع غائب أمر جدير بأن يتم عندئذ فى ذهن الشـــاعر وهو ينظم قصـــيدته ، والشاعر عندئذ يتوخى مواطن الاستحسان أو الاثارة ، ويوزعها فى ثنايا قصيدته ، فاذا صادفه معنى جدير بأن يتوقف عنده، مهد له بمقدمات وتنويعات حتى يستطيع أن يصل الى بيت القصيد ، وهو جدير بأن يرفع نغمة صوته ، بل بأن يتخذ له سمت الشاعر وهيئته وأسلوب حديثه ، وهو عندئذ لا يجد أقرب اليه من استيحاء التراث وتقليده ، ولعل هذا هو علة الجمود الوفير فى كثير من نماذج شعرنا القديم ، ووقوع أوساط الشعراء فى وهدة الاستعارة من التراث فى تشبيهاتهم وبناء جملتهم واختيار قوافيهم ٠٠

وتاريخ شعرنا العربى سجل للنزاع بين الأصالة والتقليد ومن الممكن دراسته دراسة مضيئة من هذه الناحية بالذات ٠ وقد كان لكل الشعراء الكبار أصواتهم الفردية : بشار وأبى العتاهية وأبى نواس وأبى تمام وابن الرومى والبحترى والمتنبى والمعرى ٠ ولكن هذه الأصوات الفردية كانت تنقصها عادة مواضعات الاجادة التى حاول البلاغيون التشريع لها ، كما كان يقمعها الرأى العام الأرســـتقراطى المحيط بهؤلاء الشعراء من أمثال الخلفاء والأمراء والولاة وأهل الحل والعقد ٠ ولذلك فاننا نجد الانشطار العظيم فى نفسيات معظم هؤلاء الشعراء ، وفى أساليبهم فى الأداء ٠ فأبو نواس مثلا يكتب المدائح والطرديات بأسلوب يختلف عن أسلوب خمرياته وغزلياته ٠ أما المدائح فهى موجهة الى هؤلاء الأثرياء القادرين على البذل والعطاء ، بينما توجه الطرديات الى البلاغيين أصحاب الذوق السلفى ٠ وتظل خمرياته وغزلياته لغة نفسه ونبض احساسه ٠

ولعل من أعظم ما عاب شعراءنا القدامى أيضا عدم ايمانهم بأهمية صنيعهم للحياة ، من حيث دورهم فى تشكيل وجدان الأمة وصـــياغة ذوقها ٠ ولذلك قل احتفالهم بالثقافة العامة ، فيما عدا المعرى العظيم والنواسى الى حد ما ٠ فبينمـــا كان الجـــدليون

والكلاميون والفلاسفة يخوضون فى المعارف الشائعة فى عصرهم ، كان الشعراء يكتفون بحفظ التراث الشعرى وتجويد الصياغة واحكامها · ومن هنا قل فى شعرهم ذلك الطموح الى استشراف المعانى الكلية ، وندرت فى نتاجهم روح المغامرة الفكرية والفنية التى يشرف بها الشعر ويسمو ·

ذلك كله تشخيص مرضى من القرن العشرين للقرون التى تصرمت بين القرنين السابع والثانى عشر · ولكن ذلك المولود الذى شخصنا أدواءه لم يكن عليلا مرهقا ، بل نما فتيا متوردا فى كثير من قسماته ، ففيه ــ شأن كل ما فى الحياة ــ صحة وافرة تعتورها بعض العلل ، التى لا تبدو الا لمن يجعل همه الكشف عنها وتشخيصها ·· وقد استطاع رغم نزعته الخطابية ، وميله الى المباشرة والتقليدية وجزعه من المغامرة ، أن يكون معبرا صادقا عن زمانه ، وأن يرسم صورة نفسية نابضة للمجتمع العربى والانسان العربى على السواء، فهو بالقياس الى غنائيات الأمم القديمة مرتفع المستوى الى حد كبير ·

ولكن الحياة تغيرت فى أوروبا منذ مطالع عصر النهضة ، ثم نشوء الرومانتيكية الأوروبية ، ومن معالم هذا التغير تعديل النظرة الى الشعر ،وتعميق مجال التجربة الشعرية وانديا حها · فقد طالبنا كولردج أول النقاد الجدد الكبار بأن لا يكون الشعر فى القصيدة ملمحا اجماليا من ملامحها ، بل أن يكون كل سطر فيها شعرا لو أخذ على حدة ، ولعل هذا هو ما جعله يتساءل : هل تراجيديات شكسبير ، بل الالياذة والأوديسة كلها شعر ؟

الشعر اذن ليس فن صياغة الانفعالات والأفكار صياغة تختلف عن صياغة النثر ، بل هو فن رؤية هذه الانفعالات ، وتلك الأفكار رؤية تختلف عن رؤية الناثر ·

ومن أهم المسلمات التى ولدتها الحركة النقدية الحديثة ، ابتداء من جون دريدن حتى ليفيز (فى المدرسة الانجليزية ــ ونجد

نظائرها في كل المدارس الأدبية) اعتبار الشعر صوت انسان فرد لا صوت مجموعة من الناس ، ولاصوت فرد موجه الى مجموعة بعينها ، بل هو صوت هذا الانسان يتحدث عن نفسه الى العالم كله٠ وتلك مسلمة تزلزل المسلمة البلاغة العربية المعروفة ، وهى أن البلاغة هى مراعاة الكلام لمقتضى حال المتحدث اليه ٠ وليست تلك المسلمة الجديدة أمرا هينا فى تاريخ الفن ، بل هى الدافعة الى التفرد والمغامرة عند الفنان ، ومن ثنايا هذه المسلمة ولدت كل الحركات التجديدية الشعرية ، من الرومانتيكية الى الكلاسيكية الجديدة والسريالية والرمزية والبارناسية وغيرها ٠

وقد تعاقب منهجان فى النظرة النقدية منذ أواسط القرن التاسع عشر حتى الآن ، وهما المنهج التاريخى فى النظر الى الأدب والفن ، واقرار أثر البيئة فى تفسير الأدب ونقده ، ثم المنهج النفسى من حيث دراسة الأديب دراسة نفسية مستقلة ، واستخراج طابعه النفسى المتميز ٠ فأضافا الى المنهجين المعروفين الأخلاقى واللغوى أبعادا جديدة ٠ واستثارت الزوايا الأربع للعمل الأدبى والفنى ، بحيث أصبح العمل الأدبى مجالا خصبا للدراسة ، وأصبح عليه فى الوقت ذاته أن يرتفع الى مستوى هذه الدراسة المتعددة المناهج ، سواء ائتلفت تلك المناهج وتآزرت ، أم اختلفت واتخذ كل منها سبيلا ٠

وهناك طابع يميز شعر الحضارة الحديثة عن شعر ما سبقها من الحضارات ٠ فوسيلة تلقى الشعر الآن هى القراءة ، منذ أن اخترعت المطبعة واتسع مداها ٠ والقارىء يتلقى القصيدة لقاء حميما ، اذ تنعقد بينهما صحبة مباشرة٠ وهو يتلقاها فى حال تختلف عن حال المتلقى القديم ، فهو لا يرهف سمعه ، ولكنه يرهف ذوقه وعقله وقلبه ٠ ولذلك فقد خفتت النبرة فى جميع النتاج الشعرى الحديث ، وازداد الشعر صعوبة بلغت مداها فى المدارس المحدثة ، حتى قال ناقد معاصر كادموند ولسن ان مهمته كناقد هى أن يكتب « سيناريو » واضحا للقصائد الجديدة مثل « اليباب » لأليوت وغيرها ٠

لقد تغيرت اذن طبيعة الشعر وطبيعة تلقيه تغيرا حاسما منذ نشوء الرومانتيكية الأوروبية حتى الآن ، وانعكس هذا التغير على شرقنا العربى • فقد كره ذوق أواسط القرن التاسع عشر ما عرفته أوائل هذا القرن من شعر عربى ، يتمثل فى أشـــعار الشيخ على الليثى وعبد الله باشا فكرى وغيرهما ، واختلف المجددون سبيلين واتجاهين •

تمثل الاتجاه الأول فى محمود سامى البارودى • ومن الواضح أن محمود سامى البارودى يمثل الكلاسيكية المحدثة • فقد عاد الى النبع الأصيل للشعر العربى محاولا الاستمداد منه • وكان توفيق البارودى منحصرا فى بعض المعارضات للقصائد العظيمة ولم يكن البارودى يضيف الى الشـــعر العربى شيئا جديدا من الانفعالات والأفكار ، ولكن جهده المرموق هو أنه رد اليه استقامة التعبير ، كأن اسهامه الأساسى كان فى حقل الشـــعر لا فى حقل انفعالاته وأفكاره وصوره •

وولد الاتجاه الثانى ، وهو اتجاه المعاصرة وكان فى النثر أسبق من الشعر ، والنثر عادة أسرع فى تطوره من الشعر ، وبخاصة فى مجتمعنا العربى • فالفنون النثرية كالرواية والمسرحية فنون لا تقاليد لها فى أدبنا العربى • ولذلك فهى تتحرك فى مجال التجديد حركة حرة ، ولن يستطيع السلفيون محاكاتها على ضوء ما حفظوه ووعوه من تراث سابق • بل كل ما يستطيعون عمله هو تجاهل هذه الفنون واعتبارها لونا من سقط القول ، لا يجـــوز أن يعنى به النـــاقد الرصين •

وكان خليل مطران هو أسبق الشعراء العرب الى محاولة المعاصرة فى الأداء الشعرى • ومقدمة الجزء الأول من ديوانه وثيقة هامة من وثائق حركة التجديد • كما ان الديوان ذاته يحفل بألوان من الأبنية الشعرية والأساليب التعبيرية ، كانت تعتبر ثورة فى ذلك العصر •

ولو استعرضنا الشعر العربى منذ أوائل القرن العشرين حتى منتصفه ـ باستثناء شوقى ـ وهو ظاهرة منفردة ينفرد لها حديث

فى هذا الكتاب(*)، لأدركنا أن ثمة تغييرين كبيرين قد طرآ عليه ·· أحدهما فى عالمه الانفعالى والفكرى ، والثانى فى شكله الموسيقى . فضلا عن الظاهرة المهمة اللافتة للنظر ، وهى انخفاض نبرته التى لقيت ترحيبا ضخما من النقاد ، حتى نادى محمد مندور ، بالشعر المهموس ، تبشيرا بهذه الظاهرة ، وتركيزا لها فى اطار نظرية فنية ·

فى عالم الشعر الانفعالى والفكرى تميزت فردية الشــعراء بحيث أصبح من اليسير أن يدرك القارىء شخصية الشاعر ونفسيته من خلال شعره ، فلكل شاعر لامع عالمه الخاص : أبو ماضى وعلى طه وأبو شبكة وابراهيم ناجى والجواهرى وبشارة الخورى وبدوى الجبل وعمر أبو ريشة ومحمود حسن اسماعيل وسعيد عقل وغيرهم من أعلام شعراء تلك الفترة الخصبة · فهم على اختلاف ثقافاتهم . وتباين نظراتهم الاجتماعية يتمتعون جميعا بأصـــالة فردية وافرة ، ويكاد يكون لكل منهم قاموســـه اللغوى الخاص · وان كانت تثقل بعضهم فى كثير من الأحيان وطأة الكليشيهات التقليدية ، بحيث يبدو نبضه تحتها ضعيفا واهنا ·

كان كل منهم يريد أن يقول شـيئا جديدا شغل به نفســـه ، وأصبح هو مسألته الفكرية أو العاطفية ــ وبالمناسبة ، فلكل أديب ناضج مسألة أو مسألتان يشغل بهما نفسه وتســـتوعب محاولاته لحلها فكره ونتاجه كله ، وفى هذا الضوء نستطيع أن نفهم كثيرا من الأعمال الأدبية ــ وقد كانت محاولات هؤلاء الشعراء لتحقيق فرديتهم تصطدم بالتقاليد التى وعاها جيل عن جيل ·

ومن هنا جاء التطور الشكلى · ومن يســـتعرض تراث هذه الفترة يجد أن قلة من القصائد قد كتبت موحدة القافية ، فقد كثرت الثنائيات والرباعيات والخماسيات كثرة تستدعى النظر والملاحظة · وهى تكثر كلما زادت أصالة الشاعر ، وتقدم به زمانه ، وازداد اهتمامه بالتعبير عن نفسه ، وذلك لأن اناء القصيدة الموحدة القافية لم يستطع استيعاب هذه المادة الشعرية الجديدة ، فتحطم الاناء ليعاد تشكيله ·

(*) حتى نقهر المــوت ·

ولكن المادة الشعرية الجديدة فاضت على جوانب الاناء الجديد أو القديم المتجدد ، وهو اناء الثنائيات والرباعيات وغيرهما من الأشكال المتخففة ، فولد من ذلك الشكل الشعر الحديث ·

ولذلك فان الشكل الحديث ليس تخففا ولا ايثارا للسهولة ، فهو قد طرح عن كاهله كثيرا من القيم الجميلة فى شعرنا العربى ، كموسيقيته المحكمة ، وقافيته الصادحة ، ليحل محلها لونا أرفع من الموسيقى وأكثر تشابكا · لقد تخلى عن موسيقى الرتابة ليحل محلها موسيقى الهارمونى والتوزيع · وقد آثر البعد عن الدرب المطروق ليخط دربا جديدا · انه شعر عصر المكتشفات الحديثة فى مجال العلم والانسان ، العصر الذى استضاء بداروين وماركس وفرويد وسارتر وغيرهم وغيرهم من معيدى رؤية العالم فى القرنين التاسع عشر والعشرين ·

ولذلك فانى أقف حائرا ازاء كثير من نماذج الشعر الحديث ، متسائلا : لماذا لم يكتبها شاعرها بالشكل التقليدى مادام مايزال يرى العالم رؤية أبنائه القدماء ·

ولو سئلت : ما مستقبل الشعر العربى ، لقلت انه جدير بأن ينتكس نكسة فاحشة ، لو لم تتداركه الأقدار بشعراء أو بشاعر مسيطر على لغته وتراثه ، عميق الاحساس بعصره وبنفسه ، واسع الثقافة مدرك لتيارات الفكر العالمى ، وموهوب ·· أولا ·

وما ذلك على الله ببعيد ·

ـ ٢ ـ

من حسن حظ الرواية العربية أن أمتنا لا تراث لها فى الرواية، فالملاحم الشعرية والنثرية التى حفظها لنا الرواة أقرب الى مثيلاتها فى الحضارات القديمة · أما الرواية بالمعنى الحديث فهى ثمرة نشوء البورجوازية الأوروبية ، وانتشار المطبعة ، ونضوج النثر كأداة للتعبير ، ولذلك فهى أحدث الفنون ، وهى فى الوقت ذاته أوسعها انتشارا وأكثرها تطورا ·

وقد نشأت الرواية العربية الحديثة في حضن الترجمة والتعريب، ثم انتقلت الى مرحلة التجربة المستقلة . معتمدة على التراث الرومانتيكى الأوروبى · فرواية « زينب » مثلا للدكتور محمد حسين هيكل تقليد واضح للرواية الفرنسية ، وروايات طه حسين خليط لم يمتزج بعد من البلاغة العربية التقليدية والموضوعات والاحساس الباريسى ·

أما القصة القصيرة فقد نشأت احتذاء لنماذج موباسان وتشيكوف وان كنت ألحظ أثرا لسومرست موم فى قصاص كسعيد تقى الدين فى كتابة القصة القصيرة (مجموعته الثلج الأسود وقصص أخرى) ·

ونحن الآن قد استوعبنا رواية القرن التاسع عشر ، وأوائل العشرين (مرحلة ما قبل بروست) ولكننا لم نستطع تجاوزها بعد الى رواية القرن العشرين · ولا أعنى بتلك هنا اتجاه الرواية الجديدة الذى يتجلى عند ناتالى ساروت وجان جينيه وغيرهم · وهو اتجاه يختلف اختلافا كبيرا عن روايات تولستوى وديكنز وبلزاك ·

لقد تغيرت صورة المدينة وصورة الانسان فى الرواية المعاصرة عن مثيلتيها فى رواية القرن التاسع عشر : ففى مدن تولستوى وديكنز وبلزاك أحياء للأغنياء وأحياء للفقراء · والأغنياء عادة على درجة من الادراك ونضوج الشخصية · والنسوة العجائز مهتمات بالبحث عن أزواج لبناتهن ، والشباب عاديون ، لاتكاد تحس باختلافهم الا حين يلم بهم العشق · والأشرار فى عرف هذه المدن هم أولئك الذين يخرجون على قوانين المجتمع ، حتى ولو كانوا فى ذلك صادقين مع أنفسهم · والمجتمع كله يأخذ كثيرا من الأمور مأخذ القضايا المسلمة · أما مدن القرن العشرين فقد خلت من ذلك التعارف الواضح حول الخير والشر ، ومن تلك الأنماط البشرية الجاهزة للناس · وحتى العواطف ذاتها فقدت ذلك الحد الأولى من وضوح المدلول عند جميع من يمارسها ، فلم يعد الحب هو الحب الذى عرفته الرواية منذ بدأت حتى الآن ، بل قد تدخل الكراهية فى نسيجه ·

ولقد حاول القصاصون المعاصرون أن يستخرجوا لكل انسان قانونه الأخلاقى الخاص · ولم تعد الرواية تهتم بالوصـــف الظـــاهرى للأشخاص · فتذكر ملامحهم وأطوالهم وأحجامهم كما كان يفعل بلزاك وديكنز ، بل هى تهتم بالنفس الانسانية من الداخل ، ولذلك شاع أسلوب المونولوج الداخلى ، وهو أسلوب لا يستطيع اجادته الا كاتب يستطيع تجاوز ذاته ·· والا كان معبرا عن مونولوجه الداخلى الخاص ، وهو يتوهم أنه يعبر عن تداعيات أبطاله المختلفين·

ولو قرأنا صـــفحات من يولســـيس لجيمس جويس لنرى التداعيات التى تطوف بخاطر أبطاله لاستطعنا أن ندرك أنه استطاع أن يميز البناء النفسى لهم جميعا خلال تداعياتهم بحيث لم يصبح أحد منهم نسخة من المؤلف يفكر مثل تفكيره ·

هذا التجديد فى التناول الروائى ، قد ترك أثره على بناء الرواية ، فأضاف اليها بعدا رابعا هو الذكرى ، كما يتضح فى رواية « بروست » · لقد كانت هناك ثلاثة أبعاد روائية أولها الزمن الذى تدور فيه ، وثانيها احساس الرواية بالتاريخ وثالثها الرؤية المستعرضة التى تتناول نماذج عدة من الأشـــخاص فى علاقاتهم الاجتماعية · وقد استوعب نجيب محفوظ فى تراثنا الروائى الحديث هذه الأبعاد الثلاثة فى الرواية التولستوية والبلزاكية وما عايشها من أعمال فنية ·

أما القرن العشرون ، وبخاصة « بروست » فقد أضاف بعدا رابعا هو الذكرى أو العودة الى ماضى الشخصيات ، وما طوته من صفحات حياتها فى أعماق ضميرها · وظنت أن النسيان قد سحب عليه ذيله فاذا به يبعث بكل قوته اثر موقف أو حادثة ، ويعود الى ذهن البطل ·

ان الكاتب الذى كان يكتب ليمتع الناس أصبح الآن يكتب ليهز الناس ويزعجهم ·· لقد كان فى بادىء لأمر يكتب لهم ، ثم اصبح يكتب عنهم ، وهو الآن يكتب ضدهم ·

وقد شهدنا فى أدبنا بضعة نماذج من المعاصرة الروائية فى أدب فتحى غانم (الرجل الذى فقد ظله) وان كان مما يعيبها ضعف الأسلوب ، ثم غسان كنفانى (رجال فى الشمس) وفى انتاج نجيب محفوظ الجديد • وان كان معظم كتاب القصة الناجحين عندنا مازالوا عند مرحلة أواخر القرن التاسع عشر • أما الآخرون من المبوشين الذين قد يكون بعضهم ناجحا نجاحا شعبيا ، فهم يكتبون القصة بطريقة الريبورتاج الصحفى ، أو يقلدون نماذج سخيفة مثل روايات مارى كوريلى ودافنى دى موربيه أو يشوهون رومانتيكيات ستيفان زفايج أو يخلطون بين منهج الرواية ومنهج الانشاء والتدبيج •

وعلى كل حال فمستقبل الرواية عندنا مرتبط بمستقبل الحضارة العربية كلها ، فالرواية فن لا ينسجم مع مجتمع البداوة أو الزراعة المؤقتة ، بل هى فن المجتمع المدنى المعقد الانفعالات والاحساسات المتمايز الشخصيات •

ـ ٣ ـ

واذا كانت الرواية من أحدث الفنون فالمسرح من أقدمها ، ولكن حضارتنا لم تعرفه الا حديثا • وقد أوضحت فى مقالات لاحقة مدى ماله من أصول فى تراثنا العربى ، ودرست بقدر ما استطعت تطوره فى مصر • والمسرح فى مصر الآن فى رواج شديد كبناء وجمهور ولكن المسرحية فى جمود كنص أدبى فقد ساعدت أدوات الترفيه على تمييع معنى المسرح • وطمح بعض مؤلفينا المحدثين الى تقليد آخر صيحة فى المسرح كبيكت ويونسكو دون أن يمروا بالصيحات الأولى والى تجاوز اصول البناء المسرحى المحكم دون أن يستطيعوا الاحكام ويتقنوا التصميم •

ولكن مما يدعو للتفاؤل أن كل موسم مسرحى يقدم لنا نصا أو نصين جيدين جديدين ، ولعل هذا العدد هو ما نقدر عليه فى مرحلتنا الحالية • ولعل مزيدا من الحضارة أن يعطينا مزيدا من الابداع المسرحى •

***

لقد تعرضت فى ايجاز للفنون الأدبية الثلاثة الكبرى ، ولو أردت أن أقول رأيا شاملا يكون شهادة أحد أبناء هذا العصر ووصيته فى ذات الوقت ، لقلت ان علينا أن نتفتح دون خجل ، ونمد أبصارنا للآفاق حولنا ، وندرك دون غرور أن الدنيا قد سبقتنا ، وأن علينا أن ندركها · ولا ضير علينا اذا عرفنا أن حضارة جديدة يجب أن تولد وتستنبت فى بيئتنا العربية بعد أن ننشر حضارتنا القديمة ، ونحتفظ بما فيها من جوهر خالد ، ونهيل التراب على مالا ينفعنا منها ·

ان الأدب العظيم والفن العظيم لا يولدان فى جيل أو جيلين ، بل فى أجيال متلاحقة متآزرة يكمل بعضها صنيع بعض · والأدب العظيم والفن العظيم هما طريقنا الوحيد لنعطى الدنيا عطاء جزلا ، ونقهر الموت حين يجىء ··

محاضرة القيت فى عمان عــام ١٩٦٦

حتى نقهر الموت

آراء فى الدولة العصرية

« لابد من صيغة ثالثة للحرية توفق بين الفرد والمجتمع وبين الجانبين الاقتصادى والاجتماعى »

اذا كان التاريخ معرضا للأخطاء البشرية بمعنى ما ، فهو أيضا معرض لتصويبات هذه الأخطاء ، أو محاولة تصويبها ٠٠ ومما لاشك فيه أن القرون السابقة قد اهتدت الى قيم خالدة هى حجر الأساس لبناء عصرنا ، الذى يحفل بالتالى بالانجازات والقيم ٠ ومن خلال النظرة فى التاريخ واستشراف الواقع نستطيع أن نميز سمات هذا العصر فى مجالات الفكر والعمل على السواء ، ونستطيع بعد ذلك أن نحس رؤية هذه النسمات ، وأن نحاول أن نطبعها على صفحة حياتنا ، لتصبح حياة عصرية فى دولة عصرية ٠

والتقدم الانسانى ليس الا صورة متكررة فى المواجهة والحل أو طرح السؤال ومحاولة الاجابة ، وهو بهذا التصور جدل دائم بين الواقع والمستقبل ، وبين الظروف والانسان ٠ ويبلغ التقدم الانسانى غايته حين يستطيع هذا الجدل أن يكشف عن صيغ جديدة أكثر ملاءمة وأشد فاعلية وأنسب للحياة ٠

وأول الأسئلة المطروحة علينا هو السؤال : ما الحرية ؟ وقد أصبح هذا السؤال أكثر الحاحا على ضمير عصرنا كله بعد اختبارين هامين : أولهما اختبار الحرية الليبرالية التى ثبت قصورها

واحتواؤها على بذور فسادها فى داخلها ، اذ أنه لا حرية بدون تساوى فرص التعبير عن هذه الحرية · وهذه الفرص لن تتساوى قط فى نظام رأسمالى ، وفى دولة كبيرة تجعــل دون التعبير عن الحرية ثمنا باهظا يتمثل فى المقدرة على اصدار صحيفة ، أو نشر كتاب أو احتلال منبر أو استئجار اذاعة · ولن يذهب بنا الوهم الى تصور أن الحرية هى مجرد الثرثرة للتعبير عن النفس ، فهى بهذا المعنى أشبه ببخار العادم الذى ترسله القاطرة وراءها ، يملأ الجو بالسواد ولكنه يتبدد مع الريح ولا يترك أثرا ·

وكما ثبت قصور الحرية الليبرالية فى المجتمع الرأسمالى كذلك ثبت قصور الحرية والدولة الشمولية التى تقوم على فكرة الحزب الواحد · فحين قام الحزب على الطبقة الواحدة ، تبين فى التطبيق أن ديكتاتورية الطبقة تعنى بالتالى ديكتاتورية الحزب وأن ديكتاتورية الحزب تعنى فى التطبيق ديكتاتورية اللجنة المركزية التى تتركز فى ديكتاتورية سكرتيرها أو رئيسها ، وبذلك أفسح المجال لشخص واحد لكى يزعم لنفسه التعبير عن طبقة ، ولكى يصبح هو وحده الحكم فى مصير أمة ··

لابد اذن من صيغة ثالثة للحرية ، توفق بين الفرد والمجتمع ، وبين حرية التعبير وعدالة الفرص · وبين الجانبين الاقتصــادى والاجتماعى لمشكلة الوجود الانسانى ·

والمرجو من التجربة الجديدة للاتحاد الاشتراكى أن تستطيع أن تجد صيغة ملائمة للثورة الاجتماعية والثورة الاقتصادية معا وبذلك تكون اضافة الى ضمير العصر كله ·

أما السؤال الثانى فهو دور التكنولوجيا ، أو بمعنى أدق ، هل يمكن اكتساب المقدرة التكنولوجية دون روح علمى · وقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الحضارة كل لا يتجزأ ، وانه لا يمكن اقتباس التكنولوجيا دون تبنى الروح العلمى ولايمكن تبنى الروح العلمى دون الاندماج فى الحضارة التى ابدعته · وبهذا المعنى يصبح من

واجبنا أن نتمثل حضارة عصرنا الحديث فلا يدفعنا التعالى الأجوف الى شجب الحضارة الغربية (التى هى احد ملامح عصرنا) ولا يدفعنا الاستخذاء الصبيانى الى تقليدها دون تمثلها ·

وينتج عن هذا السؤال مسألتان فرعيتان ، هما الادارة العصرية والتعليم العصرى فلا يمكن أن نصل الى المستوى التكنولوجى دون مدرسة حديثة وادارة حديثة · والادارة الحديثة هى التى تتحدد فيها المسئوليات ، وتنتقل من الروح الشخصى الى الروح العام · وتثبت فى أذهان الناس أنهم يتعاملون مع فكرة الدولة لا مع ذات الشخص ·

أما المدرسة العصرية ، فهى فيما أظن القسمة التى تستأثر باهتمامى · وهى رغم أنها تبدو خروجا على موضوع رئيسى الا أنى أعدها أساس تكوين الانسان العصرى ولعل المجلس المتخصص للثقافة والاعلام أن يؤدى دوره المرسوم · ولعل الدولة تفكر فى انشاء مجلس متخصص للتعليم العام ينطلق من أن التعليم هو بمثابة حجر الأساس فى تكوين الانسان ، الذى هو جوهر الدولة العصرية ·

الفكر المعاصر ١٩٦٨/٧

نحو جامعة عصرية

لن نستطيع أن نفكر فى أمور الأدب والثقافة دون أن نفكر فى أمور التعليم ، فالتعليم هو حجر الأساس لكل بنيان ثقافى ، لو افتقدت حياتنا المدرسة الصالحة والجامعة الصالحة ، فهى ستفتقد بلاشك ٠٠ الأدب الجيد والفكر المستنير ، بل والمصنع والادارة والبنك والجريدة والمستشفى والاذاعة والقضاء ، كل ذلك سيكون لنا منه أشياء تشبهه ، وهياكل فارغة لها ملامح الأصل دون جوهره ٠

ولست أغالى اذا قلت ان أى تفكير يقفز الى النتائج دون أن يتعمق المقدمات والأسباب ٠ فالمدارس والجامعات هى مراكز صياغة البشر ، ولا دولة عصرية بدون انسان عصرى ، لأن الدولة العصرية هى التى تستطيع رد اعتبار الانسان ، فهى لا تنظر اليه كفرد فى التعداد العام ، ولكن كقيمة حضارية ، ومشروع لتجاوز امكانياته الى امكانيات أعلى ، وكرأس مال ثمين واجب الاستثمار لخير المجموعة البشرية ٠ ولا يكون ذلك الا بامداده بجوهر التجربة الانسانية ، وبمساعدته على اكتشاف ملكاته العقلية والابتكارية ، ومجال ذلك كله هو المدرسة والجامعة ٠

ولست أحب أن أتحدث عن مشكلات الجامعة عندنا الا اذا اصطنعت الحذر الشديد ، لئلا أؤاخذ بجريرة التطفل على مائدة لست من أهلها ٠ فان علاقتى بالجامعة لا تزيد على علاقة الألوف من خريجيها ٠ ولكن مما يشفع لى أنها مازالت أحب الأماكن الى نفسى،

وانى قضيت بضع سنوات بعد تخريجى واشتغالى بالحياة العملية وأنا أعود الى كليتى ، كلية الآداب ، آخر كل نهار ، لالتمس فيها اصداء مما سمعت ، وذكريات مما عرفت ورأيت · ولعل مما يشفع لى أيضا أن الجامعة - فى رأيى - كالأماكن المكرمة لا يختص بها قوم دون قوم ، وتفتح قلبها للمؤمن والجاحد والغريب على السواء ، ولعل مما يشفع لى ثالثا انى لن أزج بنفسى فى بحر لا أعرفه ، ولم اتحدث عن تدريس العلوم والتكنولوجيا بها ، ولكن سأتحدث عن تدريس اللغات والانسانيات ، وهما المجالات اللذان أنتمى اليهما ، ويستطيع كل مشتغل بأمور الثقافة أن يزعم له انتسابا الى شجرتهما، وقربا من بابهما المفتوح ·

ولعل فترة المراجعة التى نمر بها الآن هى أنسب الفترات للنظر فى الأمور المختلفة نظرا جذريا تأصيليا بعد ادراك أوجه قصـور الواقع · وواقع الأمر عندنا أن تدريس اللغات تتنازعه جهات شتى ، منها كلية دار العلوم للعربية وكليات الآداب للعربية وبعض اللغات الحية كالانجليزية والفرنسية والألمانية وبعض اللغات الكلاسـيكية كاللاتينية واليونانية ، ومنها مدرسة الألسن العليا لبعض اللغات الحية الأخرى ، ومنها كليات المعلمين لنفس اللغات التى تدرس فى كليات الآداب ، فهى أربع جهات اذن تتنازع تعليم اللغات ، ومع ذلك فمستوى تعليم اللغات فى تدهور مستمر ، بحيث يندر أن تجد مصريا من الأجيال الطالعة يجيد لغة أجنبية ، أو حتى لغته العربية ·

وكلية دار العلوم هى أقدم هذه المعاهد ، فقد أنشأها على مبارك فى القرن الماضى كمدرسة لتخريج مدرسى اللغة العربية · وظلت تجرى على الأسلوب السلفى فى التعليم حتى ضمت الى الجامعة منذ عهد قريب فحاولت أن تمد جناحيها الى الدراسات الحديثة ، وقد ضمت الى الجامعة ككلية تستقل بتدريس اللغة العربية ، رغم وجود ثلاثة أقسام اللغة العربية فى كليات الآداب الثلاث · ولم تستطع أن تحتفظ بطابعها السلفى لتغير الحياة من حولها ، ولكنها لم تستطع أيضا أن تفلت منه لرواسب ماضيها القديم ، ولست أريد أن أتعرض لتقييم تجربة دار العلوم فى محاولة تبنيها للمناهج العصرية ، فانى

. أعرف فى أبنائها عصبية معهدية . تنبع من حبهم لمعهدهم القديم حتى انهم يكرهون أن يتحدث عنه أحد من غير أبنائه ..

ولكن التجربة التى نستطيع واثقين أن نقطع بفشلها هى تجربة مدرسة الألسن ، التى سميت تيمنا بالمدرسة القديمة المحتجبة التى أنشأها رفاعة الطهطاوى فى أواسط القرن الماضى ، فتفتقت اذهان بعض المعلمين منذ سنوات عن انشاء مدرسة لتعليم اللغات رغم وجود كليات الآداب بأقسامها اللغوية المختلفة ، ثم رأينا فيها أقســـاما للايطالية والأسبانية والتشيكية وغيرها من اللغات التى لا يدرسها الطالب فى المرحلة الثانوية وكأنهم يفترضون أن سنوات أربعا من الدراسة غير المنهجية كفيلة بأن تجعل الطالب عارفا بهذه اللغات الجديدة .

وقد عرفت عديدا من خريجى هذه المدرسة ، وأشهد ، دون شبهة من تحامل أنهم قد نسوا لغتهم الانجليزية أو الفرنسية التى تعلموها فى المدارس العامة ، ثم لم يعرفوا شيئا يذكر من هذه اللغات الحديثة .

أما كليات المعلمين فمجالها معروف وهو تخريج معلم اللغة ، وقد كان الواجب أن تتلقى طلبتها من خريجى كليات الآداب ، وتعدهم بمناهج فى التربية والتدريس . ولكن غرامنا بتعدد الأجهزة ، وتعدد المعاهد المتشابهة قد بعث كليات المعلمين مرتين بعد احتجابها حين أنشئت الجامعة ، بينما كان من الواجب أن ينفق الجهد والمال الذى بذل فى انشــــاء كليات المعلمين فى تدعيم كليات الآداب والعــلوم بالجامعات . وبخاصة بعد أن هبط مستوى تعليم اللغات فى الجامعة نتيجة لافتقارها الى التسجيلات والمعامل الصوتية ، فلاشك أن تدريس اللغات قد تطور كثيراً بحيث أصبح فى كل مدرسة لغوية معامل صوتية يستطيعون بمعونتها اتقان اللغة قراءة ونطقا .

ان الكتاب لم يعد وحده هو اداة تعلم اللغة الجديدة . فى معظم جامعات العالم تحتل التسجيلات الصوتية مكانة اساسية فى

تعليم اللغة · وقد شهدت بعينى فى جامعة منها طلابا استطاعوا أن ينطقوا بلغتنا العربية ، ويقرأوا بعض نصوصها قراءة صحيحة فى مدى ثلاثة أشهر ، بينما ننفق نحن الأشهر الثلاثة وما يزيد عليها فى تعليم الأبجدية ·

والواقع أن أهمية اللغات فى الحياة المعاصرة تستدعى اعادة النظر فى معاهد تعليمها ومناهج التعليم بها · فنبدأ بمراجعة الغاية من تعليم لغتنا العربية فى الجامعات ، ودور دار العلوم بعد توحيد التعليم العام ، وبعد أن أصبحت تتلقى طلابها من المدارس الثانوية العامة · وفشل تجربة مدرســــة الألسن ، ومهمة كليات المعلمين التربوية ، ثم نضع بعد ذلك تخطيطا عاما لأسلوبنا القادم فى تعلم اللغات ·

وأنا أزعم أن كلية الآداب قد أصبحت بامكانياتها الحالية عاجزة عن تدعيم دراسة اللغة ، بعد أن فقدت محتواها كمدرسة عليا للأدب العربى والآداب الأجنبية ، وبعد أن ألحقت بها أقسام لصيقة غريبة عنها ، كان من العبث منذ أول الأمر أن تنشأ لها أقسام مستقلة فى الجامعات ، وأن تفرد لها مناهج وأساتذة ، وأن ينفق الطالب أربع سنوات من عمره فى تحصيل شذرات متفرقة من المعرفة لايكاد يجمعها منهج واضح ، ومثال ذلك أقسام الصحافة والمكتبات ، التى يكفى لاولها وهو قسم الصحافة أن ينشأ له معهد عال يتلقى خريجى الكليات المختلفة ، ويختار الصالح منهم ليؤهلهم للمهنة ، ويكفى لثانيها وهو قسم المكتبات أن يفرد له برنامج تدريبى فى أحد أروقة وزارة التربية والتعليم ·

لذلك فمن الواجب فى رأيى أن تدمج كل معاهد تعليم اللغات فى كلية متأهبة مستكملة الأدوات ، تكون مهمتها هى اللغات وآدابها وحدها ، وأن تتحول كلية الآدب بأقسامها اللغوية وكليات الألسن ودار العلوم والمعلمين لتصبح أقساما فى هذه الكلية الكبيرة ·

أما الانسانيات فنحن مازلنا ندرس صورتها فى القرن التاسع عشر ، ونقصرها على الفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ والجغرافيا ·

ناسين أن كل علم من هذه العلوم قد انقسم على ذاته الى علوم فرعية، انقسمت بدورها الى علوم فرعية أخرى ، وأن علما كالجغرافيا قد تحول الى علم تجريبى أحيانا ، وعلم متصل بالسياسة والاقتصاد أحيانا أخرى بحيث لم يصبح هناك دراسة محددة اسمها الجغرافيا لذاتها · وأن علما كالاجتماع قد انقسم الى علوم جديدة ، تتجاور فى صعيد واحد لتلقى أضـــواء على المجتمع الانســـانى ، مثل الانثروبولوجيا والأديان المقارنة وعلم النفس الجمعى وغيرها · أما الفلسفة فقد تحولت من كونها مجمعا للعلوم ، تضم فى ثناياها الانسان والطبيعة وما وراءهما الى تفسير للتطور العقلى والروحى للانسان · وانفصلت عنها عشرات من مجالات اهتماماتها لتنمو وتصبح علوما انسانية وتجريبية جديدة ·

لذلك فان اقتصار أقسام الانســـانيات فى كليات الآداب على التاريخ والجغرافيا والفلسفة هو امتداد لنظرة القرن التاسع عشر ، والا فمن يستطيع أن يزعم أن الاقتصاد أو علم الأديان أو تاريخ الفن « وجامعاتنا بالمناسبة لا صـــلة بينها وبين الفنون غير القـولية كالموسيقى والتصوير والنحت والعمارة » ، من يستطيع أن يزعم أن هذه العلوم ليست أقرب الى الانسان من الجغرافيا وليســـت فى مستوى دراسة التاريخ أو الفلسفة ·

لذلك فمن الواجب أن تنشأ كلية مستقلة للدراسات الانسانية ، لا تقوم على الأقسام ، ولكن تقوم على المناهج بحيث يختار الطالب مجموعة من المناهج المختلفة التى يستطيع بها تكملة فرع معين من اهتماماته الانسانية ·

ان دراسة اللغات والانسانيات عندنا فى حاجة ماسة الى اعادة النظر ، حتى نستطيع أن نحلق بجناحينا فى سماء الدولة العصرية. فليس بالتكنولوجيا وحدها يحيا الانسان ، بل بالثقافة أيضا ·

المصور ١٠/٥/١٩٦٨

ســؤال .. ملــح

عرفت هذا الاحساس الذى يدفع الى الذهن بالسؤال الملح ، أكثر من مرة ..

عرفت حين حلقت بنا الطائرة ذات يوم من موسكو متجهة الى طشقند .

واجتازت صحراء وسط آسيا التى عرفها العرب باسم صحراء خوارزم ، وكانت الرمال تمتد من تحتنا . جرداء لامعة . وعن هذه الصحراء انحسر العمران الذى يمتد فى كل مكان ، فلا ماء ولا ظل وعن هذه الصحراء ارتد الانسان صانع المعجزات ، فلا قوة له ولا حول .

هذه الصحراء القارية التى لا يختلف مناخها من فصل الى فصل ، بل من نهار الى الليل ، فالنهار فيها حار لافح ، والليل بارد لاذع ..

هذه الصحراء وصلها العرب حين خرجوا من جزيرتهم فى هجرتهم العظيمة نحو قلب التاريخ ، ولم يعقهم عن اجتازها شتى المشاق والصعاب .

ومن هذه الأرض وما حولها خرج رهط من أكبر علماء العرب والمسلمين ·· البخارى المحدث · والخوارزمى الرياضى والخوارزمى الأديب ·· وغيرهم ·· وغيرهم ·

وعرفت هذا الاحساس أيضا حين دخلت متحف مدينة كراكوف البولندية ، هذه المدينة القديمة الفاتنة ، وعلى حوائط بعض غرف المتحف علقت بعض السجاجيد والبسط · نقوشها عربية الطابع ، تستعمل مفردات النقش العربى مثل عناقيد الكرم وزهرة اللوتس وألوان التجريد الهندسى ، ثم فوجئت بما حفظته الأجيال من ملابس وصور سادة دوقية « كراكوف » الأقدمين ، فاذا بالعمامة على رءوسهم ، واللؤلؤة تتوسط العمامة وتلمع فى ثناياها · واذا بالقفطان يلتف على أجسامهم · والسيف بخمائله المنقوشة بالأهلة والنجوم يتدلى من أوساطهم ··

وعرفت هذا الاحساس منذ عهد قريب ، حين حلقت بنا الطائرة يوما كاملا أو زهاء يوم متجهة الى الفلبين ، وما كدنا نهبط حتى شهدنا ملامح من حضارة العرب والمسلمين التى كانت هنا يوما ما من أيام التاريخ ، وقال لنا الأصدقاء ان حاكم مانيلا المسلم الذى واجه الغزو الأسبانى منذ أربعة قرون ، وكان اسمه سليمان ، ابلى أحسن البلاء فى الدفاع عن مدينته ، فلما انقضى الأمر ووقعت الواقعة ، أبى الا أن يقتل نفسه وأهله وعشيرته قبل أن يقتلهم الغزاة الفاتحون · وانقضت الدولة والملك ، وبقيت الحضارة فى الجذور والأعماق ·

قال لى صديقى الكاتب الفلبينى ادريان كريستوبال :

« ان المثقف الفلبينى الكاثوليكى حين يحاول أن يؤصل جذور قوميته يجد نفسه فى قلب الثقافة العربية ·· انه يدرك أن النزعة الأسبانية استعمار وافد ، انها اذا كانت قد منحته ولاءه للكاثوليكية فهى لم تستطع نزع ولائه لمكانه فى جنوب شرق آسيا ، ولأجداده من المسلمين ، ولم تستطع نزع انتمائه الى هذا العالم الغنى بلغته وثقافته وتقاليده » ·

هذا هو الاحساس الذى عرفته أكثر من مرة ، والذى يدفع الى الذهن بالسؤال الملح :

كيف استطاعت هذه الهجرة العربية العظيمة منذ قرابة أربعة عشر قرنا أن تنطلق هذه الانطلاقة الواسـعة ، وتمد أجنحتها فى أصقاع أوروبا ومشارق آسيا وأواسطها البعيدة ·

لم تكن ما تحمله هذه الهجرة دنيا فحسب ، بل كان حضارة أيضا ، وأود هنا أن أشير الى الفارق الذى عرفه وعرفنا به «توينبى» المؤرخ العظيم بين كلمتى « الحضارة » و « المدنية » ·

لقد كانت بعض الأصقاع التى غزاها العرب أكثر تمدنا من العرب · ولكنها كانت أقل منهم حضارة ، وقد اقتبس العرب المدنية من الأمم المفتوحة · ومنحوها حضارتهم ·

ان الحضارة ليسـت ترفا ولا زينة ، بل ان الترف والمتعة والاقبال على الزينة الشكلية هى أدواء الحضارة التى تقضى عليها ·· ان الحضارة هى مجموعة من القيم تتبناها أقلية مبدعة ملهمة ، وتعيد بها بناء مجتمعاتها ··

وأنا لست سلفيا ، ولا أؤمن بالعودة الى الماضى · وكذلك فأنا لا أحلم بأندلس مفقود أو مستعار ، ولكنى أريد أن أعتبر بعبر التاريخ ··

أريد أن أقول ان العرب المحدثين بلا حضارة تتبناها أقلية مبدعة لن يستعيدوا مكانهم ·· وحين أقول بوجوب وجود الأقلية المبدعة لا أريد أن أقترب من المعنى الشائع لكلمة « النخبة » فقد سقطت سيادة نخبة الثروة ، ونخبة النسب الى غير رجعة ، لتحل محلهما نخبة رجال الفكر والعمل ·

ان الأقلية المبدعة الجديدة تبغى أن تبشر بقيمتين ·· قيمة الفكر كأداة نزيهة للنظر فى الواقع وتلمس مشكلاته ، وقيمة العمل

بمستوياته الحديثة المعقدة كوسيلة لتطبيق الفكر وامتحانه ، بغية تنقيحه بفكر جديد ..

ان الجدلية الحقة هى الجدلية التى تقوم بين الفكر والعمل ، بين التأمل فى المواقف ومحاولة اجتيازها . وليست هذه الدعوة دعوة الى « برجماتية » جديدة ، فسيظل الفكر هو الرائد السباق ، وستظل الغاية هى الموجة لخطى الفكر والعمل معا ..

اننا لا نطمع أن نمد حضارتنا الجديدة الى شتى الآفاق ، ولكنا نطمع أن نجعلها ملمحا من ملامح الحضارات فى هذا العالم الواسع المترامى ، فاذا قلنا نحن العرب ، كان لكلمتنا صداها الطيب فى هذا الزمن الذى تعددت فيه الأصوات والأصداء .

الكاتب ٣/١٩٧٥

من أى النوعين مجتمعنا

نشرت الصحف الصباحية الثلاث في ذيل صفحتها الأولى ان طبيبا مصريا هو الدكتور مصطفى حافظ غانم قد حصل على جائزة عالمية على أبحاثه فى الطب • وكان الخبر موجزا فى ثلاثة أسطر •

وكنا قد عرفنا فى بداية حياتنا الصحفية أن من واجب الجريدة حين تتلقى خبرا أن تعهد الى أحد محرريها بتتبع الخـــبر وجمع تفاصيله وكتابة موضوع عنه ، وأن هذا هو مجال التنافس في الصحف المختلفة ، وكنا نعرف هذا باسم « تغطية » الخبر ، أو تنميته من خبر الى « قصة » حسب التعريف الأمريكى المشهور •• ولا أزعم لنفسى أننى صحفى بالسليقة ، ولكنى أنفقت سنوات فى الصحافة حين قادنى اليها ووجه خطواتى ثلاثة من أكرم الأصدقاء : وهم الأساتذة •• حسن فؤاد وأحمد بهاء الدين واحسان عبد القدوس •• على الترتيب ••

كنت فى عام ١٩٥٦ أعمل مدرسا فى الصباح ، وأكتب الشعر فى المساء ، وبين هذا وذاك أقرأ وأتأمل •

وكنت قد نشرت فى ذلك الوقت بضع قصائد لفتت اليها القراء والنقاد لفتا واسعا ، ومنها قصائد « شنق زهران » و « هجم التتار » و « عودة ذى الوجه الكئيب » وغيرها • وكنت حين يستنشدنى أحد الأصدقاء فى مقهى الفيشاوى ــ الذى كنت من رواده فى ذلك الوقت ــ شيئا منهذا الشعر يفيض الخاطر واللسان دون توقف •

وكان من مستمعى المحبين صديقى الأستاذ حسن فؤاد ، وذات مساء قال لى حسن فؤاد ان مجلة « صباح الخير » الناشئة عندئذ ترحب بالكتاب الجدد · فكتبت مقالا ودفعته اليه ، واذا به منشور بشكل كريم ، فكان واجبا على عندئذ أن أسعى الى الأستاذ أحمد بهاء الدين رئيس تحرير المجلة ، وأتعرف عليه شاكرا ·

وعرفت أخى الكبير أحمد بهاء الدين ، وسـعدت بصداقته وتشجيعه ، وظللت أكتب فى « صباح الخير » فتنشر لى ، بينما ظللت أعمل فى التدريس

وذات يوم خطر لى أن أطلب نقلى الى المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون الذى كان قد أنشىء عندئذ ، فطلبت ذلك من الصديق الكبير احسان عبد القدوس كى يكون واسطة عند صديقه الأستاذ يوسف السباعى ··

وفوجئت باحسان يقول لى :

ــ ولماذا لا تستقيل ، وتعمل معنا ؟

وهكذا تحولت من كاتب فحسب ، الى كاتب صحفى ··

وتعلمت عندئذ من احسان وبهاء هذه العادة اليومية ، وهى قراءة الصـحف بامعان ، وتتبع الخـبر الذى يصلح أن يكون موضوعا ··

ولعل صـديقى الصحفى اللامع مفيد فوزى يذكر أننى كنت عندما أقرأ الأخبار التى يقدمها لى ــ أو للمجلة ــ فى بداية حياته الصحفية ، كنت أعلق على كثير منها كاتبا « هذا الخبر ــ لو كان صحيحا ــ يصلح موضوعا » ··

معذرة لهذا الاستطراد الشخصى ــ ولنعد لأول الحديث ·

لقد نشرت الخبر فى الصحف اليومية الثلاث ، وتوقعت أن أقرأ تغطيته فى اليوم الثانى ، واذا بصحفنا الثلاث لا حس ولا خبر ·

وفى اليوم الثالث خلت الأهرام والجمهورية من أى تعليق وانفردت بذلك الأخبار ·· رغم أن الأهرام احتوت على صفحة علميه ممتعة مفيدة ··

أما التليفزيون والراديو فهما فى غربة شديدة عن أى شىء جاد فى الحياة المصرية ، فمازال التليفزيون مشغولا بالفرق بين أسلوبى راقصتين ، وسعيدا بعالمه الساذج المفكك ، ومازال الراديو بكل خدماته يلهث وراء محطة الشرق الأوسط ·

وتساءلت :

ترى لو كان الخبر هو أن نجوى فؤاد سترقص فى السويد ألم يكن هذا الخبر جديرا فى رأى هذه الأجهزة أن ينشر ويحكى باسهاب وتعقد حوله المناقشات والندوات ··

ولو كان الخبر يتصل بمعدة الناس ، أما كان جديرا فى رأى هذه الأجهزة أن يحكى ويعلق عليه تعليقا متصلا ·

وتساءلت :

ان لكل مجتمع نجومه اللامعين ، وطبيعة نجوم هذا المجتمع هى التى تحدد طبيعة المجتمع ، بل هى التى تحدد قيمه وفضائله ، ولاشك أن تقييم أى مجتمع يختلف اذا كان نجومه هم مثلا الفلاسفة أو الشعراء أو المحاربون أو الرياضيون أو العلماء أو · الراقصات !

ويبدو لى أن هناك نوعين من المجتمعات ، مجتمعات تتحرك بالغريزة ، ومجتمعات تتحرك بالعقل ؟

فمن أى هذين النوعين مجتمعنا ؟

الكاتب ١٩٧٥/٥

روح المفارقة .. وروح الجمود

فاتر النفس خامد الفكر كنت أقرأ أنباء انطلاق « أبوللو » و « سيوز » فى الفضاء والتحامهما فوق الأرض بمسافة تعادل المسافة بين القاهرة والاسكندرية لو ارتفعناها برءوسنا .. كنت أريد أن أنفعل أو على الأقل أتعجب وأمصمص بشفتى ، ولكنى لم أستطع ودهشت لحالى الفاترة ، وساءلت نفسى عن علة هذا الفتور ، ومالبثت أن عرفت أن العلة هى أننا ـ كما يقولون ـ لا ناقة لنا فى هذا الأمر ولا جمل .

ان المعجزة قد صنعها سوانا ، وهم على اختلاف مذاهبهم فى الحياة ينتمون الى حضارة غير حضارتنا وتراث غير تراثنا ، وأسماؤهم لا تشبه أسماءنا .. انها معجزة قد صنعها « الخواجات » حين عبروا أقطار الأرض ، وفجروا عباب الهواء ، ونحن مازلنا نتعثر فى وحل طرق الأرض وعثراتها .. فكأننا نحن وهم لا نعيش فى عالم واحد ، بل فى عالمين يفصل بينهما مسافة من جبال التاريخ ووديانه مداها ألف سنة أو يزيد .

وسألت نفسى مرة ثانية عن علة وجود هذه المسافة الواسعة من التاريخ بيننا ، وأنا مريض بالسؤال عن « العلة » فى كل شىء وهو مرض أورثتنى اياه قراءات فلسفية فقيرة ، وأصابة عارضة بالتأمل لم أستطع أن أعالجها فى صباى وشبابى فبقيت معى حتى أعتاب شيخوختى . وأظنها ستظل معى حتى أدخل باب الآخرة .

الكاتب ١٩٧٥/٨

كيف أصبح الشاعر .. اكسلانسا

وقضى الله أن نخطو فوق أرض الهند ، فلقد دعت الهند الى ندوة تحتفل فيها بالذكرى السبعمائة للشاعر الهندى أمير خسرو ، وكانت الدعوة موجهة الى الأستاذ وزير الثقافة على أن يصحبه وفد من الأدباء ، فلما اعتذر الوزير ووكيله الأول عن تلبية الدعوة . عهد الى بقيادة الوفد . وصرت رئيسا بعد أن كان من المتوقع أن أكون عضوا .

فقد كتب المكتب الصحفى الهندى الى بلده أن الوفد برئاسة وكيل وزارة الثقافة . وذلك عندهم مكان يستحق أن يخاطب صاحبه باكسلانس . ففى هيكلهم الحكومى وزارة واحدة للثقافة والتعليم ، ينوب عن وزيرها الذى يحضر مجلس الوزراء نائبان أحدهما للثقافة والآخر للتعليم ، وهما فى مرتبة الوزير وان كانا لا يحضران مجلس الوزراء . وقد أعطتنى ترجمة وظيفتى الى اللغة الانجليزية مدلولا أكبر من حجمها الحقيقى ، فظنونى نائب وزير للثقافة ، أو وزيرا بلا حقيبة من الذين يقفون على أعتاب مجلس الوزراء ولا يدخلونه . ومن الحق أننى قد خوطبت باكسلانس أكثر من مرة فى مصر ، ومازال بعض من تنعقد بينى وبينهم الأسباب يقولون لى « ياسعادة البك » رغم أننى كثيرا ما أنبههم الى أننى مجرد « أستاذ » ، ولكن ذلك كله مما يحدث فى مصر مجرد اكسلانسية عذرية ، لا تترتب عليها أية حقوق لى قبل المخاطبين ، أما اكسلانسية الهند فقد كانت شيئا آخر ، .. كانت اكسلانسية بالمعاشرة والفعل .

حين نزلنا من الطائرة فى مطار نيودلهى ذات صباح مشرق ، بعد أن أمضينا الليلة كلها معلقين بين أصبعين من أصابع القدر نحاول ثلاثتنا .. الشاعر فاروق شوشة والدكتور ابراهيم شتا مدرس الأدب الفارسى بجامعة القاهرة .. وأنا .. أن نتغلب على قلقنا بالضحك حتى ضج منا النيام من رفاق السفر .

.. حين نزلنا من الطائرة فى المطار تلفت حولى لأجد من ينتظرنا ، فوجدنا أربعة من رجال وزارة التعليم والثقافة الهندية . وتقدم منى أحدهم مرحبا ، وفى ختام حديثه كلمة « ياصاحب السعادة .. يور اكسلانسى » .. وقلت لنفسى .. لا بأس .. فهذه اكسلانسية كتلك التى نسمعها أحيانا توجه الى ذواتنا المتواضعة فى حفلات السفارات الأجنبية بالقاهرة ، والتى تلقى علينا أحيانا من الضعفاء ممن يقومون بأمرنا من الشغالين وأصحاب الحرف ولكنى مالبثت أن أيقنت أن الأمر هو الجد ، حين قادونى الى سيارة وقادوا الصديقين الى سيارة أخرى ، وعزيت نفسى قائلا اننا سنلتقى فى الفندق ونستأنف ضحكنا وعبث كل منا بصاحبيه .. وعند باب الفندق ترجلت (ولابد من هذه الكلمة البليغة فقد كانت السيارة أمريكية فارهة) ، وتلفت ورائى ، فاذا بسيارة الصاحبين لا تلوح فى المنحنى ، وسألت فقال لى كبير المستقبلين : انهما فى فندق آخر ، أما اكسلانسيتك فستكون فى هذا الفندق « فندق أشوكا » مع بقية الاكسلانسيات ممن يشاركون فى الندوة . أما غير ذوى تلك الرتبة من أعضاء الوفد فسيقيمون فى فندق « جانبات » . ثم استطرد معزيا لى عن سوء حظ الصاحبين بأن ذلك الفندق من فنادق الدرجة الأولى ، أما « أشوكا » فهو من الدرجة الممتازة .

وهكذا ضربت يد الاكسلانسية بينى وبين الصاحبين ، ففرقت شملنا ، ولكن الضربة القاسية بهذه الرتبة مالبثت أن وفدت الى غير مبطئة ..

كنت أغتنم ساعة قيلولة فى « الجناح » المخصص لى فى اليوم التالى عندما طرق الباب ، وفتحته لأجد رجلا طويل القامة مفتول

الشاربين يقول لى فى عبارة متأدبة ، وهو يخفى سيجارته فى باطن أحد كفيه :

« لقد عينت حارسا شخصيا « بودى جارد » لاكسلانسيتك ، وجئت لأقدم اليك نفسى » ..

وعقدت الدهشة لسانى ، فما ظننت فى يوم من الأيام أن جسمى جدير بالحماية ، أو خلت أن هذا البنيان الذى هدمت السنوت باطنه قد يتعرض لغائلة من الغوائل اللهم الا اذا كان يريد أن يحمينى من سوء التغذية ومدخنة التبغ التى تتوهج فى حلقى « عمال على بطال » كما يقولون .

وصرفت الرجل مؤجلا لقائى الى السادسة فى ساحة الفندق ، وأسرعت الى التليفون لأتصل بفاروق شوشة ، وأنقل اليه هذا الحدث الجلل ، وضحك فاروق وضحكت ، وقال : « لا أدرى لك خصوما الا بعض المثقفين فى مصر ، ولعلهم قد نظموا تدبيرا لقطع رأسك » .

وهكذا أصبحت أنتقل من مكان الى مكان بموكب كمواكب أصحاب السعادة الأصلاء .. سائق يقود العربة ويفيض على من أدبه الهندى ، ومرافق يجلس بجانبى ويسامرنى برقيق الأحاديث اذا أردت ويصمت اذا لذت بالصمت ، ثم حارس يجلس بجوار السائق ، ويشى مظهره بأن فى هذه العربة اكسلانسا .

لم تكن الاكسلانسية متعة كلها ، فان حارسى الشخصى لم يكن ليتركنى لحظة واحدة ، وأنا يحلو لى أحيانا أن أكون خفيف العقل ، ولعلى لم ألحف عليه فى الرجاء أن يتركنى لشأنى الا حينما أردت أن تلتقط لى صورة مع القرود .

كنا عند قبر السلطان المغولى « أكبر » قرب مدينة « أجرا » ، وفوجئت حول القبر بمجموعة ضخمة من النسانيس الطليقة ، وطلبت الدكتور ابراهيم شتا بالكاميرا المتواضعة التى يحملها فى يده ، فاذ به قد تخلف عنا مع زميل تركى ينشط من لغته التركية . وأردت أن

يلتقط لى أحد المصورين المحترفين المنتشرين حول المكان صورة فاذا به يقول لى ان تحميض الصورة سيستغرق بضعة أيام ، وأنها لن تسلم لى بل ترسل على عنوانى ٠

ومضيت وفى القلب غصة ، فابنتاى اللتان هما دنياى وآخرتى كانتا ستضحكان حين تريان صورة أبيهما المحترم ، وهو يلاعب القرود ، وضحكتهما هى طربى وموسيقاى ٠٠

ووصلنا دلهى ، وشكوت سوء حظى الى الصـــديقين جلال الرشيدى نائب مدير مكتب الجامعة العربية وأحمد الابراشى الملحق الصحفى بالسفارة المصرية ، فقالا لى : « لاتأس على ما فاتك من حظ عظيم ، فهنا على مقربة من دلهى قلعة مهجورة تحتل القرود ممراتها وأطلالها ، وتطل من أسوارها وفرجاتها » ، وعندئذ هتفت : « هيا بنا الى القلعة دون أبطاء » ٠

كانت المشكلة هى حارسنا الهمام ، فلم نكن نريد له أن يرى صاحب السعادة المحترم ، وهو يذرع بضعة أميال سعيا وراء هذا الهدف المضحك ، وأن يقع بصره عليه وهو يلقى للنسانيس بعقلات القصب وحبات الفول ، وقال الصديق محمود عبد العزيز الملحق بمكتب الجامعة لحارسنا الهمام أنه يستطيع أن يمضى الى أسرته ، فيقضى معها هذا الأصيل ، وأن المصريين من أهل القافلة المتجهة الى القرود سيتكلفون بحمايتى ، ولكنه رفض باباء وشمم ، وقال ان عليه أن يلزم صاحب السعادة حتى فى عبثه ، فان ذلك من تقاليد المهنة وشرفها ٠

ورغم ذلك ، فقد لعبت فى ذلك اليوم مع القرود كما شئت والتقط لى الأصدقاء عديدا من الصور ، فان ضحكة الحبيبتين أحب الى نفسى من كل احترام واحتشام ٠

نسيت أن أقول ان حارسى لم يكن يتركنى حتى فى مطعم الفندق ، أو فى مقهاه أدخل فاذا خطوته فى اثرى ، وأنهض فاذا بى ألتقيه بالباب ، ولابد أنه حدث خدم المطعم والمقهى بأمرى ، وأنبأهم

أننى « اكسلأنس » ، فزادت بى الحفاوة ، وكان لابد أن أضع فى عينى حصوة ملح ، وأن تكون منحتى لهم موازية لمقامى ٠

ونسيت أيضا أن أقول إننا نحن العاملين فى الحكومة نسافر معتمدين على هذا الذى يسمى « بدل السفر » ، فليس لدينا ما يفيض عن حاجتنا من نقد محلى أو حر حتى نستطيع أن ندسه فى جيوبنا أو نضعه بين بطانة معاطفنا ، ولبدل السفر هذا لائحة مقررة أغلب الظن أنها وضعت فى القرن السابع عشر يوم أن كانت الهند محكومة بسلاطين المغول لأن بدل السفر لمن يتعاطون أجرا كأجرى هو مائة شلن فى اليوم أى خمسة جنيهات استرلينية بالنسبة للهند ، أما اذا كان ضيفا فلا يستحق سوى نصف بدل السفر ٠

وهكذا سـافرت الى الهند ، وفى جيبى خمسـة عشر جنيها استرلينيا عن ستة أيام ٠٠

ودفعت هذه الجنيهات الخمسة عشر بقشيشا ينسجم مع لقب صاحب السعادة ٠٠ أو اكسلانس ٠٠

وهكذا نزلت الهند ومعى هذا المبلغ ٠ وسبقتنى اكسلانسيتى فى مطعم الفندق ومقهاه ، بل وتقدمنى الى غرفتى ، وانتظرتنى على بابها ، وكان معنى هذا أننى يجب أن أبذل المنح فى كل مـكان كاكسـلانس ، وأن أرد على التحيـة المهذبة بتحية نقدية أكثر منها تهذيبا ٠

وهكذا عدت الى أهلى لا أحمل لهم شيئا من طرف الهند ، فيل خشبى صغير ٠٠ أو عقد من رخيص الأحجار ٠٠ كل ما أحمله هو أن أحكى لهم أن هذا الشاعر المتواضع الذى يعرفونه ٠٠ كان لمدة ستة أيام ٠٠ اكسلانسا ٠

الكاتب ١٩٧٦/٣

نبض الفكر

يسألونك عن بقرة الهنود

التقى أحيانا بمن يعرف أننى أمضيت ثلاثين شهرا من أيامى فى بلاد الهند ، فيبادرنى بالسؤال عن « بقرة » الهنود ··

يسألنى السائل : أهم يعبدون البقرة ·· أم يقدسونها فحسب ؟ وقد يضيف : أهى كل بقرة ، أم بقرة منتقاة ذات سمات وشيات معروفة ؟

وكثيرا ما يسأل السائل الذى يريد أن يكون عصريا ، فيأبى عقله أن يتصور البقرة معبودا أو مقدسا :

أما زالوا كذلك رغم العلم والمدنية والالتقاء بالحضارة الغربية؟ وكأن هذا السائل ينسى أن الهنود قد التقوا من قبل بالحضارة الاسلامية ، وهى قمة التوحيد ، والنقيض الواضح لديانات التجسيد والتشبيه وعبادات الطبيعة والحيوان ، فلم تصرفهم عن شىء مما ألفوه ·

وكأنه يتصور أن العلم والمدنية يستطيعان أن يدخلا المناطق النفسية التى لا يدخلها الا الدين وحده ·

وكأنه نسى قولة أبى العلاء منذ قديم الزمان :

عاشوا كما عاش آباء لهم سلفوا

وأورثوا الدين تقليدا كما وجدوا

وأهل كل جدال يمسكون به

اذا رأوا نور حق ظاهر جحدوا

فى الهند ــ حسب الاحصاء ــ بضع وثلاثون مليونا من البقر الاناث ، وهى شأن الناس ــ لا تقنع بالحياة فى أرباض الريف ، بل تطمح الى الهجرة الى المدينة ، فأنت تجدها فى أكثر الطرق ازدحاما وعصرية فى المدن الكبرى ، تخطو خطوها البطىء حرة مطلقة ، أو تتوقف فى عرض الطريق لكى تجتر غذاءها على مهل ، أو تجتاز اشارة المرور الحمراء متهادية ذاهلة العينين ٠

وفى الريف يعامل الفلاحون البقرة كأنها فرد من أفراد الأسرة، فيحلونها بعقود الزهر ، ويصلون من أجلها اذا مرضت ، ويدعون جيرانهم وكاهنهم ليحتفلوا بمولد بقرة جديدة ، وكثيرا ما تجد على حوائط البيوت تقويما عليه صورة امرأة صبيحة الوجه ، ولكن لها جسم بقرة سمينة ، وضرعى بقرة يتدفق منهما اللبن ٠٠

وتقول الديانة الهندوكية ان هذه البقرة هى التى أرضعت الاله كريشنا عند مولده ، ولذلك فهى « أم الحياة » لأن الاله كريشنا ــ فى أساطيرهم الدينية ــ هو رأس الثالوث الأكبر من آلهتهم التى تجاوز الألف عددا ، فاذا كانت وظائف الاله ثلاثا ، فهو خالق من العدم ، وراع فى الحياة ، ثم مدمر لها بالموت والأعاصير والطوفانات ، فان « كريشنا » عندهم هو الاله الراعى الحافظ ٠

ولكن هل البقرة الهندية سمينة مترعة باللحم ، عامر ثدياها بالحليب كما تبدو فى هذه الصور المعلقة على الحوائط ، أم هى ذابلة جافة الثديين الا من النزر اليسير ؟

انها بقرة فقيرة فى واقع الأمر قضت هى وأسلافها حياتها فى مجتمع فقير ، ويكفى أن نعلم أن البقـــرة الهندية تدر من اللبن

خمسمائة رطل سنويا ، بينما تدر البقرة الأمريكية خمسة آلاف رطل ·

وهنا يثور سؤال ··

اذ كان هذا المجتمع مجتمعا فقيرا ، طالما عانى قبل الاستقلال من المجاعات وأوبئة الفقر وقلة الغذاء ، فلماذا لم يأكلوا البقرة كما أكل العربى الجاهلى صنمه حين استبد به الجوع ؟ وكان من اليسير عندئذ أن يتغير السلوك الدينى دون أن يتغير المفهوم ، فتظل البقرة مقدسـة ومأكولة لكى تحفظ لأبنائها الحيـاة بلحمها كما حفظت لكريشنا حياته بلبنها ·

كان عكس هذا هو ما حدث ، فقد ازدادت البقرة قداسة ، وازداد لحمها أو ذبحها تحريما وتجريما ، حتى ان معظم الفتن التى ثارت بين المسلمين والهندوس قبل الاستقلال كانت من جراء أكل المسلمين للحم البقر ، ومن أشهرها فتنة ولاية « بيهار » عام ١٩١٧ ، وقد مات فيها ثلاثون ، ونهبت فيها سبعون ومائة قرية مسلمة ·

كان غاندى حين ثارت هذه الفتنة مناضلا من أجل استقلال الهند الموحدة ، وقد ندد بالنهب والسلب تنديدا واضحا ، ولكنه ندد أيضا بذبح البقرة ، وحين أعلن استقلال الهند ألحقت به « وثيقة لحقوق البقرة » على غرار وثيقة حقوق الانسان

ويقال فى بعض السمر الليلى بالهند ان « نهرو » كان آكل لحم بقر ، وان لم يستملحه ، وقد كان « نهرو » علمانى التفكير الى حد بعيد · وأظنه من قراءتى له وعنه كان « مؤلها » دون عقيدة محددة تقيده · ورغم ذلك فلم يجرؤ على الوقوف فى وجه تيار مقدسى البقرة وعابديها ، أما السيدة « أنديرا غاندى » ابنته فهى وريثة فكره فى المجال الدينى ، ولذلك فقد كان من أسلحة المعارضة ضدها أن تنشر الشائعات حول مسلكها نحو البقرة ، ومنها شائعة عاصرتها اذ انتشر أن مصنعا للحوم المحفوظة قد أنشىء فى بومباى لتصدير لحم البقر الى بلدان أوروبا ، وكان أساس الشائعة أنها أوعزت الى

الشرطة باعادة البقر المهاجر من الريف الى المدينة ، لكى تخلو منه الطرقات المزدحمة ، وينعم بالحياة بين الخضرة والمياه ·

يقول بعض الدارسين ان الهنود شعب مشغول بالدين ، ميال الى الزهد ، أو هو ـ بمعنى أوضح ـ شعب روحى النزعة ·

وأنا وقد عشت فى الهند فترة ملائمة لتكوين فكرة واضحة ، أجد الشعب الهندى شعبا مشغولا بالتجارة والربح ، ميالا الى الاخذ من متع الحياة اذا تيسرت ، بارع التدبير فى أمور المال ، فهو شعب مادى انتفاعى ، وقد يشاركنى هذا الرأى بعض المنصفين من الهنود أنفسهم ··

وقد يقال ان فى تاريخ الهند كثيرا من الزهاد والمترهبين ، وان فى تراثها الدينى كثيرا من الأساطير والطقوس ، ولكن هل قام هذا دليلا فى أى مجال ، وهل كان وجود أفراد معدودين ممن يتمتعون بحس دينى مرهف دليلا على تدين شعب بأسره · أو كان كثرة الأوامر والنواهى والطقوس فى عبادة ما دليلا على روحانية الشعب الذى يخضع لها ؟

لقد كانت الحياة فى الهند عادة أقسى من أن يكون من يعانيها مشغولا بأمور الروح ، فهناك المطر الموسمى الطوفانى والأعاصير الدوارة المجتثة للشجر الناقلة للحجر ، والحرارة الرطبة المفتتة للجسم والعزم ، والخير القليل والتبشير الكثير ·

فلماذا اذن لم يأكل الهنود البقرة ؟

لقد كانت النظرة النفعية هى سبب تقديس البقرة ، لا النظرة الروحية ·

* * *

وأرادت النزعة النفعية أن تعمق وجودها فى النفس الهندية فاستعارت قناعا دينيا ، وخلقت أسطورة متواترة ٠

فالهند فى عهودها المتوالية مجتمع زراعى ، يعتمد فى سقى زرعه على الأمطار الموسمية التى تهطل فى فصل بعينه من فصول السنة ، وشأن مجتمع كذلك المجتمع أن يكون السقى كله فى أوان واحد ، وكذلك الحراثة التى تعتمد على الحيوان ، ولقد كانت حاجة المجتمع عندئذ الى الثيران ، ولا يستطيع الفلاح عندئذ أن يعير ثوره لأحد من جيرانه أو أهل قريته ٠

والبقرة هى أم الثور ، واختصار حياتها اختصار لعطائها ، كما أن الثور أيضاهو أداة حمل المحاصيل فى هذه البلاد الشاسعة الأرجاء ، فضلا عن أن فضلات البقرة هى المصدر الأساسى للسعادة وقد قرأت ذات مرة أن فضلات أبقار الهند تبلغ حوالى سبعين مليون طن من المخصبات ٠

ولا حاجة للقول أن ما يفيض عن حاجة الأرض من فضلات البقرة يستعمل كوقود أيضا ، كما كنا نرى فى ريفنا العربى منذ سنوات قلائل ٠

وتقول نفس الاحصائية التى اعتمدت عليها فيما قبل أن هذه الفضلات توازى فى قيمتها الحرارية سبعة وعشرين مليون طن من الكيروسين ، أو خمسة وثلاثين مليون طن من الفحم أو ثمانية وستين مليون طن من الخشب ٠

ولعلنا نذكر أيضا أن فى ريف وطننا العربى يستعمل ـ أو كان يستعمل الى عهد قريب ـ بعض هذه الفضلات حين تتعرض للشمس مدة طويلة كأرضية صلبة لبيوت الطمى ٠

ان البقرة اذن بديل للبتروكيماويات وللملاط معا ، وهى بديل طويل الأجل متوافر الانتاج ، ولكنها على كل حال عرضة للموت

وهنا يحصل المجتمع على مايفيده منها دون مراعاة للقداســـة أو سواها من النوازع ، فهى تســـلخ لتصنع من جلدها الأحذية ومن قرونها الغراء ، ويسمح بأكل لحمها للمنبوذين ، الذين يعتقد المجتمع الهندى أنهم هوام لا روح لهم ، وأن وجودهم أهون من وجـــود الحيوان ٠

ذات مرة أكلت احدى ولايات الهند بعض أبقارها ثم ندمت على ذلك أشد الندم ٠

نفى عام ١٩٤٤ حدثت مجاعة كبرى فى ولاية البنغال ، نتيجة للقحط اذ أخلفت الأمطار موعدها السنوى ، وحال الاحتلال اليابانى لبورما دون أن يرد بعض الغذاء من جيران الهند ، وبخاصة الأرز الذى هو عماد الوجبة الهندية ٠

وكانت نتيجة هذه الأكلة الواحدة التى لم تكد تشبع البطن أن عانت ولاية البنغال فى سنواتها التالية فى حراثة الزرع وطهو الطعام وتبليط الأكواخ ، وافتقرت الى قطرات من اللبن تبلل صدور أطفالها وتطفىء جوعهم ٠٠

وكان ذلك درسا تلقنته هذه الولاية الشاسعة الأرجاء التى يكون جزء منها الآن دولة بنجلاديش ويبقى الجزء الآخر هنديا تحت اسم ولاية البنغال الغربية ٠

وقد رأينا كثيرا فى الهند بعض ما نراه فى ريفنا العربى اذ يخدع الفلاح بقرته بأن يقرب منها عجلا صغيرا من الخشب المغطى بالخرق الممزقة حتى تتصـــوره وليدها فتدر عندئذ لبنها ، حتى اذا بدأ الادرار أبعد العجل المزيف ، ومد الوعاء تحت الضـــرع الندى ٠

وهكذا لا يسلم الاله من الخداع ابتغاء النفع ٠

* * *

والآن .. هل يأكل الهنود البقرة ، وتزول قداستها يوما ما ؟ لاشك أن ذلك اليوم آت ، اذا انتشر الجرار والمحراث الآلى والسيارة فى الأسرة الريفية .

واذا استطاعت الهند أن تنتج من البترول مايكفى مائة مليون فرن ريفى تصنع كلّ يوم عشاءها على الوقود الحيوانى .

واذا لم يصبح اللبن وحده ، مع قليل من الأرز هو الوجبة الرئيسية لمائة وخمسين مليون طفل .

عندئذ سيذبح الهنود البقرة . فاذا لم يستسيغوا لحمها فلاشك أنهم سيعلبونها وسيصدرونها الى مختلف بلادم العالم .

فالهندى ــ بحق ــ هو أذكى تاجر فى آسيا وأفريقيا .

كتاب نبض الفكر القاهرة ١٩٨٠

حــوار .. لم يــدر

قال لى صاحبى :

ـ ماذا بينك وبين « فلان » حتى أصبح قائما قاعدا فى ذمك والازراء عليك ، يتمنى لو أفسد بينك وبين جميع من تعرف وتألف من الناس ..

قلت لصاحبى :

ـ ذنبى عنده أننى رعيت حق الله والأدب فيه ، ووطدت له أمر دنياه حين ضاقت به ، وعلمت أن الانسان يحيا بالخبز فوصلت بينه وبين خبزه ، وعلمت أيضا أن الانسان لا يحيا بالخبز وحده ، ولكن بأن ينطق كلمته ، فأتحت له أن ينطق بها ، بما أتاح الله لى يوما من قدرة على الخير والمعروف ..

وقال صاحبى :

ـ كأنك تريد أن تعود الى ذلك القول القديم الذميم « اتق شر ... »

وقاطعت صاحبى قائلا :

ـ معاذ الله أن أصل الى هذا القدر من سوء الظن بالبشر ، فلقد قرأت ماهو أوجع من ذلك القول .. قرأت المثل الرومانى القديم الذى كنا نتعلمه فى درس اللاتينية فى سنوات الصبا الأولى «الانسان ذئب للانسان » وقرأت قولة باسكال « ان من بلغ الأربعين ولم يكره

البشر فهو لم يعرفهم بعد » .. وأنا ـ والحمد لله على بأسائه ـ قد جاوزت الأربعين وعـرفت كثيرين من الذئاب ، ولكن حسـن ظني بالبشر مازال هو بهجة دنياي وشفيعي في آخرتي .

وجاوبني صاحبي متعجلا ، وكأنه يرد لي مقاطعتي له بمقاطعة أكثر حرجا :

ـ فلعلك اذن تريد القول أن هذا « الفلان » ليس من البشر ؟
وقلت :

ـ بل لعلي أريد أن أقول ان هذا « الفلان » ليس هو البشر ، لا هو ولا أشباهه . أولئك قوم وجدوا في أنفسهم بعض القدرة على لغو القول ، وشهدوا في عقولهم بعض الوميض من الذكاء . فظنوا أنهم بهذا الحظ القليل يستطيعون أن يحصلوا على الكثير ، وكان هذا الكثير في رغبة خيالهم . لا احسانا في القول ، ولا ابداعا لرفيع الفن أو عميق الفكر . ولكنه كان طموحا الى الاستعلاء وتوقا الى التهجم والتقحم ،ولابأس في سبيل ذلك من أن يستخذوا حتى يرتفعوا ويتمسكنوا حتى يتمكنوا . وهم دوما يبحثون عن ظل يستظلون به ، حتى اذا انحسر هذا الظل لعنوه ولاذوا بغيره .

وقال صاحبي :

ـ لعلك تريد أن تزعم أن أحدا قد أغوى هذا « الفلان » بذمك ، وضمه الى ظله بعد أن انحسر عنه ظلك ؟

قلت لصاحبي :

ـ نعم ، ولعلي لو عاتبت لعاتبت هذا الأحد ، ورجوته أن يكف عني أذى هذا الولد .

كتاب نبض الفكر القاهرة ١٩٨٠

الحبال الاغريقية

حين قالت لى ان اسمها « فيناريتى » وانها من اثينا ، سألتها :

ــ هل تعرفين سقراط ؟

وأجابت قائلة :

ــ سقراط ٠٠ من ٠٠ ؟

وقلت :

ــ لقد كان اسم أمه فيناريتى ، وهو من بلدك ٠

وقالت بلهجة حازمة ٠

ــ لا علم لى بسقراط هذا ٠٠ ان ابنى اسمه مخالى ، وهو يعيش الآن فى استراليا ٠

وهكذا أدركت أن الشهر نسبية ، وأن من نجن بهم من الفلاسفة والحكماء جنونا قد لا يعنون عند من هم أقرب اليهم منا الا الاسم الذى خلا من مسماه ٠

ولعلى كنت عندئذ أريد أن أمزح مزاح مثقفين ، ولكن السيدة الأثينية جعلتنى أبدو سخيفا ، أو لعلى كنت أريد أن أستعرض أمامها معلوماتى ، ففوتت الفرصة على بحسن نية ٠

كان ذلك منذ ربع قرن ، وكنت عندئذ خريجا جديدا ، أعيش حياة البدو فى المدينة الكبيرة ، فأنتقل من غرفة مفروشة الى غرفة مفروشة فى ساعة واحدة من ساعات النهار ، حاملا حقيبتى كتبى وملابسى ، وهما كل ما أملك ٠

وكنت أسكن فى غرفة فى أطراف المدينة ، والتقيت ذات مساء بصديقى عبد الغفار مكاوى الذى لم يكن قد تدكتر (أصبح دكتورا فى الفلسفة) بعد ٠ وقال لى انه سيترك غرفته المفروشة عند سيدة يونانية عجوز فى شارع متفرع من ميدان العتبة الخضراء ، وسينتقل للسكن عند أخيه ٠

واتفقنا أن أحل محله ٠٠

ورتبت الأمــور ، وأخــذت متــاعى وذهبت الى البيت واستقبلتنى السيدة بالباب ٠٠ قلت حين رأيتها :

ــ هذه سيكلوبة (مؤنث سيكلوب) بنت بوزيدون اله البحر ٠٠ كانت طويلة طولا فارعا ، وعريضة عرضا يثير العجب ٠ أما يدها حين تمدها للتحية فقد كانت فى اتساع الرغيف البلدى وفى صلابة الكلابات ٠

وكانت فى الستين من عمرها ، وكان لقاؤنا الأول كما قلت لك من قبل فاترا مشوبا بسوء التفاهم ٠ وغادرت البيت بعد أن وضعت حاجياتى مصدود النفس ، وحين لقيت عبد الغفار فى المساء سألنى عن رأيى وقلت له مازحا ٠٠

ــ كنت أظنها احدى السيرينات اللائى أغوين أوليس بالغناء ، فأمر بحارته بربطه بالحبال فى صــوارى المركب ، ولكنى وجدتها تحتاج الى من يربطها برجل المائدة ٠٠ حتى لا تخيفنى كما رأيتها ٠

فابتسم ، وقال :

ــ ولكنها طيبة جدا ٠٠ هى أم أو أشد عطفا من الأم ٠٠

وانى لأشهد بعد كل هذه السنين أنها كانت كذلك ٠ عشت عندها عاما وبعض عام ، حتى كان يوم دخلت البيت ، فاذا هى

واجمة ·· وسألتها عن سبب وجومها ، فقالت لى أنها أصبحت ثرية :

ـ وهل الثراء يورث الوجوم ؟

ـ نعم ·· لأنى سأضطر أن أطلب منك أن تبحث عن مكان آخر ، لم أعد فى حاجة الى تأجير احدى غرف البيت ·· لقد مات أخى البقال الكبير ، وأنا أحد ورثته ، بل انى أولهم ·· اذ أنه مات ولم يخلف زوجة ولا ولدا ··

كان ذلك هو لقائى الأول بالأغارقة المتمصرين ، أما لقائى الثانى فقد كان عندما قرأت كتاب الناقد الانجليزى المعروف موريس باورا وعنوانه (الخيال الخلاق) ·

كان يتحدث عن مجددى الخيال الشعرى فى العصر الحديث ·· فصل عن ت · س · اليوت ، وفصل عن الشاعر الأسبانى لوركا، وفصول فى آخرها فصل عن شاعر يونانى معاصر اسمه قسطنطين كفافيس ·

وقرأت هذا الفصل ، فاذا بكفافيس هذا اسكندرانى ·· ولد بالاسكندرية المصرية ، وعاش بها ستين عاما ومات ودفن فيها فى عام ١٩٣١ ·

وفتنت بما أورده (باورا) من شعر كفافيس مترجمـــا الى الانجليزية حتى حصلت على ترجمة انجليزية كاملة لشعره ، وكان رائدى فى هذه المرة أيضا صديقى عبد الغفار مكاوى الذى كان يعمل عندئذ فى دار الكتب القاهرية · والذى أمدنى بهذه الترجمة ·

يالعظمة هذا الشاعر وابداعه · لقد كانت الفتنة به تورق فى نفسى شجرا ملتفا كلما مضيت فى القراءة له ·· هذا شعر لا تفسده الترجمة ، لأن الاحساس نقى صلب كالبللور أو الماس ، وقد ترجمت مجموعة طيبة من شعره ونشرتها فى احدى المجلات الأدبية منذ زمن بعيد · فلا نقله الى الانجليزية أنقص متعتى به ، ولا نقلى له من الانجليزية الى العربية سلبه من جماله الا البريق ·

ومضت سنوات ، وقرأت رباعية الاســـكندرية ٠٠ للروائى الانجليزى لورنس داريل ، ولعل أبدع ما فى هذه الرواية هو الجو الشاعرى الذى ترسمه ، وهو يقطر هذا الجو تقطير العطر الثمين بأبيات من الشعر ينثرها هنا وهناك لشاعر الاسكندرية العجوز الذى لا يذكر اسمه ، ولكنها من شعر كفافيس ٠.

وبعد سنوات قلائل كنت مرة فى الاسكندرية فى أوائل الستينات بعد ثلاثين عاما من موت الشاعر ، وسهرت ليلة مع شاعر سكندرى عجوز ، وفاجأنى بأنه كان يعرف كفافيس ، ويعرف بعض من عرفوه أكثر منه ٠ كانوا شبابا وكان شيخا ، وأصبحوا الآن شيوخا يقضون غروب شيخوختهم على أحد المقاهى القريبة ٠

وقصدنا الى ذلك المقهى ، وجلسنا بينهم ، حتى انفتح باب القول ومال الى ذكر هذا الشيخ الشاعر العزب المتشرد النفس ، فاذا بهم يقولون :

ـ كان رجلا غريبا ٠٠ كان صعلوكا لا يؤبه له ٠٠ لا ندرى أنه كان شاعرا ٠ ولكنه كان يجلس فى هذا المقهى كل مساء ٠٠ يشترى أوراق اليانصيب ٠ ويداعب باعتها ٠٠ النهاية ٠٠ لم يكن رجلا محترما ٠٠

وسألنى أحدهم ، وقد اكتسى بلهجة الجد الشديد :

ـ هل كان شاعرا ٠٠ حقا ٠٠ لابد أنه كان شاعرا مادمت تؤكد ذلك ٠٠

أيتها الشهرة ٠٠ أيها البريق الزائل ٠٠ لقد أعطيت سقراط وكفافيس الكثير ، ولكن هذا الكثير كله لم يشفع لهما عند غمار مواطنيهما ٠

أيها المشهورون ٠٠ كفكفوا عن غلوائكم ٠٠ ولا تمشوا فى الأرض مرحا ٠٠

كتاب نبض الفكر القاهرة ١٩٨٠.

• الفـــن

الفولـكلور

يتحدث الناس جميعا هذه الأيام عن الفولكلور ..

تكتب عنه المقالات الضافية ، وتثار المناقشـــات بين الأدباء والموسيقيين ومؤلفى الأغانى ..

والاذاعة تريد أن تحيى الفولكلور المصرى ، وتقدمه مرة ثانية الى الناس وقد دعا أحد الزملاء فى صحيفة يومية الى تأسيس ناد للفولكلور المصرى وانضم اليه المئات ..

فما هو هذا الفولكلور ؟؟

الكلمة كما هو واضح من صياغتها ليست عربية .. ولكن معناها عالمى فى جميع اللغات .. مثل المصطلحات جميعا ، معنى الفولكلور هو الأساطير الشـــعبية والتقاليد والخرافات والعادات والأمثال والمعتقدات .. وأخيرا الفنون الشعبية ..

فالفولكلور المصرى فى الأدب هو المواويل التى نبتت فى التربة المصرية ، وانتقلت بالرواية من شاعر الى شاعر دون أن يعرف قائلها ..

وهو أيضا مادون فى تلك الكتب الصفراء من الأشعار والقصص الشعبية مثل قصة أبى زيد الهلالى والظاهر بيبرس وعلى الزيبق وهو أيضا أغانى الأفراح وعديد الندابات وزفة العروسة وســـبوع الختان ..

والفولكلور فى الموسيقى هو تلك الأنغام الساذجة البسيطة التى تتصاعد من ناى الفلاح عند الغروب ، أو هزج جامعات القطن فى الريف ٠

والفولكلور فى الامثال هو ما تقوله جدتى حين تواجه موقفا تريد أن تختصره فى كلمات موجزة فلا تجد فى ذهنها أبلغ من مثل قديم ، يكون جامعا مانعا ٠٠

والفولكلور فى العادات هو شعائرنا الخاصة التى تؤديها فى التهنئة والتعزية والزار والختمة وحلقات الذكر ٠٠

وبايجاز ، الفولكلور هو حياة الشعب الوجدانية التى يتوارثها أفراده البسطاء جيلا بعد جيل ٠

وقد قضت حياتنا المدنية أو أوشكت على هذه التركة التى خلفها لنا أجدادنا ، وزاحمها الراديو والموسيقى المستوردة والعلم الذى فى الكتب ٠٠

فماذا يريد الذين يحبون الفولكلور أن يفعلوا لكى يحيوه من جديد ؟

صباح الخير ١٩٥٧/١/١٧

الفــن الشــعبى ..

قد تسمع لحنا فى الراديو ، يذكرك بنغمة قديمة سمعتها ذات ليلة فى قريتك .. أو بأغنية ســاذجة غناها فلاح على أرغول ، وتستيقظ النشوة القديمة ، وتحس انك تمتزج باللحن وتعيش فيه

وقد تقرأ قصيدة ويفاجئك تركيب أو تشبيه تجد له صدى من موال قديم أو مثل دارج مما خلفه لنا الأقدمون ..

وبعض الأغانى والألحان تحس معها بالغربة ، وبأن حاجزا سميكا يقف بينك وبينها . ولا تستطيع أن تدخل الى عالمها الا بعد جهد ومشقة ..

وبعض الألحان والأغانى تتسلل الى نفسك دون استئذان .. وتجد اللحن على لسانك ، وفى وجدانك . وتغنيه كانك أنت صاحبه .. فيه أحزانك وأفراحك .

فما السبب ؟

ما يحدث غالبا أن يكون النوع الأول بعيدا عن روح الشعب ، وان يكون النوع الثانى نابعا من فن الشعب .. أى من الفولكلور ..

فما هو اذن واجبنا تجاه الفولكلور ؟

ما واجبنا تجاه المواويل التى تزهر على الشفاه ، والألحان التى تتردد فى قصبات الناى أو على أوتار الربابة ؟ ..

ان فى هذه الفنون طابعنا ، ومميزاتنا كمصريين . وفيها روحنا وتراثنا وتاريخنا .. ان فيها قوميتنا التى نحاول اليوم أن ندعمها فى السياسة والاقتصاد والاجتماع ..

فما هو سبيل تدعيمها فى الفن ؟ ..

أولا : تدوين هذا الكلام الذى يزهر على الشفاه ، وتسجيل هذه الألحان التى تتردد فى الناى وعلى الربابة ..

ثانيا : دراستها ثم تطويرها ، وهذا التطوير يكون فى المواد الكلامية بإعادة بنائها فى شكل عالمى جديد كالمسرحية والقصة ، ويكون فى الموسيقى بكتابتها بالنوتة حفظا لها من الضياع ، ثم بتوزيعها توزيعها موسيقيا لتشترك فى أدائها آلات كثيرة ..

ثالثا : استلهام الفولكلور فيما نكتب من فن جديد ، فمادام هذا الفن قد انبعث من قلب الشعب ، فلابد أن الفن الحديث الذى يستلهمه سيصل الى قلب الشعب ، والوصول الى قلب الشعب هو غاية الفن ..

صباح الخير ١٩٥٧/١/٢٤

الباليه

أصبح رقص الباليه أحد الفنون التقليدية فى العصر الحديث ، يتنافس الناس على حضوره ، وتكتب عنه الكتب والمؤلفات وتدرس قواعده وأصوله فى المدارس ..

وأصبحت فرق الباليه تقوم بدور السفير بين الدول وتقرب بين الشعوب حتى قيل ان زيارة فرقة الباليه الروسى للندن فى أواخر الصيف الماضى كانت محاولة لتخفيف حدة الحرب الباردة بين المعسكرين ..

وفكر كثير من المصريين فى انشاء فرقة باليه وبذلت الجهود الحكومية والأهلية ، فمن الجهود الحكومية فرقة الفن الشعبى التى توالى تمريناتها منذ وقت طويل ، والتى أثارت من المناقشات والجدل مالم تثره أى فرقة أخرى ..

ومن الجهود الأهلية ما أنشأته أحدى الراقصات واحدى الأميرات السابقات .. وغيرهن ..

وتزور مصر الآن فرقة روسية ، وهى وان لم تكن فرقة باليه بالمعنى المعروف الا انها تعتمد أساسا على فن الباليه ..

فما هو الباليه ؟ ·· وما حكايته ؟ ··

الباليه نوع من الرقص ، تؤدى فيه الأقدام وخاصة أطرافها الدور الأساسى ، وتشترك فيه الأيدى والجسم ، كما يعتمد أيضا على التمثيل الصامت والموسيقى ·· كل ذلك فى قصة مؤثرة ويؤدى على المسرح ·· فهو اذن فن يتركب من الموسيقى والقصـــة والتمثيل والانسان ··

وربما كان الرقص أقدم الفنون لأن الانسان حين تحســـس أعضاءه بيديه ابتدأ يرقص ·· والرقص أقدم من التاريخ لأن الانسان الأول فى الغابة كان يرقص لكى يحوز رضاء الآلهة وكانت هذه الآلهة هى الشمس حينا ، والقمر حينا آخر والحيوانات المفترسة فى أحيان أخرى ·

أما رقص الباليه فهو فن حديث لا يكاد عمره يتجاوز ثلاثمائة سنة ··

***

وقد نشأ فن الباليه فى بلاط الملوك ·· فقد أرادت الملكة كاترين دى مديتشى ملكة فلورنسا وصاحبة المغامرات والمؤامرات السياسية الشهيرة فى التاريخ ، أن تشغل ابنها الصغير وصاحب الحق فى العرش باللهو لكى تتفرغ هى للحكم حسب هواها ·· فكونت له فرقة رقص قادها أشهر عازف كمان فى عصره واسمه بلتازارى دى جوييه ونجحت الملكة فى أن تحول اهتمام ولدها الصغير من مشاكل الحكم الى جمال حركة الأجسام وهى تخطر على المسرح ·

وانتقل رقص الباليه بعد ذلك الى فرنسا ، وفى بلاط الملك لويس الرابع عشر أعظم ملوك أوروبا وأكثرهم أناقة واسرافا ترعرع فن

الباليه ، وكان المؤلف المسرحى العظيم موليير يقترح موضوعات للباليه ويساهم فى اخراجها وفى تمرين الراقصات ..

البابا يوافق على الملابس ..

ولم تكن راقصات الباليه فى عهد لويس يلبسن نفس الملابس التى يلبسنها الآن .. فقد كانت حلة الرقص ثقيلة طويلة تخفى القدمين واليدين ، وحين قصرت الراقصة لاكامارجو عام ١٧٢١ رداءها عدة بوصات أثارت فضيحة عظمى ، وبعد أربعة عشر عاما من هذه الفضيحة لبست الراقصة المشهورة « مسالى » ثياب الباليه الضيقة لأول مرة ، ولم يعترض الناس كثيرا هذه المرة ، بل ان البابا نفسه وافق على هذه الثياب وان كان قد أصر على أن يكون لونها أزرق حتى لا يظهر تحتها لون الجسد المثير ..

أما أول كتاب ظهر فى فن الباليه فهو كتاب « خطابات عن الرقص » الذى كتبه الراقص المشهور نوفير عام ١٧٦٠ ، وقد كان نوفير ابنا غير شرعى لأحد أعضاء حاشية الملك شارل الثانى عشر وعمل فى الجيش مدة ، ثم اتجه الى الرقص .. وذاع صيته حتى أن المؤرخين يسمونه « شكسبير الرقص » . ونال تقدير فولتير وجان جاك روسو ..

وخلاصة كتاب نوفير أن الرقص فن مثل الرسم ، يجب أن يستوحى الطبيعة ، وأن مؤلف الرقصات مثل الرسام يجب أن يتبع نفس القوانين فى حركة الأجسام ، ومما قاله نوفير « ان رقصة الباليه المتقنة يجب أن تكون لوحة مسرحية حية ، تصور النفس البشرية .. والشخصيات .. ويجب أن تتجه الى أرواح المشاهدين من خلال عيونهم ، وان الباليه ليس نوعا من الرقص ، ولكنه طريقة لابراز الأفكار الانسانية » ..

واشتد اقبال الجماهير على رقص الباليه ، وانتقل من فرنسا الى انجلترا .. وكانت أشهر راقصات الباليه فى انجلترا هى كلارا وبستر التى احترقت حين مست النار ثيابها وهى على المسرح ..

وبعد مائتى عام من انشاء الأكاديمية فى فرنسا كان فن الباليه فى أزمة طاحنة كاد أن يندثر لولا أنه وجد له أرضا أخرى يزدهر فيها هى روسيا ..

حلق ذقون الراقصـــين ..

ورغم أن روسيا لم تشتهر بالباليه الا فى عام ١٩٠٩ الا أن محاولات خلق فن الباليه فى روسيا قديمة ترجع الى أيام القيصر بطرس الأكبر .. وقد كان بطرس الأكبر طاغية طموحا يريد أن يجعل روسيا المتخلفة تبدو كغرب أوروبا فى الحضارة والفن .. وكان يؤمن أنه يستطيع أن يغير شخصيات الناس حين يغير رقصاتهم .. فاستورد الباليه من هناك ، وقد كانت النساء فى روسيا فى ذلك الوقت يعشن منفصلات عن الرجال ولذلك فان القيصر كان يحلق ذقون الراقصين ويلبسهم ملابس النساء ليقوموا بالأدوار النسائية .

ثم اتبع فن الბالية نفس الخطوات التى سارها فى فرنسـا فأنشأت القيصرة آن أكاديمية روسية للرقص ، حتى أصبح فن الباليه فنا روسيا أصيلا .

وهكذا نشأ فن البالية فى رعاية الملوك والأمـراء ، وظل الاستمتاع به مقتصرا عليهم ، لأن سواد الشعب لم يكن يجد الوقت أو المال أو الفرصة لكى يرى الباليه ، ولكن فى هذه الأيام أخذ الباليه ينتشر وكاد أن يصبح فنا شعبيا فى كثير من بلاد العالم ..

اعظم راقصـــة ..

اذا ذكر أسم آنا بافلوفا فقد ذكر رقص الباليه .

وقصة حياة بافلوفا قصة مجيدة ، فلم يكن أحد يتنبأ للطفلة الصغيرة التى ولدت فى سان بطرسبرج عام ١٨٨٢ كانت ضعيفة لا يتوقع لها أحد أن تعيش ، وحين كانت تلميذه ذهبت فى أحد أيام الأحد لرؤية حفلة الماتينيه فى مسرحية الأميرة النائمة ، ومنذ ذلك

الوقت تعلقت الطفلة الصغيرة بالداليه ، وأصبح حلمها أن تكون راقصة ، وتقدمت بها أمها الى المعهد الامبراطورى للرقص ، ورفض المعهد قبولها لأن سن العاشرة كان هو الحد الأدنى لقبول التلميذات ، وكان أمام آنا الصغيرة عامين طويلين من الانتظار ..

وعندما تقدمت بافلوفا الى الجمهور بعد أن أتمت دراستها نالت نجاحا عظيما ..

وابتدأت بافلوفا تطو الاقطار وكانت رحلتها الأولى الى شمال أوروبا والمانيا ورحلتها الثانية الى فرنسا ، ونالت بافلوفا الاعجاب فى كل مكان حلت فيه . وقال عنها الناقد والمؤلف فوكين ان آنا بافلوفا لا تمشى بل تنساب ، وان الانسان ليستطيع أن يقول ان فى وسعها أن تمشى على حقل من القمح دون أن تهتز سنبلة واحدة ..

صباح الخير ١٩٥٧/٢/٢١

الأوركسترا ..

الأوركسترا مجموعة من العازفين تتراوح بين الأربعين والستين .. ومع كل عازف آلة تصدر صوتا مختلفا عن الأصوات الأخرى في درجته وحدته . ومجموع هذه الآلات تصدر صوتا متناسقا يعبر عما يحتويه « اللحن من انفعالات مختلفة ، وتتكون الأوركسترا من مجموعة من العائلات الموسيقية ، وهى المجموعات الآلية المتشابهة في الطابع وطريقة الأداء .. أما المجموعة الأولى والأساسية فى الأوركسترا فهى المجموعة الوترية . وهى آلات ذات قوس مثـــل الكمان ، ويتراوح عدد الكمان فى الاوركسترا بين ١٠ و ٢٤ والفيولا وهى تكبر الكمان قليلا وتعزف بنفس الطريقة وأخيرا التشـــيلو والكونترابـاس . وفى هذه المجموعة نلاحظ أنهـــا تحوى جميـــع الدرجات الصـــوتية من الحـــاد جـدا كالكمان الى الغليظ جدا كالكونترابـاس كما أنها تتشابه جميعا فى الطـــابع والتأثير . أما المجموعة الثانية فهى آلات النفخ الخشـــبية مثل الفلوت والأبوا والكلارينيت وفى هذه المجموعة كسابقتها تتمثل الدرجات الصوتية جميعها .. أما المجموعة الثالثة فهى المجموعة النحاسـية وتتكون من الترمبيت والترمبون وغيرهما ثم العائلة النقرية وفى العـــادة لا يمثل منها فى الأوركسترا الا الطبلة .

والأوركسترا بتنوع آلاتها قابلة لنقل جميع الأحاسيس لأن كل مجموعة من هذه المجموعات تمتاز بالقدرة على نقل نوع خاص من

التعبير . فالأوبوا مثلا قادرة على نقل صورة الدموع ، والتشيلو للحزن العميق ولذلك سمي قلب الأوركسترا ، أما الكمان فيسمى جناح الأوركسترا لقدرته على التحليق فى الأجواء المختلفة .

ومهمة الموزع الموسيقى أن يجعل كل آلة من هذه الآلات تؤدى دورها ..

صباح الخير ١٩٥٧/٤/١١

الأوبـــرا

الأوبرا مسرحية ملحنة ، يلقى فيها الحوار غناء بمصاحبة آلات موسيقية مختلفة ، وتتنوع فيها الأصوات من الحاد الغليظ الى الرفيع الرقيق ..

والأوبرا كالمسرحية ، تعتمد على قصة وشخصيات ، ولكن وجود الموسيقى جعل الأوبرا أكثر تسامحا فى الفن الروائى من المسرحية ، فكثير من الأوبرات المشهورة ليس فيها قصة محبوكة أو مؤثرة ، بل هى تعتمد على الموسيقى الاعتماد الأكبر ..

وقد ابتدأت الأوبرا بالمشاهد الغنائية التى يتخللها الكلام أو حيل المهرجين أو الحواة أو المشاهد الكوميدية . وكانت تعرض فى قصور الأمراء ، الى أن فكر بعض الموسيقيين فى تأليف الأوبرا بصورتها الحالية أى خالية مما يتخللها من الكوميديا أو الألعاب ..

وقد كانت أول أوبرا بهذا الشكل الجديد الكامل من وحى تفكير جماعة الارستقراطيين فى أكثر مدن أوروبا حضارة فى عصـــر النهضة وهى فلورنسا بايطاليا .

وأقدم أوبرا ظهر فيها هذا الشكل الموسيقى الكامل هى أوبرا أوريديس للملحن الايطالى بيرى ..

وظلت الأوبرا من خصائص المسرح الايطالى فى حضور الأمراء حتى انتقلت الى المانيا ، فكتب فاجنر وموزار موسـيقى أوبرات رائعة ٠

وتتميز الأوبرا الألمانية عن الايطالية في الروح الموسيقى ، فاذا كانت الأوبرا الألمانية تهتم بالتعبير الموسيقى ويتراوح فيها اللحن بين العنف والرقة فان الأوبرا الايطالية تهتم بالحـلاوة والتنغيم الرقيق ٠٠

وأخيرا فان هناك نوعين من الأوبرا ، مثل المسرحية ، فالأوبرا الكوميدية تتخير قصة فيها سوء تفاهم يؤدى الى الاضحاك بينما تحاول الأوبرا الدرامية أن تعبر عن مأساة انسانية فى قالب غنائى ٠

صباح الخير ١٩٥٧/٥/٣٠

الفنانــون ســفراء مصر

فى مهرجانات السلام والصداقة ، وفى المؤتمرات التى تنظمها الشعوب ، وفى المعارض التى تقام للســينما أو غيرها من ألوان النشاط يكون الفنانون هم السفراء لشعوبهم ، ويحظون من اهتمام الرأى العام فى البلاد التى يزورونها بأوفى نصيب ، فتكون الدعاية التى تجنيها بلادهم دعاية مزدوجة ٠

فالفنان اذن ليس مجرد فنان ، وانما هو وجه من وجوه شعبه، ومعبر عن أفكاره وثقافته . ينقلها الى الشعوب الأخرى ممتزجة بالكلمة الطيبة أو الخط المعبر أو الحركة الموفقة ٠

ونحن نرجو أن يتســـع المجال فى المؤتمرات القادمة ليشمل عددا أكبر من السينمائيين والمسرحيين والفنانين التشكيليين ، فان هذا العصر الذى نعيشه هو عصر الشعوب ، لا ينفرد فيه الحكام برسم السياسة بل يستوحونها من قلوب شعوبهم ٠٠ وليس هناك شىء أكثر تعبيرا عن قلب الشعب من الفن ٠٠

ان السفارات الفنية تنجح عادة ٠٠ ومثال ذلك ما حققته النجمة السينمائية فاتن حمامة فى روسيا والصين وألمانيا ، ومن واجبنا الآن بعد أن تفتحت نوافذنا على الأقطار الصديقة ، وارتبطنا بدعوة السلام وتعددت المؤتمرات والدعوات أن نختار لهذه اللقاءات الشعراء والمغنيين والكتاب والموسيقيين ٠٠

وعلى المصالح الحكومية التى تقوم باستضافة الوفود فى مصر عبء آخر ، وهو أن تكون هى رب الدار الذى يمهد للقاء بين الفنانين

على أرض مصر ، فنشرك الفنانين والكتاب المصـــريين فى القيام بواجب الضيافة لأن التقاء الكاتب بالكاتب والرسام بالرسام هو بلاشك أكثر دفئا لقلبيهما من كثير من الاســـتقبالات الرســـمية والحكومية ..

ليكن فنانونا وكتابنا هم ســـفراؤنا فى الخـــارج ، يحملون عواطفنا الى أصدقائنا ، وليكونوا فى الداخل مجندين لكى يستقبلوا ضيوفنا من الفنانين والكتاب ولكى يعبروا لهم عن مصر الجديدة صديقة الشعوب والمحبة للسلام ..

وأخيرا ، فنحن نطالب الجهات المسئولة أن توجه الدعوة الى كتابنا وفنانينا لكى يوضح كل منهم امكانياته التى يستطيع أن يقدمها حين تلتقى وفود الشـــعوب فى مؤتمر التضــــامن وفى غيره من المؤتمرات ، كما اننا نرجوها أن لا تهمل فى شأن الدعوات الموجهة الينا فتحفظها فى أدراجها الحكومية أو تقيم فى وجهها العراقيل أو تبعث بمن لا يستطيعون حمل عواطفنا الى أصدقائنا ..

صباح الخير ١٩٥٧/١٠/٢٤

أزمــة فى أغانينــا

الشعوب دائما تغنى ٠٠

واذا شاعت أغنية ، وامتلأت بها عن روحها دون تصنع أو مواربة ٠٠ واذا شاعت أغنية ما وامتلأت بها حناجر شـــعب من الشعوب فلابد أن فيها شيئا من أعماقه تجسد فى كلام ونغم ٠

واذا أردت أن تعرف شعبا ففتش عن أغانيه ! ٠٠

والآن لنتساءل ٠٠

ماذا غنى شعبنا المصرى منذ ثورته الأولى سنة ١٩١٩ حتى الآن ؟ ٠٠ ان السائر فى شوارع القاهرة فى ذلك الحين كان يسمع نوعين من الأغانى يختلفان فى كل شىء ٠٠ فى الألفاظ ، وفى اللحن، وفى الأداء وفيما يثيران فى النفس ٠٠

كان يسمع :

والنبى توبه مانى شاربه معاك

دى كانت توبه وعرفت هنواك

أو :

أنا عندى معاد فى الدهبيه

ان جه يســـال حد عليه

أو :

على سرير النوم دلعنى

وكان الشعب يسمع أيضا :

اشمعنى يعنى باولو وينى

يأكلوا الصينية وياخدوا الماهية

م الكبانيه

وابن البلد دى يطفح الدردى

وما بتتعدلشى يمكن مايطولشى

يتعشى طرشى

يعوض الله ويهون الله

ع الســـقايين

كانت الألحان الأولى تتميز بالكلام المثير واللحن المطوط ، وبأنها تذكرك بخلوة المخدع ، وكانت الثانية تتميز باللفظ الخشن ، الذى جلبه المؤلف من قاموس الشعب باقتدار وأضافه الى لغة الأغنية دون مراعاة لتلك القوالب التقليدية فى بناء الأغانى ، وكان يتميز باللحن الذى لا تملك حين تسمعه الا أن تشد حبال صوتك وتنفرج به حنجرتك ، وكان يبعث فى النفس ذكرى الشارع والحارة والزقاق الضيق ..

وكان مطربو النوع الأول هم : منيرة المهدية وفاطمة سرى وصالح عبد الحى وسمحة البغدادية ، وكان مطرب النوع الثانى هو الشيخ سيد درويش ، أما التاليف فقد كانت أغانى المخدع تتركب

من بعض الفاظ معادة مكررة تلقى بطريقة « الهنك والرنك » ، ولم يكن الكلام مقصودا لذاته الا بمقدار ما فيه من اثارة ·· والمطرب أو المطربة يستطيع أن يجعل حتى من التواشيح النبوية باعثا لآهات السكارى ونداءات الجنس ·

أما أغنية الشارع فقد كان يؤلفها كتاب أصبح لهم دور بعد ذلك في الشعر الشعبي والمسرحية ولعل من المهم مؤلف أغاني سيد درويش ، أو معظمها ·· الأستاذ بديع خيرى ··

●

لعله كان من الغريب في ذلك الزمان أن تسمع من يغنى

بعد العشا ·· بعد العشا

يحلى الهزار والفرفشة

يغنيها الأغنياء في العوامات ·· والأسطوات في أفراح الأعيان والسادة ·· وأن تسمع في نفس الوقت :

شوفوا البلاوى ·· دا البنك ناوى

يرفع دعاوى

علينا واحنا متجندلين

تخرج هذه الزفرة من فم سيد درويش ليغنيها الفقراء ، وصغار الملاك ، وكل أولئك الذين يرهقهم البنك العقارى بجشعه وتعسفه ··

لقد كان هناك وجهان للرأى العام ، وجه يمثل الطبقة التى تنهب الحياة نهبا ·· الجنس والطعام والمتعة ·· تنتعشى وتسكر ثم تفرغ للهزار والفرفشة ، ووجه يمثل الطبقة التى تحاول أن ترفع رأسها أمام البنك والاقطاع والظلم ·· وحين قامت الثورة المصرية

تزعمها بعض أفراد الطبقة الأولى من المتنورين ، ولكن وقودها كان هو الطبقة الثانية ..

وبانتكاس الثورة المصرية الأولى تقهقر الشـــعب الى مكان المتفرجين وتصدى السياسيون للزعامة وأصبحت لفظة « السياسى » تعنى المداور والمفاوض اللبق بعد أن كانت تعنى الثائر والفدائى ، ولن أستطيع أن أزعم أن الشعب قد فطن بين عشية وضحاها الى أن قضيته الغالية التى بذل فى سبيلها دمه سنة ١٩١٩ والتى غنى لها سيد درويش ألحانه الرائعة ، هذه القضية قد هانت حتى أصبحت تحل على الموائد المستديرة ، ولكنى أذكر خيبة الأمل التى كان الجيل السابق ينظر بها الى الحياة السياسية ، وذلك القنوط الذى كان يواجه به التغيرات المختلفة ، وكأن شيئا من الأمر لا يعنيه .

الام تدفع هذه الحال ؟

تدفع هذه الحال الى انزواء كل انسان فى داخل نفســـه ، وعكوفه على مشاكله الشخصية يجسمها ويتأمل فيها ، تصبح النفس المنفردة هى شغل صاحبها الشاغل ، فاذا أضفنا الى ذلك انتشار التعليم بعض الشىء ، وما شمل الحياة المصرية من رقى فى المظاهر ومحاولة لاصطناع الرقة فى السلوك وجدنا أن هذا المجتمع كان يتطلب أن تنقرض أغانى سيد درويش وما اليها من أغانى المجموعة وأن تزدهر أغانى المخدع ، ولكن بعد أن تأخذ شكلا جديدا يناسب ما طرأ على العصر من تغير ..

لتكن الأغانى رقيقة لأن طباع الناس أصبحت رقيقة ، وخيالية لأن الجميع يسرحون فى الخيال ، ومنكسرة لأن مصر كلها انكسرت انكسارا صامتا خفيا ولكنه يعشش فى جميع النفوس ..

وازدهرت الأغنية الرومانتيكية على يد رجلين ..

أولهما أحمد شوقى الشاعر العظيم الذى كتب بالعامية .. النيل نجاشى .. بلبل حيران .. كلنا نحب القمر .. الليل بدموعه جانى .. فى الليل لما خلى ..

وكان شوقى رجلا غنيا واسع الغنى ، رقيقا بالغ الرقة ، ذا ذوق رفيع ·· وكذلك كانت أغانيه ··

أما أحمد رامى فقد دخل ميدان الأغنية عام ١٩٢٤ مع أول وزارة مصرية فى ظل الاستقلال الناقص ·· فأغنى الأغنية المصرية بالبكاء والنحيب ، والدمع والشجن ··

أن أحمد رامى هو واضع قاموس الأغنية المصرية المأثورة ، كل نغمة باكية أو دمعة حارة أو آهة معذبة فان أحمد رامى هو ينبوعها ··

يا ظالمنى ، يا هاجرنى

وقلبى من رضاك محروم

تلوعني وتكويني

تحيرنى وتضنيني

ولما أشكي تخاصمنى

وتغضب لما أقول لك يوم

ياظالمني

ان كل لفظ من هذه الألفاظ وراءه مأساة ، لا يقوله انسان الا اذا كان ينظر في داخل نفسه فيجدها تحترق وتتمزق وتتغرب عن الناس ··

ولكن رامى فنان أصيل ، ورمانتيكية أصيلة ، والمذهب الفنى عادة لا تتضح عيوبه فى زعمائه ، بل تتضح فى أنصاف الفنانين ، وهكذا اتضحت عيوب هذه الطريقة فى التغنى عند من حاولوا تقليد رامى ··

عندما يقول مؤلف غنائى :

تضحك فى عينى

والفرحة تاخد من قلبى وتجاوبك

وأبص ألاقى

عينيك سارحة مع حاجة ثانية بتندهلك

ستعرف حينئذ الفرق بين الأصيل والمقلد ، حين ترى «الدربكة» فى الألفاظ ، ثم المعانى التى ‥ لا تؤدى ولا تجيب ‥

واقرأ هذه السطور ‥

حبيبى لعبته الهجر والجفا

والقلب (شغلته) لو جاله واشتكى

واسأل نفسك عن معنى كلمة (شغلته) هذا مع ملاحظة الخطأ فى القافية ‥

* * *

كان هناك تيار فى الشعر الشعبى يمثله بيرم التونسى فى أزجاله الرائعة ، ورغم أن بيرم فى أزجاله كان امتدادا لسيد درويش ومؤلفيه الا أنه حين كتب الأغنية اقترب من الدائرة الرومانتيكية مع طبعها بطابعه الخاص ‥

آه من لقاك فى أول يوم

ونظرتك الى بعنيك

خاصم عيونى ليلتها النوم

وبت أسأل روحى عليك

يا هلترى راح تعطف

على فؤاد متلهف

تقول لي روحي ٠٠ آه

ولكن بيرم ظل في شعره الشعبي الذي لا يغني معبرا عن روح الجماهير ، تمردها يأسها وأملها ٠٠ أزجال بيرم هي التي حفظت لنا روح الشعب في هذه الفترة من حياة مصر ، وهي التي تأثر بها الجيل الأخير من كتاب الأغاني ٠٠

❊ ❊ ❊

ظلت الطبقة الواسعة من الجماهير تحاول أن تؤدي دورها السياسي رغم مقاومة الاستعمار والاقطاع ، وكان لها في كل حين انتفاضة تعقبها غفوة ، ولكن هذه الغفوة ماتلبث أن تتمخض عن انتفاضة جديدة ، حتى برز الشعب الى قيادة الحياة السياسية في السنين الأخيرة ، وبرزت الأغنية الوطنية التي استفادت بشكل ما من أزجال بيرم الشعبية وكادت تمتد بأصولها الى أغاني بديع خيري الثورية الأولى ، ولعل معركة الاستقلال الأخيرة في مثل هذه الأيام من العام الماضي ، ووحدة الشعارات الشعبية هي التي أبرزت شاعرا غنائيا جماهيريا مثل صلاح جاهين الذي كتب لنا « ياحمام البر » و « ياسايق الغليون » و « والله زمان ياسلاحي » وأخيرا هذه الصرخة الجماهيرية « حنحارب » ٠٠

وصلاح جاهين قد وصل في حرفية الأغنية أو « تكنيكها » الى مستوى رائع في الاجادة موزونة مرصوصة ، ولكنها بناء متناسق منسجم ، وفي يقيني ان صلاح لم يكن ليصل الى هذا المستوى لولا جهود سبقته في الخروج بالأغنية من مرحلتها الفجة الى مرحلة التكامل في البناء ، ولابد أن أذكر هنا كاتب أغان تعتبر أغانيه مثالا في السبك والكمال الحرفي وهو مرسي جميل عزيز ٠٠ صاحب الأغنية التي أثارت ضجة هذه الأيام ٠٠ يا امه القمر ع الباب ٠٠

❊ ❊ ❊

لم يبق أمام الأغنية المصـــرية بعد هذا التطور الطويل لكي تصبح جزءا من أدبنا المصرى :لا ان ترتبط أكثر بالجماهير وعندما تصبح الأغنية المصرية صالحة لكي تغنيها المجموعة ، فهى قد نجحت فى أن ترتفع الى مستوى الناس وأن تصبح لغة عامة يعبر بها الجميع عن أنفسهم ٠٠

حتى أغانى الحب ٠٠ عندما تعبر عن حبى ٠٠ وحبك ٠٠ وحب البسطاء جميعا لا حب السينما والخيال والروايات ، فستصبح فنا جماهيريا قوميا ٠٠

ان على مؤلفى الأغانى أن يدركوا أمرين عظيمى الاهمية ٠٠

أولهما : أن فنهم هو أشد الفنون التصاقا بالناس ، وتأثيرا فيهم ، وأن الكلمة التى يلقونها لا تلقى فى الهواء بل فى القلوب ، فهم اذن مسئولون عن « مزاج » الناس ٠٠

والثاني : أن الشعب سيفكر يوما فى أغانيه ، وسيخجل من ترديد الكلام الأجوف ، وسيحتقر من يضلله ويميع وجدانه ، سيتبع من يحدثه عن الواقع ٠٠ واقع قلبه ٠٠ وواقع الحياة من حوله ٠٠

روزاليوسف ١٩٥٧/١٠/٢٨

الاذاعة .. والأصوات الرديئة ..

أوقفت الاذاعة ٤٥ مطربا ومطربة عن الغناء ، وثار هؤلاء المطربون ولجأوا الى مجلس الأمة . والى القضاء ، يطالبون بحقهم فى أن يقفوا أمام الميكروفون ، هذا الحق الذى آكتسبه بعضهم من سنين طويلة ، والذى أصبح بالنسبة لمعظمهم هو المصدر الوحيد لكسب الرزق ..

وقد يدهش القارىء لهذا الرقم الكبير ، فهو لا يحس نقصا فى برامج الاذاعة ، ولم يفتقد صوتا من هذه الأصوات التى انقطعت عن الغناء . ومازالت الأغانى تملأ برامج الاذاعة ليل نهار ، وربما وافق القارىء الاذاعة على اجرائها القاسى الذى تسبب عنه كما قال لى أحدهم : « ان أقفلت بيوت ، وحرم أولاد صغار من لقمة العيش » .

والواقع أن هذا الاجـــراء كان نتيجة لخطأ كبير فى تقديم الأصوات ، اذ أن الاذاعة درجت فى السنوات الماضية على أن تسمح فى برامجها لأصوات كثيرة ينقصها الجمال والاتقان أن تصدع رءوس المستمعين حتى أصبح هذا حقا لهم ومورد رزق دائم .

كما أن أزمة المسارح الغنائية ودور الموسيقى فى مصر قد ساهمت فى هذه الأزمة ، فباستثناء الكباريهات ليس هناك مجال آخر للغناء . والكباريهات لا تقدم فنا ، أو على الأصح لا تجعل الفن

فى المكان الأول · ولو كان بمصر صالات راقية للغناء والموسيقى أو مسارح غنائية تقدم الأوبريت والفواصل الغنائية لأمكن لهذه الدور أن تستوعب عددا كبيرا من هؤلاء المطربين ·

ان الاذاعة كمؤسسة حكومية وحيدة لا منافس لها يجب أن تكون هى نهاية خطا المطرب أو المطربة نحو النجاح لا أن تكون البداية ، وعلى المطرب أن يحاول أولا اقناع الرأى العام بموهبته قبل أن يقنع بهالجنة الاستماع بالاذاعة ··

ومع ذلك ، فالمسألة رغم عدالتها الظاهرة مسألة قطع أرزاق ، ويبدى أن الرحمة والعدل ، أو بالأحرى الرحمة والفن لن يتفقا فى هذه المسألة ·

ليت الاذاعة تلجأ الى حل آخر ، ولو بتقليل اذاعات هؤلاء المطرودين ، أو باذاعة أغانيهم فى أوقات لا يقبل عليها المستمع ·

صباح الخير ١٩٥٧/١١/١٤

عبد الوهاب : والفولكلور

خرجت الدعوة الى احيـــاء الفولكلور عن دائرة الرغبات والنوايا الطيبة الى دائرة العمل المنظم المركز ، وتعددت الادارت التى جعلت رسالتها دراسة الفولكلور وبحثه وتنظيمه ، فهناك المركز الذى كونته مصلحة الفنون ، ثم اللجنة الملحقة بالمجلس الأعلى هذا الى جانب البحوث الفردية التى يقوم بها بعض الدارسين فى حقل الموسيقى والأدب الشعبيين ، وهذا بلاشك كسب كبير ينبغى أن تحشد له الجهود لكى يؤتى ثماره ..

وقد التبس الأمر فى أذهان بعض الناس ، وظنوا أن دراسة الفولكلور وبعثه معناها التخلف عن التقدم والرجعة الى الماضى فى التقاليد الفنية وقد تورط فى هذا الخطأ الموسيقى محمد عبدالوهاب فى حديث له نشر فى « صباح الخير » اذ قال اننا يجب أن ننهض فى موسيقانا بان نحاكى الموسيقى الغربية فى التوزيع واســتعمال الآلات المختلفة حتى أذا وصلنا الى مستوى طيب فى « التكنيك » الموسيقى أمكن بعد ذلك دراسة الفولكلور والموسيقى الشعبية دون أن يؤثر ذلك على نهضتنا الموسيقية ..

وخطأ هذا الرأى راجع الى الخطأ فى فهم دور الفولكلور فى النهضة الفنية الحديثة فالفولكلور ليس الا طابعا وتقاليد ، ولكنه ليس مستوى نطمح الى وصوله .. ان فى الفن الشعبى كثيرا من أوجه النقص الفنى ومن البدائية والسذاجة ولكن فيه الى جانب ذلك

مميزاتنا الأصـــيلة كشــعب له تقاليد فنية عريقة ، فنغم الربابة الفولكلورى نغم ساذج بسيط ، ولكنه فى نفس الوقت منبعث من روح الشعب وقلبه ٠

دراسة الفولكلور اذن ليست دراسة فى أصول الفن وطرق التعبير ، ولكنها محاولة من القلب لاستكشاف نبض قلب الشعب ٠٠

لقد رأينا فى حفل قدمته جمعية الأدباء للكتاب العرب عرضا جميلا لنماذج من الفن الشعبى شهدنا رقصة شعبية يشــترك فيها الموسيقى والغناء والحركات الايقاعية الجميلة ، وشهدنا أيضا نماذج من الموال الشعبى المصرى بنغمه الساذج وايحائه الجميل ٠٠ كل هذا هو المادة الخام للنهضة الموسيقية والفنية التى نزمع أن نسير فى الطريق اليها ، ان الاهتمام بالفن الشعبى ليس نهاية بحال من الأحوال ، لكنه بداية طريق مضىء طويل ٠٠

صباح الخير ١٩٥٧/١٢/١٩

الفنون الشعبية المختلفة

هل تتعارض مع القومية العربية الواحدة

منذ سنين قليلة عمت الدعوة الى دراسة الفنون الشعبية وانتشرت هذه الدعوة حتى أصبحت كلمة (الفولكلور) من الكلمات الشائعة التى تدور على الألسنة وتشغل بعمها ودراســـة مجالاتها أعمدة الصحف والمجلات ..

وقد احتار الكثيرون ، بعد أن شملتنا جميعا راية العروبة - هل يظل الاهتمام بالفنون الشعبية الأقليمية .. أم أن هذا يؤدى الى التفريق لا للتجمع ، واثارة لنزعات محلية قد تسىء الى العروبة .

وهذا فهم متسرع للموضوع ، اذ أن العروبة يجب أن تكون دافعا جديدا لدراسة « الفنون الشعبية » فان هذه الدراسات ستنتهى بتوثيق الصلات بين بلاد العروبة المختلفة لا باضعافها ، فأغلب هذه الفنون الشعبية قد نشأت فى عصور الحضارة العربية الكبرى أو بعدها بقليل ..

مثال ذلك قصة من الأدب الشعبى مثل قصة الظاهر بيبرس ، والظاهر بيبرس فى التاريخ غيره فى الأدب الشعبى ، فهو فى التاريخ أحد سلاطين المماليك الذين حاربوا التتار والصليبيين ، أما فى القصة الشعبية فهو بطل مصرى الملامح عربى الحياة فقد حارب فى

مصر والشام والحجاز وبلاد العروبة المختلفة ، وكان يحارب فى سبيل نصرة هذه البلاد جميعها ··

وفى قصص الف ليلة وليلة ، حتى القصـــص التى يجزم الدارسون بأنها كتبت فى مصر ·· نجد شوارع بغداد ، وخليفتها هارون الرشيد ووزيره جعفر ، كما نجد رياض دمشق وسكانها الى جانب أسواق القاهرة ··

فاذا انتقلنا الى نوع آخر من الفنون وهى الفنون التشكيلية وجدنا الطابع العربى يتكرر وجوده فى بغداد ودمشق وحلب والقاهرة من حيث تكراره لوحدة الشـــكلية ودقته ونمنمته ان دراســـة (فولكلور) كل قطر من الأقطار العربية على حدة قد تقودنا الى أوجه من الاختلاف ولكنها فى ذات الوقت ستقود الى أوجه أشمل وأهم من التشابه الى الوحدة ·

والوحدة حينئذ لا تعنى التطابق فان أهل قرية من القرى ليسوا متشابهين تمام التشابه فمابالك بسكان رقعة واسعة من الأرض ، ان الوحدة التى نقصدها هنا هى وحدة الطابع فى الأدب مثلا هى وحدة الأفكار العامة التى تؤمن بالله وبالدين وبالأسرة وتحدد مكانة المرأة الاجتماعية وصورة المجتمع ، وفى الموسيقى وحدة الطابع الهادىء النغم الحزين التوقيع وفى الرقص ذلك الطابع الجماعى الذى نشهده فى حلقات الذكر ورقصة الدبكة والتحطيب وغيرها من الرقصـــات الشعبية مع مافيها من حركة مكرورة غير تامة الانطلاق ، وهى أيضا شبيهة بهندسة بناء المساجد ونقوشها ·

ان دراسة الفنون الشعبية المختلفة المظاهر هى أيضا سبيل الى ادراك الوحدة ·

* * *

وماذا عن المستقبل ؟

ان العناية بالفنون الشعبية ليســت غرضا لذاتها ، ولكنها وسيلة من وســائل النهوض بالفن ·· والأمة العربية عليها دور تاريخى فى مرحلتها الجديدة ، وهذا الدور ان كان سياسيا بداءة فهو فنى بعد ذلك ، اذ أن السياسة لا تتكامل حضاريا الا اذا عاونتها مظاهر النشاط البشرى الأخرى كالفن والأدب والعلم وغيرها ·

والفنون الشعبية تستطيع أن تساهم فى نهضــة الأمة العربية الفنية ، ولذلك فان من الواجب العناية بالفن الشــعبى فى الاقليم المصرى والفن الشعبى فى الاقليم الســورى ، وتطوير هذا الفن ، والنهوض به كى يصبح أحد دعائم الفن العربى المعاصر ··

وكما اتحد الفن العربى من قديم الزمان فى جوهره وطابعه ، واختلف فى مظاهره ، فهو فى بعثه الجديد ســيكون متحدا فى مضمونه ، وان اختلف فى أشكاله ··

كان الفن العربى القديم يعبر عن روح الشــعوب العــربية المختلفة ، هذه الروح التى تمتعت على اختلاف العصور بحد أدنى من الوحدة ، وكان يختلف فى طرق التعبير ، وهو الآن وفى المستقبل سيكون معبرا عن الروح الجديدة للأمة العربية ··

والآن لنتساءل : ماهى هذه الروح الجديدة ؟

هذه الروح الجــديدة روح ثورية متفائلة تهدف الى التكاتف الاجتماعى وتطمع الى صورة من الرقى الاقتصــادى والسياسى ، وتعترف بالمرأة كعنصر فعال فى المجتمع ··

والفن العربى الحديث يجب أن يتمثل هذه الروح وأن يعبر عنها فى أشكاله المختلفة ، سواء فى موسيقاه أو أدبه أو رقصه ، أو طرازه المعمارى أو فنونه التشكيلية ··

وعلى الذين يحاولون دراســة الفنون الشــعبية المتوارثة ، وتطويرها واثراء الفن الحديث بها أن يتخيروا هذه النواحى منها ، وأن يوجهوا دراستهم الى هذه الوجهة ·· وجهة التعبير عن الروح العربية الجديدة ·

صباح الخير ١٩٥٨/٤/٣

عـــام من عمر الفـــكرة

أتم البرنامج الثانى بالاذاعة عاما من عمره ، والبرنامج الثقافى شىء جديد على الاذاعة العربية ، فالمستمع العربى قد تعود أن يكون الراديو بالنسبة له أداة للمتعة الهينة والتسلية الخفيفة ، كما فى طبيعة الراديو كجهاز سهل الفتح سهل الاغلاق ، وفى نفس الوقت جهاز من أشد أجهزة الدعاية اتصالا بالجمهور وقربا منه ، كل هذا يحتم أن يكون الراديو قريبا الى الذوق العام حريصـــا على متطلباته ، ويجعله أيضا بحكم طبيعته جهـــازا يجب أن يبتعد عن الاملال أو التركيز الذى يدفع الى الملل ، لأن اسكات صوته لا يكلف المستمع الا أن يرفع أصبعه ·

ولا تحتوى كل برامج الراديو فى العالم على اذاعات ثقافية خاصة ، والبرنامج الثقافى الوحيد الذى أثبت وجوده لمدة طويلة هو البرنامج الثالث الذى يذاع من لندن ، ولذلك كان طريق هذا البرنامج هو الطريق الذى سلكه برنامجنا الثانى من القاهرة ·

وقد نتج عن ذلك أن كان كثير من اذاعات البرنامج الثانى فى هذا العام غريبة حتى على المستمع المثقف · فمثلا سهرة الموسيقى الكلاسيكية هى أقل السهرات رواجا عند المستمع العربى بينما هى عند المستمع الأوروبى سهرة مستحبة ·

وفى المسرح لم يرسم البرنامج الثانى له خطة طويلة المدى لتقديم المسرح العالمى ، صحيح انه قد قدم كثيرا من روائع المسرحيات

العالمية فى اطار اذاعى ممتاز ، ولكنى أعتقد أنه كان من واجبه أن يتدارك النقص الذى دفعت اليه الفرق المســـرحية الحكومية وغير الحكومية ، التى لم تلتزم حين تقدم روايتها المترجمة بأن تقدم ما تتطلبه الحياة الثقافية فى مرحلتنا المعاصرة ، بل كانت تقدم مايصل اليها من مسرحيات ٠

وكذلك فعـــل البرنامج الثانى ، وانى لأقترح عليه فى عامه الجديد أن يضع أمامه سجلا بالمسرحيات وكتاب المسرح الذين يجب تقديمهم الى المستمع العربى ، ثم يحاول ما وسعه الجهد أن يتم هذا البرنامج المدروس ٠

وقد كان من الجوانب الطيبة فيه برنامج « مع النقاد » ، وهو من المناقشات الأدبية التى تقدمها سميرة الكيلانى ، وكذلك « أخبار الثقافة » ، وهو المجلة الأدبية التى تذاع على الهواء ، والتى يقدمها « فاروق خورشيد » وتحتوى على ما تحتوى عليه المجلات الأدبية من شعر ومقالة ونقد ، وان كانت تخلو من عنصر القصة ٠

هذه كلها جهود طيبة فى الحقل الثقافى ، ينبغى أن يعتز بها المثقفون وأن يناقشوها علها تصل الى مستوى يحقق لها التفوق فى التقديم والتوجيه مع الملاءمة الطيبة لما يتطلبه المستمع العربى ٠

صباح الخير ١٩٥٨/٥/١

الضـــحك على الهــواء

برامج الاذاعة الفكاهية لا تجعلنى اضحك ولا أبتسم ، بل هى بصراحة تغم نفسى ٠

اننا جميعا فى حاجة الى أن نضـــحك ، والفن الذى يجعلنا نضحك فن راق بلاشك ٠ ان النكتة اللامعة شىء جميل ، والحوار الفكه موهبة ، والتمثيلية المرحة هدية من مؤلفها الى قلوب البشر ٠

ولكن الاذاعة تعجز عن اضحاكنا لأنها لا تعرف ماهو الضحك، لا تعرف أن الضحك ليس تشنجا فى عضلات الوجه . ولكنه شعور من أعماق القلب ٠

هناك برنامج اذاعى اسمه « ســـاعة لقلبك » هدفه الضحك ، وبرنامج آخر اسمه « صواريخ » هدفه الضحك أيضا ، والبرنامج العام بعد ذلك ملىء بالتمثيليات الفكاهية ٠

ولكن كل هذه البرامج بدلا من أن تضحكنا ضحكة السعادة الرقيقة ، تعلمنا القسوة والفظاظة ، وفجاجة التصرف حين نصيح : ياجدعان ، أو نموء قائلين : يارب ياخوينا يارب ٠٠ مثل المعلم شكل والدكتور شديد فى البرنامج المشهور ٠٠

قد تكون فى الاذاعة بعض عناصر تمثيلية كوميدية طيبة ٠ ممثل خفيف الظل مثلا أو آخر يجيد تقليد بعض النماذج المصرية المعروفة ،

ولكن ليس معنى هذا أن يخلى بينه وبين الميكروفون ليمسكه بيده ثم يفغر فاه ويقول ما يشاء ، فان من الممكن تنظيم هذه العناصر جميعها فى دريق تمثيل حقيقى ·· يقوم فيه كل فنان بدوره الذى رسم له . وهنا يأتى دور المؤلف · لتبحث الاذاعة عن المؤلف الكوميدى الحقيقى ·· المؤلف الذى يعرف روح الكوميديا ·· ويعــــرف انها تنبع من مفارقات النفس الانسانية لا من مفارقات الألفاظ ومن حدة المواقف لا حدة الصوت وارتفاعه ، حتى ليكاد يخرق طبلة الأذن ··

أيتها الاذاعة ، افهمى ماهو الضحك ، والغى برامجك المملوءة بالضجيج والفجاجة ، وقدمى برامج فكاهية مكتوبة بعناية ومدروسة ولها هدف ·

صباح الخير ١٩٥٨/٥/١٥

كلام أليف عن مذاهب غريبة

الفكرة لا تقنع بأن تعيش دى الرأس والقلب فهى قد تنسكب دما فى الشريان ، وتلتف عضلات فى الذراع ، فتحمل القنبلة والخنجر والسيف وتنزل الى الميادين لتقتل ، والى الكهوف لتخنق ، والى الغرف المظلمة لتضع السم فى الشراب ٠

والفكرة قد تصبح فى ذات الوقت قصيدة نابضة أو كتابا ممتعا أو خطا يعانق خطا آخر ٠ والسريالى أخو الفوضــــوى ٠٠ كان السرياليون يحتجون على هذا العالم . ويقولون ان القالب قد أفسد كل شىء ٠ لقد تجمدت العواطف فى قالب ، وخرط الخراطون الكبار « اناتول فرانس » و « بلزاك » و « فلوبير » و « كلوديل » تعبيرات الفن فى قالب آخر ٠٠

أما الفوضويون فهم ينظرون بالعين الآخرى الى الجانب الآخر من العالم ٠٠

لقد تجمد النظام الاجتماعى على الظلم والاستغلال ، وأمسك السادة الكبار ، قيصر روسيا وامبراطور النمسا وملك بروسيا ٠ بأعنة العالم ، وأصبح المفكرون يفكرون فى دائرة الاصلاح الوديع البطىء ٠٠

والدولة عند الفوضـــويين هى عدو الحـــرية ، وهى وحش من أجرأ الوحوش ، وانها لتكذب بجرأة ، وأكذوبتها المستحبة ، أنا

الدولة ، فأنا الشعب •• وهى تلتهم حريات الأفراد بالقوانين التى تتزايد وتتجدد يوما بعد يوم ، والدولة محافظة بطبيعتها لأنها تقوم على دعامتين هامتين هما الاستقرار والنظام ••

ولكى يمارس الفنان حريته لابد أن يتخلص من القلب ، ولكى يمارس الانسان حريته لابد أن يتخلص من الدولة ، ومن السعى الدائب نحو الحرية ، ومن هنا خرج هذان المذهبان فى الفن والسياسة ، وهما : السريالية والفوضوية ••

وقد حكى لنا الزميل كامل زهيرى قصة هذين المذهبين بين العديد من المذاهب الأخرى التى قام بدراستها فى كتابه « مذاهب غريبة » ••

والفصلان اللذان تحدث فيهما الزميل عن السريالية والفوضوية، هما أمتع الفصول فى الكتاب ، فقد حفل الى جانب الدراسة التاريخية والفنية بمحاولة متبصرة لرد هذين المذهبين الى ظروفهما الاجتماعية • عاشت الفوضوية فى أوروبا حياة القرن التاسع عشر، حين كانت كل الدعوات تتصارع على أرض القارة المزدحمة بالأفكار والممالك والفلسفات ••

كانت الرؤوس المفكرة الكبيرة والأيدى القوية تنبت بغزارة فى تربة خصبة ومناخ ملائم ، فهو القرن الذى عرف أعظم الشعراء وأعمق الكتاب والمفكرين ، وأقوى رجال الحكم والدولة •

وقام الصراع بين التطور والجمود ، بين النظام والانطلاق ، بين القانون والحرية ، بين الدولة والأفراد ••

أما السرياليون ، فهم أبناء المحنة التى اجتازتها أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى • كل الجيل الموجع من أدباء فرنسا يتسكعون على المقاهى ، ويهربون من الحضارة التى تحولت الى مجزرة •• وتحولت المجزرة بعد ذلك الى مهزلة الهدنة ومعاهدة فرساى •

وكان احساسهم بالمرارة والجرح أعنف من أن تحتمله الألفاظ المطروقة والكلمات الدارجة ففكروا في طريق جديد ، هو أن يتخلى كل منهم عن عقله ، ليكتب أو يرسم مايشاء من نبع وجدانه أو عقله الباطن ٠

ولكن ما الحرية ؟ ٠٠

ان الحرية فى الفن والسـياسة ليست فى التخلى عن كل القيود ٠ ولكنها فى التوفيق بين الفرد والمجموع ، بين النظام والرغبة فى السياسة ، وبين التقاليد والابداع فى الفن ٠٠

والجهد الضخم الذى بذله الزميل ، هو أنه نقل الينا هذه الأفكار الغريبة فى لغة أليفة ، فكساها دما ولحما وأحداثا ، وتحرك بها على مسرح مزدحم بالأسماء والتواريخ والأعمال ٠٠

وقد تعود من جولتك مع الزميل فى كتابه « مذاهب غريبة » لتتساءل : هل عاش الانسان كل هذه الأوقات ، وخطرت برأسه هذه الأفكار ٠٠ ولكن ، احذر ! ٠٠ اياك أن تدين أحدا بالخطأ ! ٠٠ فاننا نعيش الآن فى عصر الأفكار السديدة لأن أولئك الذين سبقونا قد تحملوا عنا عبء الأفكار الخاطئة ٠٠

صباح الخير ١٩٥٨/٦/٢٦

هل تنجح هـــذه المحاولة

تعود وزارة الارشاد الى محاولة احياء الفنون الشعبية بعد أن انقضى عام على توقف فرقة « ياليل ياعين » المفاجىء ، فهى تفكر فى انشاء فرقة الفنون الشعبية ، وفى تشجيع فن الأراجوز ، وقد افتتحت منذ يومين « بيت السنارى » ليكون معرضا للفنون الشعبية من موسيقى وغناء وتسجيلات وأدب شعبى ٠

ولعل هذه الخطة الجديدة تحقق من النجاح والاستمرار مالم تحققه فرقة « ياليل ياعين » ، فقد شكلت الفرقة الأولى على عجل لكى تسافر فى رحلة فنية ، تنفيذا لاتفاقية ثقافية ، ولم يكن برنامج حياتها الفنية مرسوما بشكل يسمح لها بالاستقرار ومداومة التجدد . وحين انتهت هذه الفرقة الناشئة من مهمتها المزمعة ، حلت دون سابق انذار ٠٠

وكانت الفرقة قبل حلها تحظى باقبال كثير من الرواد ، وكان نجاحها المادى مدعما بالاقبال على الشباك ، وكان من الممكن أن تستمر فى تقديم البرنامج الذى نظمته فصلا أو فصلين فنيين آخرين ولكنها رغم ذلك لم تكن تحمل المقدرة على البقاء الطويل ، لأن البقاء يحتاج الى تجدد دائم ، وبرنامج مدروس ، وامكانيات متطورة ٠٠

ونرجو أن تكون تجربة فرقة « ياليل ياعين » ماثلة أمام المسئولين فى وزارة الثقافة حين ينفذون مشروعاتهم الجديدة ، فلا يقتصـــر

التفكير على تقديم برنامج واحد أو فصل فنى ناجح ، ولا تعتمد هذه الفرق على عناصر بعينها ، فاذا تخلت هذه العناصر عن الميدان أقفر بعد ذلك من كل موهبة ، بل تكون هذه المنشآت الجديدة مدرسة للفنون الشعبية ، تسجل ما يعثر عليه منها ، وتطوره وتقدمه فى ثوب جديد ، وتخرج فنانين شعبيين جددا ، وتواصل أوجه النشاط فى حقل دراسات الفولكلور فى جميع أنحاء العالم ، وتتجدد برامجها باستمرار ٠

ان المشروعات الجديدة فى حاجة الى نوع من التكامل والتناسق بين الهيئات المختلفة التى تعنى بالفنون الشعبية ، وفى حاجة أيضا الى نفس التكامل والتناسق بين ألوان الفن الشعبى المختلفة ، من رقص وغناء ومواويل وأراجوز وأدب شعبى ٠

روزاليوسف ١٩٥٩/٧/٢٧

نهايــة جيل وبدايــة جيل

لقد انتهى جيل الملهمين الأذكياء فى الفن ‥ هذا الجيل الذى بدأ بسيد درويش فى الموسيقى ، وعزيز عيد فى المسرح تنسحب فلوله الآن لتخلى مكانها لجيل الملهمين ‥ الدارسين ‥

وفضل هذا الجيل الأول أنه نبه الناس الى جدوى الفن ، وأعلن أن التمثيل أو الموسيقى شىء عظيم يستحق أن يهبه الانسان حياته وكل خلجات شعوره واحساسه ٠ وقد كانت موهبة هذا الجيل أكبر من دراسته ، وعلمه أقل من ذكائه ، وحين أدى دوره التاريخى ، أفسح مكانه لجيل آخر يعتمد على الدراسة الى جانب الموهبة ، وعلى العلم الى جانب الذكاء ‥

هذا الجيل الجديد هو الجيل الذى نصنعه الآن بافتتاح معاهد التمثيل ومعهد الســـينما والكونسرفتوار ومدرســـة الباليه ، وكل المشروعات الفنية الجديدة ‥

لقد أصبحت للفن أصول وقواعد ، ومدارس واتجاهات ، ولم تعد الموسيقى دندنة تبعث على الطرب بقدر ماهى دراسة للتأليف وخبرة بالآلات وتمعن فى الأشكال الموسيقية المختلفة ، وكذلك الحال بالنسبة لبقية الفنون ‥

ونحن لن نحس بأهمية هذا الجيل الجديد الا بعد سنوات ، حين تخرج هذه المدارس والمعاهد الفنية طلبتها ، وأنا أتوقع أن يحدث

انقلاب فى حياتنا الفنية فى كافة نواحيها ، فان الدراسة هى التى ستخلق لنا الموسـيقى الكبير ، والمخرج الممتاز والراقص البارع والممثل الموهوب ٠

كما أن هذه الدراسة هى التى ستعطى لفننا طابعه العالمى ، هى التى ستجعله صالحا للتصدير الى كل مكان ، وهى التى ستجعلنا نفخر ونعتز به ونعرضه على العالم كأحد ملامح نهضتنا الجديدة ٠٠

ولكن هناك شىء أود أن أنبه اليه ٠٠

انى أرجو أن يضع جميع المسئولين عن المعاهد الجديدة أن هذه المعاهد تنشأ فى القاهرة ، قلب العالم العربى ، وأن جواز المرور لكل فن من الفنون هو أن ينبع من تربته الأصيلة ٠٠

ان الدراسة هى التى توجهنا الى معرفة الشكل الفنى العالمى ، أما المضمون فهو فى قلب الأمة ، وعلى الفنان ان يتحسس دائما هذا القلب ٠٠

والتوفيق بين الشـكل العالمى والمضمون المحلى هو مقياس نجاح هذا الجيل الجديد من الفنانين ، الذى نطمع أن تقدمه لنا هذه المعاهد الجديدة ٠٠

روزاليوسف ١٩٥٩/٨/٣١

كيف يعيش سيد درويش

رغم مضى ما يزيد على ثلث قرن على وفاة سيد درويش ، ورغم أننا نشهد فى مثل هذا الاسبوع من كل عام ضجة تعلو ، ونسمع أصواتا تتردد، ونقرأ مقالات مطولة عن سيد درويش ، فمازال هذا العبقرى فى أذهاننا أســطورة أكثر منه حقيقة واقعية ، وذلك لأن طريقتنا فى الاحتفال طريقة لا تصنع خلودا لأحد ولا تليق بتكريم فنان ٠٠

وفى هذا العام تريد وزارة الثقافة أن تسن سنة جديدة فى التكريم ، فتقدم له أوبريت « العشرة الطيبة » و « شهرزاد » على المسرح ، وربما ظن المشرفون على الموسيقى فى الوزارة عندئذ أنهم قد أراحوا ضمائرهم ، واهتدوا الى الطريق السليم لاحياء ذكراه . ولكنهم فى الحقيقة واهمون ، فليس فيما صنعوه أى جديد ٠

ان أوبريت العشرة الطيبة تقدم على المسرح منذ عام ١٩٣٧ . وقد سجلتها الاذاعة وقدمتها فى كثير من سهراتها فى السنوات الأخيرة ، كما أن أوبريت « شهرزاد » هى الأخرى قدمت على المسرح أكثر من مرة ، وليس هذان العملان الفنيان هما كل ماصنع سيد درويش ، وليس هما أيضا أحسن أعماله ، فان لسيد درويش ٣٠ أوبريتا تحتوى على مايزيد على ٢٠٠ لحن ، ولمعظم هذه الأعمال قيمة فنية ترجح القيمة الفنية للعشرة الطيبة وشهرزاد ٠٠ وقد قال لى الدكتور يوسف شـــوقى الأستاذ الجامعى والملحن أن أوبريت

« الباروكة » و « هدى » ، وهما آخر ما ألف سيد درويش تحتويان على ثروة من الألحان الجديدة ، التى تستطيع اذا ما قدمت فى اطار مسرحى مدروس أن تجعل من سيد درويش الأسطورة سيد درويش المعجزة ، ولكن وزارة الثقافة تختار الطريق السهل ..

ان قصة سيد درويش هى قصة كل فنان خالق عندنا ، حين نحتفل بذكراه ، فنتبادل التحيات ونلقى الكلمات ، وندبج المقالات . ونغفل أهم مايجب أن نفعله ، وهو أعماله الفنية ، ويوشك المواطن العادى بعد هذه الضجة من الدعاية العنيفة أن يشك فى عظمة هذا الفنان وأن يتلقاها بمزيج من عدم الاكتراث وسوء الظن ..

وفى اعتقادى أن سـيد درويش العبقرى قد عاش بالألحان الثلاثة التى وزعها الأخوان رحبانى وغنتهـا فيروز ، وأذيعت فى المقاهى وامتلأت بها علب الموسيقى فى ربوع الاقليم الشمالى ولبنان أكثر مما استفاد من كل حفلات التكريم والتنويه ، والسبيل الآن أمام وزارة الثقافة ، هو أن تختار الطريق الصعب ، لكى يعيش سـيد درويش مرة ثانية ..

روزاليوسف ١٩٥٩/٩/٢١

فضيحة بجلاجل

الفضيحة بجلاجل حقيقة ٠٠ بل هى بجلاجل وطبل وكمانجات٠ الفضيحة بأوركسترا ٠٠

وبطل الفضيحة مؤلف موسيقى عربى ، عاش حتى بلغ الخمسين من عمره ، ولا أحد يعرف عنه هذه النزعة الى التأليف ، وان كان جميع من حوله يقرون بوفرة ثقافته الموسيقية ٠٠ كان يقدم الموسيقى الكلاسيك فى البرنامج الثانى ، ويقف مزهوا مثل « أم العروسة » فى حفلات وزارة الارشاد ، ويتحدث عن السيمفونية والسوناتة والكونشرتو بلهجة العارف الخبير ٠

وفجأة توج نبوغه حين قدم الى المايسترو اليوغسلافى الذى زار القاهرة فى الموسم الماضى قطعة من تأليفه ، وطلب منه أن يدخلها ضمن معزوفات الأوركسترا ٠٠

واحتار المايسترو اليوغسلافى حين رأى المعزوفة التى قدمها اليه المؤلف النابغة ، فهى منقولة طبق الأصل من قطعة موسيقية معروفة ، ولكنه قدر موقفه كضيف ، وقدر أنه يعزف فى بلاد « الواق الواق » التى لا يعرف أحد فيها شيئا عن الموسيقى الكلاسيك ، ثم توكل على جهل الجمهور ، وعزف المقطوعة ، وبعدها سافر الى بلاده ٠

واطمأن المؤلف الناشىء العجوز الى نبوغه ، وأخــذ يروج لمعزوفته فى كل مكان ، وفجأة فطن أحد المستمعين الى الاقتباس الشديد ، وطلب اجراء تحقيق ..

واتضحت الفضيحة ذات الجلاجل ، وتبين أن المقطوعة برمتها منقولة ، ولكن القانون يعاقب على سرقة فردة حذاء ولا يعاقب على سرقة سيمفونية ..

وأسوأ مافى الموضوع أنه كان من المحتمل أن تتبادل الجمهورية العربية موسيقاها الحديثة مع الدول الأخرى ، وان نصدر الى الدول فننا الذى يكشف خراب ذمتنا الفنية . وأنا أعلم أن مشروعا كهذا المشــروع كان يدور بخلد المسئولين ، ولكننا نحمد الله أن كارثة التصدير لم تحدث قبل اكتشاف سرقة المؤلف النابغة .

وهناك سؤال يدور بالأذهان ..

ان هناك هيئات موسيقية كثيرة ، والمفروض أن تكون هذه الهيئات على علم بالموسيقى الأجنبية ، وهناك أيضـا شـــخصيات موسيقية مثل الدكتور حسين فوزى وأبوبكر خيرت وغيرهما ، وهم يعرفون الموسيقى الكلاسيكية ، ويتحدثون عنها فى كل مجال ..

وهناك قادة عرب للأوركسترا ، مثل عبد الحليم على وأحمد عبيد ، وقد سمع كل هؤلاء المعزوفة المسروقة ..

فأين كان هؤلاء جميعا حين عزف المايسترو اليوغوسلافى هذه السيمفونية ؟ ..

وهل هناك جمعية غير منظمة ، متفقة فى أهدافها التى لاتجرؤ على اعلانها .. جمعية للمنتفعين بالموسيقى الكلاسيك ؟! ..

روزاليوسف ١٩٥٩/١١/١٦

أحسن مرة تكلم فيها عبد الوهاب

كل انسان له طعم ..

وأنا أعرف أطباء كبارا ، ومدرسى فلسفة ، وعلماء ، ومع ذلك فطعمهم مائع ..

ولكن هذا الرجل ، محمد عبد الوهاب ،له طعم متميز خاص . تحس بعد أن تجلس معه دقائق أنه ذكى جدا ، وأن عقله مرتب ، وأن كلماته منتقاه ، حتى نظارته نظيفة رغم سمكها الغريب ..

وتحس أن طعمه مثل طعم موسـيقاه .. كقطعة الحلوى المرشوشة بالسكر ، السابحة فى الشربات ..

وقد تأكل قطعة الحلوى فلا تفيد جسمك ، ولا تتحول الى فيتامينات ، بل قد تذوب فى فمك ولا يبقى منها الا حلاوتهـا التى عاشـت على لسانك دقيقة واحدة ، ثم تموت قطعة الحلوى ، أو موسيقى عبد الوهاب .

ولكن ذكرى الحلاوة تبقى فى نفسك .

فهل عبد الوهاب هكذا .. حلاوة ساعة .. ثم لا شىء ..

وكيف يفكر عبد الوهاب .. لا فى الموسيقى فقط .. بل فى الأدب والجنس والحب والدين والحياة ..

قلت للرجل الذى يبلغ عمره ٥٠ عاماً على حد قوله ، وتحس حين يتحدث كأنه احتفل أمس بعيد ميلاده الثلاثين ··

ــ على حياتك ظل رجلين كبيرين ·· شوقى وسيد درويش ماذا أخذت منهما ؟

وقال عبد الوهاب :

ــ شـــــوقى كان أبى ·· كان يناديني محمد ، وأنا أناديه بـ « باشا » لأن كل الناس كانت تقول له « ياباشا » ·· وأحيانا كان يقول لى مدللا : « ياولد يامحمد » ، ومنه تعلمت أن الفن أهم من كل شيء ·· قال لى شوقى مرة « موت يامحمد علشان اتأثر وأكتب فيك قصيدة رثاء » ·· وقالها جادا رغم انه كان يحبنى كابنه ··

أنا ــ كفنان ــ الفن عندى أهم من كل شيء ·· أهم من زوجتى وأولادى وأصدقائى ·· انى أعيش للموسيقى كما عاش شـــوقى للشعر ··

كان شوقى « خواف » ، ولكنه كان شجاعا فى فنه ، وكان غنيا وابن عز وحريصا على صحته ، ولكنه من أجل فنه ، كان يقسو على كل شيء ويدوس كل شيء ··

كان حريصا على أن يأخذ رأى الناس فى شعره ، وبخاصة رأى رجل الشارع ، وكان يعتبرنى أنا رجل الشارع ·· كتب مرة مطلع قصيدته فى رثاء حافظ ابراهيم ، وقرأه لى :

قد كنت أوثر أن تقـــول رثائى

يامنصـــف الأموات من الأحياء

وحين سمعته لم يعجبنى ، وقلت رغم أنفى ·

ــ ايه ده ياباشا ؟

ــ ايه يامحمد مش عاجبك ··

وأجبته :

ـ عظيم جدا ٠٠ ياباشا ٠٠

وسكت ، وسكت شوقى ٠٠

وحين أقيمت الحفلة ، والقيت قصيدة شوقى وجدته قد غير البيت قائلا :

قد كنت أوثر أن تقـــول رثائى

يامنـــصف الموتى من الأحياء

وصفق الناس جميعا للمطلع ، وحين خرجنا من الحفل ـ شوقى وأنا ـ التفت الى قائلا :

ـ يامحمد ٠٠ جامل الناس فى كل شىء ٠٠ الا الفن ٠٠

وقد كرر لى هذه الجملة مرة ثانية ، ولها قصة ٠٠

كتب شوقى من أجلى أول زجل فى حياته ، وهو « فى الليل لما خلى » ٠٠ وأعطاها لى لتلحينها ٠٠ وقلت له : لأبعث السرور فى نفسه :

ـ سألحنها لسعادتك مثل ألحان صالح عبد الحى ٠٠

ونظر الى غاضبا ٠٠ وقال :

ـ كن نفسك ٠٠ أنت لاتحب ألحان صالح عبد الحى ٠٠

فلا تجامله من أجلى ٠٠

وشىء آخر تعلمته من شوقى ٠٠

لم يكن شوقى يقرأ كثيرا ، ولكنه كان يقف دائما على قمة الثقافة والمعرفة ، لأنه كان يختار مجلسه ٠ كان يسهر معه كل ليلة أعظم المثقفين فى مصر ، وكان شوقى يسمع ولا يتكلم ، ولكن كل شىء يسجل فى ذهنه الذكى المتوقد ٠ وقد تعلمت منه أن أجلس مع المثقفين ٠٠ أن أستفيد من الثقافة بأيسر السبل ٠

وقد قال شوقى : اذا أصبحت مشهورا ، فلا تجلس فى مكان انت أكبر من فيه ، وحولك الأذناب الذين سيلتفون حولك ، فستهبط عندئذ الى تفكير هؤلاء الأذناب ، بل اجلس دائما فى مكان تكون أنت أقل من فيه لتستفيد من تفكير الكبار ..

وقد حرصت على وصية شوقى .. وأنا لم اتلق ثقافة منظمة فى مدرسة ولكن ..

وابتسم عبد الوهاب وهو يسألنى :

ـ ما رأيك فى ثقافتى ؟

وقلت دون مجاملة :

ـ أنت تقف على قمة الثقافة ..

وســـيد درويش

سيد درويش .. لم التق به الا مرة واحدة ، لقد مات وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى .. صدقنى !!

دخلت مسرح عبد الرحمن رشدى مرة ، وأنا طفل أغنى أمام منيرة المهدية .. كانت هى ضـــخمة بيضاء تـكاد تنوء تحت ثقل الجواهر والحلى . .وكانت تقوم بدور كليوباترا . وكنت أنا صبيا صغيرا ناحلا أقوم بدور أنطونيو أمامها ، وبعد اسدال الستار ، رأيت رجلا طويلا عريضـــا يتقدم نحوى ، ويرفعنى بين يديه ، ويقبلنى وقالوا لى : ان هذا الرجل هو سيد درويش ..

وبعدها مات ، ولكنى تأثرت بألحانه ..

لقد غير سيد درويش لهجة الغناء العربى وحوله من غناء تركى ممطوط نائم تندغم فيه الألفاظ والحروف الى غناء عربى فقط ، وفتح للموسيقى آفاقا جديدة ..

وقلت مستدركا .. آه لو عاش سيد درويش ..

وقال عبد الوهاب :

ـ لو عاش لنا فعل أكثر مما فعل ٠٠ فمن ناحية كان قد أتم رسالته فى تحويل « لهجة الغناء » ، ومن ناحية أخرى لو عاش لا نطمس عقله من كثرة « السطل » كان سيد درويش يأكل المخدرات ثلاثة أيام وينام ثلاثة أيام ويؤلف ثلاثة أيام ٠٠ ولو عاش لقضى بقية حياته مسطولا ٠ لقد رأيت سـيد درويش ، وهو يأكل ملعقة كوكايين حين كان كل الناس يشمون منه مجرد شمة !!(*) ٠

وقلت : ربما كان الفنان محتاجا الى بعض التخدير لينتج فنه ٠٠ وصاح عبد الوهاب :

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠ أن الفنان فى حاجة الى عقله ٠٠ انى عنصر العقل عموما لكى ينتج ٠٠ لقد أصبح الفن زواجا بين الموهبة والتفكير ٠٠ زواجا ناجحا تذوب فيه شخصية كل من الزوجين ، فلا يعرف المستمع أو القارىء أين تقف الموهبة وأين يبدأ التفكير ٠٠ لقد كان سيد درويش يأكل المخدرات لينام ، وينام لينتج ، ويكافىء نفسه على الانتاج بأكل المخدرات ٠٠

ـ ولكن كيف يهرب الفنان من بعض سخافات الحياة ؟

ـ بالحب ٠٠ سعادة الحب ٠٠ ان الحب هو المخدر الذى أتعاطاه ٠٠ أنا لا ألحن حين أكون سعيدا فى حبى ٠٠ أصبح عندئذ بليدا ٠٠ ولا تستيقظ حواسى وعقلى الا فى بداية الحب أو نهايته ٠٠ عندما يكون الحب أملا ، وعندما يصبح ندما ٠ ٠عندما تسألنى نفسى ٠٠ مامعنى لمسة اليد ، أو التقاء القدمين تحت المائدة ، أو نظرة العين الخرساء الناطقة ٠٠ هل هى تحبنى ؟ هل هى تلعب بى ؟ ٠٠ وعندما يموت الحب واحمل زهوره الذابلة ٠٠

ـ وأين أنت الآن ؟

ـ فى بداية حب طويل أعطيته مابقى من عمرى ٠

* * *

(*) انظر ص ٤٤٩ ٠

وسألت عبد الوهاب : هل تقرأ ؟

وقال : وأكتب ٠

ــ وماذا تكتب ؟

ــ ملاحظات على هوامش كل كتاب أقرؤه ٠٠ وهذه الملاحظات فيها رأيي فى كل الأدباء الذين قرأت لهم ٠٠

ــ طه حسين ٠٠

ــ أديب عظيم ٠٠ ولكنى أحتار فيه ٠٠ انه يكتب القصص والتاريخ والدراسات ، ويحاول أن يكون فنانا كبيرا ، ولكنه مع ذلك يظل أقرب الى عقلك منه الى قلبك ٠٠

ــ والعقاد ؟

ــ انه « الجامعة الأهلية » ، تحس وأنت تقرأ له أنه يعلمك وقد أمسك بيده عصا ٠٠ أنا أعرف العقاد معرفة شخصية ، وقد جلست معه فوجدته من أخف الناس ظلا ٠٠ يفهم النكتة ويقولها ويتجاوب معها ، ولكنه حين يكتب يقطب وجهه ، ويخلع البيجامة ويرتدى البدلة السموكنج ٠٠ لكى يلقى فى نفسك الهيبة والاحترام ٠

ــ ومن الكاتب الذى يلقى فى نفسك الحب ؟

ــ توفيق الحكيم ٠٠ انه بلبل ٠٠ هل يعرف البلبل أنه يغرد ؟ ولكن صوته مع ذلك يملأ القلب فرحا ٠٠

ــ هل تقرأ فى الدين ؟

ــ لا ٠٠

ــ هل أنت متدين ؟

ــ يعنى ايه ٠٠

ــ تصلى وتصوم ٠٠ وتنوى الحج الى بيت الله الحرام ٠

ــ لا ، ولكنى مؤمن ٠٠

ــ بايه ؟

ــ بالله ·· بقوة عليا مدبرة ·· تحب الخير وتكره الشر ·· وبدأ يتلو بضعة آيات من القرآن ، منها الآية الكريمة « ربنا ولاتحملنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين » ·· وانطلق صوت عبد الوهاب فى استرحام ·· لا تحملنا مالا طاقة لنا به ، ولان صوته فى ضعف وهو يقول : واعف عنا ، ثم فى رقة وهو يقول « واغفر لنا » ثم فى ذلة وهو يقول « وارحمنا » ثم انتقل صوته الى المودة والألفة وهو يقول : « أنت مولانا » كأنه اطمأن الى أن الله قد غفر له ··

وهللت قائلا : آلله ··

وقلت لعبد الوهاب :

ــ سأسألك بضعة أسئلة تقليدية ·· ولكن أرجو أن لا تجيب عنها اجابة تقليدية ··

ــ أمرك ··

ــ مارأيك فى عبد الحليم ؟

ــ مطرب ناجح ··

ــ ياسلام ·· أرحتنى وأرحت عبد الحليم واسترحت ··

ــ لا هذه ليست كلمة صغيرة ·· ان رأيى أن المطرب الناجح يجب أن يتفوق فى ثلاث نواح ·· الصوت والذكاء والدم ، واذا كان لكل من هذه النواحى ١٠ درجـــات فانى أعطى عبد الحليم ٧ درجات فى الصوت و ٩ درجات فى الذكاء و ٨ درجات فى خفة الدم ··

ــ يعنى ذكاؤه أكبر من صوته ·

ــ يعنى !!

ــ وماهر العطار ؟

ـ صوته لا يقل كثيرا عن صوت عبد الحليم ولكنه أقل منه في الذكاء وخفة الدم ٠٠

ـ ومحرم فؤاد ؟

ـ صفر في الذكاء ٠

ـ بماذا تنصح عبد الحليم ؟

ـ أن يعيش ذكاءه ٠٠ ولا يستعمله ٠٠

ـ ما رأيك في الحب ؟

ـ أحبه ٠

ـ هل يستطيع الفنان أن يقنع بالحب الزوجي ٠٠ أو حب امرأة واحدة ؟

ـ ان زواج الفنان مشكلة ٠٠ ان الزوجة الناجحة للفنان أهم عناصر حياته ٠٠ والزوجة الناجحة هي التي تعرف متى تقبل على الفنان ومتى تولى عنه ٠٠ متى تقبله وتداعبه ومتى تختفي في غرفتها ٠٠ هي الزوجة التي لا تقول له ٠٠ يللا نخرج حين يفكر في الانتاج والتي تنطلق معه الى الخارج أياما وليالي حين يسأم من الانتاج ٠٠ هي الزوجة التي تذوب شخصيتها في شخصية زوجها ٠٠ ان زوجة الفنان يجب أن تكون فنانة في الزواج ٠

ـ ولكن الملل ؟

ـ ان الانسان يمل حياته أحيانا ، ولكنه يعيشها ٠٠ ولكن يجب أن تعرف الزوجة متى تبعد شبح الملل ٠٠ أن تكون جديدة في كل وقت ٠٠ وان تكشف لزوجها دائما عن شيء جديد في روحها ٠٠ أنا لا أوافق أن ينام الزوجان في سرير واحد أو غرفة واحدة فهذا يضيع بهجة اللقاء ، لا أوافق أن يعرف الانسان جسم زوجته دفعة واحدة ٠٠ لا أحب أن أرى زوجتي بدون تواليت ٠٠ لا أحب أن أراها بدون ميعاد ٠٠ باختصار أحب أن أراها كأننا عشيقان ٠٠

روزاليوسف ١٩٦٠/٢/٢٩

أغنية نجاة .. أغنية شعبية

كان الوهم السائد أن معنى « الأغنية الشعبية » هى أن تكون مكتوبة بلغة هابطة ، أقحمت فيها الألفاظ التى يتوهم كاتبوها أنها من لغة الشعب ، مع أنها لم تعد تتردد الا فى مجالات الحشاشين ورواد الغرز ، وأن يكون اللحن معتمدا على نوع من الايقاع الرتيب، الذى تميل معه الرأس كبندول الساعة ، وتدق الأقدام كأنها حوافر الخيل ..

ولكن أغنية نجاة الصغيرة « أيظن أنى لعبة بيديه » فضحت هذا الوهم ، فقد أصبحت أغنية شعبية ، بعد اذاعتها بدقائق ، رغم أنها مكتوبة فى أحلى شعر عربى ، وألفاظها كسبائك الذهب المصقول، ورغم أن عبد الوهاب اتجه فى تلحينها اتجاها جديدا على عبدالوهاب وعلى الموسيقى الشرقية على السواء .

لقد كنا نصرخ من زمن بعيد ، ونقول ان موسيقانا يجب ان تتجه الى التعبير لا الى التطريب ، ويجب أن تصبح موسيقانا لغة فصيحة ناطقة تعبر عن المعانى والانفعالات ، عن الآلام والآمال ، عن الحيرة والتردد والشك والنشوة ، لا أن تكون دقات متوازية تطرب ولا تعبر ، ويتأوه المطرب فتجيبه آهة المتفرجين ، ويسحب أنفاسه فى آهة ذيل اللحن ، وكأنه يستجدى التصفيق ..

واســـتمع الناس للحن عبد الوهاب ، فاذا لكل كلمة معنى يتفجر عن لحن ، واذا القصة الجميلة الساخنة التى كتبها تصبح

مشاهد من النغم الساخن الجميل ، واذا صوت نجاة الحزين الرقيق يعبر عن كراهية الأنثى للرجل الغادر ٠٠ وحبها للحب ٠٠

وأخيرا فان هذا طريق جديد فتحه عبد الوهاب ، الرائد وحامل وسام الاستحقاق ، باستحقاق ، وعليه أن يحمل العبء الى النهاية فيخطو أبعد ، ولا يتردد ، ويمهد الطريق الى الآخرين ٠

روزاليوسف ١١/٤/١٩٦٠

عبد الوهاب ..

أشـــفقت على عبد الوهاب ، الرقيق الوديع ، الذى تتقطر المجاملة والمودة من أطراف أصابعه ولسانه . وهو يقف ، ونظارته ملقاة أمامه ، وعيناه حائرتان ، أمام جحر المنون ومقصه ..

ورغم علمى بأن الجرح طفيف الا أنى كنت حزينا .. لا من أجلَ الجرح بل من أجل « الخضة » التى تعرض لها الرجل الرقيق ومرت الأيام ، والتأم الجرح ، ولكن عبد الوهاب لم ينس « الخضة » ومازال يتحدث عن تجربته « بين الحياة والموت » التى يتوقع أن يكون لها أثرها فى فنه ، فى أيام المستقبل حين يتذكرها كما يتذكر الانسان بيتا قضى فيه بضع سنوات من عمره ثم ارتحل عنه .

ولعل هذه هى أول تجربة عنيفة تعرض لها عبد الوهاب . ولاشك أن مجموعة من الاحساسات قد عاشت فى خاطره ، وهو راقد على سريره فى مستشفى الكاتب ، وان هذه الاحساسات قد تنساب أصداؤها فى ألحانه ..

والفن « خضة » دائمة .. وانبهار دائم .. يجعل الفنان يقف كالطفل أمام كل شىء وكأنه يكتشفه لأول مرة .. فتصبح رؤية الفنان للاشياء رؤية خضة تتفجر منها الألحان والكلمات والالوان .

وعبد الوهاب كان هو لحن حياتنا منذ أن عرفنا هذه الحياة

فغنينا معه حبنا وآلامنا واشواقنا وفرحتنا . ولعل عبد الوهاب بعد تجربته الجديدة الفنية « بين الحياة والموت » كما قال يتقدم بنا نحو آفاق جديدة ، نزداد فيها قربا من روح الفن ، ونغنى معه معانى الحياة والموت وهى أكبر المعانى التى يتعرض لها الفنان .

وعندئذ فقد يؤرخ الجيل القادم لعبد الوهاب فيقول عبد الوهاب قبل « الخضة » وعبد الوهاب بعد « الخضة » .

روزاليوسف ١٩٦٠/٥/٢٣

أســبوع الكرامــة

هذا الأسبوع أسبوع الكرامة للفنانين والكتاب ، ان اسماء أحمد علام ومحمد كريم وعبد الوهاب وعبد الحليم والطويل وطه حسين والعقاد ويحيى حقى وغيرهم وغيرهم قد أصبحت اســماء مسئولة تحمل امانة الحياة كما حملت أمانة الفن ··

واختيار هؤلاء الفنانين والكتاب كأعضاء فى الاتحاد القومى الذى هو ضمير الأمة ، وحامى ســياستها ، ومحدد خطاها نحو المستقبل ، هذا الاختيار له أكثر من دلالة ·· ودلالته الأولى ان عصر الفنان المنعزل عن مجتمعه قد انتهى ، وان على الفنان أن يقف مع أمته ، بل فى طليعتها وأن يغرز رايتها فى صدره بحرص وحنان ، بمثل الحرص والحنان اللذين يمسك بهما قلمه وريشته وعوده أى يطلق بهما أوتار صوته ·

ودلالته الثانية أن الدولة تؤمن بالفن ، وتؤمن بأن التطور الاجتماعى قد رفع الفنان من مرتبة « الادباتى » أو « المهرج » الى مرتبة الانسان الخالق الخالق لنفسه وللناس الخالق للمستقبل ·

ودلالته الأخيرة هو أن تربية قلب الأمة وتهذيبه لا يقل فى الأهمية عن تربية عقلها أو عضلاتها ·· وأن اللحن الجميل والقصيدة الحلوة حين ترتفع أصـــداؤهما ، مهمان لتطورنا الاجتماعى مثل

مدخنة المصنع الشامخة · ولكن المجتمع حين يعطى الكرامة للفنانيين يطالبهم برد العطاء بعطاء مثله ·

فحين أعلن الرئيس أن الفنانين ثروة قومية للأمة كان يدفعهم ليرتفعوا ، كان يحميهم من تخريب المغرضين ليدفعهم الى الا يخربوا أنفسهم ·· كان يطلب منهم أن يكونوا فى مستوى رعايته لهم ··

والعبء على الفنانين الآن أكبر مما كان ، ولكنه عبء لذيذ لأنه عبء الانسان ·· ذى الكرامة ··

روزاليوسف ١٩٦٠/٦/٢٠

وردة وكوليت ودمشق

لكل مدينة أنفاسها ..

بعض المدن تتنفس لهوا ومرحا ، وبعضها يتنفس حزنا وكآبة ، وهناك مدن أخرى لا طعم لأنفاسها ..

وحين كنت فى دمشـــق كانت المدينة تعيش فى لجان الاتحاد القومى ومؤتمراته ، وكانت تناقش قضايا العروبة والتعمير والحياة الجديدة ..

وفى ناحية أخرى ، كانت المدينة نفسها تردد الشعر وتناقش القصة ، وتغنى وتشرب العرق على سفح الجبل ، وتسمع صوت وردة الجزائرية ، وتشهد رقص الباليه الأسبانى ، وتنتظر وديع الصافى الذى يحيى قريبا موسما غنائيا فى أحد ملاهى دمشق .

ومقاهى الطريق بين دمشق وبيروت هى الأمكنة التى تستطيع أن تسمع فيها كل كبار المطربين ، وترى شهيرات الراقصات ، وهذا وجه الخلاف بين القاهرة ودمشق . فالمطرب فى القاهرة اذا بلغ حدا معينا من الشهرة ، اختطفته الاذاعة واستديوهات السينما ، ومن خلالها فقط يستطيع جمهوره أن يراه ويسمعه ، أما الكاباريهات ودور اللهو فمخصصة فقط لفنانى الدرجة الثالثة .

واخواننا من الاقليم الشمالى حين يزورون القاهرة يتوقعون مثلا أن يشاهدوا عبد الحليم حافظ فى الأوبرج أو عبد الوهاب وهو يغنى فى الفونتانا ، ولكن آمالهم تخيب عادة ، أما فى دمشق وبيروت فكبار الفنـــانين يواجهون جمهورهم كل ليلة فى الملاهى والأندية الليلية ..

ولعل هذا هو سر انطلاق الغناء اللبنانى والسورى ، وقدرة الفنان اللبنانى والسورى على مواجهة الجماهير ، فأنت عندما تسمع وديع الصافى مثلا تحس كأنه يتكلم معك ، لا يغنى لك ..

وفى مقهى من مقاهى دمشق سمعت وردة الجزائرية .. كان المقهى نائما فى حضن الجبل ، وماء بردى يتدفق من أعلى الجبل ، ويشيع فى الجو أنفاس « الصبا » التى تحدث عنها شـــوقى فى قصيدته التى غناها عبد الوهاب ، وكنت مع صديقين من الأقليم الشمالى . والمقهى لا يطالبك بتذكرة دخول ، ولكن صاحب المقهى يعوض ثمن تذكرة الدخول بطريقة لبقة .

ان ثمن الطلب الأول سواء أكان كأس عرق أو زجاجة بيرة أو كأس ويسكى أو كوب كازوزة ثمانى ليرات ، أى مايوازى جنيها مصريا بالتقريب ..

وبعد ذلك اشرب على كيفك فبطحة « العرق » التى تحتوى على عشرة كئوس على الأقل بليرتين ، وكل شىء تشربه بعد ذلك له ثمن معقول ..

وغنت وردة الجزائرية ..

وردة حين زارت الاقليم الجنوبى أثارت ضجة صحفية كبيرة بغنائها وبثروتها على السواء ، ولكن يظهر أنها فى تلك الليلة لم تكن فى أحسن أحوالها ، فقد غنت أغنية جديدة لحنها لها رياض السنباطى مطلعها « لا تودعنى حبيبى » ، وكان اللحن فاترا وغناؤها أكثر فتورا ، ووردة جميلة حين تنظر اليها عن قرب ، ولكنها حين

تقف على الحلقة ، وبينها وبين الجمهور بضعة أمتار يعطى البروفيل الجانبى لوجهها قناعا ثقيلا ، ولاتستطيع أن تعقد صلة « المودة المتبادلة » بينها وبين الجماهير ٠

كان لقاء الجمهور بأغنية وردة غير مشجع ،وطلب منها أن تغنى أغنية أم كلثوم « عودت عينى على رؤياك » وغنتها والغضاضة تلمع فى وجهها لأن الجمهور قد طالبها بأغنية ليست لها ، وشتان بين أم كلثوم حين تتقدم وتتأخر ، وتتصبى وتتخاصم ، وتهجر وتصل، وتنفعل بكل كلمة ، حتى تحس أنها فتاة فى السادسة عشرة تواجه تجربة حبها الأول ، وبين وردة وفتورها ٠

وقلت لصاحبى :

ـ ان وردة خيبت ظنى ٠٠

وقال أحدهما ، وهو شاعر شاب :

ـ لعل لها عذرا وأنت تلوم !

* * *

قلت لكوليت خورى حين التقيت بها فى منزلها الصغير الأنيق

ـ لقد زرت ثلاث عواصم عربية منذ صدور كتابك « أيام معه » ، وكنت أراه فى مواجهة كل مكتبة ، ورأيته فى يد أكثر من فتاة جميلة ، وعلى مخدة أكثر من شاب ، واليوم فقط رأيت طالبا بالحقوق يدسه بين ملازم القانون ، فما هو سر جاذبية الكتاب فى رأيك ؟

وقالت كوليت ،وعيناها اللوزيتان تتفتحان على آخرهما ٠٠

ـ انه صـــادق ٠٠

سألتها :

ـ وما عنوان كتابك الجديد ٠٠ هل هو «أيام بعده » ؟

وقالت كوليت ان العنوان ظريف ، وأنهـــا لم تنته من اكتابة قصـــتها الجديدة بعد ، وحين تنتهى منها ســتبدأ فى البحث عن عنوان ٠٠

وكوليت حريصة على أن لا يعرف أحد فكرة قصتها الجديدة ، وهى تقول انها سر : لم تبح به لأحد الا لأمها ولأبيها سهيل الخورى وقد قالت لها أمها ان فكرة القصة جميلة ، فتحمست كوليت للكتابة لأن أمها هى ناقدها الأول ٠٠

وقصة كوليت الجديدة متشائمة ، وسبب التشاؤم أن كوليت حزينة لمرض جدها فارس الخورى السياسى الكبير الذى حاز جائزة الدولة هذه الأيام ، وجدها كان هو أول من شجعها على أن تكتب بالعربية حين قرأت له ديوانها الشعرى الأول الذى كتبته بالفرنسية

قالت لى كوليت :

ـ لماذا لم أرك فى القاهرة ؟

قلت :

ـ لأنك كنت كبيرة ، فى المدينة الكبيرة ، وكان الكبار هم الذين يزورونك ، وكأنهم يقولون للصغار :

ـ ابتعدوا ٠٠

وضحكت كوليت ، وقالت :

ـ هذا ليس سببا مقنعا ٠

وقلت :

ـ ولأنك كالزهرة لا يستطيع الانسان ان يراها فى أوج جمالها الا فى منبتها وحديقتها ٠٠

وكوليت جميلة فعلا ، ولكن أجمل مافيها أنها سيدة ودود ، تحس وأنت فى بيتها أنك قد أصبحت أكثر هدوءا ، ورقة ، وأن هذه

السيدة التى تجمع حولها كل هؤلاء الناس تستطيع أن تستخرج من نفس كل منهم أجمل مافيها ، وأن توحى لكل منهم بأنه قريب الى نفسها ، وأنه صاحب بيت ..

***

صحبنى الصديق عبد الهادى البكار مخرج التليفزيون بالاقليم الشمالى ، والمذيع الســـابق باذاعة دمشق لرؤية أول فيلم أخرج للتليفزيون فى الاقليم الشمالى ..

والعناصـــر الفنية فى دمشـــق قليلة ومتفرقة ، ففى الاقليم الجنوبى مثلا عناصر تمثيلية ومخرجون ومصـــورون سينمائيون ومسرحيون ، وكل هؤلاء من الممكن توجيههم والاستعانة بهم فى التليفزيون ، أما فى دمشق فالأمر يختلف ..

ولكن الجهد والاخلاص يصنع المعجزات ..

لقد أستعان البكار فى تصوير الفيلم بأحمد عرفان ، وهو المخرج السينمائى الذى قدم فيلما واحدا فى دمشق منذ عشـــر سنوات أو يزيد ، وقام ببطولته نجيب السراج ، وجانيت غالى بنت عم صباح التى تزوجت الآن من مليونير فى دمشق وهجرت الفن ..

وفيلم التليفزيون عن حياة فنان سورى اسمه « توفيق طارق » مات فى أوائل هذا القرن ، وله لوحات فنية محفوظة فى متحف دمشق حتى الآن ..

كانت لقطات الفيلم تشرح حياة الفنان ، وتقدم صورة عن حياة دمشق القديمة ، وتبرز القيم الفنية فى لوحاته بأسلوب يجمع بين التشويق القصصى والتوجيه الفنى ..

وكان السيناريو موفقا ، والتصوير فى مستوى عال جدا ..

قلت للبكار : من صاحب الفضل فى هذا الفيلم الناجح ؟

قال : الدكتور حاتم ،وصباح القبانى بتوجيهه وأحمد عرفان بفنه ..

وأنت !

وعلت حمرة الخجل وجه المذيع الوسيم الذى أصبح مخرجا للتليفزيون ..

صباح الخير ١٩٦٠/٧/١٤

ليلة فى بيت فيروز

أنا من عشاق فيروز ··

ان صوتها من أخصب الاصوات ·· ميزته انك حين تسمعه تحس أن كل كلمة من كلمات الأغنية التى تغنيها تحمـــل معانيها كاملة ··

صوت فيروز مثل كلمات الشعراء ، فالشـــعراء يستعملون الكلمة بجسدها وروحها ، آلكلمة الكاملة بذراعيها وصدرها وعينيها، وكل روحها المحلقة الطائرة ، وتصبح الكلمة كأنها كائن بشـــرى كامل ··

ولذلك فان صوت فيروز هو أحسن الأصوات التى تغنى الشعر، وأى مستمع لايستطيع أن يتصور صباح أو شادية مثلا وهما تغنيان قصيدة شعرية ، ولكنه يسمع فيروز تغنى القصائد الشعرية البليغة، ويطرب ، وينسجم ··

وحين كانت الطائرة تحلق بى ، متجهة الى دمشـــق ، كنت أستعجل الزمن لأنى كنت أعلم أن فيروز ستغنى لآخر ليلة على مسرح معرض دمشق ، وكان فى نيتى أن أضع حقائبى فى الفندق ، ثم أطير بالتاكسى الى فيروز ··

ولكن الوقت لم يكن معى ·· وصـــلت الطائرة دمشـــق فى العاشرة مساء ، وإستغرقت اجراءات الجوازات والجمرك وحجز

الفندق مدة طويلة ، وحين طرت بالتاكسى الى فيروز ، كانت فيروز قد طارت الى لبنان ٠٠

وطرت وراء فيروز الى لبنان ٠٠ بعد أن انتهى مهرجان الشعر فى دمشق ، لاستمع الى صوتها ٠٠ صوت ٠٠ شاعرة الغناء ، بعد أن استمعت خمسة أيام متوالية ، بمعدل خمس ساعات يوميا ، الى مختلف أنواع الشعر وأحجامه وأوزانه ٠

وفى المساء كنا ، الزميل صلاح جاهين والنائب اللبنانى أمين الحافظ وزوجته السيدة ليلى عسيران ، وأنا فى الطريق الى بكفيا ، حيث تقيم فيروز ٠٠

وطوال الطريق الذى يخلع القلب صعودا وهبوطا ، وانحدارا وارتفاعا ، كنت أترنم فى سرى بقصيدة شوقى الخالدة فى بكفيا ، تلك القصيدة المليئة بالحياة والرقة ، التى يحكى فيها شوقى قصة فتاة جميلة من بكفيا ، غازلها على الطريق ، فامتنعت عن مجاوبته العاطفة بالعاطفة ، فلجأ الى السلاح القديم الذى لا يخيب أثره ، واتجه بغزله الى فتاة أخرى ، فالتهب قلب الجميلة بالغيرة ، واستسلمت للشاعر ٠

ويقول شوقى انه حين ظفر بها تركها اكراما لبيت العبادة الذى لحق بها عنده !

والله وحده يعلم ماذا حدث بين الجميلة والشاعر ، وهل تركها أم لا ؟

وكنت أريد أن أسأل فيروز ، لماذا لا تغنى هذه القصيدة اكراما لبكفيا التى تقيم فيها ، وشوقى الذى خلدها و « للتكتيك » الغرامى الخالد الذى ربط بين قلبى شوقى وفتاة « بكفيا » الفاتنة ٠

وبعد ساعة من رعب الطريق ، وقفنا أمام بيت فيروز ، ونزلنا ٠

واستقبلنا الأخوان رحبانى ·· منصور وعاصى ·· وأنا الى الآن لا أعرف من فيهما منصور ومن عاصى رغم أننى قضيت فى بيتهما ساعات طويلة ، ولكن ماحيلتى !

ان أحدهما يبدأ القصـــيدة والثانى يتمها ، وأحدهما يدندن بالنغم ، ثم يتوقف ليلقف الآخر النغمة الطائرة ، ثم يدندن ··

وصافحتنا فيروز ، وهى تتمتم ، وجلسنا وفيروز ليست جميلة

ان جسمها صغير نحيل مثل جسم نجاة الصغيرة ، ولكن وجه نجاة أجمل ·

عينا نجاة حلوتان هادئتان . وعينا فيروز قاســيتان كأنهما محملقتان دائما ··

ولكن الفن وحده جمال ليس بعده جمال ، وقلت لفيروز من قلبى :

ـ لقد حققت أمنية من أمنياتى حين زرتك ورأيتك يابنت الجبل فى قلعتك بأعلى الجبل ··

وبدا لى أن فيروز لم تفهم كلماتى ، وتمتمت بكلمة شكر لم أتبينها ، ومن جانبى جاءنى صوت أحد الأخوين رحبانى ، وهو يرد على كلماتى بكلمات أكثر منها بلاغة !!

وقلت لفيروز :

ـ لقد كنت طوال الطريق اترنم بقصيدة شوقى « واغن اكحل من مها بكفيه » ، وأتساءل : لماذا لا تغنيها أرق بنات بكفيا ··

وقالت فيروز :

ـ شــــوقى !!

ونظرت الى أحد الأخوين رحبانى ، وكأنها تســـاله من هو شوقى ··

ومن جانبى جاءنى صوت أحد الأخوين وهو يقول :

ـ شوقى ٠٠ نعم ٠٠ لقد كان شوقى يعشق لبنان وأهلها ، وكان يزورها كل عام ٠٠

ثم التفت الى فيروز ، وقامت فيروز لتحتفى بالضيوف ٠٠

وفاض علينا كرم الجبل ، وقامت فيروز بدور « ست البيت » ، ولكنها ست البيت الشـــرقية ، التى تضع المائدة ، وترص الأطباق والشوك والسكاكين ، ولكنها لا تجلس على المائدة ٠

ثلاث ساعات لم تنطق فيها فيروز الا ثلاث كلمات ، ونحن جميعا ، صلاح جاهين والأخوان رحبانى وأنا ، ننشد الشعر بالدور، ونتحدث عن الموسيقى والغناء ، ونتناقش فى موسيقى سيد درويش وعبد الوهاب ، وصوت وديع الصافى ، وصوت عبد الحليم ، وهى شاعرة الغناء ــ لا تتكلم ٠٠

ومن وقت لآخر ، كان صوت طبق يرفع من على المائدة ، أو سكين تسقط على الأرض يرن كأنه نوع من الموســيقى التصويرية لحديثنا المحلق الطائر ٠

ونلتفت ناحية الصوت ٠٠ فاذا هى فيروز !

وخرجنا الى الطريق ، وصورة فيروز فى وجدانى شاحبة ٠٠ شاحبة جدا ٠٠

كان الأفضل لى ، ولخيالى ، أن أظل أحس بها نغما طائرا ، وأن أتخيلها حديثا عذبا ، وظلا رقيقا ووجها ملائكيا ٠٠

ولكنى عدت أسأل نفسى ، لماذا لا نكتفى من الفنان بفنه فقط ، ونحاول أن نستمتع بشخصيته أيضا ؟ ، هل لابد أن يكون الشاعر العظيم متحدثا عظيما ؟ هل لابد أن يكون القصاص الكبير الذى تفيض قصـــصه بالفهم للطبيعة البشــرية والادراك للأحاســـيس والانفعالات ، هل لابد لهذا الانسان حين يتحدث أن يكون غنيا بالفهم والادراك مثله حين يكتب ٠

ان الفنان الكبير يشق طريقه في الحياة بفنه ، فلماذا نطالبه أيضا أن يشق طريقه فى المجتمع بخفة ظله ، وجمال وقع شخصيته على النفس ؟

كنت عندئذ أفكر فى عبد الوهاب الذى لا يشبع الانسان من حديثه ، وعبد الحليم الذى يعانق جميع من يعرفهم ، ويوهمهم أنهم أعز أصدقائه ، وأم كلثوم التى كانت شخصيتها الطاغية سياج فنها المعجز ..

وكنت أفكر أيضا فى أنصـــاف الفنانين وأرباعهم ، وأولئك المتسكعين على طريق الفن ، الذين تستهويك شخصياتهم ، ومافيهم من بريق ، ويعيشون حياة فنية حقيقية ، فيتحدثون ويناقشـــون ، وينقدون ، ويطلقون ذقونهم ، ويسهرون للصباح ، وكل شىء فيهم باهر للعين .. حتى ألوان ملابسهم ، ومع ذلك فليس فى عروقهم الا بضع قطرات ضئيلة من الفن ..

انها صورة مختلفة من الفنانين ، وانصافهم ، الذين تختلف شخصياتهم ، ويختلف ما فى هذه الشخصيات من حياة ودفء بشرى من واحد لآخر ، وكلهم يدفعونك لأن تلقى على نفسك هذا السؤال :

أيهما أجمل .. الانسان .. أم الفنان ؟

كنت فى صف الفنان .. لا الانسان لأنى أغتفر للفنان أن يكون عصبيا أو متوترا أو سيىء الخلق أو مرير الطعم ، ولكنى لا أغتفر له أن يكون بلا طعم .

وخفت أن أكون قد ظلمت فيروز ، وملت على صلاح جاهين أسأله :

— مارأيك فى فيروز ؟

وقال صلاح :

— والله مش عارف ..

روزاليوسف ١٩٦٠/١٠/٣

غنـــاء للشـــعب

الرئة الجديدة التى كان من المنتظر أن تهب الصحة والعافية لموسيقانا وأغانينا تتنفس بصعوبة ·

فالليلة التى قضيتها فى المسرح الغنائى فى الأسبوع الماضى كانت ليلة ممتعة ، ولكن الذى أفسد متعتى هو أن برودة المسرح كانت تحيط بالقلة القليلة من الرواد ، ولم تستطع أنفاسهم ، ولا حرارة التمثيل ،ولا جمال الألحان أن تدفىء أجمل وأوســـع مسرح جديد فى القاهرة ··

تكوم المتفرجون فى الصفوف القليلة الأولى ، وواجههم على المسرح مجموعة من المغنين والمنشـــدين والممثلين ، وتفنن زكى طليمات فى تحريك المجموعة الضـــخمة من الممثلين ·· ولـــكنه ــ للأسف ــ لم يقدر على تحريك اقدام مجموعة ضخمة من الجمهور الى مسرحه الجديد ·

والأمر فى الواقع يدعو للعجب ·· فالفرجة على الأوبريت فى دمنا ، ومنذ ٣٠ عاما كان لدينا مسرح أوبريت دائم الازدحام بالرواد ونحن شعب « سميع » يحب الغناء ·· ومع ذلك ·· فالمسرح خال أو يكاد ··

والأوبريت هو الانقاذ الوحيد المنســـجم مع تاريخنا وتراثنا الفنى ، ومع ذوقنا العربى ، لأغانينا وموسيقانا لأنها هى التى

تستطيع أن تجعل للموسيقى والكلمات معنى كبيرا ، يمتلىء بالتعبير، ويحكى قصة واضحة المضـــمون ·· فيخلصنا من ألحان الآهات المريضة ، ومن كلمات الميوعة والتفاهة ، والعواطف السطحية ·

والأوبريت أيضا هى طريقنا لكى يكون لنا فن مركب ، فى عصر تتجه فيه كل الفنون الى التركيب ·· هذا العصر الذى تحتل فيه الفنون الجماعية كالرقص الشعبى والباليه والسينما المكان الأول ·

ومع ذلك فالمسرح خال ـ بينما تزدحم بعض البرامج التافهة فى مسارح أخرى بجمهورها الضخم ··

لماذا ؟

أنا لا ألوم أحدا ، ولكنى أعتقد أن السبب هو أن الجمهور لم يستطع أن يعرف حتى الآن ، أن هناك مسرحا غنائيا جديدا يستطيع أن يقضى فيه ليلة ممتعة ··

وكلمتى هذه ، لا أريد منها أكثر من أن تقوم بهذا الدور ، أن يعرف عدد أكثر من الناس أن عملا فنيا جيدا ينتظرهم فى مسرح « الجمهورية » الغنائى ·

روزاليوسف ١٩٦١/١/٢٣

التعليل الوحيد هو الكسل

المحاضرة التى القاها الموسـيقى سليمان جميل عن محمد عبد الوهاب فى نقابة الصـحفيين انقلبت بعده دقائق الى حفلة تكريم ، ثم انقلبت بعد نصـف سـاعة أخرى الى حفلة « تبرير » لموسيقاه ، وتمرير لعبد الوهاب الى ساحة الخلود ·

تحدث الموسيقى عن الاقتباس ، وقال ان اقتباس عبد الوهاب للموسيقى مثل اقتباس علمائنا لنظريات اينشتاين · لأن العلم والفن لا وطن لهما ··

فعبد الوهاب اذن حين يقتبس جملة موسيقية لفردى مثل العالم الذى يقتبس معادلة رياضية ، ويستعين بها فى أحدى تجاربه ·

وحين قام عبد الوهاب ليرد على المحاضر ، وافق على هذا الكلام فى لهجة تواضع ذكية

وليس هناك أشد خطأ من هذا الكلام ، وهو تبرير سـاذج ومضحك ، جدير بأن يخجل المحاضر ، وعبد الوهاب والموسـيقى والفن أيضا ··

ان المعادلات العلمية حقائق تجريبية ، ولا فرق بين ٢ زائد ٢ يساوى أربعة حين يقولها اينشتاين وحين يقولها مدرس الحساب ، ويستطيع كل انسان بعد اثبات هذه المعادلة البسـيطة أن ينسى

مبتكرها ، ويستفيد منها كما يشاء ٠٠ والحقيقة العلمية لا وطن لها حقا ، لأنها تختلف من بلد الى بلد ، ولا تكتسب روح موطنها وايقاعه ونبضه ، والحقيقة العلمية متى وضعت على الورق مات قلبها وذوى عقلها ٠٠

أما الفن ، سواء أكان خطا فى لوحة أو نغمة فى وتر ، أو بيتا فى قصيدة فهو ملك لصاحبه الى الأبد ، وملك للوطن الذى ولد فيه لأنه يعبر عن روحه وايقاعه ونبض وجدانه ٠ وفى الفن جزء من العقل هو « التكنيك » أو طريقة صياغة الفن ، وهذا التكنيك هو الجانب العقلى الوحيد فيه ، وهو الذى يصح أن يقال انه لا وطن له ، فالسلم الموسيقى مثلا لا وطن له ، وكذلك منهج بناء السيمفونية ، وطريقة مزج الألوان فى الرسم ، وخطوات بناء القصة فى الرواية والقصة القصيرة ٠ كل هذه الأشكال لا وطن لها واقتباس عبدالوهاب ان كان فى « التكنيك » فهو فعلا اقتباس علمى ، مجرد ، لا يؤاخذ عليه ٠٠

أما اذا كان هذا الاقتباس فى الحشو ٠٠ فى النغمة التى عصر موسيقاها أجنبى دمه فى خلقها ، فهو جريمة ، وجريمة لا ينفع معها تبرير ٠٠ ولا تمرير ٠٠

وموسيقانا فى الواقع فى أزمة ، وسر أزمتها أنها تواجه الموسيقى الغربية ، ولا تعرف ماذا تأخذ منها ، وماذا تترك ٠٠ وهى لابد أن تأخذ منها الكثير لأن الموسيقى الغربية أكثر أصالة من موسيقانا ، وأبعد تطورا ، وأصح تعبيرا عن وجدان الانسان وقلبه والمغلوب يأخذ دائما من الغالب ، حتى فى الفن وقد وقف أدبنا العربى نفس الوقفة تجاه الأدب الأوروبى فى مطلع القرن العشرين ، واحتار ماذا يأخذ منه وماذا يترك ، وحين عرف الاجابة على هذا السؤال ، وجد طريقه ٠٠

وكان لكل من أدباء هذا الجيل الرائد موقفه ، الذى يتراوح بين الايمان المسرف بالغرب ، وبين محاولة التلاقى عند موقف وسط بين ثقافة الغرب والتقاليد العربية الأدبية القديمة ٠

واستقرت الأمور أخيرا . بعد معارك فكرية طويلة ، فأخذنا عن الغرب « التكنيك » الفنى ·· تكنيك الرواية والقصة والمقالة ، وكان حشو هذه القوالب من الأفكار والانفعالات والمشاكل من عندنا ·

وهكذا تطور الأدب العربى الحديث ·

والموسيقى العربية محتاجة لأن تمر بنفس المرحلة ، وقد كان عبد الوهاب بذوقه الفنى ، وسلاسة أسلوبه ، وميله الى التجديد ، جديرا بأن يقوم بهذا الدور ·· لولا الكسل ··

وقد يغتفر للكاتب ضعف ثقافته ، لأن الكتابة تعتمد على اللغة ، وكثير من الكتاب تنقصهم المعرفة بلغة أوروبية ، فيضطرون الى النظر الى الأدب من زاوية واحدة ، بعين حولاء ··

ولكن الموسيقى لغة عالمية واحدة ، والثقافة الموسيقية أسهل فى تحصيلها من الثقافة الأدبية ، ولذلك فان التعليل الوحيد لتخلف الموسيقيين عندنا ، هو الكسل ، حتى عن الاستماع ·· .

روزاليوسف ١٩٦١/٢/١٣

هــــواء الحضـــــارة

هذا أسبوع البعثات ..

فادارة البعثات فى وزارة التربية والتعليم تعلن عن مئـــات البعثات الى الخارج ، فى مختلف أنواع الفنون والعلوم .. ومما لاشك فيه أن الآلاف من شبابنا العربى المتطلع الى آفاق أوسع من الخبرة والمعرفة سوف يتقدم الى هذه البعثات ، وســـنستفيد بعد سنوات قليلة علماء جددا فى الاقتصاد والهندسة والطب والزراعة وغيرها من ألوان النشاط البشرى ..

ولكن شيئا واحدا نسيته ادارة البعثات ، وهو الفن ..

ولا أعنى بالفن هنا التخصص فى الاخراج السينمائى أو النقد الأدبى أو تاريخ اللغة الانجليزية مثلا ، فكل تلك الألوان من التخصص وأمثالها وردت فى قائمة ادارة البعثات ..

ولكنى أعنى نوعا هاما من البعثات ، وهو ارسال الفنانين والأدباء أنفسهم الى الخارج ليروا ويدرسوا ، ويثقفوا أنفسهم ، ويفتحوا عيونهم على العالم ، دون الارتباط ببرامج محددة أو الاعداد لشهادات دراسية ، بل كل ما يطلب منهم هو أن يستنشقوا هواء الحضارة ..

وانى لأتساءل :

لماذا لا ترسل حكومتنا ، التى تمثل الطليعة العربية ، فى كل مجال ، سواء فى بناء السد العالى ، أو فى النهضة بالفكر العربى . لماذا لا نرسل كل عام ثلاثة أو أربعة من الكتاب والفنانين الى الخارج . لكى تعمق التجربة الانسانية ..

لماذا لا يدخل فى عداد هؤلاء المبعوثين شاعر له مستقبل ، نرجو ويرجو الوطن منه ، أن يعرف شكسبير عن قرب ، وأن يمد أدبنا العربى بتجربة جديدة وخبرة جديدة ..

ولماذا لا يكون بين هؤلاء المبعوثين قصاص أو قصاصان من جيل الشباب ، الذى وضع أقدامه على أول درجات الحياة الأدبية ، وأثبت بعض النجاح ، حتى تستـــطيع موهبته أن تنمو فى ظلال الحضارة الغربية ، بعد أن مدت أصولها فى أرضنا الخلاقة ..

ان مواجهة الغرب وثقافته هى التى خلقت لنا فى الجيل الأول من رواد حياتنا الأدبية عملاقين مثل طه حسين وتوفيق الحكيم . وهى الجديرة بأن تخلق لنا من شبابنا عمالقة جددا ..

وهم فى الوقت نفسه أيضا سفراء فى مجال أوسع من العمل الدبلوماسى المحدود ، لثقافتنا وتراثنا ..

وهذه البعثات الأدبية هى فى نظرى ، أجدى على الأديب وعلى الدولة ، وعلى حضارتنا العربية من قانون التفرغ مثلا ، ومن كثير من ألوان التشجيع الأخرى ، لأنها هى العون الحقيقى للأديب لبناء ثقافته .

روزاليوسف ١٩٦١/٢/٢٠

في قفص الاتهـام (*)

كنا ثلاثة متهمين أمام محكمة جنح العطارين بالاسكندرية ٠ محمد عبد الوهاب واحسان عبد القدوس ، وأنا ٠٠

وكان الرجل الذى يتهمنا هو محمد البحر ، ابن الموسيقى الخالد سيد درويش ٠٠

وكانت تهمتنا أننا تعرضنا لحياة سيد درويش الشخصية فى حديث لى مع عبد الوهاب ، نشرته « روزاليوسف » ٠٠ وهكذا أصبح كل من عبد الوهاب ، وأنا فاعلين أصليين ، عبد الوهاب لأنه قال رأيه ، وأنا لأنى نقلته ، واحسان عبد القدوس رئيس التحرير ، أصبح هو المتهم الثالث ، لأنه أجاز النشر ٠٠ ولذلك فهو يقاسمنا المسئولية ٠٠

وأنا لم أدخل محكمة فى حياتى ٠٠ لا جنح ولا جنـايات ، وأغلب ظنى أن عبد الوهاب أيضا لم يدخل محكمة ، أما احسان فهو رد سجون ومحاكم ٠٠ وثقافتى القانونية ضعيفة جدا ٠٠ ولذلك فحين سمعت أننى قد أحلت الى محكمة الجنح ، هرعت الى أحد زملائنا الذين يفهمون فى القانون لأسأله عن مدة العقوبة التى تحكم بها محكمة الجنح فى العادة ، وقال الصديق : ان المدة تتراوح بين ستة أشهر وثلاث سنوات ٠٠ سجن ! أعوذ بالله !

(*) انظر ص ٤١٨ ٠

ورغم ذلك ، ذهبت الى الاسكندرية ، وسهرت ليلة الجلسة مع بعض الأصدقاء من أدباء الاسكندرية ، وتعشيت معهم العشاء الأخير، كما تعشى المسيح فيآخر أيامه فى الدنيا !

وفى الصباح قابلنى وجه الأستاذ جمال العطيفى المحامى . الذى وكلته المجلة لينقذ احسان عبد القدوس ، وينقذنى ، من محكمة الجنح ··

كان وجه جمال العطيفى مبتسما ·· لم ينس فى الصباح أن يحلق ذقنه ، وأن يستكمل أناقته ·· كانت الابتسامة على وجهه دليل الاطمئنان ·· قلت لنفسى هذا الرجل يفهم فى القانون ، وليس من المعقول أن يبتسم وهو يقود موكله الى المحكمة التى قد لا يخرج منها الا الى السجن ، ولا يرى النور بعد ذلك ·· ثلاث سنوات كاملة ··

ودخلت المحكمة تحت ذراع جمال العطيفى ··

وجاء دور قضيتنا ·· ولم يحضر احسان أو عبد الوهاب ··

ونادى الحاجب : الحاجب : المتهم الأول : محمد عبد الوهاب ·

ولم يرد أحد ··

ونادى الحاجب مرة ثانية : المتهم الثانى : صلاح عبد الصبور

وقلت : حاضر ··

ونادى الحاجب : المتهم الثالث : احسان عبد القدوس ··

وتقدم جمال العطيفى ليقول انه حاضر عن المتهمين الثانى والثالث ··

وخرجت من صفوف المتفرجين ، لأقف أمام منصة القاضى ·· أحسست أن منصة القاضى عالية ·· عالية ·· وبعيدة أيضا رغم أن المسافة بينى وبينها لا تزيد عن متر ونصف ·· وقفت أمام القاضى عبد الحميد شمس الدين ، واعترفت انى كاتب المقال ··

وتقدم محامى محمد البحر بن سيد درويش ليتكلم :

قال ان سيد درويش ثروة قومية ، تحدثت عنها صحف العالم ، وأكبرها فنانوه ، وأن القول بأن سيد درويش كان يتعاطى المخدرات هو اساءة بالغة لهذه الثروة القومية ٠

واستطرد قائلا : ان المسألة ليست مجرد اتهام سيد درويش بتعاطى المخدرات ، ولكنها محاولة مقصودة من محمد عبد الوهاب و (ذيله) عبد الحليم حافظ لتجريح سيد درويش ٠٠

ثم قال المحامى انه يعتقد أن كلا من صلاح عبد الصبور واحسان عبد القدوس كانا مخدوعين ٠٠ خدعهما عبد الوهاب ، وفهمت من مرافعة محامى محمد البحر أنه يريد أن يأمر القاضى بحبس محمد عبد الوهاب ، ويكتفى بقرص أذنى ، وأذن احسان عبد القدوس ، لأن عبد الوهاب ضحك علينا !

وجلس محامى محمد البحر ،وقام جمال العطيفى ٠٠ ولأول مرة أفهم معنى المرافعة القانونية ٠٠ ان المرافعة القانونية كيان حقيقى ٠٠ انسان حى ٠٠

وهكذا كانت مرافعة جمال العطيفى ٠ قال جمال العطيفى ان هناك متهما رابعا ، لم يذكر اسمه مع المتهمين الثلاثة ، بينما يقضى منطق الدعوى أن يقف معهم ، بل أن يتقدمهم ، وأن هذا المتهم هو التاريخ ٠٠

وحين ورد اسم التاريخ ، أحس الجميع ٠٠ المتفرجون ، ومحامى الخصم والمتهمون البسطاء الذين يجلسون فى قفص الاتهام، والذين يجلسون فى ظل العدالة ، بجانبى ٠٠ حتى حاجب المحكمة ٠ أحس الجميع أن القضية كبيرة ٠٠ لأن هذه الكلمة الكبيرة دخلت الى المحكمة ٠٠

وابتسم القاضى ، واستند بمرفقيه على حافة المنصة ٠٠

ان حياة العظماء ملك للتاريخ ، حتى أدق أسرارهم الشخصية، وهذا هو الدين المتصل الذى يدفعه الرجل العظيم لأمته ٠٠ انه يصبح بعد موته ملكا للمؤرخين ، والروائيين والسيكولوجيين ، يصبح ملكا حتى لطلبة المدارس ٠٠ لا ملكا لأسرته فحسب ٠٠ ان ورثة الفنان الكبير ٠٠ ورثته الحقيقيين هم الناس جميعا ٠٠ والفنان الكبير كالانسان العادى ، له أخطاؤه ٠٠ ولكن أخطاء الانسان العادى تموت بموته ، وقد لا يعرفها الا من عاشروه ، وهؤلاء أيضا يموتون وينتهون ٠٠ أما أخطاء الفنان الكبير ، فهى خالدة بخلوده ٠ لأنها مثل كل شىء صنعه أو كتبه أو أنتجه ٠٠

ومن حقنا أن نبحث عن أخطاء الفنان الكبير ، كما نبحث عن أعماله ، فالجهد الذى يبذله مؤرخ لكى يكشف أسرار علاقة الشاعر بيرون بأخته ، لا يقل أهمية عن الجهد الذى يبذله ناقد لكى يفهم احدى روائعه ٠٠ كلاهما جهد مقدس ، لأن كليهما ينير الطريق لمعرفة الفنان ومعرفة فنه ٠٠

وفن الفنان لا ينفصل عن حياته الشخصية ، ان سر نبوغ فنان من الفنانين هو أن حياته الشخصية كان لها طابع خاص ، ولذلك أصبح لفنه طابع خاص ٠٠ انه انفرد بحياته ٠٠ كما انفرد بفنه ٠ ومن حق التاريخ أن يبحث ٠٠ أن ينير ٠٠ أن يفهم ٠٠ لكى يستطيع الناس أن يفهموا ٠٠

هل نستطيع أن نفهم أندريه جيد ، وجان كوكتو ، اذا لم نعرف شذوذهما الخلقى ؟ هل نستطيع أن نفهم جورج صاند اذا لم نستذكر مغامراتها ، كما نستذكر رواياتها ؟ هل نستطيع أن نفهم شعر أبى نواس اذا لم نعرف أسرار حياته ٠٠

كثيرة ٠٠ كثيرة ٠٠ هى أخطاء الفنانين ٠٠ وكثيرة أيضا هى أخطاء الناس العاديين ، ولكن أخطاء الفنانين تظهر كالشمس ، بينما تختفى أخطاء الناس العاديين فى ظلام مخادعهم ٠٠

وحين يتحدث المؤرخ أو الناقد عن أخطاء الفنان ، لا يتحدث عنها بلهجة الواعظ الذى يبشر بالجنة والنار ، ولا بلهجة التشفى

التى يصطنعها من لا يدركون أسرار قلب الانسان ، بل انه يتحدث عنها بلهجة ملؤها التسامح والمحبة انه يتناول كتاب حياتهم بنفس الأصابع الرقيقة التى يتناول بها ما كتبوه فى حياتهم ··

ولذلك فقد أباح جميع المشرعين للتاريخ الحق فى أن يتحدث عن العظماء ، وعن أخطائهم ونزواتهم ، لأن المشرع يبحث دائما عن النية قبل أن يبحث عن الفعل ، ويبحث عن هدف الفعل قبل أن يبحث فى الفعل ذاته ··

ان محامى محمد البحر يتهمنا بالقذف فى حق سيد درويش والقذف تعبير قانونى معناه أن توجه سبة الى انسان ما ·· هذه السبة لو صحت لأصبحت سببا لتحقيره بين بنى وطنه ··

والقانون يقول ان تهمة القذف لا توجه الا الى الأحياء ، لأن الأموات لم يعودوا مجالا لتحقير أو تكريم بعد موتهم ، وأن تهمة القذف يجب أن يرفعها المقذوف فى حقه ·· شخصيا !

وسيد درويش خالد فى نفوسنا ·· ولكنه مات فى الواقع منذ سبعة وثلاثين عاما ، والقانون ينص على أن توجه التهمة فى خلال « كذا » يوما ، والا سقط حق المقذوف فى حقه فى توجيه الاتهام

وهكذا صـــنع جمال العطيفى لمرافعته قدمين تسير عليهما ، وتخطو بها الى العدل ··

لقد أوضح أن التهمة الموجهة الينا لا سند لها من القانون ··

وعلى القدمين ارتفع جسم المرافعة ·· وقد يقول قائل :

ان اتهام سيد درويش بأنه كان يتعاطى المخدرات قد يسىء الى ابنه محمد البحر ، ولذلك يحق له أن يعتبر نفسه مقذوفا فى حقه وأن يقيم علينا هذه الدعوى ··

ولكن هناك أمران :

أولهما : أن تعاطى المخدرات لم يكن جنحة ولا جناية فى القانون فى السنة التى مات فيها سيد درويش · لقد أصبح تعاطى المخدرات جنحة فى عام ١٩٢٧ ، بعد وفاة سيد درويش بأربع سنوات ، وأصبح جناية بعد الثورة ··

وثانيهما : أن جميع الذين كتبوا عن سيد درويش ، قبل حديثى مع عبد الوهاب ، قد أوردوا هذه الواقعة ، ولم يتحرك محمد البحر ·

وأفرغت حقيبة جمال العطيفى المنتفخة حملها كله لتضعه بين يدى القاضى ·· كتب ومقالات ومجلات وصحف يومية ·

اننا نتحدث عن سيد درويش من فرط محبتنا له ، اننا لا نريد أن نقذف فى حقه ، والا كنا كمن يهدم بيته بيديه · وسيد درويش هو بيتنا ، والصداقة التى بين آذاننا وبين عبقريته صداقة خالدة ، دورنا فيها أن تحبه ، ودوره فيها أن يسامحنا ، وأن يعترف لنا بأخطائه التى هى جزء لا يتجزأ من فنه ، ونحن بدورنا نسامحه ··

وجلس جمال العطيفى ·

وابتسم القاضى ، وأجل النطق بالحكم ستة أسابيع ·

روزاليوسف ١٩٦١/٤/١٧

أدباؤنا بدون عيون ولا آذان

فى معرض الفنان صلاح طاهر لم ألتق بأديب واحد ، كان هناك سيدات يلبسن الفراء ، وكبار موظفين بالحلل الداكنة ، وأجانب يرطنون بالانجليزية والفرنسية ، وفنانون تشكيليون كبار وصغار ، ولم ألمح شبحا لأديب !

وهذه الظاهرة فى كل معرض فنى ، وأدباؤنا فضلا عن جهلهم بالفنون التشكيلية ، لايهتمون أيضا بالموسـيقى أو بالعمارة أنهم محصورون فى التعامل مع الألفاظ دون غيرها من نواحى التعبير الفنى ٠

والفنانون التشكيليون أنفسهم ، معزولون عن الحياة الأدبية ، لا يقرأون شعرنا ولا قصصنا ، ولا يعرفون شيئا عما يدور فى داخل زملائهم الأدباء ٠٠

وهذه ظاهرة قل أن نجد لها نظيرا فى أى أمة متحضرة ٠٠ ان جان كوكتو مثلا يكتب ويرسم ويؤلف للمسرح ، ويخرج للسينما وينقد الفن ، وأندريه مالرو الروائى الكبير هو من ألمع نقاد الفن فى نفس الوقت ٠ وهربرت ريد يكتب عن الفنون التشكيلية بنفس البراعة والاحسـاس الذى يكتب به أحيانا عن الأدباء ، وقد بدأ برناردشو حياته ناقدا موسيقيا ، وجماعة السرياليين فى فرنسا حمل لواءها شعراء ورسامون وكتاب فى نفس الوقت ، ولمعت فيها أسماء بيكاسو الرسام واراجون الشاعر وأندريه بريتون الشاعر والناقد ٠

وســـبب هذه الظاهرة ـ فى رأيى ـ هو أننا لم نعرف معنى التربية الفنية بعد · حتى فى الجامعة وكليات الفنون الجميلة ، فكليات الآداب فى الجامعة تدرس اللغة ، ولكنها لا تدرس الأدب كفن من الفنون الجميلة ، ولا تربطه بالتيارات الفنية العامة فى العصور المختلفة ليس هناك أستاذ فى كلية الآداب يستطيع أن يربط بين الشعر العربى وبين نقوش المساجد العربية وبين السلم الموسيقى العربى · وكلية الفنون الجميلة تخرج رســـــامين يفهمون فى مزج الألوان والتشريح واستعمال الجواش والزيت ولكن بلا تكوين للعقل والقلب اللذين يجب أن يختبئا وراء الخبرة الفنية ، والا انقلب الفن الى شغل « أسطوات » ·

ان أخطر ما فى فنانينا وأدبائنا انهم لم يربوا تربية فنية ، حتى ان رجلا كالعقاد ، كتب سبعين كتابا ولم يكتب منذ ثلاثين سنة ، عن عمل موسيقى أو مسرحية أو معرض فنى ورأيه فى القصة انها عمل لا يستحق العناء ، وأنها كما يقول المثل التركى : قنطار خشب ودرهم حلاوة !

روزاليوسف ١٩٦١/٤/١٧

خدوها .. جد .. !!

لن ينجح فنان شعبيا وفنيا ، ذلك النجاح الطويل .. الذى تتوثق حلقاته كلما مرت الأيام ، والذى لا يومض عاما أو عامين ثم يخبو ، الا اذا أخذ الحكاية .. حكاية الفن .. جد ..

أن الفنان الكبير متصوف فى محبة الفن .. درويش فى الطريق الهائل الغريب .. عاشق مثل قيس الذى يصبح على كلمة ليلى وينام على كلمة ليلى .. وكلما كان وجد الفنان أشد حرقة كانت خطواته فى طريق الفن أكثر ثباتا .. واستطاع أن يصل ..

والفرق بين الحب والفن ، أن الحب لخبطة ، كل عاشق يمشى على هواه ، أما الفن فله دروب ومسالك مطروقة كما يقول شاعرنا الشعبى — وأول درب من دروب الفن هو : العلم ..

وفى الاسبوع الماضى تلقينا درسا اذاعته اذاعة القاهرة من الأخوين رحبانى . كانوا يقدمون أوبرا غنائية رائعة عن أعيـــاد الحصاد . فيها صوت فيروز الرائع ، ولكن هذه الخامة الفريدة لم تترك لتلعلع فى مونولوج ركيك أو أغنية فردية بلا معنى ، بل كانت تؤدى عديداً من الانفعالات والخلجات ، تصاحبها أصوات أحسنوا تربيتها وتوجيهها ، مع لحن أوركسترالى متكامل ، فى موضوع نابع من بطن جبل لبنان ..

لقد قالوا لنا بالموسيقى أن الفن الكبير يتبع من منبعين : أولا : الاحساس بالبيئة والانفعال بها ، وثانيا ·· مزج الاحساس بالعلم ، بعلوم مختلفة ·· علم اسمه « الهارمونى » وعلم اســـمه «تربية الأصوات » وعلم اسمه « الآلات » وعلوم أخرى كثيرة ·· وألف رحمة على موسيقيينا الذين يقرأون النوتة بالعافية ··

ومعظم الافلام الأجنبية التى تعرض فى القاهرة تعطينا نفس الدرس : ان الصدق فى التعبير والاحساس ، مع العلم ·· هما أساس الفن · هناك يعرفون علما اسمه « اعداد الممثل » وعلما اسمه « كتابة السيناريو » وعلما اسمه « كتابة الحوار » ·· ولامجال للموهبة الشيطانية التى تعتبر الكتب رجسا وضلالا ، وتظن أن مقاعد الدراسة أضيق من أن تتسع لها ··

وأخيرا ··

يا أيها الموسيقيون والرسامون والممثلون والمخرجون والشعراء والكتاب خدوها جد ·· الله يخليكم !

فالبلد فى حاجة الى فن عظيم بجانب السياسة العظيمة ··

فــن بدون جمهــور

فى معرض البينالى بالاســـكندرية ·· اليوم الثانى لافتتاح المعرض فوجئت بأن عدد المترددين على صالات المعرض لا يزيد عن سبعة ، وكلهم أعرفهم ··

كان هناك زميلنا ايهاب الرســـام بروزاليوسف ومفيد فوزى الصحفى والأديبة ليلى عسيران والمثال كمال خليفة والناقدان الفنيان رشدى اسكندر وصدقى الجباخنجى ·· وأنا ·· ثم لا أحد ··

وكانت الصالات خاوية الا منا ومن حرس البلدية واللوحات الفنية لأسبانيا وايطاليا ويوغوسلافيا واليونان والجمهورية العربيه، وغـــيرها من دول البحر الأبيض ·· تتنفس فى الوحدة والفراغ والرطوبة ··

ورثيت فى نفسى للفنانين التشكيليين فى بلادنا ، هذه البلاد التى وهبت فن النحت فى عصرها الفرعونى أروع آثاره ، ووهبت فن المعمار فى عصرها الاسلامى تحفا وروائع لانظير لها ··

فى أورقة المعرض عرفت أن النتائج التى أعلنت ، وبخاصة نتائج الفنانين العرب ، لم تكن محلا للرضا أو الاقتناع بالنسبة لجميع العارضين ··

ففى التصوير مثلا فاز الفنان صلاح طاهر بالجائزة الأولى وفاز عويس بالجائزة الثانية ، وفى النحت فاز « أحمد عثمان » بالجائزة الأولى لتمثاله « شوقى » وفاز أحمد عبد الوهاب بالجائزة الثانية ..

وأنا لا أريد أن أتعرض للنتائج ، فهى بالاجمال كانت عادلة ومقنعة ، فان لوحة « صلاح طاهر » تستحق جائزة المعرض الأولى ، بينما كان يجب أن يتقدم تمثال أحمد عبد الوهاب على تمثال «أحمد عثمان » ..

المهم .. أن النتائج قد تكون محل خلاف ، ولكنك لو سألت أى فنان من العارضين عمن يرشحه للجائزة الأولى لقال .. أنا ..

من يحكم بين الفنانين اذن ؟ ..

ان المنطقى أن يكون هناك جمهور للفنون التشكيلية ، تتكون عناصره من أساتذة الفنون ونقادها فى الصحف والمجلات وهواة الفن التشكيلى ، وطلبة كليات الفنون ، ثم الجمهور الواسع بعد ذلك ..

ولو كانت وزارة التربية حريصة مثلا على تكوين جمعيات للرسم فى مدارسها ، ولو استطاعت جمعيات الرسم تنظيم رحلات الى معارض الرسم والتصوير ، ولو أقيمت المعارض الدائمة فى وسط القاهرة ، وفى الميادين والمتاحف المفتوحة لأمكن لنا أن نخلق قاعدة للفنون التشكيلية فى بلادنا ، يكون رأيها هو الحكم بين الفنانين ..

ولكن .. اذا ظل الأمر على هذا الحال ، وظلت الفنون التشكيلية فى عزلة عن الجمهور ، فلا شك أن النتائج ستكون دائما محل رضا بلا سبب .. أو سخط بلا سبب ..

ونفس الحال بالنسبة للموسيقى السيمفونية ..

فقد كتب الزميل أحمد عبد المعطى حجازى فى العدد الماضى من روزاليوسف تحقيقا صحفيا عن وزارة الثقافة ، واتهم الوزارة

بأنها حرمت الموسيقى سليمان جميل من منحه التفرغ هذا العام لأن اللحنة لمتعجبها موسيقاه ··

وجاء صديق مشتغل بالموسيقى الســـيمفونية ، ليقول لى ان الوزارة لم تكن مخطئة لأنها حرمت سليمان جميل من منحة التفرغ هذا العام ، بل ان خطأها الأكبر هو انها منحته التفرغ فى العام الماضى ··

ــ ولكن سليمان جميل موسيقى ··

وقال صاحبى :

ــ لا مش موسيقى ··

من الحكم اذن بينى وبينه ، اذا كانت أمور الموسيقى السيمفونية تتم فى الدهاليز ، مثل طقوس الكهنة · واذا كانت الوزارة قد أعطت سليمان جميل منحة التفرغ دون ان يسمعه الجمهور ، ومنعت عنه المنحة دون أن يسمعه الجمهور ايضا ··

أليس من الأجدر قبل أن نفكر فى أن نصنع فنانا أن نصنع له جمهور ··

روزاليوسف ١٩٦١/١٢/٢٥

خواطـــر فى الفـــن ..

ثلاثمائة فنان من القاهرة يحملون معهم فنهم وخبرتهم ، وينطلقون الى السد العالى ، حيث يعرضون فى مواقع العمل فنهم وابداعهم والى الجزائر حيث يحيون الأرض المكافحة الثائرة فى عيد ثورتها ، والى أماكن أخرى مختلفة من أرض العرب ..

مسرح التليفزيون ، أو بعض فرقه ، والمســـــرح القومى . والاوركسترا السيمفونى ، ومسرح العرائس ، وفرقة السيرك القومى، وعدد من المطربين والعازفين . كل هؤلاء ينطلقون فى اشعاع فنى ، لينقلوا فن القاهرة الى الريف والى مراكز التجمع الصناعى الجديدة والى الجزائر .

ان الفن ملكية عامة من قبل أن تشرع قوانين الملكية العامة ، انه ملك للناس جميعا ، والحكومة الاشتراكية هى التى تحرص على أن يصل الفن النظيف الى كل مستويات المدينة ، وأن تعم الحضارة الفنية كل كوخ ، وكل منجم ، وكل مصنع ، وكل قرية ..

والحكومة الاشتراكية هى التى تحترم الفن ، فتجعل منه سفيرا متجولا لها ، سفيرا مكشوفا صريحا ، يفتح القلوب بالأنغام والألحان والكلمات ، ولهذا سافر فننا الى الجزائر ليكون ســـفيرنا المتجول هناك .. سفيرنا المضىء القلب بالمحبة ، والذى ينشر المحبة أينما حل أو رحل .

ونحن نخطو خطوات واسعة فى هذا السبيل · وأول الخطوات هى تبنى الوسائل الجديدة لنشر الفن على نطاق واسع ، فكما نقلت المطبعة ملايين الناس من صف الجهلة الى صف المتعلمين ، وحلت أمام أعينهم ألغاز الأبجدية ، فخرج من بين هذا الغمار العظيم من الفقراء ، الذين كان مقضيا عليهم بالجهل ، خرج من بينهم أدباء وفنانون وعلماء ومشرعون وعباقرة ، كذلك فان الوسائل الجديدة لخدمة الفن ونشره جديرة بأن تمحو الأمية الفنية · وعندئذ تولد الطاقات الجديدة وسط الفلاحين والعمال والريفيين ··

وأهم الوســـائل الجديدة لنشر الفن هى الاذاعة والتليفزيون والاسطوانات وغيرها من وسائل التقدم الآلى التى وضعت فى خدمة الفنون ، ومن هنا كانت هذه الوسائل ، وكان تدعيمها ضرورة وطنية وقومية ، لأنها هى التى تستطيع أن ترفع الريف الى مستوى المدينة وأن تمحو الأمية الفنية ·

ولكن ·· لابد من المشاهدة ·· أحيانا ، فان المشاهدة وقرب الفنان من جمهوره هى التى تصنع الالفة الفنية ، هى التى تولد التعارف ·· وعندئذ يحب الجمهور فنانه ، ويحـــرص على تنمية صداقته به من خلال الاذاعة والتليفزيون ، وغيرهما من أدوات النشر الفنى الواسعة الدائرة ·

والفنان نفسه جدير بأن يستفيد من هذه التجربة ·· انه يفهم الجمهور ويحس بنبضه ودقات قلبه ، فيحـــرص عندئذ فى أعماله الفنية القادمة على أن يزداد قربا منه ، وتعبيرا عنه ·

ان هذه التجربة تجربة مجيدة فى تاريخنا الفنى ··

ماذا نصـــنع لهؤلاء ؟

أتاحت لى عضوية لجنة القراءة بمؤسسة المسرح فى السنة الماضية أن أقرأ حوالى أربعين أو خمسين عملا فنيا جديدا ، بأن أزداد قربا وفهما لمشاكل التأليف المسرحى عندنا ··

فقد درجت مؤسسة المسرح حين يرسل اليها أحد الكتاب نصا مسرحيا مؤلفا أن تبعث به الى ثلاثة من أعضاء لجنة القراءة فيها لابداء الرأى فى صلاحيته للتمثيل ، وقد كان نصيبى من القراءة حوالى هذا العدد تقريبا · وكان جزء كبير منه استجابة لمسابقة للتأليف المسرحى أعلنت عنها المؤسسة ··

وأول ما يلاحظه الناقد أن المسرحيات التى تقدم لمسابقات يكون مستواها عادة أقل كثيرا من المسرحيات التى تقدم فى ظروف عادية · ولعل سبب ذلك أن اغراء الجائزة يدفع الكثيرين من غير المهتمين بالمسرح الى الدخول فى المسابقة طمعا فى كسب بضع عشرات أو مئات من الجنيهات بطريق سهل ·

فبعض (المسرحيات) المتسابقة مثلا لا يدرك مؤلفوها حتى طريقة كتابة المسرحية شكليا ، فيسيح الكلام على بعضه ، وتختلط القصة بالارشادات المسرحية بكلمات الشخصيات · وبعضها تكثر فيه الأخطاء الاملائية أو التاريخية أو غيرها ·

وأمر هؤلاء المؤلفين الموسميين سهل ، فما تكاد المسابقة تنفض وتعلن جوائزها ، ويجدون أنفسهم لم يفوزوا باحدى هذه الجوائز . حتى ينصرفوا عن التفكير فى المسرح وكل مايمت اليه بصلة ·

ولكن المهم هو أمر مجموعة أخرى من المؤلفين ، مسرحياتهم فيها شىء ، فيها رغبة فى الكتابة ، وادراك لابأس به بتركيب الحوار وانشاء المسرحية · وبعض الأفكار ، ولكن هناك عيوب ·

ان مسرحياتهم لا تصل الى درجة الصلاحية للعرض على الجمهور ، ولكنها أيضا ليست تخريفا أو تدخلا فيما لا يعنيهم · ان فيها شيئا كثيرا من المسرح ،شيئا خاما يصلح للصقل والتشذيب ·

بعضهم مثلا لا يكاد يفرق بين حرفية المسرح وحرفية الكتابة الاذاعية · ويقع فى أخطاء ··

بعضهم مثلا لا يعرف بالتحديد مضمون كلمة « الصـــراع الدرامى » وان كان يحاول تجسيمه ·

هؤلاء يجب الا تنتهى علاقة المؤسسة بهم عند رفض مسرحياتهم، بل يجب أن تمتد ليخرج منهم مؤلفون مسرحيون جدد يغذون الحركة المسرحية · ومن الواضح أن أزمة المسرح عندنا هى فى المكان الأول أزمة تأليف ومؤلفين بعد أن حلت الأزمة المادية بانشاء المؤسسة ومسرح التليفزيون ، وأزمة أماكن العرض بانشاء المسارح الجديدة ·

وهذا اقتراح أعرضـــه على الدكتور حاتم ·· أن ينشأ معهد للتأليف المسرحى ، لا يدخله الا من ترشحهم لجان القراءة ، ولا يزيد عدد طلبته عن أفراد من الموهوبين الذى ثبتت صلاحيتهم ، ويحتاجون فقط لبعض الصقل والتشذيب ، ولا أقصد « بمعهد » شكلا مدرسيا ولكن حلقة دراسية « سيمينار » يجلس فيه هؤلاء المؤلفون الجدد مع بعض أساتذة الدراما والمسرح والأدب ، ويناقشون نصوصا مسرحية مؤلفة ومترجمة ، ونصوصا مسرحية من تأليف هؤلاء المؤلفين الجدد ·· ويزورون فيه المسارح ، ويناقشون المسرحيات المعروضة فيها ، ويدركون أبعاد الخشبة وامكانيات الاضاءة والستائر ، واستجابات الجمهور · ويكتبون بعدئذ نصوصا جديدة ، لتطرح للمناقشـــة والتوجيه ،وعندئذ فقد يخرج من بين العشرة أو العشرين ـ ويجب الا يزيدوا قط على هذا العدد ـ يخرج من بينهم مؤلف أو اثنان يرفعان لواء الجيل الجديد من كتاب المسرح العربى ·

معرض رمســيس يونان

معرض رمسيس يونان ظـــاهرة فنية ·· ان درجاته اللونية تتراوح بين البنى الفاتح والغامق مع بعض ظلال خضراء ولكنه يصـــنع من هذه الألوان قصـــائد موزونة مقفاة تحتـاج للقراءة لا للمشاهدة العابرة ·

ورمسيس يونان رسام مثقف ، وقد أفادته ثقافته الأدبية فى استخراج أسلوب فنى جديد يتميز به · فقد كان دائما من المبشرين

بالمذاهب الجديدة فى الأدب والفن ، مثل الرمزية والسيريالية والتجريد • وهو نفسه قد خاض تجارب كثيرة حتى استقر أسلوبه ، ولا أظن أنه سيتجمد ، فان انتقالاته السريعة بين ما عرضه عام ١٩٦٠ ، وما عرضه من أعمال عام ١٩٦٢ تجعلنا نؤمن بأنه سيحاول شيئا جديدا ، ولكن من خلال خبراته •

وفى الكتالوج صور فوتوغرافية لنماذج من أعمال سابقة ، عمرها يزيد على خمسة عشر عاما ، كان رمسيس عندئذ فى مرحلة تجريد الموضوع ، وكانت فيه مسحة صوفية أحيانا ، خرافية أحيانا أخرى • كان فيه نزعة دائبة الى تحقيق التصالح بين الموضوع الشائع والتعبير الأصيل عنه ، وفى لوحاته الجديدة يحاول رمسيس أن يتفادى الموضوع سعيا وراء قيم لونية ، تحقق بانسجامها وتناقضها وتقاربها ، ومختلف العلاقات بينها نوعا من الموسيقية او نوعا من بناء القصيدة •

ان رؤية أعمال رمسيس يونان ليست عملا سهلا ، ولكنها عمل معقد ، فأنت لا تشاهد اللوحة • ولكنك تقرأها كما تقرأ الحروف ، وهذا هو ما يجعل بعضها يشبه سطح الصخرة الكثير النتوءات ، الذى يسطع جماله من بساطته وقسوة خطوطه وانحدراته •

فى عملين من أعمال رمسيس يونان الأخيرة يبرز اللون الأبيض من وسط اللوحة كأنه انبثاق فجر خلال ضباب بنى فى مدينة مهجورة •• ولعل هذا اللون الأبيض الخجول يكون بداية لتطور جديد فى فن رمسيس يونان ، ورؤية جديدة تولد فى وجدانه •

اذا كنت تحب الأدب الجديد والفن الجديد ، وتقبلهما ، وترى اللوحات الفنية ببصيرتك ، وتعرف أن الفن ليس هو محاكاة الطبيعة ولكنه التعبير عنها فستحب معرض رمسيس يونان ، وستفخر بأنه معرض فنان مصرى • أما اذا كنت قد اعتدت على رؤية الموضوع فى اللوحة الفنية ، وحسابه بمنطق المحاكاة للطبيعة والمنطق الجامد، فستخرج من المعرض ، وأنت تضرب كفا بكف ، وتقول :

ــ ماذا يريد أن يرسم هذا الفنان !

آخر ساعة ١٩٦٣/٧/٣

رفقـا بالفـن

اصبح الحديث عن الظروف الاجتماعية والسياسية التى يمر بها وطننا هو النغمة السائدة فى النقد الأدبى والفنى ، وبخاصة تلك المراجعات السريعة التى تنشرها الصحف والمجلات • فبعض النقاد يبدأ حديثه بمناقشة العمل الأدبى على أساس تلك الظروف ، ثم ما يلبث أن يصدر عليه حكما ، سواء بمسايرة هذه الظروف أو التخلف عنها ، ثم يريح ضميره بعد اصدار هذا الحكم معتقدا أنه أصدر فى الوقت نفســـه حكما فنيا بالقبح أو الجمال اللذين هما المقياسان الوحيدان للفن •

ولاشك أن هذه النظرة هى الطريق السهل ، فهى موضوعية جدا ، واضحة جدا ، كالقوانين العلمية ، لايلزمها ذوق أدبى أو معرفة بتاريخ الأدب والنقد ، أو ادراك لجماليات اللغة ، وهى جديرة بألا توقع الناقد فى مزالق التذوق أو المقارنة أو التفسير • وهى لذلك تغرى الكثيرين بأن يقتربوا من النقد الأدبى والفنى دون تهيب أو تأهب • فالمقياس فى يدهم ، والأعمال الأدبية مبسوطة أمامهم وما عليهم الا القياس والتسجيل ••

وهم يحمون أنفسهم وراء هذه الكلمة الصادقة البسيطة ، وهى أن للفن وظيفة اجتماعية • ولا يستطيع أحد أن ينكر هذه المسلمة البسيطة ، فالفن نشاط اجتماعى وجدانى ، مثل سائر أنواع النشاط البشرى وهذه الكلمة لا تنتمى لأحد • بل هى حكمة انسانية خالدة

وقديمة يملكها الانسان فى شتى عصوره ، وان أساء التحكم فى ملكيتها الكثيرون ، من أقصى اليمين الى أقصى اليسار ٠

كان أقصى اليمين يحرص على أن يبسط على الناس حفنة من الآراء فهو يروج لها ، ويلزم الأدباء والفنانين بتبنيها والكتابة فى دائرتها ، وأقصى اليسار يملك أيضا حفنة من الأفكار ، فهو يروج لها ويلزم الأدباء والفنانين بتبنيها والكتابة فى دائرتها ، وحين تصبح السلطة الزمنية فى يد أصحاب هذه الحفنة من الآراء تتحول الوظيفة الاجتماعية للأدب الى وظيفة فحسب ، ويفقد الأدباء والفنانون مقدرتهم على الابداع ، وما ذكريات النازية والستالينية ببعيدة عن الأذهان ٠

للفن اذن وظيفته الاجتماعية التى يؤديها بالاختيار الحر أولا ، حين يعبر الفنان عن الكون من خلال ذاته المنفردة التميزة ، حين تحس به وتتمثله ، تتألق بنورها الخاص الذى انعكس الكون على مرآته ، ثم بالاقتراح ثانيا حين يستثير فى نفس قارئه أو مشاهده بعض الانفعالات ويدفعه للتفكير فى ضوء جديد ، أو الاحساس بمزاج جديد ٠ والقارىء أو المشاهد عليه بعد ذلك أن يعبر الطريق وحده ٠ فالفن لايقرر ولكنه يقترح ، ولا يقنع ولكنه يثير ويستثير ، ولا يمشى فى خطوط متوازية قصيرة ، ولكن فى انكسارات وانحناءات وهو يمشى متحليا بقيمه الجمالية الشكلية التى لا يصبح بدونها فنا ، حتى ولو عبر عن أرقى المشاعر وأنبل الأفكار ٠

وأخطر الأخطار على الفن عندئذ هى أن يكلفه النقاد فوق طاقته فيطلبون منه التقرير والاقناع ٠ وقد مرت بالفن عهود مظلمة كان آخرها عهد الستالينية الجدانوفية ، نسبة الى ستالين وتابعه البيروقراطى الناجح والفنان الفاشل جدانوف الذى مشى بالأدباء على الصراط وأراهم النجوم فى عز الظهر ٠٠ ففى عهدهما منعت مؤلفات دستويفسكى من اعادة الطبع وحرم شعر الغزل ، ومنع الحديث الا عن المزارع الجماعية والجيش الأحمر ٠ وحين ذهب الموت بالرجلين استطاع الأدب الروسى أن يفيق من مرضه ، وأظنه الآن فى دور النقاهة ٠

لم تكن هذه التجربة تجربة روسية فحسب ، ولكنها تجربة انسانية عامة ، جديرة بأن يفيد منها البشر جميعا ، فما جدوى أن تصدر ألف رواية عن المزارع الجماعية ، وليس فيها رواية واحدة تصلح للقراءة • لأن البطل مزيف بمثاليته وايجابيته والبطلة مزيفة بما تحمل فى فمها من شعارات تلوكها كقطعة اللادن ، والنموذج الخير مسرف فى خيريته ، والنموذج الشرير مسرف فى شره ، والنهاية سعيدة كأنها احدى الحواديت •

ان الفن يؤدى وظيفته الاجتماعية من خلال فردية الفنان وطبيعة الفن التى لا تعرف المباشرة والتقرير • وهو يؤدى وظيفته أحيانا بما يثير فى النفوس من الاحتجاج لا الموافقة ، فمسرحيات يونسكو وبيكيت تثير فى النفوس الاشفاق من خطورة المرحلة التى يجتازها الانسان ، والخوف من انهيار الحضارة • وذلك بما ترسمه من صور قاتمة ، فهى لذلك فن قد أدى وظيفته الأجتماعية بما أثار فى النفوس من الاحتجاج ،وقراءة كافكا وأدبه الأسود ، لا تسود الوجود فى وجه الانسان ، ولكنها تدفعه للبحث عن ثغرة بيضاء •

والفن أيضا لا يؤدى وظيفته الاجتماعية بشكل يومى •• انه ليس مقالا فى جريدة أو تعليقا اذاعيا عابرا ، بل هو أثر خالد يستطيع أن يلهم أجيالا وأجيال • ولنذكر عندئذ أن بعض أبيات شكسبير على لسان فالكوبنريدج « ان انجلترا لم ولن تهوى عند قدم الغاصب المزهوة •• الخ » كانت هذه الأبيات شعار معركة بريطانيا عام ١٩٤٢ • ولنذكر أيضا أننا كثيرا ما نستشهد بأبيات شعرنا العربى القديم لكى تبعث فى نفوسنا الحماسة وتثير الحمية ، وتعيننا على الصمود ••

هذا المعنى لوظيفة الفن الخالد هو الذى أدركه الكتاب الذين رسموا التحولات الكبرى فى الأدب • أدركه بلزاك وديكنز وشو وفلوبير وغيرهم • وهو الذى يجعلنا نقرأهم حتى الآن •

والفن أيضا يؤدى وظيفته الاجتماعية من خلال طبيعته الفنية . فالرواية مثلا لابد أن تكون رواية ناضجة بشخصياتها ، كل شخصية

فيها لها عالمها النفسى الخاص وحدودها المرسومة بعناية ، ولعل جوركى أحد الذين عبروا عن هذا المعنى بوضـــوح حين قال ان « الروائى يجب أن يكون أكثر اتساعا من أفكاره ، ونظرته الخاصة للحياة ، بمعنى ان أفكاره يجب أن تصطدم بأفكار أخرى ، ويجب أن يكون مخلصا فى التعبير عن الأفكار التى يعـــاديها لأن جدية الصراع وصدقه هما أساس العمل الروائى » ·

وأشخاص الرواية بشر أحياء ، لايمكن وضعهم فى قوالب · لا يمكن القول ببســـاطة ان هذا يمثل الارســـتقراطية وذلك يمثل البورجوازية وهكذا وانى لأذكر بمزيد الضحك مقالا قرأته فى مجلة « الأدب الســـوفييتى » يتعرض فيه كاتبه لبعض الروائع الأدبيـــة الروسية فى سطور قليلة فيلقى الكلمات كأنه يلقى أحكام القضاء فهو يقول ان رواية « أبللوموف » لكونشاروف هى نقد لتطفل الارستقراطية وأن الحرب والسلام لتولستوى هى بانوراما توضح الوطنية الروسية وشوق الارستقراطية المثقفة لادراك معنى الحياة ، وأن أنا كارنينا هى صورة لتفسخ الأسرة الارستقراطية · وان الاخوة كارامازوف درس فى الأخلاق المسيحية ·· وهكذا أصبحت هذه الأنسجة الواسعة من الشخصيات وهذه الدراسة الممتعة للنفس الانسانية التى جاد بها القرن التاسع عشر ممثلا فى أعلام القصة الروس العظام أصبح كله مجرد شعارات ساذجة ·

ان هذه الروايات روايات عظيمة لأنها اقترحت لا لأنها قررت ولأنها فتحت العيون للرؤية لا لأنها بشرت برؤية معينة ووجهت لها ولأن أشخاصها جميعا مقنعون كبشر · لهم مزاياهم وأخطاؤهم ، ولأن دســـتويفسكى العظيم وتولســـتوى العملاق لم يحاولا الوعظ والتبشير ، ولم يتحيزا الى شخصية من شـــخصيات رواياتهم دون أخرى · ·المجرم كالقديس وعليك أنت أن تختار ··

وليس ما نطلبه فى الرواية هو ما نطلبه مثلا فى ديوان شعر غنائى · فديوان الشعر الغنائى فى أحسن حالاته هو ترجمة ذاتية عاطفية لصاحبه فيه انكساراته وانتصاراته ، أفراحه وهزائمه ، حبه

ومللـه وسخطه ونشوته · والشاعر ذو الحس الاجتماعى يستطيع أن يتحدث عن يوم تعكر فيه مزاجه ، وأن ينظم فى عيون حبيبته آلاف الأبيات ، وأن يرى الدنيا سوداء لأن سواد عيونها غاب عنه · ولايفقد عندئذ حسه الاجتماعى ·

ذلك هو دور الفن الاجتماعى ، بسيط غاية البساطة لأنه قضية مسلمة ، ومعقد أشد التعقيد ، لأنه يخضع فى أداء دوره للغته وتركيبه وفنيته · وهذا هو ما يجب أن يدركه النقاد والصحفيون النشطون الذين يمسكون بالقياس فى أيديهم ، ويطبقونه فى غلظة على كل كلام مكتوب سواء أكان مقالا أم رواية ، قصيدة أم مسرحية ·

لقد جعلتنا قراءة المعرى والمتنبى وشـــو وشكسبير وكافكا ودستويفسكى وغيرهم أكثر قدرة على رؤية الحياة ·· جعلتنا أكثر شوقا للعدالة وأشد ولها للحرية ، وأكثر تقديرا للانسان ·· أن المعرى قد يكون متشائما ولكنه يدفع قارئه لادراك جدية الحياة · ومعرفة أن التفاؤل الهين كذب وتضليل ، وان عليه أن يكون قويا ويقظا وشريفا · وكافكا يميت بطله ككلب بطعنة خنجر عقابا على جريمة لا يعرفها ولكنه يدفع قارئه الى التمرد والصلابة ·

ان الأدب العظيم ، سواء أكان متفائلا فى مظهره أم متشائما ، أبيض أم أسود لا يدفع بالانسان الا الى الســمو على ذاته ، وما ابتسامة مارك توين الا كتقطيبة بيكيت كلاهما وسيلة لرفع الانسان الى أعلى انسانيته ·

ان الأدب العظيم هو باعث الأحلام العظيمة الى مجتمع أسـعد تتحقق فيه كرامة الانسان ·

فليطالب أولئك النقاد اذن بأدب جيد تتوافر فيه الرؤية الصادقة والأصالة الفنية المبدعة ، وليعلموا أن الفن هو النشـاط الوجدانى للانسان ، فاذا خلا من النبض والدفء والتفرد ، واذا لم يسمعنا كل فنان صوته هو ، فعفاء على الأدب والفن ، وعفاء على أحلام الانسان بالمستقبل الأسعد ·

وليعلموا أيضـــا أن أدبنا العربى فى بداية طريق طويل من التجربة ، فهو يتبنى الآن الأشكال الفنية الجديدة ، التى عرفها الأدب العالمى ، ويحاول أن يعبر من خلال الأطر الفنية العالمية عن ذاته ، وان قسوتهم تلك لن ينتج عنها الا اجهاض تجربتنا ، وقص جناح مغامراتنا الأدبية ٠

ولن نكون أمة عظيمة الا اذا كان لنا أدب عظيم ٠٠ ولن تثرى نفوسنا ، ونصبح قادرين على أن نعطى التجربة السياسية العظيمة التى تجتـــازها أمتنا كل جهدها الخــلاق الا اذا كان أدبنا جهدا وجدانيا خلاقا ٠٠

الأهـــرام ١٩٦٤/٧/٣

رحلة على الورق

حياة جديدة لفنون الشعب

انصرفت الدراسات الأدبية قرونا طويلة عن الأدب الشعبى ، وعدته لونا من ألوان عبث العامة ، لا يجوز للعالم المدقق أو اللغوى الفقية تدارسه والخـــوض فيه ، وكان ذلك فيما يقول بعض النقاد المحدثين أثرا من آثار انقسام المجتمع الى حكام ومحكومين ، بين كل منهما سور صفيق من التباعد · كان الحكام يعنون بأدب المدح والهجاء والعواطف الفارغة أو الكاذبة ، ويتبعهم فى ذلك أدباؤهم ونقادهم وعلماؤهم · وكان المحكومون يعنون بشـــعرهم الشعبى وملاحمهم النثرية وأساطيرهم التى تكشف عن البطولات فى الغرام والحرب على السواء ، ولما كان المحكومون أكثر نفرا وأدنى قوة من أن يجمعوا حولهم نقادا وأدباء وعلماء ، فقد أحاط الاهمـــال الشديد بتراثهم وأهال عليه ترابه وأحجاره ·

وتغيرت الحياة فى السنوات الأخيرة ، بل فى القرن الأخير فى شرقنا العربى ، وبدأت النظرة الى الأدب والفن تتخذ لها مسارا جديدا فالأدب ليس زينة لغوية ، ولكنه تعبير حى عن بعض الخيال وخفق الوجدان ، والأسطورة ليست هلوسة ولكنها تفسير وجدانى لأحوال الكون ، والخرافة كثيرا ما تكون تعبيرا رمزيا عن وجهة نظر شعب بأسره فى أمر من الأمور ، وفطن بعض الدارسين الى قيمة الأدب والفن الشعبى وبخاصة فى مجال الجامعة المصـــرية الأولى ـ جامعة القاهرة ، فاهتم به ثلاثة من أبنائها هم الآن أساتذة فى

هذه الجامعة · وهم الدكتورة سهير القلماوى التى اهتمت بكتاب ألف ليلة وليلة والدكتور عبد الحميد يونس الذى اهتم بالسيرة الهلالية والدكتور عبد العزيز الأهوانى الذى اهتم بالشعر الشعبى فى الأندلس العربية ··

كانت تلك هى الجهود الرائدة ، وهى محـــاولة للغوص فى ضمير الشعب المصرى فالدكتورة سهير تعود الى ألف ليلة وليلة محاولة رد قصصها الى أصولها ، وتميز بعض الملامح الاجتماعية والسياسية فيها ، وقد تستطيع عندئذ أن تحدد مواطن تأليف قصصها المختلفة والدكتور عبد الحميد يونس تلقف سيرة الهلالية أشـــهر السير الشعبية قبل أن يعفى الزمن على شاعرها بالقائه المنغم ويدرس أصولها التاريخية ، ويخرج الدكتور الأهوانى كتابا عن الزجل فى الاندلس ·

وهذه الجهود هى التى دفعت باحثا آخر هو الأستاذ رشدى صالح الى أن يبذل محاولة جادة لجمع بعض مواد الأدب الشعبى الحية الآن فى ريف مصر ، ويحاول تصنيفها ودراستها ، وبذلك أشار هذان الاتجاهان الى التعمق فى دراسة الأدب الشعبى تاريخا وحاضرا · والى غنى هذه الدراسة بالامكانيات والمادة العلمية ، ودخل الميدان باحث جديد ملقيا بنظرية جديدة هو الاستاذ فاروق خورشيد بكتابيه فن كتابة السيرة الشعبية . وأضواء على السير الشعبية · والنظرية تقول ان هذه السير الشعبية مثل سيرة عنترة ابن شداد وسيرة الأميرة ذات الهمة وسيرة الهلالية ليست ســيرا تكونت عن طريق التراكم فحسب ، وأخذ المنشد يضيف اليها جيلا بعد جيل مايعن له ويجده مصادفا لهوى مستمعيه ، بل هى ســـير مؤلفة ، ألفها فنان كاتب ، وأراد بها أن يعبر تعبيرا روائيا عن خلجات نفسه وخلجات نفس شعبه أما التراكم فقد حدث بعد ذلك بنســـبة ضئيلة ·

وتعتمد نظرية فاروق خورشيد على أنه من المستحيل أن يكون الشعب العربى فى شتى عصـــوره التاريخية لم يعرف الرواية ،

فالرواية والقاء القصص حاجة أولية فى الانسان ، وقد حفظ لنا الرواة ألوفا من أبيات الشعر ، ومئات من الدواوين ، ولابد انه كان الى جوار هؤلاء الشعراء روائيون اختاروا طريق الحكاية النثرية ، والا كان النثر الفنى العربى عندئذ هزيلا بالغ الهزال ، وهذا مالا يتفق مع مكانة أمة أضاءت التاريخ فترة طويلة ·

والسيرة الشعبية هى آيات الابداع الروائى للشعب العربى وقد حاول فاروق خورشيد فى كتاب آخر له هو « الرواية العربية » أن يتلمس أصول الرواية العربية فى المغازى والسير التى يكتمل بناؤها فى سيرة ابن هشام ·

أما الدكتورة نبيلة ابراهيم فقد تقدمت برسالة علمية عن سيرة الأميرة ذات الهمة ، وهذه الرسالة فى دور الترجمة والطبع بالعربية الآن ··

ذلك كله فى مجال الأدب ، أما فى مجال الفن فقد أصدر الأستاذ سعد الخادم كثيرا من الأبحاث عن الأزياء الشعبية ، وأظنه رائد هذا الميدان ··

وهكذا يتسع مجال دراسة الآثار الشعبية اتساعا جديدا فلا يقتصر على الفنون القولية كالملاحم والأمثال بل يشتمل على الفنون البصرية ، وليس أدل على أهمية هذه الدراسات من اقبال كل هؤلاء الدارسين عليها ، ومن أن قاموسها قد شاع على ألسنة الناس وأصبحت كلمة كالفولكلور تتردد كثيرا حتى شعرنا بالحاجة الى تجديد معناها ··

نعم ، كان لابد من تحديد معنى المصطلحات العلمية قبل أن نتوغل أكثر فأكثر فى دراسة التراث الشعبى · وهذا هو ماقام به الأستاذ فوزى العنتيل بكتابه (الفولكلور ·· ماهو ؟) وهو أحدث ما صدر بالعربية فى هذا المجال ، وكلمة الفولكلور من الكلمات التى يعسر

تحديد مدلولها ، فالمدارس المختلفة فى دراسة التراث الشعبى تضيق من دائرته أو توسعها حسب وجهة نظرها · وقد عرض لنا الباحث وجهات النظر المختلفة فى تحديد معنى كلمة « فولكلور » · ثم خص بالبحث دراسة عن صلة الفولكلور بعلم التاريخ ، ثم صلته بعلوم الانسان المختلفة كالانثولوجيا والاثنولوجيا ··

وتحدث المؤلف بعد ذلك عن مادة الأثر الشعبى ، وأثر التدوين عليها ، وعن معاهد دراسة الفولكلور المختلفة فى فنلندة وايرلندة وويلز وغيرها من بلاد أوروبا ·

ذلك كان القسم الأول من الكتاب ، وهو يمتاز بميزة الجمع والاستقصاء لاتجاهات دراسة الفولكلور ، والمنهجية الحازمة فى التناول بحيث يصلح مرشدا للباحث العربى ، الذى قد يستهويه هذا الحقل ، أما القسم الثانى فقد قدم فيه المؤلف بضع نماذج لدراسات له فى الفولكلور المقارن ، أولها فى المعتقدات الشعبية ، فتتبع طائر الغراب فى التراثات الشعبية المختلفة ودلالاته فيها ، والدراسة الثانية فى الممارسات ، فتحدث عن الرقص الشعبى فى بيئات مختلفة مقارنا بينها ، والثالثة عن كليلة ودمنة فاستطرد الى قصص الخوارق · تلك كلها فصول ممتازة من الكتاب ، فاذا أضفنا اليها هذا الفهرس الذى ترجم فيه المؤلف مصطلحات هذا العلم لييسرها للقارىء العربى أدركنا أهمية صدق هذا الكتاب فى هذه المرحلة ·

لقد اشتملت الجهود السابقة لهذا الكتاب على محاولات لدراسة الأدب الشعبى فى ماضيه وحاضره ، ثم اتسعت لتشمل الفنون الشعبية كلها ، وقد تشمل الممارسات كالرقص وغيره ، وهاهى بهذا الكتاب تتسع اتساعا جديدا لتقدم دراسة فى أصول الفولكلور . وهكذا تكتمل الدائرة ·

واكتمال هذه الدائرة يدعونا الى ادراك أن البحث فى التراث الشعبى لم يعد دعوة خافتة مستكنة يقوم بها أفراد قلائل ، بل أصبح

لونا من الدراسات المتأصلة فى بيئتنا المصرية ، ولعل مما يؤكد هذا القول ما فعل به العدد الثانى من مجلة «الفنون الشعبية» الذى صدر حديثا ، من أبحاث ومقالات مخلصة وجادة ـ والآن ألم يئن الأوان بعد لانشاء معهد للفنون الشعبية ، يستوعب جهود هؤلاء الرواد ، ويقدم لنا أجيالا جديدة من الباحثين ويضيف حياة جديدة لفن الشعب ٠

الأهـــرام ٢٢/٤/١٩٦٥

الفــن المنفــى

آثرت دائما الا أتحدث عن الفنون التشـــكيلية الا لنفسى ولاصدقائى لأنى كنت أدرك انى أتحدث عنها بلغة أدبية ، وأحاول ترجمة اللوحة التى تعتمد على الألوان والخطوط الى قصـــة أو موضوع · وذلك كله خطأ فى منهج تذوق الفن ، أو فى منهج تذوق كثير من أشكال الفن على وجه التحديد ، فنحن قد نجد ما نقوله بالألفاظ عن غموض ابتسامة الجيوكندا أو الدقة والشاعرية فى تمثال « الشفقة » لميكائيل انجلو ، ولكنا لا نجد الألفاظ التى تعبر عن انفعالنا بلوحة تجريدية لمونودريان مثلا ، ونحن قد نجد القصة التى نحكيها عن لوحات جوجان فى جزر تاهيتى ، ولكننا لا نجد ما نقوله بلغتنا الأدبية عن « طبيعة صامتة » لسيزان · وفى بعض الأحيان يكون الحديث عن الفن التشكيلى بلغة أدبية الحادا ومروقا عن طبيعة هذا الفن ، ويكون شأننا كشأن من يتخيل نزهة مع حبيبته على ألحان بيتهوفن ، أو يحصى حروف بيت من الشعر لكى يدرك جماله ·

ولكننا ــ كأدباء ــ لا نستطيع أن نصمت فى الوقت ذاته ، أولا : لأن طبيعتنا هى الكلام ، وثانيا لأن الفن التشكيلى لا يجد من يتكلم عنه من نقاده الذين يتحدثون بلغة تشكيلية الا فى القليل النادر ، وثالثا : لأن مصطلحات اللغة التشكيلية ذاتها لا يكاد يعرفها الا القليل النادر من القراء ، ولو تحدث بها ناقد من النقاد لكان كمن يقرأ من جدول اللوغارتيمات · فرغم البســـاطة الشـــديدة لهذه

المصطلحات ـ مثل الخط واللون والنقطة والعمق والتكوين والتلخيص وغيرها ، الا انها تظل بفضل مدارسنا الغازا معماة الا على المشتغلين بها • ونحن جميعا قد تعلمنا الرسم فى المدارس ، وخصصت له حصص وحجرات ، ووزعت له كتب وكراسات ، ولكن ماذا قد نستفيد من ذلك كله ، والمدرسة دميمة الحوائط والاركان ، والكتاب المدرسى دميم الترتيب والاخراج ، ومنهج تعليم الرسم نفسه منهج خاطيء سخيف •

وفى جيلنا نحن كنا نتعلم الرسم ، كما نتعلم الحساب ، فنعرف مستوى النظر وما تحته وما فوقه ، وكانت القلة والكوب هما النموذجان الأثيران لدى معلم الرسم ، وكأن من يستطيع أن يرسم فوهة القلة أو حافة الكوب وأن يساوى بين الجانبين هو الماهر الحاذق ، وبعد جيلنا حدث تغيير حيث توهم معلمو التربية الفنية انه أنسب ما يجب للتلميذ ، فقبلوا منه أن يرسم ما يتخيله ، وجروا على مفهوم خاطيء لربط الانسان بالبيئة ، فهذا رسم لمظاهرة أو تجمع شعبى ، أو رسم لحديقة الحيوان أو عيد من الأعياد ، ويترك الطفل ليعبث بالالوان والأشكال • وقد يكون هذا المنهج مفيدا فى تعويد الطفل أن يعبر عن نفسه ، ولكن من قال إن المطلوب من درس الرسم أن يعبر الطفل عن نفسه ، ومن قال ان المطلوب أن نكون جميعا رسامين ، ان هذا التفكير لخطأ جسيم ، فليس المطلوب أن نكون جميعا رسامين بل أن نكون جميعا متذوقين ، وبعد ذلك قد يبرز فينا من يستطيع الرسم ، كما أن المطلوب من درس الأدب أن نكون جميعا قراء يفهمون ما يقرأون ، وليبرز منا بعد ذلك من يكتب ويتفنن •

اننا نطلب الثمرة قبل أن نزرع الشجرة ، سواء فى مجال تدريس الأدب أو تدريس الرسم بمدارسنا ، والأجدى من كل هذا العناء أن نعلم الطفل كيف يتذوق الرسم لا كيف يرسم ، والأجدى من كل الكراريس المستطيلة والمربعة أن نعد لطفل كتابا جميلا يحوى مستخرجات من تاريخ الفن ابتداء من الهرم الأكبر ونقوش الفراعنة الحائطية حتى روائع الفن الحديث ، وان نشرح له تاريخ هذه المدارس وأسلوب تقديرها ورؤيتها ، وأن نبصره بقيم الخط واللون والتكوين

فنحن بذلك نكشف أمامه حقولا مترامية من الجمال ، ونفتح عينيه الضريرتين على عالم من الألوان والاشكال والظلال ·

ان الطالب فى بلد متمدن مايكاد يتم مرحلته قبل الجامعية حتى يكون قد عرف عن طريق هذه المستخرجات ، وعن طريق المتاحف المحلية ، تاريخ الفن الفرعونى واليونانى وفن النهضة ومدارس الفن الحديثة ، وله بعد ذلك أن يختار ما يحبه من اتجاهات ولذلك فان اعداد هذا الكتاب الملون أو الكتب الملونة ، ووضعها فى يدى التلاميذ هو التغيير الثورى الحق فى مناهج تعليم الرسم ، وبعد ذلك قد ينشأ جيل من المتذوقين يعرف مصطلحات اللغة التشكيلية حين يتحدث بها النقاد ، وقد ينشأ أيضا جيل من النقاد التشكيليين الذين يتحدثون بهذه المصطلحات ، وقد ينشأ الى جوار ذلك كله أجيال من المترددين على معارض الفنون التشكيلية ، فلا يكون هذا الفن هو الفن المنفى عن عالم الاهتمام والتقدير ، بينما يحظى رقص البطن بمعرفة سير اعلامه ومعلماته النابهات ·

والى أن يتيسر ذلك ، فمن حقنا ــ نحن الأدباء ــ بل من واجبنا أن نتحدث عن الفنون التشكيلية بلغتنا الأدبية المتطفلة ، وأن نعبر بالكلمات عن عالم الألوان والظلال والأشـــكال ، وأن نقوم بدور المروجين الذين يفسحون الطريق للمتحدثين الأصلاء ·

ومادمت قد اعترفت أن دورى هو دور « المروج » فلأتم اعترافى بالقول انى كتبت هذا المقال للترويج لمعرض الفنانين المتفرغين بمبنى الاتحاد الاشتراكى ·· الصالة التى تقع فى قلب المدينة فى أحلى مكان فيها ، على ضفة النيل بجوار فندق هيلتون ، ومضاءة اضاءة تريح العين ، ونظيفة ومرتبة الى أبعد حد ، وفيها مجهود أربع سنوات من التفرغ لمجموعة من ألمع المصورين والنحاتين المصريين ··

ومشروع التفرغ من أهم المشروعات التى تبنتها وزارة الثقافة فى وزارة الدكتور ثروت عكاشة الأولى ، ثم استمرت بعد ذلك فى مسيرتها ، وربما كان المتفرغ لم يعط عطاء المنتظر بعد فى مجال

الأدب ، ولكنه فى مجال الفن قدم ما نســتطيع به ادراك جدوى المشروع ، وحاجة الحياة الفنية اليه ٠

كان الفنان التشكيلى المصرى يعانى أزمة مميتة ، هى أزمة فقدان الموقع فى الحياة المصرية ، فقبل عام ١٩٥٢ لم تكن الرأسمالية والبورجوازية المصرية حريصة على حماية الفن التشكيلى واقتنائه ، لأنها كانت بورجوازية ملفقة ، بعيدة عن الثقافة والفن ، لم تنشأ فى ظروف صحية كما نشأت البورجوازيات الأوروبية ٠ وكانت ألوان استمتاعها فظة غليظة لا ترقى الى مستوى تذوق الفنون والآداب ، وكانت هناك طبقة رقيقة من المثقفين المصريين والمتمصرين هى التى تسعى الى تقريب صلتها بالفن ، وقد انهارت هذه الطبقة أو اختفت أو هجرت البلاد ٠

وبعد عام ١٩٥٢ تسلل بعض الطموحين الى مواقع البورجوازية القديمة ، ولكنهم ورثوا عنها كسلها العقلى ، وقلة اهتمامها بالفنون والثقافة ، وقد كان جديرا بالأزمة أن تســتمر لولا مبادرة وزارة الثقافة الى مواجهتها ، فالفنان الموهوب لا يبيع أعماله الا نادرا ، وصالات العرض محدودة وجمهورها ضيق بالغ الضــيق ، وبنفس الروح سن قانون التفرغ وأنشئت صالات العرض الجديدة ، وألقيت الأضواء على الفن المصرى المعاصر ٠٠ كل ذلك فى سبيل أن يجد الفنان التشكيلى موقعه الضائع فى الحياة المصرية والمعرض الشامل للمتفرغين يقدم لنا أعمــالا لما يزيد على عشــرين فنانا ، تتعدد اتجاهاتهم الفنية بين التجريد والتجسيم بمختلف مستوياتهما ، ولعل النحات المصرى الحديث يكون قد استرد للمرة الأولى مكانة النحات المصرى القديم من خلال هذا المعرض الذى يقدم لنا أعمالا لتسعة من النحاتين كل منهم له طابعه وأصالته ، ففى نحت « محيى الدين طاهر » نجد الجمال والرشاقة مع مسحة رومانتيكية ، بينما نجد فى نحت « كمال خليفة » نوعا من الرؤية التجريدية ، واستشرافا للعلاء ، وبحثا عن جوهر الشكل وفى فن « محمد هجرس » نكتشف محاولة التعبير عن العناء البشــرى من خــلال هذه الانحنــاءات والولع باستخدام التجويف ، وادخال الفراغ كعنصر فى البناء التشكيلى ،

فاذا تجاوزنا ذلك الى أعمال آدم حنين .. وجدنا الشاعرية والميل الى التلخيص الجمالى مع البراعة فى الايحاء بالموضوع دون الحاح عليه ، ثم مانلبث أن نجد العناصر الفرعونية والاسلامية وهى تمتزج فى فن « أحمد عبد الوهاب » و « ناجى كامل » ولكن فى تشكيلات زخرفية فى معظم الاحيان .

ولابد أن يستوقفنا النحات الرصين « أحمد موسى » بهذه الموهبة الرفيعة فى الاحســـاس بالكتلة ، واندماجها البنـــائى مع الموضوع . وفى هذه الانحناءات القليلة المتناغمة التى تعطى العين ألوانا من المتعة .

أما فى مجموعة تماثيل العمل التى يقدمها « الدواخلى » ، فنحن نحس فيها باندماج العناصر كلها فى بناء تشكيلى واحد ، البشر والحيوان والجماد ، وبلون من التلخيص يكشف عن رؤية انسانية نابضة بالمحبة والأمل ، مع براعة فى التشكيل ، ومقدرة على الايحاء، ولن تفوتنا رؤية مظاهر الحيوية والامتـــلاء بالنبض فى حيوانات « الحسينى » من خلال الحركة وخشونة الملمس .

مجموعة ممتـــازة من الوان النحت يبرز فيها كل فنان فى اتجاهه ، محتويا على عناصر من الدراسة والابتكار ، ومن الدأب على حل مشكلات المادة والكتلة والفراغ ، ومع طموح بعض منهم الى ايجاد طابع محلى للنحت المصرى الحديث ، وطموح الآخرين الى الوصول الى مستوى المعاصرة للنحت فى العالم .

فاذا تجاوزنا النحت الى التصوير استوقفنا هذا الغنى فى الاتجاهات بين كلاسيكية راتب صديق واهتمامه بالموضـــوع وبين تجريدية رمسيس يونان وفؤاد كامل ، مما يدل على خصوبة الحركة الفنية وغناها ، وعلى انها استطاعت أن تفلت من سيطرة التقنينات وسيادة الأساليب المدرسية .

والواقع أن المتفرج الذى ألف رؤية أعمال المصورين المصريين لن يجد فى هذا المعرض جديدا كثيرا ، وكأن معظم الفنانين المصريين

قد تجمدوا عند حدود معينة فى الابداع · ولكن العين التى لم تألف بعد أعمال تحية حليم أو جاذبية سرى أو رفعت أحمد أو غيرهم سيكون لديها الفرصة الذهبية لكى تكتشفهم ، وتعرف أن لكل منهم عالما خاصا محدد الأبعاد فى الرؤية والتكوين واستعمال اللون ·

ومن الحق أن يبدأ الحديث عن فن التصوير فى هذا المعرض برمسيس يونان ، ذلك الفنان الكبير الذى فقدناه وهو فى أوج اكتماله ·· لم يكن رمسيس يونان مصورا بالمعنى التقليدى ، ولكنه كان مفكرا يعبر عن فكره باللون والتكوين ، ومن هنا كانت هذه الصعوبة اللذيذة فى لوحاته ، ولو اقتربت من لوحة من لوحات رمسيس ووقفت أمامها طويلا لرأيت انك مطالب بأن تقرأها لا أن تنظر اليها ، ولادركت مدى التوازن المحسوب والموسيقية الزاخرة فى هذه التموجات اللونية ·

لقد اجتاز رمسيس يونان مرحلة واسعة من الدراسة والتجريب ، ومن التنقل بين الأساليب من أكاديمية وسريالية حتى وصـــل الى رصانة التجريد وتنغيمه ، واختار اللون الصخرى بدرجاته المختلفة لكى يكون سلمه الموسيقى اللونى ، وكأنه يريد أن يرد الأشياء الى عناصرها الأولى مع بعض تموجات تشـــبه البحر أو البحـيرات الساكنة ، فانكشفت بذلك رؤية ذاتية فلسفية للكون ·

ولو قارنا بين رمسيس يونان وفؤاد كامل لوجدنا عند فؤاد لونا من الانفجار اللونى ، بدلا من التأمل عند رمسيس ، يحرص فؤاد كامل على أن يعطى المتفرج احساسا ببدائية الالوان وخشونة ملمس اللوحة ، وفى مرحلة من مراحله كان حريصا على أن يطلق صيحته الحمراء فى وسط الالوان الهادئة ، ثم استعاض عنها بغابة التكوين ، أما الشاعرية فنجدها عند تحية حليم وجاذبية سرى . ولكن ما أوسع المسافة بين شاعريتى اللون ، فتحية حليم شاعرة رومانتيكية ، تمثل الكآبة موضوعها الأول ، ونماذجها دائما وحيدة ، وألوانها هادئة متحفظة ، وتكويناتها تقليدية ولكن الجديد فيها هو شحنة الاحساس التى تتفجر عنها ·

أما جاذبية سرى فشاعرة متقلبة المزاج ، وأن غلب عليها طابع المرح ، كثيرة الانتقال بين الأساليب دون أن تستنفد أحداً منها ، تنتقل من التكعيبية الى الواقعية الزخرفية الى لون من الأحلام يجعل رسومها شبيهة برسوم مارك شاجال دون أن تستغل امكانيات أى من هذه الاتجاهات ، ولكن الذى يجمع بين أساليبها المختلفة هو ألوانها الحارة النابضة بالحياة ، واحساسها الدافق ومقدرتها على تجسيم الحركة ٠

ويطالعنا عبد الوهاب مرسى فى هذا المعرض مطوراً أسلوبه فى استيحاء البيئة المصـــرية والفن المصرى القديم الى محاولات جادة لتجاوز ذاته ، وبخاصة فى لوحاته الصغيرة اذ يحاول أن يتجاوز التكوينات المألوفة الى تكوينات جديدة ٠ وربما كان هذا الفنان هو أقدر فنانينا الشبان على استيحاء البيئة دون الوقوع فى هوة التقليد أو النزعة السياحية والتجارية ٠

أما راتب صديق فهو مشغول بأن يقص قصة من خلال اللوحة بأسلوب مزيج من الكلاسيكية والرومانتيكية ، وفى اعتقادى أن راتب صديق ينبغى أن يعهد اليه بابداع رسوم حائطية كبيرة بدلا من حصر موهبته فى اللوحات بحيث يستطيع باستغلال قدرته فى تجســـم الموضوع أن يضيف جمالا الى كثير من مبانينا العامة ٠٠

وبعد ، فهذه سياحة عين أدبية ، ورأس يفكر بالألفاظ ، فى مواجهة الالوان والظلال ، لا تملك هذه العين الا أن تترجم من لغة الى لغة ، وكل ترجمة اعتداء على الأصل ، ولكن شفيعى أنى أريد لك أن ترى هذا المعرض ٠٠ وغيره من المعارض ٠

المصـــور ١٩٦٨/٤/٤

قصــة غــلاف ..

لاشك أن كثيرين قد أعجبوا بغلاف مجلة « الكاتب » الأخير كما أعجبت به ..

ولهذا الغلاف قصة ..

فقد كنا نتوقع أن يكون الغلاف لوحة للفنان الكبير « سيف وانلى » ، تكون تقديما طيبا لأحد موضوعات المجلة ، وهو « حوار باللون مع سيف وانلى » .

ولكن الصديق عبد العزيز صادق مدير تحرير المجلة أنبانى أن الشرائح اللونية التى استحضرها الكاتب الذى أجرى الحوار مع سيف وانلى لا تصلح لأســباب طباعية لكى تكون احداها غلافا للمجلة .

وكانت أزمة .. وخطر ببالى أن نستعرض معا بعض اللوحات التى تضمنها كتاب « القاهرة فى ألف عام » الذى أخرجته وزارة الثقافة فى احتفالات الفية القاهرة متضمنا معالم مصورة من حضارة عاصمتنا التليدة خلالَ ألف عام من عمرها الذى نرجو أن يمتد الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ..

وكان بين هذه المعــــالم هذه اللوحة التى اخــــترنا أن نبرز مستخرجا منها على غلاف مجلة الكاتب ، وهى لوحة رائعة حقا للفنان سعد كامل الذى خط طريقه الفنى المتميز فى حياة الفن المصرى مستوحيا عناصر التراث المختلفة في أسلوب زخرفى رائع ..

ولعلك أدركت ان جزءا هاما من جمال اللوحة يرجع الى حسن استخدام الخط العربى كقيمة تشكيلية ، بحيث يقترب من أبداع التجريد المعاصر ، أو بالأحرى يقترب منه هذا الابداع ٠

ولعلنا نعلم أن الخط العربى كان لونا من ألوان التفنن التشكيلى فى الحضارة العربية ، وبخاصة وقد مال الوجدان العربى الى تحريم التصوير أو كراهيته ، فاتجه الفنان عندئذ الى التجريد ، وكان الخط أحد ملامح هذا التجريد ٠

وقد رأى المتذوق والناقد العربيين فى الخط أسلوبا من أساليب التعبير الفنى ، وسنوا له قواعد النقد والتقييم ، وكان حديثهم عنه وعن جمالياته مثل حديثنا عن تذوق الفنون التشكيلية المعاصرة ٠

ولقد كانت حاجتنا ماسة فى مرحلة تقييم حضارتنا المعاصرة الى بعث هذه القيم الفنية وجلائها للمتذوق الحديث ، وكفتنا وزارة الاعلام العراقية هذا الواجب حين أصـــدرت كتابا جميلا بعنوان « بدائع الخط العربى » للأســـتاذ ناجى زين الدين ، يعرض فيه بالصـــورة والتقديم والتعليق تطور الخط العربى وألوان ابداعه ومدارسه الفنية والجمالية ٠

ومن باقة هذا الكتاب نقدم بعض هذه الزهرات الخالدات ٠٠

الكـاتب ١٩٧٥/٥

فن ســيد درويش يعود الى مسقط رأسه

لا أقصد بمسقط رأس فن سيد درويش مدينة الاسكندرية ولكنى أقصد مقاهى أبناء الحظ ٠

فقد ولد فن سيد درويش فى مقاهى الاســكندرية ، وعاش فى حلوق روادها المنداة بالخمر الرخيصة قبل أن يعتلى به خشــبة المسرح ويفرغه على الاسطوانات ٠

ان فن سيد درويش فن جماعى ، لا يعيش حياته كاملة الا بين الجماعات ، ينطلق به صــوت يجب أن يكون رجوليا دافقا بالقوة وشجاعة القلب ، فاذا بالمستمعين يرددون اللحن معه ووراءه ٠

ولكن هذا الفن يذبل ويذوى ، وقد يموت فى الصمت لو ردده صــوت متخلع ، يريد أن يناجى به نفسه وأذنه وحده ٠٠ انه فى الساحات الواسعة والأنفاس المحتشــدة ، لا فى الحمامات المغلقة والمضاجع المسدلة الأستار ٠

وفى أحد مقاهى أو ملاهى شارع الهرم وجدت ألحان سيد درويش تعود للحياة مرة ثانية ، وتعود للحياة دافقة بالحركة نابضة بالحيوية ٠ ٠حين يطلقها صوت المطرب الممثل محمد نوح ، فترددها وراءه أصوات المستمعين ٠

ان تجربة محمد نوح تجربة فريدة ، ولست أريد هنا أن أردد ماقيل من أن المفاجأة هى أن الألحان الوطنية تروج فى الملاهى الليلية،

فان رواد الملاهى الليلية ليسوا صنفا فريدا من الناس ، ولكنهم ـ أو معظمهم ـ مصريون مثلنا لهم أحاسيسنا ومحبتنا لوطننا ، ولكن امكانياتهم للهو أوسع من امكانياتنا ٠٠ فحسب !

ولعلى أريد أن أقف وقفة عند أداء محمد نوح ٠٠

انه الأداء الحى المتحرك الذى يتوافق مع روح العصر وايقاعه ٠٠ ولعل هذا الأداء يكون درسا للملحنين العرب ، فيخرجون بعده عن ألحانهم المتواترة البطيئة الايقاع ٠٠

الكاتب ٨/ ١٩٧٥

لقــاء النجمــين

أية متعة فى أن يتاح لك أن تتسلل الى العالم الحميم الخاص لانسانين ذكيين ؟ وأى عالم هو أكثر خصوصية وجاذبية من عالم العشق ؟ وأى احساس يكون أصدق وأدل مما يتبادله هذان الذكيان العاشقان فى رسائلهما ٠٠ ؟

هذه مجموعة من الرسائل المتبادلة بين فنانين لامعين من فنانى أوائل هذا القرن ٠٠ أما الرجل العاشق والمعشوق معا فهو مخرج المسرح جوردون كريج ، وهو ليس مخرجا فحسب ، ولكنه أحد أقطاب الحرفة المسرحية ، يذكر اسمه الى جانب ستانسلافسكى وميرهولد وغيرهما ٠٠

وأما المرأة ، فهى الراقصة المشهورة ايزادورا دنكان ٠٠ الفتاة الأمريكية التى لم تتلق تعليما منظما فى فن الباليه ، ولكنها أحست بالنار والايقاع فى جسدها ، فانطلقت ترقص وترتجل ، وتعبر بتفاعيل الجسد عن شعر الحياة ٠٠

تكتب ايزادورا الى كريج فى احدى رسائلها :

« لقد ولدنا فى نفس البرج ، وانطلقنا من نفس النجم شعاعا صوب الأرض ٠ وللحظة كنت فى قلبك ، ثم تبددت زمنا ، وهأنذا أعود الى قلب شعاعك ، وهذا هو تاريخنا الذى لن يستطيع أن يفهمه غيرنا ٠٠

ولكن هل يتاح للعاشقين الفنانين أن يحطا الرحال ، كل منهما في ظل الآخر ؟ ذلك ما تكشف عنه هذه الرسائل التى جمعها أحد مؤرخى الرقص ، ورتبها وعلق عليها ، فى كتاب جديد طريف اسمه « ايزادورا ٠٠ تك » أو ايزادورا التى تخصك Your Isadora

لمؤرخ الرقص « ستيسجمولر » ٠

ولا نريد هنا أن نتحدث عن مكانة جوردون كريج الفنية ، وقد ترجم كتابه عن الاخراج المسرحى الى العربية منذسنوات ، ولكننا نريد أن نقول انه كان ثمرة غرام بين الممثلة الانجليزية « الين تيرى » والمصمم المعمارى « ادمارد جودوين » ، وأنه عاش حياته الأولى فى كنف أمه نجمة المسرح الأولى فى زمانها وفى كنف أبيه بالتبنى، الممثل المشهور هنرى أرفنج ٠ وأنفق صباه وشبابه الأول فتى مدللا مستغنيا بنفوذ أمه ، ونقودها عن العمل ، وان كان جميع من يعرفه يجمع على ذكائه النافذ وبصـــيرته الفنية المتوقدة ، فهو يضـــع التصميمات أو الاسكتشات المبدئية لاخراج مسرحى لاحدى الروائع، ومايكاد يراه أحد المهتمين بالمسرح أو يناقشه فيه حتى يكتشف مافيه من تألق وطرافة ، ولكن الفنان الشاب لا يمضى فى أحد الأمور قط الى غايته ، ولا يتم ما بدأه من عمل ٠

قال عنه برنارد شو فى ذلك الوقت ــ وكان صديقا حميما لأمه ــ «لقد جعل جوردون كريج من نفسه أشهر مخرج فى أوروبا بكونه لم يخرج شيئا على الاطلاق ٠٠ ورغم سخرية شو ، فذلك قول صحيح ، فقد كان فى شخصية كريج سمتان رئيسيتان : أولاهما طلبه المفرط للكمال ، وثانيتهما هى ما عبر عنه فى احدى رسائله لايزادورا حين قال « ليس لدى أى طموح أبدا، وان افتقـــادى لهذه الخطيئـــة السوقية هو مايجعلنى لا أفعل شيئا » ٠

ولقد عاش جوردون كريج وأبواب المسارح مفتوحة أمامه لكى يخرج لها ٠ ولكن مؤرخى المسرح يعرفون أنه لم يتم فى سنى حياته الاثنين والستين الا بضعة عروض لاتتجاوز أصابع اليد الواحدة . وأن شهرته الفنية تعتمد على عرضين منها : هما اخراجه لمسرحية

ابسن « روزمر شولم » الذى عرض فى فلورنسا لليلة واحدة فى عام ١٩٠٦ ، واخراجه لهاملت فى مسرح الفن بموسكو عام ١٩١٢ .

كان جوردون كريج اذن نموذجا للطفل المدلل الكسول الذى يأتيه المال والشهرة والمكانة الاجتماعية دون عناء ... ويأتيه معها جميعا الحب .

هذا هو الطرف الأول فى قصة العشق الذى ألقاه شعاع احدى النجمات فوق لندن . أما الطرف الثانى الذى ألقاه شعاع نفس النجمة فوق احدى مدن ولاية كاليفورنيا على شاطىء المحيط الهادى ، فقد كان فتاة فقيرة نحيلة الجسد ، هى نقيض أمريكى لذلك الفتى اللندنى الذى يكبرها بست سنوات .

عرفت ايزادورا دنكان طريقها الى مسارح الرقص ، وهى فى بداية الصبا ، ومالبثت أن بهرت الأنظار بأدائها المدهش ، وقالوا ان فيها شيئا اغريقيا يتحدث بالرقص عن بهجة الحياة وحكمتها .. كان معلموها الأول القلائل نصف مغمورين ، ولكنها تجاوزت ماعلموها من حركات بارتجالها المثير ، حتى قيل ان راقصة جديدة كانت تولد كل ليلة على خشبة المسرح باسم ايزادورا دنكان .

وشاعت شهرة ايزادورا وسبقتها الى أوروبا ، وفى ديسمبر عام ١٩٠٤ التقى جوردون كريج وايزادورا دنكان فى برلين فى ضيافة الكونت هنرى كسلر أحد محبى الفنون اللامعين فى زمانه .. وكانت ايزدورا فى السادسة والعشرين ، وكان كريج فى الثانية والثلاثين . ودعى كريج لمشاهدة ايزدورا وهى ترقص ،وذهب ، وهو يعد نفسه لسهرة مملة مضجرة . ولكنه ماكاد يراها حتى ظل فى مقعده ساكتا معقود اللسان ، وبعد أيام احتفلا بزواجهما بطريقتهما الحرة على أرض غرفة عمله العارية .

وخلال زواجهما القصير أعطى كل منهما للآخر ماعنده . أعطاها كريج ثمرة موهبته الرائعة فى تنظيم الحركة ، ووضع بعضا

من النظام فى حيويتها الفائرة ، ودفعته هى الى أن يزداد ارتباطا بالعمل والطموح ، وهو هذه الخطيئة السوقية الشائعة ـ فانجز عندئذ اخـــراج أحد العملين اللذين يخلدان ذكره بين المخرجين · ولكن حياتهما لم تكن سعادة كلها ، فقد حملت منه وهجرها وهى حامل ، وعلمت هى أن له ثمانية أطفال غير شرعيين من ثلاث نساء أخريات ·· وبعد بضع سنوات كان كريج قد اتخذ له فى فلورنسا اتيليه للاخراج ، وأنشأ بها دارا للنشر ، وكانت ايزادورا تطوف العالم ، وانفصمت الرابطة أو كادت حين ماتت طفلتهما فى عام ١٩١٣ ·· ولكننا نفاجأ بخطابين يكتبهما كريج اليها بعد هذه الحادثة يقول لها فى أحدهما :

« هل تستطيعين أن تغفرى لى كل سوء فعلته ، هل تغفرين لى محاولتى أن أعيش بدونك ·· أنت ترين أننى لا أســـتطيع ، فهل تستطيعين أنت ؟ »

وأغلب الظن أن ايزادورا لم تغفر له ، لأنها بعد ذلك انطلقت فى حياتها تحب وتلد وتتزوج كما حدثتنا فى كتابها « حياتى » الذى كان يوما ما من أشهر الكتب المقروءة فى العالم ·

طويت هذا الكتاب الممتع الضخم ، وأخذت أسأل نفسى :

هل كان ما بينهما رغم هذه الحرارة المتأججة حبا ؟ أم كان لقاء بين نجمين تماسا واشتعلا ، ثم سرعان ما انطفأ مابينهما ؟

لقد كانا مختلفين ،ولم يكونا كما قالت ايزادورا فى احدى رسائلها وهى تقتبس أفلاطون ·· ان كلا منا نصف يبحث عن الآخر ·· نصف روح تظل هائمة حتى تجد النصف الذى خلقت له ، فاذا وجدت ذلك النصف الشارد اندمجت فيه ·

لم يكن أحد منهما نصفا ·· كان كل منهما كلا ، يريد أن يستوعب الآخر ، وكان كريج أكثر ذكاء ومعرفة بالانسان حين عرف أن ايزادورا كيان مستقل ، وأنها تستطيع أن تمضى فى حياتها ، بل من الخير لها أن تمضى فى حياتها مستقلة عنه ·

الكـاتب ١٩٧٥/١٠

السد العالى .. امتحان للفن !

السد العالى امتحان لأغانينا ورواياتنا وموسيقانا .. امتحان لقدرة هذه الوسائل الفنية فى التعبير عن هذا الحدث الكبير . وكل هذه الوسائل الفنية تسقط فى الامتحان بجدارة اذا لم تدرك كيف يستطيع الفن أن يعبر عن الأحداث دون أن يفقد انسانيته وفنيته .

كانت الثمرة الأولى لاختبار السد العالى ، هى الأغنية الركيكة التى غنتها أم كلثوم .. أغنية لا يمكن أن تطيقها الجماهير أو ترددها ، أو يعمل العمال على نغمات ألفاظها المجلوبة من المتحف ، ونغمها الفاتر الرتيب ، مطلعها استعراض للعضلات اللغوية .. « كان حلما وخاطرا واحتمالا ثم أضحى حقيقة لا خيالا » وأحد أبياتها لغز مثل ألغاز رمضان .. حين تقول « يفتح الرزق وهو سد » (ياسلام) .. الى غير ذلك من الكلام البعيد عن القلب .. القريب من القاموس .

الأغنية التى نريدها عن السد العالى يجب أن تكون شعبية ، لأن هذا السد هو جهد شعب يمارس لأول مرة كل امكاناته فى البناء والتعمير وهو فى حاجة الى النغم الذى يعمل على وقع رنينه .. وهو النغم الذى ينبع من نفس الحناجر التى رددت فيما مضى .. هيلا هوب هيلا ..

والأغنية التى نريدها عن السد العالى . يجب الا تكون نشيدا مليئا بحماسة « عنتر بن شداد » ومبالغاته ، بل كلاما هادئا رقيقا يعبر عن الجهد الممزوج بالحب ، والعرق فى سبيل الرزق الحلال والأمل فى الفجر الجديد .

ومسرحنا ورواياتنا يجب أن تعيش فى عصر السد ·· عصر الصناعة الذى تتغير فيه القيم وتتبدل المفاهيم · إن الفن الجامد لا يستطيع أن يعيش فى عصر التطور · والايقاع البطىء لأفلامنا واعتماد مسرحنا على « الميلودراما » الفاقعة ، أو كوميديات سوء التفاهم والمواقف المفتعلة ، سيصبح فى العصر الصناعى أسلوبا لا ينسجم مع طابع العصر ··

وقد يكون أثر المجتمع الصناعى على أفلامنا ومسرحنا لم يتضح حتى الآن ، ولكنه تطور سوف يواجهه المؤلفون والسينمائيون، حين يفاجأوا بجماهير جديدة خلقتها الصناعة · ذات أفق جديد فى الفهم والتفكير ، ولها مشاكل جديدة فى الحياة ، وأسلوب جديد فى تناولها ، وحين تفتش هذه الجماهير عن صورة حياتها ومشاكلها فى مسرحنا وأفلامنا فلا تجد شيئاً ·

وعلى مؤلفينا ورجال السينما عندنا أن يفكروا ·· ويعيشوا فى عصر السد العالى ··

بين الشجاعى وخصومة !

فى آخر هذا الشهر تنتهى مدة انتداب الشجاعى كمستشار للموسيقى والغناء بالاذاعة ..

وقد كان الشجاعى هدفا لهجوم واضح من كثير من الموسيقيين . ويتركز هذا الهجوم فى هذه الأيام .. وكثير من الموسيقيين يرون فى الشجاعى مجرد عازف قديم فى الأسواق الأهلية مسه الحظ بعصاه فأصبح مستشارا للموسيقى ..

والملاحظ أن الذين يهاجمون الشجاعى يختلفون فى فهمهم للموسيقى اختلافا كبيرا ، فبعضهم من أنصار الموسيقى الكلاسيكية الذين يزعمون أن الشجاعى قد أغلق الباب فى وجه التطور الموسيقى ..

وبعضهم على النقيض يدعون أن الشجاعى قد مال الى جانب الغناء القديم وطرد عن الاذاعة أصحاب المواهب الجديدة فى تلحين الأغنية الخفيفة والألحان الراقصة ..

أما حقيقة المشكلة فهى أن الموسيقى فى مصر لا صاحب لها ، فان دور الاذاعة فى نظرى يبتدىء حين ينتهى دور لجان التخطيط والمجالس العليا التى عليها أن تعيد طرح هذه الأسئلة .. وماذا تريد بالموسيقى وماهو مستقبل موسيقانا ؟ وكيف نضع تخطيطا للفن

الموسيقى فى السنوات القادمة وغير ذلك من الأسئلة التى تحتاج فى الاجابة عليها الى دراسات تاريخية وثقافية وفنية واسعة ٠

وعن طريق الاجابة على هذه الأسئلة نستطيع أن نعرف هل تتطور موسيقانا الى أن تصبح موسيقى مركبة ، وهل يتطور ذوقنا الموسيقى لكى يصبح عالميا ، أم اننا طابعنا الموسيقى الخاص ٠٠ هل من واجب الاذاعة أن تعنى بالألحان الصامتة على حساب الأغنية؟ كيف يجب أن تكون نسبة الغناء الى الألحان الخفيفة الى السيمفونيات والكونشرتات ؟

ونتائج لجان التخطيط والمجالس العليا هى التى يمكن أن تلتزم بها لجنة الموسيقى فى الاذاعة ، فتكون الاذاعة مجرد أداة تنفيذية لأفكار رسمها رجال مسئولون مثقفون ٠ وينزاح العبء عن كاهل الشجاعى ولجنته المكونة من محمود شعبان وسعيد أبو السعد ، والتى نطالبها عبثا أن تضع تخطيطا للموسيقى ، دون فائدة ٠٠

التحقيق مع مخرجي الاذاعة

لم تنته بعد مشكلة علاقة مخرجي الاذاعة بالممثلين ، فقد تدين النيابة الادارية بعض المخرجين ، وقد يبعد بعضـــهم عن البرامج الاذاعية الى أعمال أخرى لا تتصل بالميكروفون ٠٠ أو ينتهى التحقيق فى نهاية الأمر الى ٠٠ لا شىء ، ولكن هذا كله لن يكون هو الحل النهائى ٠٠

ان المشكلة الحقيقية هى تخبطنا الدائم فى كل ما يمس المال من مرافق الحكومة لابد أن نسمع فى كل أداة حكومية الاشاعات التى تمس السمعة والأخبار التى تتصل باستغلال النفوذ لتحقيق الكسب المادى ٠٠ حتى فى الجهات الفنية التى يجب أن تحظى بالاحترام ، والتى يجب أن يطمئن جمهورها الى أن المشرفين عليها لا يقدمون له الا الفن السليم دون أى اعتبار آخر ٠٠

ولذلك ، فمنذ سنين ، ونحن نسمع دائما عن علاقات مريبة بين ممثلين ومخرجين ، أو بين مؤلفين وموظفين فى الاذاعة ، هذه الاشاعات كانت تشمل البرىء مع المذنب ، ان كان هناك مذنب وتلوث سمعة المرفق الحكومى كله ٠٠

واقترح من ناحية الممثلين أن تكون فرقة لممثلى الاذاعة تضم اليها العناصر الصالحة للميكروفون ٠ ويحصر العمل فى البرامج فى هذه الفرقة ، ولا خوف حينئذ من تكاسل الممثلين أو اهمالهم ، لأن الفنان الحقيقى يهتم بالاجادة حتى ولو كان موظفا رسميا ٠٠

أما المؤلفون فمن المستحسن اختيار بعض المؤلفين ، وقصر العمل الاذاعى عليهم ، مع ترك الباب مفتوحا لكل وافد جديد لكى تختبر امكانياته فى الكتابة للراديو ، ويوزع العمل بعدئذ على هؤلاء المؤلفين ··

والاذاعة نفسها بعد ذلك يجب أن لا تترك الاخراج الاذاعى نهبا لانسان خرب الذمة أو تسلية عاجزة لمذيع فاشل ··

صباح الخير

الفهرس

رقم الايداع ١٩٩١/٢٥٨٢

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 2710 — 8

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

يتضمن الجزء السابع من الأعمال الكاملة لشاعر العربية الخالد الأستاذ صلاح عبد الصبور المقالات والدراسات التى أصدرها على مدار أكثر من ثلاثة عقود زمنية حول ثلاثة موضوعات ارتبطت ارتباطا وثيقا بابداعه الشعرى ، الا وهى الحب والحياة والفن ، فهو يرى أن الإنسان انسان لأنه يحب ويمارس بالحب الذى بدونه يضحى آلة كبيرة ، وآية الحياة هى النشاط الإبداعى او الفن .

٥٥٠ قرشـــا